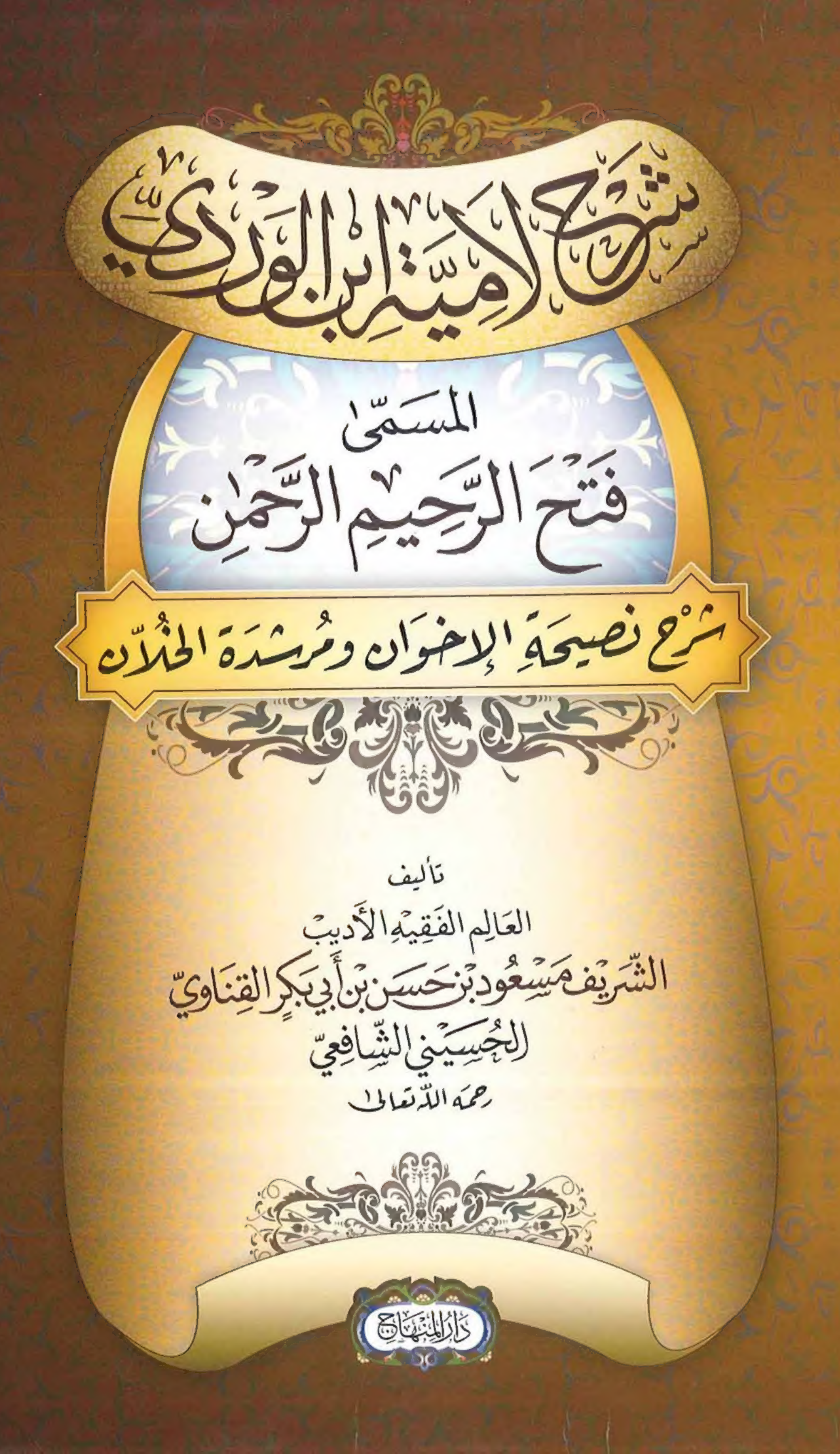
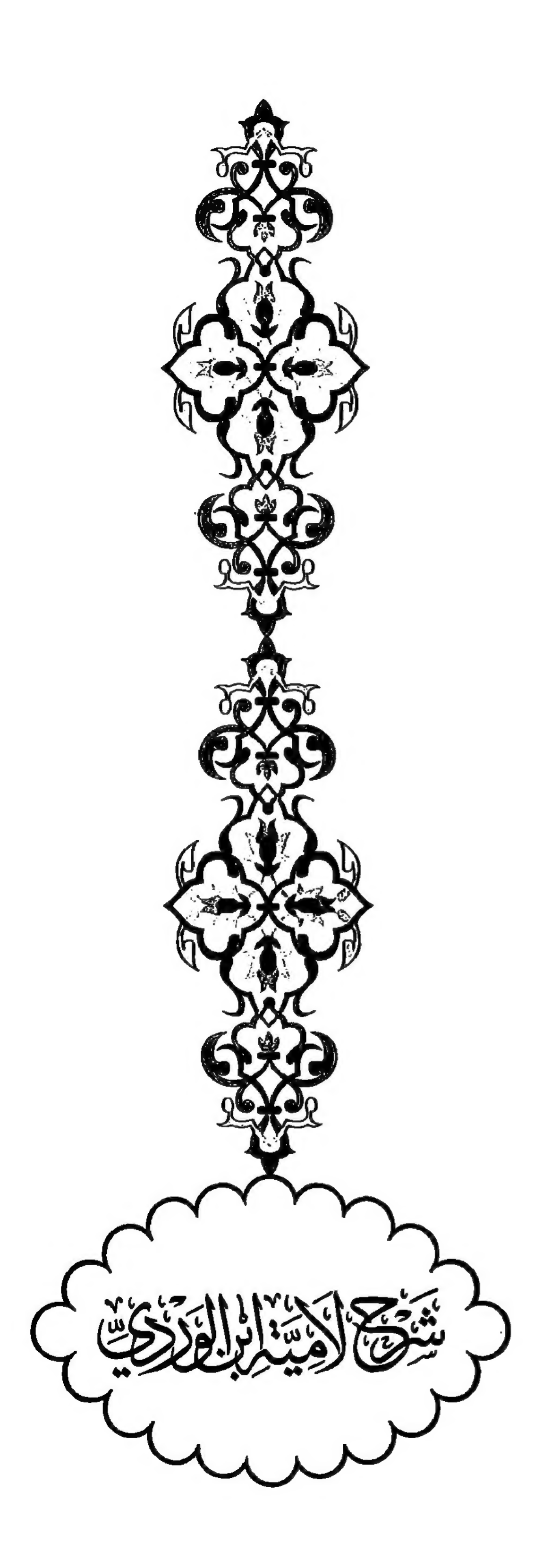
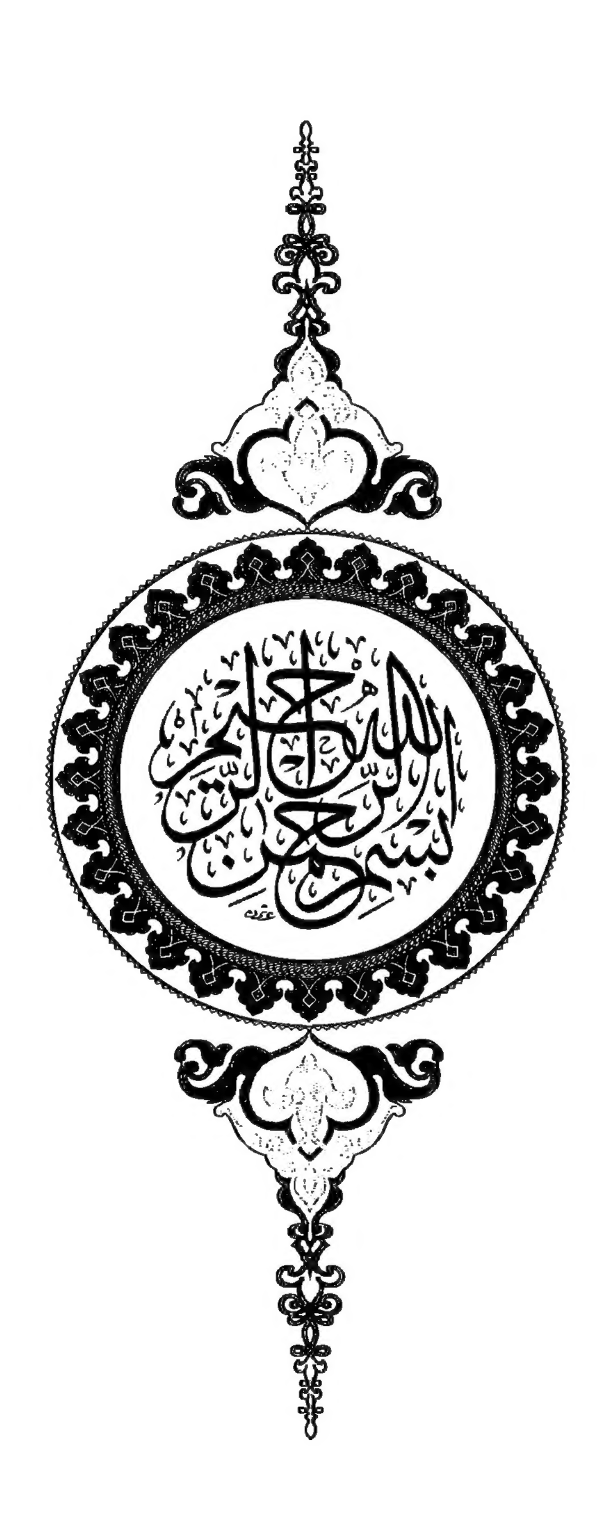

شرح لامية ابن الوردي
المسمى
فتح الرحيم الرحمن
شرح نصيحة الإخوان ومرشدة الخلان
تأليف
العالم الفقيه الأديب
الشريف مسعود بن حسن بن أبي بكر القناوي
الحسيني الشافعي
رحمه الله تعالى
دار المنهاج


شرح لامية ابن الوردي


بسم الله الرحمن الرحيم

شرح لامية ابن الوردي

المسمّى

فتح الرحيم الرحمن

شرح نصيحة الإخوان ومرشدة الخلّان

تأليف

العالم الفقيه الأديب

الشريف مسعود بن حسن بن أبي بكر القناوي

الحسيني الشافعي

رحمه الله تعالى

(المتوفى سنة ١٢٠٥هـ)

عُني به

بوجمعة عبد القادر مكري



بين يدي الكتاب

ابن الوردي البكري الصديقيّ الشافعي ، إمام في الفقه ، مبرز في الأدب ، متوشح بالزهد والورع ، ولو لم يكن له إلا « بهجة الحاوي ».. لكفته فخراً ، ورفعته ذِكراً . ومن غريب الاتفاق أن منظومة ابن رسلان « صفوة الزبد » تتساوق في بعض الأبيات مع « البهجة » والناظمان متعاصران .

وهـٰذه « اللامية » الحكمية تنفث بالسحر الحلال ، وتتجلَّىٰ فيها براعة هـٰذا الإمام ، فكان لها حلاوة متميزة ، وبهاء أخّاذ ، وحسن سبك ، فالتقىٰ سموّ الأسلوب وعلوّ المضمون ، فذاعت وذاعت ، وشرقت وغربت ؛ لقوة وقعها في القلوب ، وما دام الحال كما يقول أمير الشعراء :

وَصَادِقُ ٱلْحُبِّ يُمْلِي صَادِقَ ٱلْكَلِمِ

فإن الإمام ابن الوردي رحمه الله كان علىٰ درجة كبيرة من الزهد والورع والمراقبة ، فأملىٰ صادق الكلم ، وأتىٰ بجوامع الحكم ، ووعظ فيها وذكَّر ، ورغَّب في معالي الأمور ومن سفاسفها حذَّر ، فكانت هـٰذه المنظومة تحفة سنيَّة ، وجوهرة يتيمة ؛ فلهـٰذا أُلبست من محاسن الأدب حُللاً ، ومن تيجان الفضائل محاسناً ، وهي من أجمل ما أنتجه فكر هـٰذا العبقري المحنَّك ، الألمعي البازل ، البكري الصديقي .

وكان ممن اعتنىٰ بهـٰذه « اللامية » الفريدة الشيخ المتبحر الأثري مسعود القناوي الشافعي ، فسبح في يمِّها ، واستخرج جوهرها ، واستخلص يتيمها ، وأظهر خفاياها ، وأبان كنوزها ، ووشاها بكل معنىً لطيف ، ووشَّحها بكلِّ أثرٍ شريف ، وأتىٰ لمعانيها بالأشباه والنظائر ، وحلاها بالعقيان والجواهر ، وأكثر من العظات والتذكير ، وأردفها بأحاديث البشير النذير صلى الله عليه وسلم .

وفي أثناء ذلك بحوث فقهية ، ونقول عن أئمة المذاهب ، فهو يتنقَّل بك من حسنٍ إلىٰ

أحسن ، ومن مهمٍّ إلىٰ أهم ، غُرَرُ الفوائد في هـٰذا الشرح ظاهرة ، وعزيز الفوائد فيه دائرة ، ونفسُ الشيخ نفَسُ صوفيٍّ محبٍّ ، فهو يأتي بأخبار هـٰؤلاء العظماء ، ويقتطف من آثارهم ما كان سيَّاراً في فلك السماء ، ومن تحلَّىٰ بشيء . . أكثر من ذِكْره ، ومال إليه كلما وجد إلىٰ ذلك سبيلاً ، ولا غرابة في ذلك ؛ فهنالك ارتباط بين مضمون القصيدة وسمات أهل الوجد .

والخلاصة : أن هـٰذا الشرح اسم طابق المسمىٰ ، وسِفرٌ فاخر السُّها ، فهو بحق « فتح الرحيم الرحمـٰن » ، وأضواء من البيان ، وفتوحات أفاض بها الملك الديان على الماتن والشارح معاً .

وقد كان للرجال الأقدمين الاهتمام الشديد بحفظ الأشعار التي ترشد إلىٰ مكارم الأخلاق ، والولع المتزايد بكل شعر سامٍ في موضوعه ، شريف في مضمونه ، حتىٰ إن الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يحث علىٰ حفظ قصيدة الشنفرىٰ ، وهي لامية جاهلية مطلعها :

أَقِيمُوا بَنِي أُمِّي صُدُورَ مَطِيِّكُمْ ... فَإِنِّي إِلَىٰ قَوْمٍ سِوَاكُمْ لأَمْيَلُ

وما ذاك إلا لأن فيها التفاخر بإباء الضَّيم ، والصبر على الشدائد ومقارعة الأهوال ، والتمدح بأخلاق الكرام ، ثم صارت القصائد الروائع التي سجلها التاريخ لأعلام عظام في مختلف الأزمان محلَّ اهتمام القوم ؛ كـ« مقصورة ابن دريد » و « لامية العجم » ، وأضرابهما من القصائد المتميزة بالجودة العالية والأسلوب الأدبي الراقي .

وما دام أن الشيء بالشيء يذكر ؛ فإن دار المنهاج أتحفت قراء العربية ، بل أهدت إلى المراكز الأدبية شرحاً عزيزاً نفيساً لـ« لامية العجم » رزح قروناً في ظلمات الإهمال حتى انتشلته اليد الجخيفية ، وحققته اللجنة الشامية ، إنه « شرح الإمام الدميري » لهـٰذه « اللامية » ، وهو يتهادى اليوم في حلل سندسية ، بطباعة فنية وتحقيق واف .

وحين جاء دورُ المناظيم الرجزية المؤلفة في كل فن ، والقصائد الحكمية . . هرعت نحو هـٰذين النوعين طلبة العلم ، وعكفوا عليهما حفظاً ودراسة ، وأسرعت أقلام أهل المعرفة إلىٰ وضع الشروح والحواشي عليها ، حتىٰ إنه من أيام فقط أخرجت لنا دار المنهاج حاشية نفيسة علىٰ « متن صفوة الزبد » للسيد العلامة سيوطي عصره محمد بن أحمد عبد الباري الأهدل

الموسومة بـ« إفادة السادة العمد » ، وهـٰذا منضم إلىٰ حسنات هـٰذه الدار النَّشِطة بقيادة راعيها الشيخ عمر بن سالم باجخيف أعلى الله تعالىٰ مقامه .

وللمناظيم الرجزية أثرها النافع ، وفوائدها الظاهرة ، وقديماً تناقل أهل العلم هـٰذه الجملة الرصينة : (من حفظ المتون . . حاز الفنون) .

والمرء لا يستحضر في كل وقت صور المسائل ولا سيما الفقهية منها ؛ لوفرتها وتشعبها ، وقد تخونه الذاكرة ، ولَمَّا كان حفظ النظم أسهل . . صار مُعيناً على الاستذكار ، منبِّهاً صاحبه إذا وقع في وهدة العثار ، أو عصفت به ريح النسيان .

وقبل يومين فقط من كتابة هـٰذه الكلمة حَدَثَ أن شيخنا وأستاذنا الدكتور محمد عبد الرحمـٰن الأهدل والشيخ عمر باجخيف صليا خلف إمام صلاة الظهر ، فقام إلى الثالثة ونسي التشهد الأول وانتصب ، فسبح له مَنْ خلفه وقد تلبس بالقيام ، فرجع وتشهد ، وحصل بعد الصلاة المذاكرة في المسألة ، وهل العود مطلوب أو منهي عنه ، فأنشد الدكتور الأهدل من حفظه من « زبد ابن رسلان » هـٰذين البيتين :

وَمَـنْ نَسِـي ٱلتَّشَهُّـدَ ٱلْمُقَـدَّمَـا ... وَعَـادَ بَعْـدَ ٱلِانْتِصَـابِ حَـرُمَـا

وَجَـاهِـلُ ٱلتَّحْـرِيـمِ أَوْ نَـاسٍ فَـلاَ ... يُبْطِـلُ عَـوْدُهُ وَإِلاَّ أَبْطَـلاَ

فقطعت جهيزة قول كل خطيب .

ونحن وإلىٰ وقت قريب أدركنا المشايخ المتمكنين وهم يحثون الطلبة علىٰ حفظ المناظيم ، ويرغبونهم في ذلك ترغيباً أكيداً ، ولا زالت بعض المعاهد العلمية حتى الآن تجعل من ضمن منهجها الحفظ الإلزامي لبعض الأراجيز الفقهية وغيرها ، لوفرة الدواعي إلىٰ ذلك ، ولا أدل على اعتناء العلماء بهـٰذه المناظيم من استشهادهم بأبياتها في شروحهم وحواشيهم ، فإذا كان المبحث نحوياً . . برزت أبيات من « ألفية ابن مالك » ، وإذا كان الموضوع ميراثاً . . ترددت على الألسن أبياتٌ من « الرحبية » ، وإذا كان الموضوع متعلقاً بأصول الحديث . . استشهَدَ بأبيات من « ألفية الحديث للعراقي » ، وهلم جراً .

وكم موطن كانت المذاكرة فيه شائكة ، والمسألة مستعصية على الأفهام ، وإذا بأحدهم يتذكر أبياتاً من محفوظه في المسألة ، فتنقشع سحابة التحير ، وتحصل الإفادة .

وإنما أطلنا في هٰذه النقطة ؛ لتحفيز الهمم التي عزفت في عصرنا الحاضر عن الحفظ الذي كان شعار طلبة الأربطة والمساجد ، وديدن المنخرطين في تلك المعاهد .

أَمَّـا ٱلْخِيَـامُ فَـإِنَّهَـا كَخِيَـامِهِـمْ ... وَأَرَىٰ رِجَـالَ ٱلْحَـيِّ غَيْـرَ رِجَـالِهَـا

* * *

وقد طبع الكتاب قديماً طبعة عريَّة عن التحقيق ، خالية من التوثيق ، لم يبرأ من التصحيف ، ولم يخلص من معرة التحريف ، إلا أنه لقي قَبولاً واسعاً ، وانتشر انتشاراً ملحوظاً حتى انقطع خبره ، واختفىٰ مظهرُه ، فقيَّض الله تعالىٰ له أبا المكارم ، الشيخ الموفق عمر بن سالم باجُخيف الذي تطلعت همته القَعْسَاء إلىٰ إعادة طبعه محققاً ، ونشره موثقاً ، بعد استجلاب أصوله ، وتحديد مصادره وموارده ، ووكل ذلك إلىٰ لجنته العلمية المتخصصة ، فأعطى القوس باريها ، فاستقرأتْ أحاديث الشرح وخرجتها ، وتتبعت الآثار وعزتها لمصادرها ، ووثقت النصوص وقومت ما أفسدته يد النساخ ، وعدّلت ما اقتضى التعديل ، وأبحرت في قوافيه ، وميزت بين قوادمه وخوافيه ، فأتت بالعجب العجاب ، وأضافت استكمالاً للفائدة مهمات ذات بال ؛ فإذا بالكتاب يميس في جديد الحلل ، ويزهو زهو من شرب نهلاً بعد عَلَل ، ولسان حاله يقول :

هَـٰذِي ٱلْمَكَـارِمُ لاَ قَعْبَـانِ مِـنْ لَبَـنٍ ... شِيبَـا بِمَـاءٍ فَعَـادَا بَعْـدُ أَبْـوَالاَ

ٱلْمُشْرِفُ عَلَىٰ أَعْمَالِ ٱلْبُحُوثِ وَٱلنَّشْرِ
بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي

عناية العلماء بـ« لامية ابن الوردي »
المسماة : « نصيحة الإخوان ومرشدة الخلان »

تُعدُّ « لامية ابن الوردي » من أجلِّ وأعظم ما أبدعته قريحة مَن نَظَم في ميدان النصيحة الإسلامية ، وإرشادِ الناس إلىٰ ما ينفعهم في الدنيا والعقبىٰ ، فجاءت قصيدةً غزيرةَ المعاني ، محكمةَ المباني ، في أسلوب جميل ، وبهاء أخّاذ ، حتىٰ غدت بعض أبياتها حِكَماً تردد في المجالس الكلامية ، والخطب المنبرية :

لا تقـــل قـــد ذهبـــت أربـــابـــه　　　كـل مـن سـار علـى الـدرب وصـل

لا تقـــل أصلـــي وفصلـــي أبـــدا　　　إنمـا أصـل الفتـىٰ مـا قـد حصـل

ولأجل هـٰذا عني بها جماعة من العلماء أيّما عناية ، فبعضهم شرحها ، وبعضهم خمّسها ، وفيما يلي بيان لأسمائهم ، مرتّبين علىٰ تاريخ وفاتهم :

- فأول من شرحها : مجهول ، فرغ منه سنة (٧٦٣هـ) ، وسماه : « زهر الأزاهر السنية في شرح القصيدة الوردية » .

- وشرحها : الشيخ عبد الوهاب بن محمد الخطيب الغمري المتوفىٰ بعد سنة (١٠٣١هـ) ، وسماه « العَرف الندي في شرح منظومة ابن الوردي » .

- وشرحها : الشيخ أبو المكارم محمد بن محمد بن محمد نجم الدين الغزي العامري المتوفىٰ سنة (١٠٦١هـ) ، وسماه : « التحفة الندية في شرح اللامية الوردية » .

- وشرحها : الشيخ ياسين بن زين الدين بن أبي بكر الحمصي الشهير بالعليمي المتوفىٰ سنة (١٠٦١هـ) .

- وشرحها : الشيخ محمد بن أبي بكر بن محمد الدمشقي الشهير بالزهيري المتوفىٰ سنة (١٠٧٦هـ) .

ـ وشرحها : الشيخ أبو الإخلاص جاد الله الغنيمي الفيومي المتوفىٰ بعد سنة (١١٠١هـ) ، وسماه : « التحفة المرضية في شرح القصيدة الوردية » .

ـ وشرحها : الشيخ خليل بن محمد بن إبراهيم الدمشقي الشهير بالفتال المتوفىٰ سنة (١١٨٦هـ) .

ـ وشرحها : الشيخ عطاء الله بن أحمد بن عطاء الله الأزهري المتوفىٰ بعد سنة (١١٨٦هـ) ، وسماه : « تحفة الخلان بشرح نصيحة الإخوان » .

ـ وشرحها : الشيخ مسعود بن حسن بن أبي بكر القنائي المتوفىٰ سنة (١٢٠٥هـ) ، وسماه : « فتح الرحيم الرحمـٰن في شرح نصيحة الإخوان » ، وهو كتابنا هـٰذا .

ـ وشرحها : الشيخ حمزة بن محمود بن قيران الكلاعي التونسي المتوفىٰ بعد سنة (١٢٠٧هـ) .

ـ وشرحها : الشيخ يحيىٰ مؤذن بن محمد بن جعفر المكي المتوفىٰ سنة (١٢٦٠هـ) .

ـ وشرحها : الشيخ عبد الفتاح بن إبراهيم بن محمد الجارم المتوفىٰ سنة (١٣٠٠هـ) ، وسماه : « فتح المبدي علىٰ لامية ابن الوردي » .

ـ وشرحها : الشيخ أبو عياشة محمد البيومي بن محمد بن علي الدمنهوري المتوفىٰ سنة (١٣٣٥هـ) ، وسماه : « القول المجدي علىٰ لامية ابن الوردي » .

ـ وشرحها : الشيخ حكمت بن محمد شريف الطرابلسي المتوفىٰ سنة (١٣٦٤هـ) ، وسماه : « النفح الوردي علىٰ لامية ابن الوردي » .

وعلىٰ « لامية ابن الوردي » عدة تخميسات لجماعة من العلماء :

ـ تخميس للشيخ يوسف بن زكريا المغربي نزيل مصر المتوفىٰ سنة (١٠١٩هـ) ، سماه : « بغية الأريب وغنية الأديب » ، أو « إهداء المهتدي في تخميس لامية ابن الوردي » .

ـ تخميس للشيخ عبد الرحمـٰن بن يحيىٰ الملاح المتوفىٰ سنة (١٠٤٤هـ) .

ـ تخميس للشيخ محمد بن عثمان بن محمد الهوش الدمشقي المتوفىٰ سنة (١٠٩١هـ) .

ـ تخميس للشيخ محمد بن عمر بن عبد القادر الكفيري الدمشقي المتوفىٰ سنة (١١٣٠هـ) ، سماه : « العَرف الندي في تخميس لامية ابن الوردي » .

ـ تخميس للشيخ عطية بن سيد أحمد البنا الشبراويتي المتوفىٰ بعد سنة (١٣٠٤هـ) .

ـ تخميس للشيخ أحمد مرزوق أفندي المتوفىٰ سنة (١٣١٢هـ) ، سماه : « النصائح الشرعية في تخميس القصيدة الوردية » .

ـ تخميس للشيخ محمد أفندي محمد .

ـ تخميس للشيخ كمال الدين محمد بن محمد بن عبد القادر الأدهمي المتوفىٰ بعد سنة (١٣٥٣هـ) .

ـ تخميس للشيخ علي بن أحمد الصيرفي الأحمدي الرشيدي ، سماه : « التخميس الندي علىٰ لامية ابن الوردي » .

وعلىٰ « لامية ابن الوردي » تشطيران :

ـ تشطير للشيخ سالم بن علي نجم .

ـ تشطير للشيخ أحمد بن داوود بن سليمان العاني البغدادي المتوفىٰ سنة (١٣٦٧هـ) .

وعليها أيضاً : محاكاة في لاميتين للشيخ علي بن عبد الله الأزهري الشهير بالطحان المتوفىٰ سنة (١٢٠٧هـ) .

* * *

ترجمة الإمام ابن الوردي
رحمه الله تعالىٰ[1]

اسمه ونسبه

هو الإمام العالم ، الأديب الشاعر ، الفقيه النبيه ، القاضي المؤرخ ، النحوي اللغوي ، الشافعي مذهباً ، المعري بلداً ، البكري نسباً ، الشهير بابن الوردي ، زين الدين ، أبو حفص ، عمر بن المظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس بن علي بن أحمد بن عمر بن قطامي بن سعيد بن القاسم بن النصر بن محمد بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمـٰن بن أبي بكر الصديق .

ولد في معرة النعمان سنة (٦٩١هـ) .

حياته العِلْمية والعَمَلية

تفنن ابن الوردي في العلوم ، وأجاد في المنثور والمنظوم ، فتلقىٰ علومه عن جملة من العلماء في أماكن متعددة ، فأخذ عن الشيخ الزاهد عبس السرحاوي العليمي بقرية قرب المعرة يقال لها : سرحة ، وعن الشيخ شرف الدين البارزي بحماه ، كما ذكر المؤلف في « تاريخه » (٢/ ٤٥٧) حيث قال : (وفي سنة ثمان وثلاثين وسبع مئة في ذي القعدة توفي شيخي المحسن إلي ، ومعلمي المتفضل علي) ، ثم ذكر أنه أجازه بطريقين في أخذ المذهب الشافعي ، كما أخذ عن فخر الدين الطائي الشهير بابن خطيب جبرين ، وصدر الدين العثماني بحلب ، وعن الشيخ شهاب الدين الحنبلي بالقدس ، واجتمع بالشيخ تقي الدين ابن تيمية

---

(١) انظر ترجمته في « أعيان العصر » (٣/ ٦٧٧) ، و« فوات الوفيات » (٣/ ١٥٧) ، و« طبقات الشافعية الكبرىٰ » (١٠/ ٣٧٣) ، و« السلوك » (ق٣/ج٢/ ٧٩٥) ، و« الدرر الكامنة » (٣/ ١٩٥) ، و« النجوم الزاهرة » (١٠/ ٢٤٠) ، و« المنهل الصافي » (٨/ ٣٣١) ، و« الدليل الشافي » (١/ ٥٠٧) ، و« بغية الوعاة » (٢/ ٢٢٦) ، و« شذرات الذهب » (٨/ ٢٧٥) ، و« البدر الطالع » (ص٥١٥) .

بدمشق ، وبحث معه في التفسير والفقه والنحو ، فأعجبه كلامه ، وقبل وجهه ، يقول ابن الوردي : وإني لأرجو بركة ذلك .

أما عن حياته العملية : فكان ينوب في الحكم في كثير من معاملات حلب ، ثم ولي قضاء مَنْبِج ، لكن الذي يقرأ شعره يجده دائم الشكوىٰ من زمانه ، كثير العتب علىٰ قضائه ، له مع ابن الزملكاني معاتبة في قصيدة مشهورة ، ثم رام العود إلىٰ حلب ، لكن تعذر عليه ذلك ، فلما مات ابن الزملكاني . تعين مكانه فخر الدين البارزي ، وكان هـٰذا شيخ ابن الوردي ، فعينه قاضياً في شَيْزَر ، ولم يزل قاضياً عليها حتىٰ توفي البارزي ، ثم سكن حلب آخر حياته ، واستوطنها إلىٰ أن مات بها .

هـٰذا ولا بد من الإشارة إلى الإنجاز الذي أسسه في بلدته المعرة ، وهو بناء المدرسة الشافعية والجامع الكبير ، فكان علىٰ مثال الجامع الأعظم في حلب .

شيوخه

تتلمذ الإمام ابن الوردي علىٰ كبار علماء عصره ، ونهل من معينهم ، وفيما يلي نذكر أبرز مشايخه ، مرتبين علىٰ تاريخ وفياتهم :

- الإمام **عبس بن عيسى بن علي السرحاوي العليمي** الدمشقي المتوفىٰ سنة (٧٠٧هـ) .
- الإمام **صدر الدين** محمد بن عمر بن مكي الشهير **بابن المرحل** المتوفىٰ سنة (٧١٦هـ) .
- الإمام **شهاب الدين** أحمد بن محمد بن جبارة **المرداوي** المتوفىٰ سنة (٧٢٨هـ) .
- الإمام **شرف الدين** أبو القاسم هبة الله بن عبد الرحيم **البارزي** المتوفىٰ سنة (٧٣٨هـ) .
- الإمام **فخر الدين** عثمان بن علي بن عثمان الطائي الحلبي الشهير **بابن خطيب جبرين** المتوفىٰ سنة (٧٣٩هـ) .

تلاميذه

أخذ عن ابن الوردي جماعة من العلماء ، نذكر أبرزهم فيما يلي :

ـ الشيخ كمال الدين إبراهيم بن عمر بن أحمد الحلبوني الحلبي المتوفىٰ سنة (٧٣٣هـ) .

ـ ابنه الشيخ شرف الدين أبو بكر بن عمر بن المظفر المعري ثم الحلبي المتوفىٰ سنة (٧٨٧هـ) .

ـ الشيخ بدر الدين خليل بن محمد بن سليمان الحلبي المتوفىٰ سنة (٧٩٨هـ) .

ـ الشيخ أبو اليسر محيي الدين أحمد بن عبد الله بن محمد الدمشقي المتوفىٰ سنة (٨٠٧هـ) .

ـ الشيخ شمس الدين المزين محمد بن إبراهيم بن بركة العبدلي الدمشقي المتوفىٰ سنة (٨١١هـ) .

ثناء العلماء عليه

قال الإمام الصفدي رحمه الله تعالىٰ في « أعيان العصر » (٣/ ٦٧٧) : (أحد فضلاء العصر وفقهائه ، وأدبائه وشعرائه ، تفنن في علومه ، وأجاد في منثوره ومنظومه ، شعره أسحر من عيون الغيد ، وأبهىٰ من الوجنات ذات التوريد ، قام بفن التورية فجاءت معه قاعدة ، وخطها في الطروس وهي فوق النجوم صاعدة) .

وقال الإمام ابن شاكر الكتبي رحمه الله تعالىٰ في « فوات الوفيات » (٣/ ١٥٧) : (تفنن في العلوم ، وأجاد في المنثور والمنظوم ، نظمه جيد إلى الغاية ، وفضله بلغ النهاية) .

وقال الإمام السبكي رحمه الله تعالىٰ في « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (١٠/ ٣٧٤) : (شعره أحلىٰ من السكر المكرر ، وأغلىٰ قيمة من الجوهر) .

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالىٰ في « الدرر الكامنة » (٣/ ١٩٥) : (ونظم « البهجة الوردية » في خمسة آلاف بيت وثلاث وستين بيتاً ، أتىٰ علىٰ « الحاوي الصغير » بغالب ألفاظه ، وأُقسِم بالله ؛ لم ينظم أحد بعده الفقه إلا وقصر دونه) .

وقال الإمام ابن العماد رحمه الله تعالىٰ في « شذرات الذهب » (٨/ ٢٧٥) : (كان إماماً

بارعاً في اللغة والفقه ، والنحو والأدب ، مفنناً في العلم ، ونظمه في الذروة العليا ، والطبقة القصوىٰ) .

مؤلفاته

صنف الإمام ابن الوردي تصانيف نافعة ، وتنوعت في عدة فنون ، وفيما يلي سردها مرتبة علىٰ حروف المعجم :

ـ « أبكار الأفكار في مشكل الأخبار » في الشعر والأدب .

ـ « أحوال القيامة » مستخلص من كتابه « خريدة العجائب » الآتي ذكره .

ـ « بهجة الحاوي » المعروف بـ« البهجة الوردية » منظومة في الفقه .

ـ « تتمة المختصر في أخبار البشر » المعروف بـ« تاريخ ابن الوردي » في التاريخ .

ـ « تحرير الخصاصة في تيسير الخلاصة » ، نثر فيه « ألفية ابن مالك » في النحو .

ـ « التحفة الوردية » أرجوزة نظم فيها كتاب « اللمحة البدرية » لأبي حيان في النحو .

ـ « تذكرة الغريب » منظومة في النحو .

ـ « خريدة العجائب وفريدة الغرائب » في ذكر الأقاليم والبلدان والمعادن والنبات والحيوان .

ـ « الدراري السارية في مئة جارية » أو « الكواكب السارية » .

ـ « ديوان شعر » .

ـ « الرسائل المهذبة في المسائل الملقبة » في الفرائض .

ـ « رسالة السيف والقلم » في الأدب .

ـ « شرح تذكرة الغريب » وهو شرح لمنظومته « تذكرة الغريب » في النحو .

ـ « شرح اللباب في علم الإعراب » وهو شرح لمنظومته « اللباب في علم الإعراب » .

ـ « الشهاب الثاقب » في التصوف .

ـ « صفو الرحيق في وصف الحريق » وهي « المقامة الدمشقية » في وصف حريق وقع بدمشق سنة (٧٤٠هـ) .

ـ « ضوء درة الأحلام في تعبير المنام » المعروف بـ« الألفية الوردية » منظومة في تعبير الرؤيا .

ـ « ضوء الدرة » وهو شرح لـ« ألفيه ابن معط » في النحو .

ـ « الكلام علىٰ مئة غلام » .

ـ « اللباب في علم الإعراب » منظومة في الإعراب .

ـ « مختصر ألفية ابن مالك » أرجوزة اختصر فيها « ألفية ابن مالك » في خمسين ومئة بيت .

ـ « مختصر ملحة الإعراب » في النحو .

ـ « المقامات الوردية » في الأدب .

ـ « الملقبات الوردية » منظومة في الفرائض .

ـ « منطق الطير بإرادة الخير » نظم ونثر في التصوف .

ـ « نصيحة الإخوان » المعروفة بـ« لامية ابن الوردي » التي عليها كتابنا هـٰذا .

وفاته

في آخر أيامه سكن حلب ، وذلك بعد استعفائه من منصب القضاء ، قال الإمام الصفدي رحمه الله تعالىٰ في « أعيان العصر » (٣/ ٦٧٨) : (فأرصد نفسه للإفادة ، وتلفع برداء الزهادة ، واختص بسيادة العلم وهي السيادة ، وتخرج به جماعة وتنبهوا ، وحاكوا طريقه وتشبهوا ، إلىٰ أن افترس الورديَّ وَرْدُ المنيَة ، وأصبح في حفرة القبر من وراء الثنية ، وتوفي رحمه الله تعالىٰ في سابع عشري ذي الحجة سنة تسع وأربعين وسبع مئة في طاعون حلب) .

رحمه الله رحمة الأبرار ، وأفاض علينا من بركاته وأحواله ، آمين آمين ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

ترجمة العلامة القناوي
رحمه الله تعالىٰ[1]

هو السيد الشريف ، الحسيب النسيب ، مسعود بن الحسن بن أبي بكر بن سباط الحسني الحسيني القنائي ، ويقال : القناوي ، نسبة إلىٰ مدينة (قِنا) بصعيد مصر ، الأديب الشافعي ، له غير « فتح الرحيم الرحمـٰن » كتاب : « الإرشاد لحل نظم بانت سعاد » .

توفي بعد سنة (١٢٠٥هـ) ، رحمه الله تعالىٰ رحمة واسعة ، ونفع بكتابه هـٰذا كما نفع بأصله ، والحمد لله أولاً وآخراً .

* * *

(١) انظر ترجمته في « هدية العارفين » (٢/ ٤٦٣) ، و« الأعلام » (٧/ ٢١٧) ، و« معجم المؤلفين » (٣/ ٨٤٧) .

وَصفُ النُّسَخِ الخَطِّيَّةِ

اعتمدنا في إخراج هـٰذا الكتاب علىٰ ثلاث نسخ خطية كاملة ومطبوع :

الأولىٰ : نسخة المكتبة الأزهرية ذات الرقم (٣٤١٧٠) .

عدد أوراقها (١٩١) ورقة ، ومتوسط عدد أسطر الورقة الواحدة (١٧) سطراً ، ومتوسط عدد كلمات السطر الواحد (٩) كلمات ، خطها نسخي جميل ، وكان الفراغ من كتابتها يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأنور من شهور سنة (١٢٧٣هـ) علىٰ يد أحمد بن يوسف تركي .

ورمزنا لها بـ(أ) .

الثانية : نسخة المكتبة الأزهرية أيضاً .

عدد أوراقها (٢٤٣) ورقة ، ومتوسط عدد أسطر الورقة الواحدة (١٧) سطراً ، ومتوسط عدد كلمات السطر الواحد (٧) كلمات ، خطها نسخي معتاد ، وكان الفراغ من كتابتها يوم الأربعاء لأربعة أيام خلت من شهر جمادى الأولىٰ من شهور سنة (١٢٨١هـ) علىٰ يد بدوي المرزوقي .

ورمزنا لها بـ(ب) .

الثالثة : نسخة مصورة لدىٰ مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ذات الرقم (٦٢١٥) .

عدد أوراقها (٩٣) ورقة ، ومتوسط عدد أسطر الورقة الواحدة (٢١) سطراً ، ومتوسط عدد كلمات السطر الواحد (١١) كلمة ، خطها نسخي مستعجل ، تمت نساختها علىٰ يد علي بن سيد أحمد السرياقوسي بلداً ، الشافعي مذهباً ، الأحمدي طريقة .

وهٰذه النسخة أفدنا منها فقط في حل الأماكن المشكلة .

النسخة المطبوعة : تقع في (١٧٦) صفحة ، طبعت في المطبعة الميمنية بمصر في شهر رجب سنة (١٣١٠هـ) ، وهو المراد بقولنا : (وفي المطبوع) أو نحو ذلك من العبارات .

* * *

مَنهجُ العملِ في الكِتابِ

ـ عارضنا المطبوع على النسخ الخطية ، وأثبتنا الفروق المهمة ، وهي قليلة ، كما أثبتنا فروقات المطبوع المفيدة .

ـ حصرنا الآيات القرآنية الكريمة بين قوسين مزهرين ﴿ ﴾ ، وأثبتناها برسم المصحف الشريف على رواية حفص بن عاصم .

ـ خرجنا معظم الأحاديث الشريفة والآثار ، وذلك بحسب الوسع والطاقة .

ـ أثبتنا علامات الترقيم المناسبة وفق المنهج المتبع في الدار .

ـ خرجنا معظم الأبيات الشعرية من دواوين قائليها إن وجدت ، وإلا . . فمن الكتب المعتمدة ، مع ذكر البحر العروضي .

ـ شرحنا بعض الكلمات الغامضة .

ـ علقنا على بعض المواضع في الكتاب إذا مست الحاجة إلى ذلك .

ـ أضفنا بين معقوفين [] ما لا تستقيم العبارة إلا به .

ـ خرجنا معظم النصوص التي نقلها الشارح عن العلماء .

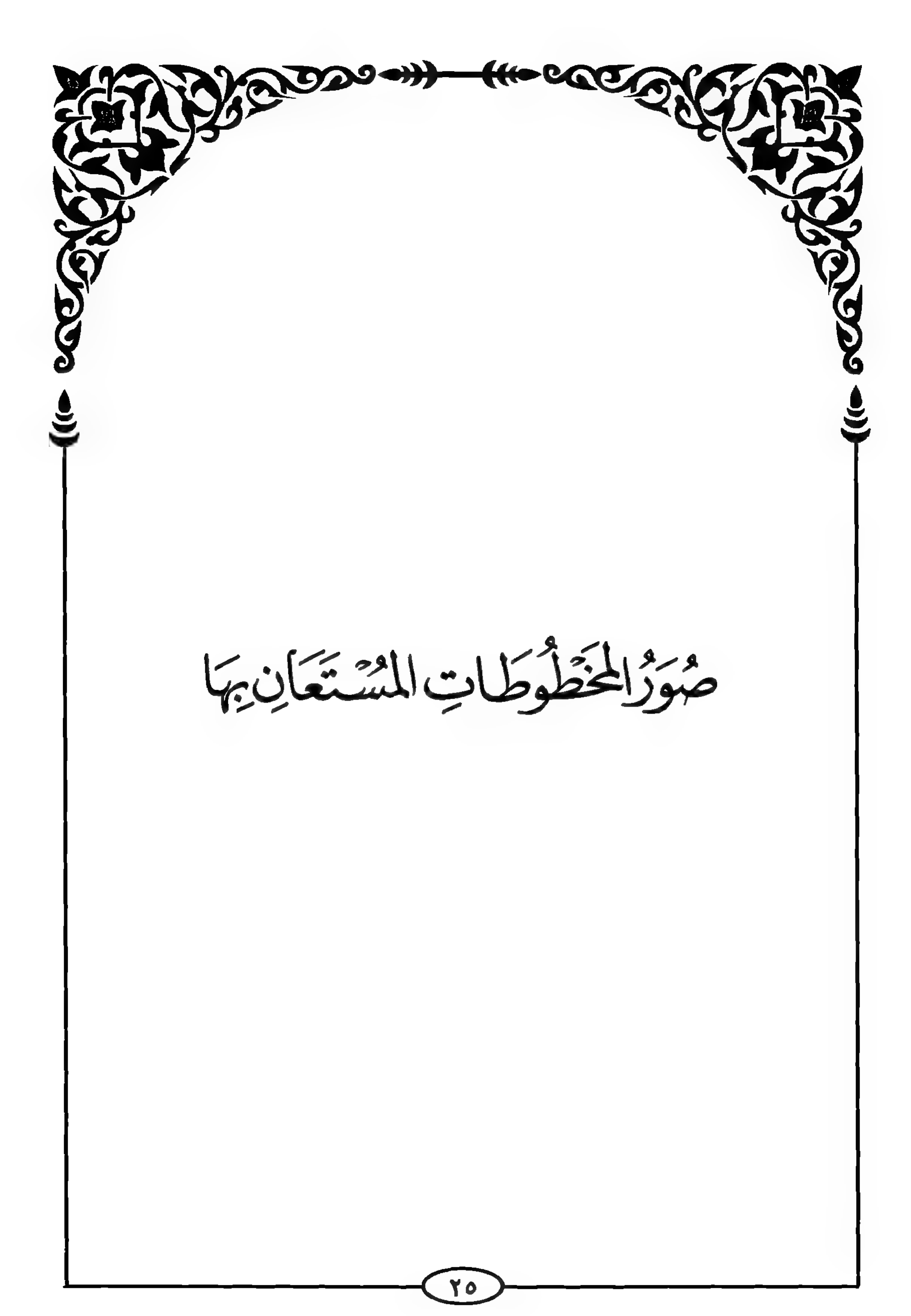
ـ أثبتنا ـ أحياناً ـ في الهامش رواية « الديوان » .

ـ جعلنا أبيات « اللامية » ضمن إطار مرقمة بأرقام متسلسلة .

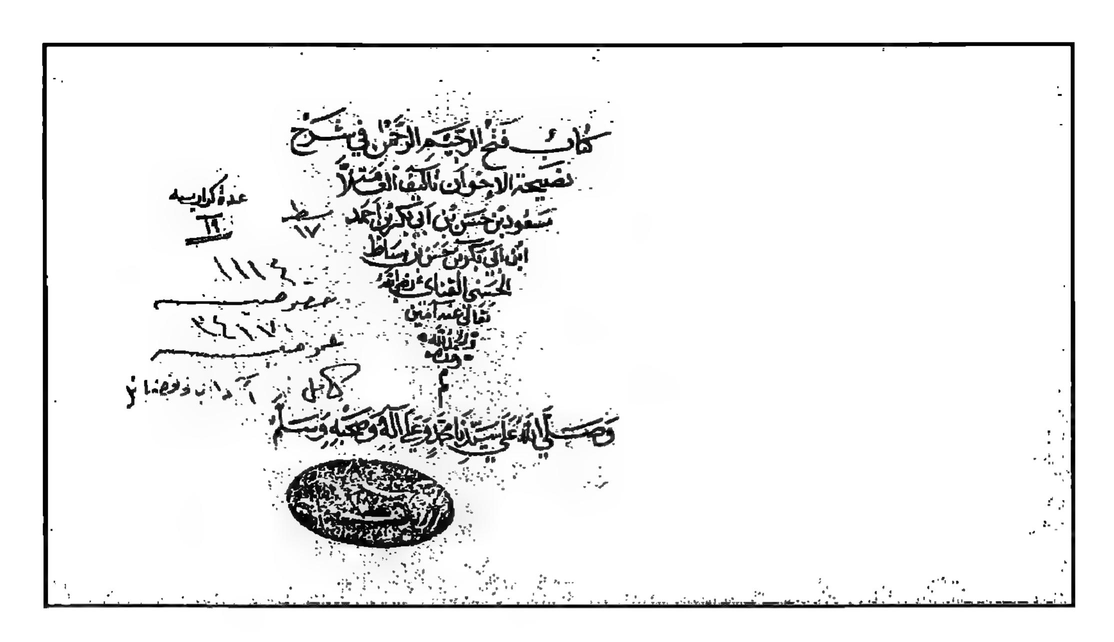
ـ عنونا الفوائد والتتمات والتنبيهات .

والله نسأل أن ينفع به ، وأن يجعله خالصاً لوجهه ؛ إنه سميع مجيب .

والحمد لله رب العالمين



صُوَرُ المَخْطُوطَاتِ المُسْتَعَانِ بِهَا

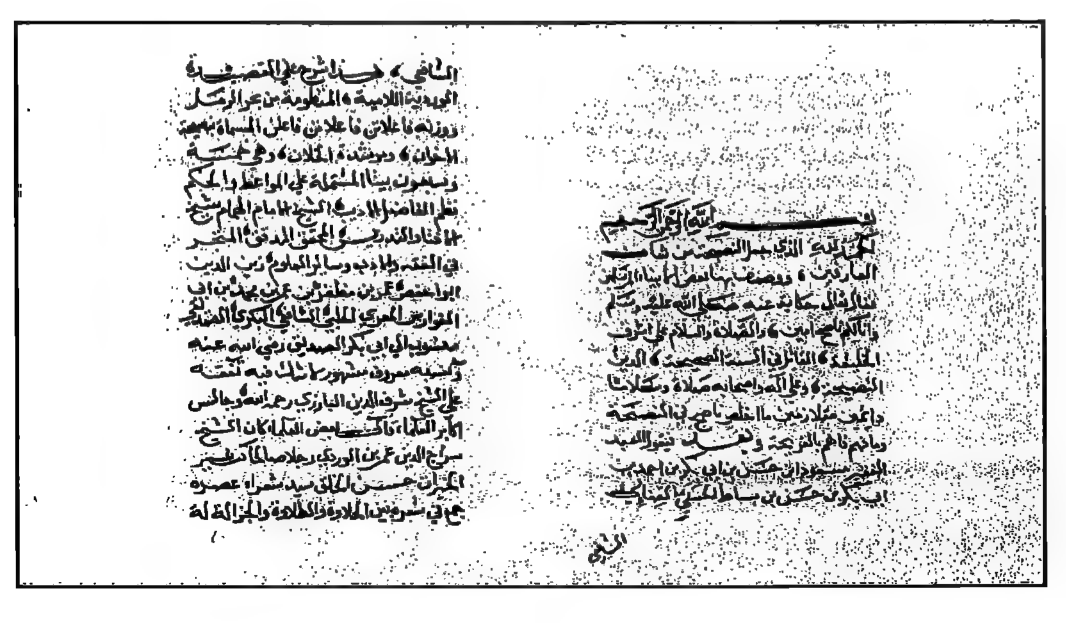


كتاب فتح الرحيم الرحمن في شرح
نصيحة الإخوان تأليف الفقير
مسعود بن حسن بن أبي بكر بن أحمد
ابن أبي بكر بن حسن بن سماط
الحسيني القناوي رضي الله
تعالى عنه آمين
رحمه الله
ونفعنا به
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

راموز ورقة العنوان للنسخة (أ)

راموز الورقة الأولى للنسخة (أ)

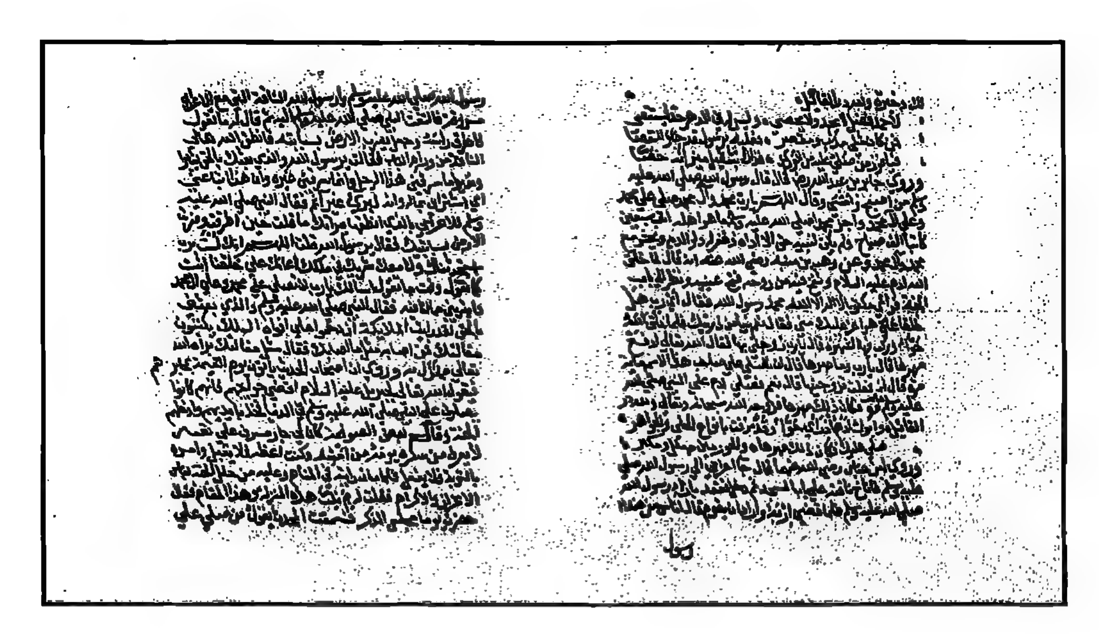
راموز الورقة الأخيرة للنسخة (أ)



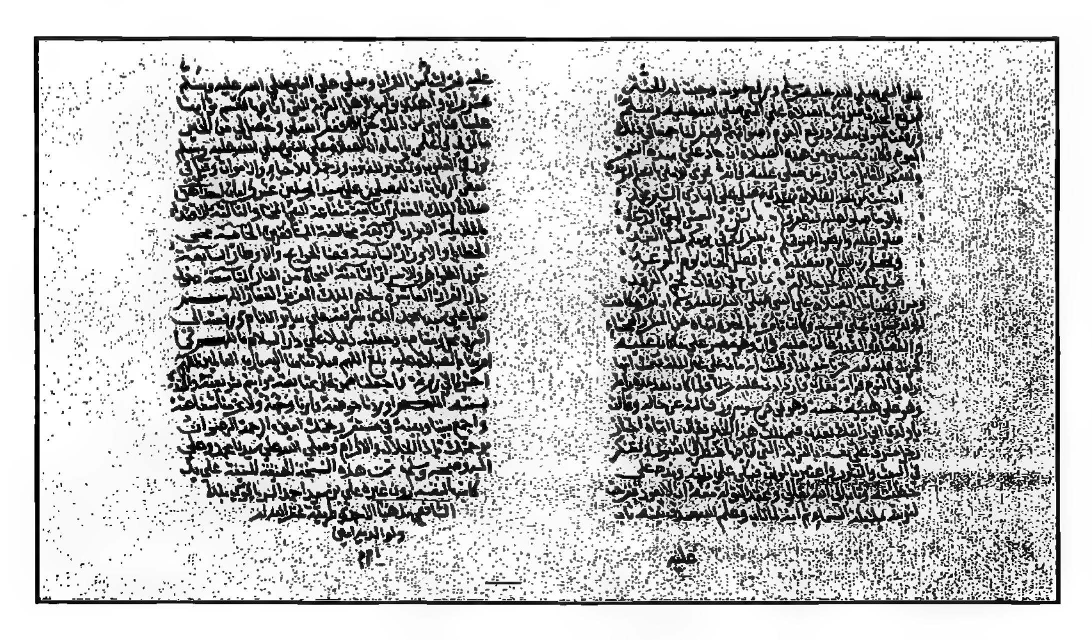
راموز الورقة الأولى للنسخة (ب)

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ب)

راموز الورقة الأولى للنسخة (ج)



راموز الورقة قبل الأخيرة للنسخة (ج)



راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ج)



مَنْظُومَة

نَصِيحَةَ الإِخْوَانِ وَمُرْشِدَةَ الخُلَّانِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) إِعْتَـزِلْ ذِكْـرَ ٱلأَغَـانِـي وَٱلْغَـزَلْ ... وَقُلِ ٱلْفَصْلَ وَجَانِبْ مَنْ هَزَلْ

(٢) وَدَعِ ٱلـذِّكْـرَىٰ لِأَيَّـامِ ٱلصِّبَـا ... فَـلِأَيَّـامِ ٱلصِّبَـا نَجْـمٌ أَفَـلْ

(٣) إِنَّ أَهْنَـا عِيشَـةٍ قَضَّيْتَهَـا ... ذَهَبَـتْ لَـذَّاتُهَـا وَٱلإِثْـمُ حَـلْ

(٤) وَٱتْـرُكِ ٱلْغَـادَةَ لاَ تَحْفَـلْ بِهَـا ... تُمْسِ فِي عِزٍّ وَتُرْفَـعْ وَتُجَـلْ

(٥) وَٱلْـهَ عَـنْ آلَـةِ لَهْـوٍ أَطْـرَبَـتْ ... وَعَـنِ ٱلأَمْـرَدِ مُـرْتَـجِّ ٱلْكَفَـلْ

(٦) إِنْ تَبَدَّىٰ تَنْكَسِفْ شَمْسُ ٱلضُّحَىٰ ... وَإِذَا مَـا مَـاسَ يُـزْرِي بِـٱلأَسَـلْ

(٧) زَادَ إِنْ قِسْنَـاهُ بِـٱلشَّمْـسِ سَنـاً ... وَعَـدَلْنَـاهُ بِغُصْـنٍ فَـٱعْتَـدَلْ

(٨) وَٱفْتَكِرْ فِي مُنْتَهَىٰ حُسْنِ ٱلَّذِي ... أَنْـتَ تَهْـوَاهُ تَجِـدْ أَمْـراً جَلَـلْ

(٩) وَٱهْجُـرِ ٱلْخَمْـرَةَ إِنْ كُنْـتَ فَتَـىً ... كَيْفَ يَسْعَىٰ فِي جُنُونٍ مَنْ عَقَلْ

(١٠) وَٱتَّـقِ ٱللَّهَ فَتَقْـوَى ٱللَّهِ مَـا ... جَاوَرَتْ قَلْبَ ٱمْرِئٍ إِلاَّ وَصَلْ

(١١) لَيْـسَ مَـنْ يَقْطَـعُ طُـرْقـاً بَطَـلاً ... إِنَّمَـا مَـنْ يَتَّقِـي ٱللَّهَ ٱلْبَطَـلْ

(١٢) صَـدِّقِ ٱلشَّـرْعَ وَلاَ تَـرْكَـنْ إِلَـى ... رَجُـلٍ يَـرْصُـدُ بِـٱللَّيْـلِ زُحَـلْ

(١٣) حَـارَتِ ٱلأَفْكَـارُ فِـي قُـدْرَةِ مَـنْ ... قَـدْ هَـدَانَـا سُبْلَنَـا عَـزَّ وَجَـلْ

(١٤) كَتَبَ ٱلْمَوْتَ عَلَى ٱلْخَلْقِ فَكَمْ ... فَـلَّ مِـنْ جَمْـعٍ وَأَفْنَـىٰ مِـنْ دِوَلْ

(١٥) أَيْـنَ نُمْـرُودُ وَكَنْعَـانُ وَمَـنْ ... مَلَـكَ ٱلأَرْضَ وَوَلَّـىٰ وَعَـزَلْ

(١٦) أَيْـنَ عَـادٌ أَيْـنَ فِـرْعَـوْنُ وَمَـنْ ... رَفَـعَ ٱلأَهْـرَامَ مَـنْ يَسْمَـعْ يَخَـلْ

(١٧) أَيْـنَ مَـنْ شَـادُوا وَسَـادُوا وَبَنَـوْا ... هَلَـكَ ٱلْكُـلُّ وَلَـمْ تُغْـنِ ٱلْقُلَـلْ

(١٨) أَيْنَ أَرْبَابُ ٱلْحِجَا أَهْلُ ٱلنُّهَىٰ ... أَيْـنَ أَهْـلُ ٱلْعِلْـمِ وَٱلْقَـوْمُ ٱلأُوَلْ

(١٩) سَيُعِيـدُ ٱللَّهُ كُـلاًّ مِنْهُـمُ ... وَسَيَجْـزِي فَـاعِـلاً مَـا قَـدْ فَعَـلْ

(٢٠) أَيْ بُنَيَّ ٱسْمَعْ وَصَايَا جَمَعَتْ ... حِكَمـاً خُصَّـتْ بِهَـا خَيْـرُ ٱلْمِلَـلْ

٢١	أُطْلُبِ ٱلْعِلْمَ وَلاَ تَكْسَلْ فَمَا	أَبْعَدَ ٱلْخَيْرَ عَلَىٰ أَهْلِ ٱلْكَسَلْ
٢٢	وَٱحْتَفِلْ لِلْفِقْهِ فِي ٱلدِّينِ وَلاَ	تَشْتَغِلْ عَنْهُ بِمَالٍ وَخَوَلْ
٢٣	وَٱهْجُرِ ٱلنَّوْمَ وَحَصِّلْهُ فَمَنْ	يَعْرِفِ ٱلْمَطْلُوبَ يَحْقِرْ مَا بَذَلْ
٢٤	لاَ تَقُلْ قَدْ ذَهَبَتْ أَرْبَابُهُ	كُلُّ مَنْ سَارَ عَلَى ٱلدَّرْبِ وَصَلْ
٢٥	فِي ٱزْدِيَادِ ٱلْعِلْمِ إِرْغَامُ ٱلْعِدَا	وَجَمَالُ ٱلْعِلْمِ إِصْلاَحُ ٱلْعَمَلْ
٢٦	جَمِّلِ ٱلْمَنطِقَ بِٱلنَّحْوِ فَمَنْ	يُحْرَمُ ٱلإِعْرَابَ بِٱلنُّطْقِ ٱخْتَبَلْ
٢٧	وَٱنْظِمِ ٱلشِّعْرَ وَلاَزِمْ مَذْهَبِي	فَٱطِّرَاحُ ٱلرِّفْدِ فِي ٱلدُّنْيَا أَقَلْ
٢٨	فَهْوَ عِنْوَانٌ عَلَى ٱلْفَضْلِ وَمَا	أَحْسَنَ ٱلشِّعْرَ إِذَا لَمْ يُبْتَذَلْ
٢٩	مَاتَ أَهْلُ ٱلْفَضْلِ لَمْ يَبْقَ سِوَى	مُقْرِفٍ أَوْ مَنْ عَلَى ٱلأَصْلِ ٱتَّكَلْ
٣٠	أَنَا لاَ أَخْتَارُ تَقْبِيلَ يَدٍ	قَطْعُهَا أَجْمَلُ مِنْ تِلْكَ ٱلْقُبَلْ
٣١	إِنْ جَزَتْنِي عَنْ مَدِيحِي صِرْتُ فِي	رِقِّهَا أَوْ لاَ فَيَكْفِينِي ٱلْخَجَلْ
٣٢	أَعْذَبُ ٱلأَلْفَاظِ قَوْلِي لَكَ (خُذْ)	وَأَمَرُّ ٱللَّفْظِ نُطْقِي بِـ(لَعَلْ)
٣٣	مُلْكُ كِسْرَىٰ عَنْهُ تُغْنِي كِسْرَةٌ	وَعَنِ ٱلْبَحْرِ ٱجْتِزَاءٌ بِٱلْوَشَلْ
٣٤	إِعْتَبِرْ ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم﴾	تَلْقَهُ حَقّاً وَبِٱلْحَقِّ نَزَلْ
٣٥	لَيْسَ مَا يَحْوِي ٱلْفَتَىٰ مِنْ عَزْمِهِ	لاَ وَلاَ مَا فَاتَ يَوْماً بِٱلْكَسَلْ
٣٦	إِطْرَحِ ٱلدُّنْيَا فَمِنْ عَادَاتِهَا	تَخْفِضُ ٱلْعَالِي وَتُعْلِي مَنْ سَفَلْ
٣٧	عِيشَةُ ٱلزَّاهِدِ فِي تَحْصِيلِهَا	عِيشَةُ ٱلْجَاهِدِ بَلْ هَذَا أَذَلْ
٣٨	كَمْ جَهُولٍ وَهْوَ مُثْرٍ مُكْثِرٌ	وَعَلِيمٍ مَاتَ مِنْهَا بِٱلْعِلَلْ
٣٩	كَمْ شُجَاعٍ لَمْ يَنَلْ مِنْهَا ٱلْمُنَىٰ	وَجَبَانٍ نَالَ غَايَاتِ ٱلأَمَلْ
٤٠	فَٱتْرُكِ ٱلْحِيلَةَ فِيهَا وَٱتَّئِدْ	إِنَّمَا ٱلْحِيلَةُ فِي تَرْكِ ٱلْحِيَلْ

أَيُّ كَـفٍّ لَـمْ تُفِـدْ مِمَّـا تُفَـدْ فَـرَمَـاهُ ٱللهُ مِنْـهُ بِـالشَّلَـلْ (٤١)

لاَ تَقُـلْ أَصْلِـي وَفَصْلِـي أَبَـداً إِنَّمَا أَصْلُ ٱلْفَتَىٰ مَا قَدْ حَصَلْ (٤٢)

قَـدْ يَسُودُ ٱلْمَرْءُ مِـنْ غَيْـرِ أَبٍ وَبِحُسْنِ ٱلسَّبْكِ قَدْ يُنْفَى ٱلزَّغَلْ (٤٣)

وَكَـذَا ٱلْـوَرْدُ مِـنَ ٱلشَّوْكِ وَمَا يَطْلُـعُ ٱلنَّرْجِسُ إِلاَّ مِـنْ بَصَـلْ (٤٤)

مَـعَ أَنِّـي أَحْمَـدُ ٱللهَ عَلَـىٰ نَسَبِـي إِذْ بِـأَبِـي بَكْـرٍ ٱتَّصَـلْ (٤٥)

قِيمَـةُ ٱلإِنْسَـانِ مَـا يُحْسِنُـهُ أَكْثَـرَ ٱلإِنْسَـانُ مِنْـهُ أَوْ أَقَـلْ (٤٦)

أُكْتُـمِ ٱلأَمْـرَيْـنِ فَقْـراً وَغِنَـىً وَٱكْسِبِ ٱلْفَلْسَ وَحَاسِبْ مَنْ بَطَلْ (٤٧)

وَٱدَّرِعْ جِـدّاً وَكَـدّاً وَٱجْتَنِـبْ صُحْبَةَ ٱلْحَمْقَىٰ وَأَرْبَابِ ٱلْخَلَلْ (٤٨)

بَيْـنَ تَبْـذِيـرٍ وَبُخْـلٍ رُتْبَـةٌ وَكِـلاَ هَـٰذَيْـنِ إِنْ دَامَ قَتَـلْ (٤٩)

لاَ تَخُضْ فِي سَبِّ سَادَاتٍ مَضَوْا إِنَّهُـمْ لَيْسُـوا بِـأَهْـلٍ لِلـزَّلَـلْ (٥٠)

وَتَغَـافَـلْ عَـنْ أُمُـورٍ إِنَّـهُ لَـمْ يَفُـزْ بِـالْحَمْـدِ إِلاَّ مَـنْ غَفَـلْ (٥١)

لَيْسَ يَخْلُو ٱلْمَرْءُ مِنْ ضِدٍّ وَإِنْ حَـاوَلَ ٱلْعُـزْلَـةَ فِـي رَأْسِ جَبَـلْ (٥٢)

مِـلْ عَـنِ ٱلنَّمَّـامِ وَٱهْجُـرْهُ فَمَـا بَلَّـغَ ٱلْمَكْـرُوهَ إِلاَّ مَـنْ نَقَـلْ (٥٣)

دَارِ جَـارَ ٱلـدَّارِ إِنْ جَـارَ وَإِنْ لَمْ تَجِدْ صَبْراً فَمَا أَحْلَى ٱلنَّقَلْ (٥٤)

جَانِبِ ٱلسُّلْطَانَ وَٱحْذَرْ بَطْشَهُ لاَ تُخَـاصِـمْ مَـنْ إِذَا قَـالَ فَعَـلْ (٥٥)

لاَ تَـلِ ٱلْحُكْـمَ وَإِنْ هُـمْ سَـأَلُـوا رَغْبَـةً فِيـكَ وَخَـالِـفْ مَـنْ عَـذَلْ (٥٦)

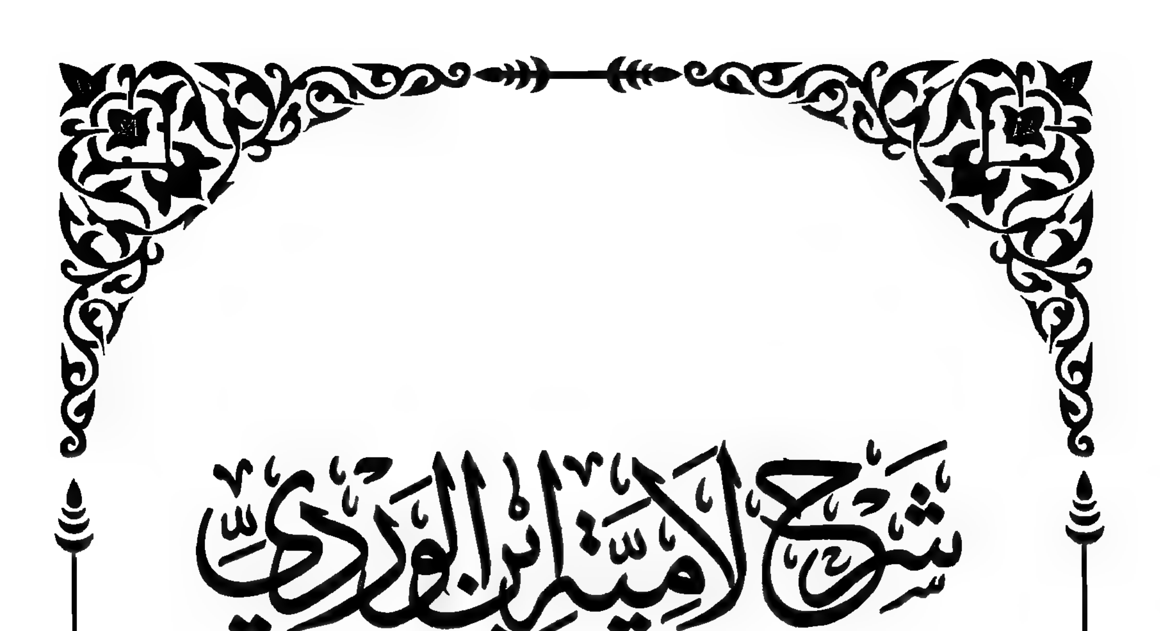
إِنَّ نِصْـفَ ٱلنَّـاسِ أَعْـدَاءٌ لِمَـنْ وَلِـيَ ٱلأَحْكَـامَ هَـٰذَا إِنْ عَـدَلْ (٥٧)

فَهْـوَ كَـالْمَحْبُـوسِ عَـنْ لَـذَّاتِـهِ وَكِـلاَ كَفَّيْـهِ فِـي ٱلْحَشْـرِ تُغَـلْ (٥٨)

إِنَّ لِلنَّقْـصِ وَٱلاسْتِثْقَـالِ فِـي لَفْظَةِ (ٱلْقَاضِي) لَوَعْظاً وَمَثَلْ (٥٩)

لاَ تُسَـاوِي لَـذَّةُ ٱلْحُكْـمِ بِمَـا ذَاقَهُ ٱلشَّخْصُ إِذَا ٱلشَّخْصُ ٱنْعَزَلْ (٦٠)

٦١ فَالْوِلَايَاتُ وَإِنْ طَابَتْ لِمَنْ ذَاقَهَا فَالسُّمُّ فِي ذَاكَ الْعَسَلْ
٦٢ نَصَبُ الْمَنْصِبِ أَوْهَىٰ جَسَدِي وَعَنَائِي مِنْ مُدَارَاةِ السَّفِلْ
٦٣ قَصِّرِ الآمَالَ فِي الدُّنْيَا تَفُزْ فَدَلِيلُ الْعَقْلِ تَقْصِيرُ الأَمَلْ
٦٤ إِنَّ مَنْ يَطْلُبُهُ الْمَوْتُ عَلَى غِرَّةٍ مِنْهُ جَدِيرٌ بِالْوَجَلْ
٦٥ غِبْ وَزُرْ غِبّاً تَزِدْ حُبّاً فَمَنْ أَكْثَرَ التَّرْدَادَ أَضْنَاهُ الْمَلَلْ
٦٦ خُذْ بِحَدِّ السَّيْفِ وَاتْرُكْ غِمْدَهُ وَاعْتَبِرْ فَضْلَ الْفَتَىٰ دُونَ الْحُلَلْ
٦٧ لاَ يَضُرُّ الْفَضْلَ إِقْلاَلٌ كَمَا لاَ يَضُرُّ الشَّمْسَ إِطْبَاقُ الطَّفَلْ
٦٨ حُبُّكَ الأَوْطَانَ عَجْزٌ ظَاهِرٌ فَاغْتَرِبْ تَلْقَ عَنِ الأَهْلِ بَدَلْ
٦٩ فَبِمُكْثِ الْمَاءِ يَبْقَىٰ آسِناً وَسُرَى الْبَدْرِ بِهِ الْبَدْرُ اكْتَمَلْ
٧٠ أَيُّهَا الْعَائِبُ قَوْلِي عَابِثاً إِنَّ طِيبَ الْوَرْدِ مُؤْذٍ بِالْجُعَلْ
٧١ عُدَّ عَنْ أَسْهُمِ لَفْظِي وَاسْتَتِرْ لاَ يُصِيبَنَّكَ سَهْمٌ مِنْ ثُعَلْ
٧٢ لاَ يَغُرَّنَّكَ لِينٌ مِنْ فَتَىً إِنَّ لِلْحَيَّاتِ لِيناً يُعْتَزَلْ
٧٣ أَنَا مِثْلُ الْمَاءِ سَهْلٌ سَائِغٌ وَمَتَىٰ سُخِّنَ آذَىٰ وَقَتَلْ
٧٤ أَنَا كَالْخَيْزُورِ صَعْبٌ كَسْرُهُ وَهْوَ لِينٌ كَيْفَمَا شِئْتَ انْفَتَلْ
٧٥ غَيْرَ أَنِّي فِي زَمَانٍ مَنْ يَكُنْ فِيهِ ذَا مَالٍ هُوَ الْمَوْلَى الأَجَلْ
٧٦ وَاجِبٌ عِنْدَ الْوَرَىٰ إِكْرَامُهُ وَقَلِيلُ الْمَالِ فِيهِمْ يُسْتَقَلْ
٧٧ كُلُّ أَهْلِ الْعَصْرِ غُمْرٌ وَأَنَا مِنْهُمُ فَاتْرُكْ تَفَاصِيلَ الْجُمَلْ
٧٨ وَصَلاَةٌ وَسَلاَمٌ أَبَداً لِلنَّبِيِّ الْمُصْطَفَىٰ خَيْرِ الدُّوَلْ
٧٩ وَعَلَى الآلِ الْكِرَامِ السُّعَدَا وَعَلَى الأَصْحَابِ وَالْقَوْمِ الأُوَلْ
٨٠ مَا نَوَى الرَّكْبُ بِعُشَّاقٍ إِلَىٰ أَيْمَنِ الْحَيِّ وَمَا غَنَّىٰ رَمَلْ



شرح لامية ابن الوردي

المسمّى

فتح الرحيم الرحمن

شرح نصيحة الإخوان ومرشدة الخلان

تأليف

العالم الفقيه الأديب

الشريف مسعود بن حسن بن أبي بكر القناوي

الحسيني الشافعي

رحمه الله تعالى

(المتوفى سنة ١٢٠٥هـ)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه ثقتي

الحمد لله الذي جعل النصيحة من شأن العارفين ، ووصف بها بعض الأنبياء المرسلين ، فقال تعالىٰ حكاية عنه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ .

والصلاة والسلام علىٰ أشرف الخليقة ، القائل في السنة الصحيحة : « ٱلدِّينُ ٱلنَّصِيحَةُ »[1] ، وعلىٰ آله وأصحابه صلاةً وسلاماً دائمين متلازمين ما أخلص ناصح في النصيحة ، وما فهم فاهم بالقريحة .

وبعد :

فيقول العبد الفقير مسعود بن حسن بن أبي بكر بن أحمد بن أبي بكر بن حسن بن سباط الحسيني الحسني[2] القنائي[3] الشافعي : هٰذا شرح علىٰ « القصيدة الوردية اللامية » المنظومة من بحر الرمل ، ووزنه : (فاعلاتن فاعلاتن فاعلن) ، المسماة بـ :

« نَصِيحَةَ الإِخْوَانِ وَمُرْشِدَةَ الخُلَّانِ »

وهي خمسة وسبعون بيتاً ، المشتملةِ على المواعظ والحِكَم ، نظْمُ الفاضل الأديب ، الشيخ الإمام الهمام ، شيخ الإفتاء والتدريس ، المحقق المدقق ، المتبحِّر في الفقه والآداب وسائر العلوم ، زين الدين أبي حفص عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس المَعَرِّي الحلبي الشافعي البَكْري الصديقي ، منسوب إلىٰ أبي بكر الصديق رضي الله عنه[4] .

---

(١) أخرجه البخاري تعليقاً ، كتاب الإيمان ، باب : قول النبي صلى الله عليه وسلم الدين النصيحة ، ومسلم (٥٥) .

(٢) في النسخ : (الحستي) وفي المطبوع : (الحسيني) فلعله حسيني الأب حسني الأم ، والله أعلم .

(٣) نسبة إلىٰ (قنا) من صعيد مصر ، وفي المطبوع : (القناوي) وكلاهما صحيح .

(٤) انظر (ص ١٤) .

كان الشيخ زين الدين عمر ابن الوردي رجلاً صالحاً ، كثير الخيرات ، حسن الخُلُق ، سيد شعراء عصره ، جمع في شعره بين الحلاوة والطلاوة والجزالة ، له مقام عظيم عند الناس ، ومهابة كثيرة ؛ لما كان عليه من الزهد والورع والخشية والخوف من الله تعالىٰ ، برع في سائر العلوم ، وصنف تصانيف حميدة ، ونظم فيها منظومات فائقة مجيدة ، وكفاه شرفاً هٰذه المنظومة العظيمة ، وما حوته من المسائل الجليلة ، وكذلك منظومته المسماة بـ« البهجة » في الفقه ، وما أحسن قوله في آخرها : [من الرجز]

فَهْـيَ عَـرُوسٌ بِنْـتُ عَشْـرٍ بِكْـرُ بَكْـرِيَّـةٌ لَهَـا ٱلـدُّعَـاءُ مَهْـرُ

وفضائله ومناقبه رضي الله عنه أكثر من أن تحصىٰ ، فهو الغاية والنهاية .

وكانت وفاته في سابع عشر ذي الحجة الحرام ، ختام عام تسع وأربعين وسبع مئة ، وهو في عَشْر السبعين رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين . وسميته :

« فتح الرحيم الرحمٰن في شرح نصيحة الإخوان »

وٱعلم : أنَّ الشعر مُجْمَعٌ علىٰ جوازه ، خصوصاً إذا كان متعلقاً بتوحيد ؛ كـ« الجوهرة » للإمام اللَّقَّاني رحمه الله تعالىٰ ، أو بمدحه صلى الله عليه وسلم ؛ كـ« الهَمْزِيَّة » و« الميميَّة » و« اللاميَّة » للإمام البوصيري رحمه الله تعالىٰ ، أو بفقهٍ ؛ كـ« البهجة » للناظم رحمه الله تعالىٰ ، أو بنصيحة ؛ كهٰذه « اللامية » له نفعنا الله به .

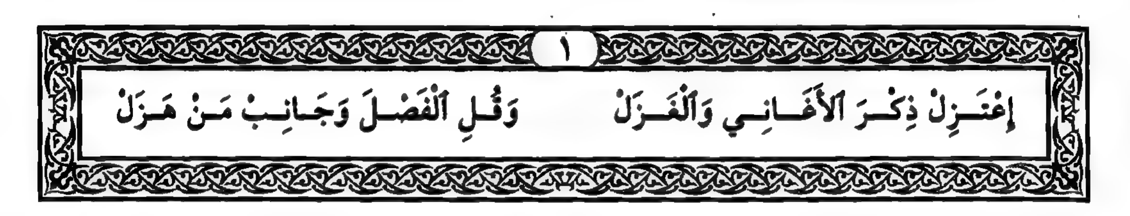
ثمَّ إنَّ الشعر لا يحصل إلا لذي الفطنة السليمة ، ولا يكون في الغالب إلا لمن مارس علمي المعاني والبيان ؛ لإدراك معرفة الفصيح والأفصح ، ومما يعين عليه أيضاً : مطالعة الرسائل والخطب والأشعار والدواوين ، فتتولد له دراية ومَلَكَة وعين تنبع في القلب بسبب هٰذه الأمور .

وٱعلم : أنَّه تعتريه الأحكام ؛ فيكون حراماً إن كان متعلقاً بهجوٍ أو ذمٍّ ، ويكون مندوباً إن كان متعلقاً بخير ؛ كمدحه صلى الله عليه وسلم ، ويكون مكروهاً إن كان متعلقاً بأمرٍ مكروه ، ويكون مباحاً إن كان متعلقاً بأمرٍ مباح ، ولا يكون واجباً .

* * *

ولمَّا كانت هـٰذه القصيدة من الأمور ذوات البال . . ٱفتتحها الناظمُ رحمه الله تعالىٰ بالبسملة ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لاَ يُبْدَأُ فِيهِ بِـ (بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ) . . فَهُوَ أَقْطَعُ وَأَجْذَمُ وَأَبْتَرُ »[1] ، والكلام علىٰ هـٰذا الحديث مذكور في المطوَّلات ، وذكر رحمه الله تعالى البسملة دون الحمدلة ؛ لأن المقصود بـ (الحمدلة) الثناء على الله تعالىٰ ، وقد حصل بالبسملة ، فقد اختار الناظم خبر : « كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لاَ يُبْدَأُ فِيهِ بِذِكْرِ ٱللهِ »[2] الشامل لكلٍّ مِنَ البسملة والحمدلة .

ولمَّا كانت النساء أصلاً لكلِّ فتنةٍ ؛ لأَنَّهُنَّ حبائلُ الشيطانِ . . حذَّر الناظمُ رحمه الله تعالىٰ من ذِكْرِهِنَّ والتغزُّلِ فيهنَّ ، فقال :


١
إِعْتَـزِلْ ذِكْـرَ ٱلأَغَـانِـي وَٱلْغَـزَلْ ... وَقُـلِ ٱلْفَصْـلَ وَجَـانِـبْ مَـنْ هَـزَلْ

أي : ٱتركْ ذكرَ الأغاني مِنَ النساء ؛ أي : المستغنِيات بحسنهنَّ وجمالهنَّ عنِ الزينة ، وٱتركِ التغزُّلَ فيهنَّ بغير حاجةٍ .

ولكن المرادُ هنا : مطلق النساء ولو لم يكنَّ غانيات ؛ لأنَّ التعلق بهنَّ يجرُّ إلى المفاسد ، ويعلِّق الخاطر بما لا طائل تحتَهُ ولا فائدةَ فيه ؛ فقد نُقِلَ عن كثير من الناس أنَّه مات بذلك ، ومنهم مَنْ مات بمُجرَّد التغزُّل ، ومنهم مَنْ مات بالسماع ، أمَّا إذا كان ذِكْرُ الأغاني لحاجة ؛ كأَنْ يستشيرَهُ مَنْ يثقُ بدينه أو رأيه في خِطبة ٱمرأة أو تزوُّجها أو معاملتها . . فيجوزُ له ذلك ولا إثمَ عليه .

وٱعلم : أن المرأة لشدَّة فتنتها جعلها صلى الله عليه وسلم قِسماً مقابلاً للدنيا بقوله : « وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ ٱمْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا . . فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ »[3] .

---

(١) الحديث بلفظ البسملة أخرجه الخطيب البغدادي في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (١٢٣٢) ، والسبكي في « طبقات الشافعية » (١/ ١٢) ، وانظر « الأقاويل المفصلة لبيان حديث الابتداء بالبسملة » .

(٢) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١١/ ١٦٣) ، وانظر « الأقاويل المفصلة » (ص ٧٠) .

(٣) أخرجه البخاري (١) ، ومسلم (١٩٠٧) .

وكذلك روىٰ أسامةُ بن زيدٍ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى ٱلرِّجَالِ مِنَ ٱلنِّسَاءِ »[1] .

وقال بعض العارفين : (ما أَيِسَ الشيطانُ مِنْ إنسانٍ قطُّ إلاَّ أَتَاهُ مِنْ قِبَلِ النساءِ)[2] .

وقال سفيان : (قال إبليس : سهمي الذي إذا رميت به لم يخطىء : النساء) .

وفي خبر الإمام أحمد : (النظر إلىٰ محاسن المرأة من سهام إبليس) .

وقال عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه : (أيُّها الناس ؛ لا تطيعوا النساء في أمر ، ولا تدعوهنَّ يدبِّرنَ أمر عيشٍ ؛ فإنَّهنَّ إنْ تُرِكْنَ وما يَرَيْنَ . . أفسدْنَ الملْكَ وعصينَ المالك ، وجدناهنَّ لا دينَ لهنَّ في خَلَواتهنَّ ، ولا ورع لهنَّ عند شهواتهنَّ ، اللذاتُ بهنَّ يسيرةٌ ، والحيرةُ بهنَّ كثيرةٌ ، فأَمَّا صوالحهنَّ . . ففاجراتٌ ، وأمَّا طوالحهنَّ . . فعاهراتٌ ، وأمَّا المعصوماتُ . . فهنَّ المعدوماتُ ، فيهنَّ ثلاثُ خصال من خصال اليهود : يتظلَّمنَ وهنَّ الظالمات ، ويحلفنَ وهنَّ الكاذبات ، ويتمنَّعنَ وهنَّ الراغبات ، فاستعيذوا بالله مِنْ شِرارهنَّ ، وكونوا علىٰ حذرٍ مِن خِيارهنَّ ، والسلام) اهـ[3]

وهـٰذا باعتبار الغالب ، وإلا . . ففيهنَّ نسوةٌ لهنَّ أحوالٌ وزهد وصلاح كأكابر الرجال ؛ مثل : رابعة العدوية ، وريحانة ، وأم الخير ، وغيرهنَّ من النساء المشهورات ؛ كما قيل عن رابعةَ العدوية رضي الله عنها : إنها كانت إذا صلت العشاء . . قامت إلىٰ سطحٍ لها ، وشدَّت عليها دِرعها وخِمارها ، ثم تقول : إلـٰهي ؛ غابت النجوم ، ونامت العيون ، وغلقت الملوك أبوابها ، وخلا كلُّ حبيب بحبيبه ، وهـٰذا مقامي بين يديك ، ثم تُقبلُ علىٰ صلاتها ، فإذا كان وقت السحر وطلع الفجر . . قالت : هـٰذا الليل قد أدبر ، وهـٰذا النهار قد أسفر ، فليت شعري ؛ أَقَبِلتَ مني ليلتي فأُهنَّا ، أم رددتها عليَّ فأُعزَّىٰ ، وعِزَّتِكَ ؛ لو طردتني عن بابك . . ما برحت عنه ؛ لما وقع في قلبي من محبَّتك ، ثم تنشد وتقول : [من الخفيف]

يَـا سُـرُورِي وَمُنْيَتِـي وَعِمَـادِي ... وَأَنِيسِـي وَغَـايَتِـي وَمُـرَادِي

---

(1) أخرجه البخاري (٥٠٩٦) ، ومسلم (٢٧٤٠) .

(2) أخرجه من قول سعيد بن المسيب رحمه الله تعالىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٢/١٦٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٠٦٩) .

(3) انظر « ربيع الأبرار » (٥/٢٨٦) .

أَنْـتَ رُوحُ ٱلْفُـؤَادِ أَنْـتَ رَجَـائِـي ... أَنْـتَ لِـي مُـؤْنِـسٌ وَشَـوْقُـكَ زَادِي
أَنْـتَ لَـوْلاَكَ يَـا حَيَـاتِـي وَأُنْسِـي ... مَـا تَشَتَّـتُّ فِـي فَسِيـحِ ٱلْبِـلاَدِ
كَـمْ بَـدَتْ مِنَّـةٌ وَكَـمْ لَـكَ فَضْـلٌ ... مِـنْ عَطَـاءٍ وَنِعْمَـةٍ وَأَيَـادِي
حُبُّـكَ ٱلآنَ بُغْيَتِـي وَنَعِيمِـي ... وَجَـلاَءٌ لِعَيْـنِ قَلْبِـي ٱلصَّـادِي
إِنْ تَكُـنْ رَاضِيـاً عَلَـيَّ فَـإِنِّـي ... يَـا مُنَـى ٱلْقَلْـبِ قَـدْ بَـدَا إِسْعَـادِي[1]

وقال بعض الصلحاء رحمه الله تعالىٰ : رأيت جارية وهي تضرب بالطار ، فمرَّتْ يوماً بقارىءٍ يقرأ : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ ، قال : فرمتِ الطار من يدها وصرخت ، ثم سقطت إلى الأرض ، فلمَّا أفاقت . . كسرتِ الطار ، وأخذتْ في العبادة حتىٰ شاع ذكرها ؛ فقال ذلك البعض : فدخلت عليها يوماً ، فكلمتها في الرِّفق بنفسها ، فبكت وقالت : ليت شعري ؛ أهلُ النار مِنْ قبورهم كيف يخرجون ؟ وعلى الصراط كيف يعبرون ؟ ومِنْ هول القيامة كيف يخلصون ؟ وللحميم كيف يتجرَّعون ؟ ولتوبيخ المولىٰ كيف يسمعون ؟ ثمَّ سقطت إلى الأرض مغشيّاً عليها ؛ فلمَّا أفاقت . . قالت : مولاي وسيدي ؛ عصيتُك وأنا غضَّةٌ رطبة ، وأطعتُك وأنا يابسةٌ خشنة ، أتُرَاك تقبلني ؟ ثم قالت : أوَّاه ؛ كم مِنْ فضيحةٍ تكشفُها القيامةُ غداً ، ثم صرخت وبكت ، فلم يبقَ أحدٌ في المجلس حتىٰ غُشيَ عليه مِنْ شدَّة البكاء مما صنعتْ بنفسها ، ثم أنشدتْ تقول : [من الطويل]

أَمَـا وَٱلَّـذِي قَـدْ قَـدَّرَ ٱلْبُعْـدَ بَيْنَنَـا ... وَعَـذَّبَنِـي بِـٱلشَّـوْقِ وَهْـوَ شَـدِيـدُ
وَخَصَّكُـمُ بِـٱلصَّبْـرِ دُونِـي وَخَصَّنِـي ... بِحُـزْنٍ عَلَيْكُـمْ يَبْتَـدِي وَيُعِيـدُ
لَقَـدْ ذَابَ قَلْبِـي مِـنْ دُمُـوعِـي عَلَيْكُـمُ ... عَلَـىٰ أَنَّـهُ فِـي ٱلنَّـائِبَـاتِ جَلِيـدُ[2]

وقال ذو النون المصري رحمه الله تعالىٰ : (بلغني أنَّ بالجبل جارية متعبدة ، فأحببت أن أزورها ، فخرجت إلى الجبل أطلبها فلم أجدها ، فلقيت جماعة من المتعبدين ، فسألتهم عنها ، فقالوا : تسأل عن المجانين وتترك العقلاء ؟! فقلت : دلوني عليها وإن كانت

---

(١) القصة مع الأبيات في « الروض الفائق » (ص ١٩٠) .
(٢) القصة مع الأبيات في « الروض الفائق » (ص١٩٢) .

مجنونة ، فقالوا : نراها تجوز بنا ، تقع مرَّة وتقوم أخرىٰ ، وتصيح مرَّةً وتبكي مرَّة وتضحك مرَّة ، فقلت : دلوني عليها ، فقال أحدهم : تجدها بالوادي الفلاني ، فخرجت في طلبها ، فلمَّا أشرفت عليها . . سمعت لها صوتاً ضعيفاً ، وهي تنشد وتقول : [من الكامل]

يَـا ذَا ٱلَّـذِي أَنِـسَ ٱلْفُـؤَادُ بِـذِكْـرِهِ ... أَنْـتَ ٱلَّـذِي مَـا إِنْ سِـوَاكَ أُرِيـدُ

فأتبعتُ الصوت ، فإذا أنا بالجارية جالسة علىٰ صخرة عظيمة ، فسلَّمت عليها ، فردَّت عليَّ السلام وقالت : يا ذا النون ؛ ما لك والمجانين ؟ فقلت لها : أمجنونة أنت ؟ فقالت : لولا أني مجنونة ما نوديَ عليَّ بالجنون ، قلت : وما الذي جنَّنكِ ؟ قالت : حبُّه جنَّنني ، ووجده أقلقني ، وشوقه تيَّمني ، فقلت : وأين محلُّ الشوق منك ؟ قالت : يا ذا النون ؛ الحبُّ في القلب ، والشوق في الفؤاد ، والوجد في السرِّ ، ثم بكت بكاء شديداً حتىٰ غُشِيَ عليها ، فلمَّا أفاقت . . قالت : أوَّاه مِنْ فَرْط المحبة ، يا ذا النون ؛ هـٰكذا موت المحبين ، ثم صاحت صيحة عظيمة ، ثم سقطت إلى الأرض ، فحركتُها ، فإذا هي ميتة ، رحمة الله تعالىٰ عليها)[1] .

وقال الجنيد رحمه الله تعالىٰ : (حججت وجاورت بمكة شرَّفها الله تعالىٰ ، فكنت إذا جنَّ الليلُ دخلتُ الطوافَ ، فبينما أنا أطوف بالبيت إذا بجارية تطوف بالبيت وهي تقول : [من الطويل]

أَبَى ٱلْحُبُّ أَنْ يَخْفَىٰ وَكَمْ قَدْ كَتَمْتُهُ ... فَـأَصْبَـحَ عِنْـدِي قَـدْ أَنَـاخَ وَطَنَّبَـا

إِذَا ٱشْتَـدَّ شَـوْقِـي هَـامَ قَلْبِي بِـذِكْـرِهِ ... وَإِنْ رُمْـتُ قُـرْبـاً مِـنْ حَبِيبِـي تَقَـرَّبَـا

وَيَمْنَحُنِـي وَصْـلاً فَـأَحْيَـا لَـهُ بِـهِ ... وَيُسْكِـرُنِـي حَتَّـىٰ أَلَـذَّ وَأَطْـرَبَـا

قال الجنيد : فقلت لها : يا جارية ؛ أما تتَّقين الله ، تتكلَّمين مثل هـٰذا الكلام في مثل هـٰذا المقام ؟ فالتفتت إليَّ وقالت : يا جنيد ؛ لا تدخل بينه وبين محبيه ، وأنت يا جنيد تطوف بالبيت ، فهل ترىٰ ربَّ البيت ؟ فقلت : هـٰذه دعوىٰ تحتاج إلىٰ إقامة بينة ، فرفعت رأسها إلى السماء وقالت : سبحانك سبحانك! ما أعظمَ شأنكَ! وما أعلىٰ قدركَ! خلقٌ

---

(١) القصة في « الروض الفائق » (ص ١٩٥) .

كالأحجارِ يطوفونَ بالبيت يعترضونَ علىٰ أهل السرائر ، ثم أنشدت تقول : [من الطويل]

يَطُوفُونَ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ تَقَرُّباً ... إِلَيْكَ وَهُمْ أَقْسَىٰ قُلُوباً مِنَ ٱلصَّخْرِ

فَلَوْ يُخْلِصُونَ ٱلسِّرَّ جَادَتْ صِفَاتُهُمْ ... وَقَامَتْ صِفَاتُ ٱلْحَقِّ مِنْهُمْ عَلَى ٱلذِّكْرِ

قال الجنيد : فأغمي عليَّ من كلامها ، فلمَّا أفقتُ . . طلبتها فلم أجدها)[1] .

فمثل هٰؤلاء النسوةِ عليهنَّ الرضوانُ لا يُعتزلُ ذِكرهُنَّ ، بلْ يُذْكرنَ تبرُّكاً بهنَّ .

ولنرجع إلىٰ كلام الناظم فنقول :

الأغاني : جمع غانية ، كفاعلة[2] ، وتجمع أيضاً علىٰ غوانٍ ، كما في قول الشاعر : [من الطويل]

دَعَانِي ٱلْغَوَانِي عَمَّهُنَّ وَخِلْتُنِي ... لِيَ ٱسْمٌ فَلاَ أُدْعَىٰ بِهِ وَهْوَ أَوَّلُ[3]

والغانية : المرأةُ اللطيفةُ الحسنةُ الخَلْق والخُلُق .

والغزل : كلامٌ رقيقٌ لفظاً ومعنىً ، متضمِّنٌ لمعانٍ رقيقةٍ وٱستعاراتٍ دقيقةٍ ، كما قيل : [من الوافر]

لَهَا كَفَلٌ تَعَلَّقَ فِي ضَعِيفٍ ... وَذَاكَ ٱلرِّدْفُ لِي وَلَهَا ظَلُومُ

فَيُقْلِقُنِي إِذَا فَكَّرْتُ فِيهِ ... وَيُقْعِدُهَا إِذَا هَمَّتْ تَقُومُ

قال بعضهم : ولا يختصُّ ذلك بغير الصوفية ، بل شعراء الصوفية كغيرهم يستعملون الغزل في نظمهم كثيراً ، وقد تغزَّلَ كثيرٌ منهم ـ كالشيخ محيي الدين ابن العربي[4] ، والشيخ

---

(١) القصة في « الروض الفائق » (ص ١٩٦) .

(٢) ما هو في « التاج » وغيره : أغاني : جمع أغنية ، وهي الغناء المعروف .

(٣) البيت للنمر بن تولب رضي الله عنه في « ديوانه » (ص ١٠١) .

(٤) كقوله رحمه الله تعالىٰ : [من الطويل]

سلامٌ علىٰ سلمىٰ ومَنْ حلَّ بالحمىٰ ... وحُقَّ لمثلي رقةً أن يُسلِّما

سروا وظلام الليل أرخىٰ سدوله ... فقلت لها صباً غريباً متيما

أحاطت به الأشواق صوتاً وأرصدت ... له راشقات النبل أيان يمما

فأبدت ثناياها وأومض بارقٌ ... فلم أدر مَنْ شَقَّ الحنادس منهما

وقالت : أما يكفيه أني بقلبه ... يشاهدني في كل وقت أما أما

شرف الدين بن الفارض[1] وغيرهما من السادات ـ تغزُّلاتٍ كثيرة رقيقة ؛ فمنهم مَنْ تغزَّل بالديار المكيَّة الشريفة والصفا والمروة ونحو ذلك ، ومنهم مَنْ تغزَّل بالمدينة النبوية ومَنْ نَزَلَ بها ، ومنهم من تغزَّل بالديار والربوع ونحو ذلك ، والمراد بذلك أصحابها ، ومنهم مَنْ تغزَّل بذكْرِ عزَّة وسلمىٰ وليلىٰ وسُعدىٰ وزينب وما أشبه ذلك ، وهٰذا أبلغ عندهم وأبدع وأرقُّ وأظرف وأحلىٰ وأعلىٰ وأغلىٰ ، ومنهم من أظهر ، ومنهم مَنْ كنىٰ وأضمر ، ومرادهم بذلك : ستر الألفاظ عن غيرِ أهلها ؛ فقد قالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تُعطوا الحكمةَ غيرَ أَهلِها فتظلمُوها ، ولا تمنعُوها أهلَها فتظلموهم »[2] .

والسَّتر والكتمان دأب المحبين والعاشقين كيلا يطلع الغير علىٰ ما بينهم وبين المعشوقين .

قال في « روضة القلوب » للإمام الشيرازي ما نصه : (اعلم : أنَّ الناس قد كثُرَ كلامهم في وصف المحبَّة ونعت الشوق ، فسلك كلٌّ واحد منهم مَسْلكاً أَدَّاهُ إليه نظرُهُ واجتهادُهُ ؛ فأهلُ الطبِّ يجعلونَ العشقَ مرضاً دماغياً يتولَّدُ عنِ النظر والسماع ، ويجعلون له علاجاً كسائر الأمراض الدماغيَّة ، وهو مراتبُ ودرجاتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ ، فأوَّلُ مرتبةٍ منه تسمَّى الاستحسان ؛ وهي المتولِّدةُ عنِ النظر والسماع ، ثمَّ تقوىٰ هٰذه المرتبةُ بطول الفكرة في محاسن المحبوب وصفاته الجميلة فتصير مودَّةً ؛ وهي الميل إليه ، ثمَّ تتأكَّد المودَّةُ فتصير محبَّةً ؛ وهي الائتلافُ الروحاني ، فإذا قويت.. صارت خُلَّةً ؛ وهي بين الآدميين تمكُّن محبَّةِ أحدهما مِنْ قلبِ الآخر حتىٰ تسقط بينهما السرائر ، ثم تقوى الخُلَّةُ فتصير هوىً ؛ وهو

---

(١) كقوله رحمه الله تعالىٰ في أول قصيدة من « ديوانه » (ص ١٣) : [من الرمل]

لم يرقني منزل بعد النقا	لا ولا مستحسنٌ من بعد مَيْ
آهِ واشوقي لضاحي وجهها	وظما قلبي لذيَّاك اللُّمَيْ
فبكلٍّ منه والألحاظ لي	سكرةٌ واطرباً مِنْ سكرتَيْ
ذو الفقار اللحظُ منها أبداً	والحشا منيَ عمرٌو وحُيَيْ
أنحلتْ جسمي نحولاً خصرُها	منه حالٍ فهو أبهىٰ حُلَّتَيْ
إن تثنَّتْ فقضيبٌ في نقاً	مثمرٌ بدرَ دُجىً فرع ظُمَيْ
وأبىٰ يتلوَ إلا يوسفاً	حُسنها كالذكر يُتلىٰ عن أُبَيْ

(٢) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٥٨/٤٧) .

أنَّ المحبَّ لا يخالطه في محبَّة محبوبه تَغَيُّرٌ ولا يُداخله تلوُّنٌ ، ثم يزيد الحالُ فيصير عِشقاً ؛ وهو إفراط المحبَّة حتىٰ لا يخلوَ العاشق مِنْ تخيُّلِ معشوقِهِ وفكرِهِ وذكْرِهِ ، ولا يغيبُ عن خاطره وذهنه ، فعند ذلك تشتغلُ النفسُ عنِ ٱستخدام القوَّة الشهوانيَّة ، فيمتنع مِنَ الطعام والنوم ، فإذا قويَ العشقُ . . صار تَتَيُّماً ؛ وفي هـٰذه الحالة لا يوجد في قلبه فضلٌ لغيرِ صورةِ المعشوق ، ولا ترضىٰ نفسُهُ سِواها ، فإذا تزايد الحال . . صار ذلك وَلَهاً ؛ وهو الخروج عن الحدود والترتيب حتىٰ تختلَّ أفعالُهُ ، وتتغيَّرَ صفاتُهُ ، فلا يدري ما يقول) .

وسئل بعضهم عن المحبَّة فقال : هي حلوة المبدأ ، مُرَّة العُقبىٰ .

وقيل لبعض المحبِّين : كيف وجدتَ الحُبَّ ؟ قال : نارٌ لا يخبو سعيرُها ، ولا يَخمُدُ زفيرُها ، ثم أنشد : [من الوافر]

رَأَيْـتُ ٱلْحُـبَّ نِيـرَانـاً تَلَظَّـىٰ ... قُلُـوبُ ٱلْعَـاشِقِيـنَ لَهَـا وَقُـودُ
فَلَـوْ فَنِيَـتْ إِذَا ٱحْتَـرَقَـتْ لَفَـازَتْ ... وَلَكِـنْ كُلَّمَـا نَضِجَـتْ تَعُـودُ
كَـأَهْـلِ لَظَـىٰ إِذَا نَضِجَـتْ جُلُـودٌ ... أُعِيـدَتْ لِلشَّقَـاءِ لَهُـمْ جُلُـودُ[1]

وحَكى الأصمعي قال : (حججتُ ، فبينما أنا أطوف ليلةً حولَ البيت . . إذ أقبلت جاريتان لم أرَ أحسنَ منهما ، فطافتا سبعاً ، ثم وقفتا تتحدَّثانِ ، فأنصتُّ إليهما ، فإذا إحداهما تقول : [من البسيط]

لاَ يَقْبَـلُ ٱللهُ مِـنْ مَعْشُـوقَـةٍ عَمَـلاً ... يَـوْمـاً وَعَـاشِقُهَـا غَضْبَـانُ مَهْجُـورُ

قال : فأجابتها الأخرىٰ وقالت : [من البسيط]

وَلَيْسَ يَـأْجُـرُهَـا فِـي قَتْـلِ عَـاشِقِهَـا ... لَكِـنَّ عَـاشِقَهَـا فِـي ذَاكَ مَـأْجُـورُ

قال : فقلت لهما : يا حزب الشيطان ؛ أفي مثل هـٰذا الموضع تقولان هـٰذا القول ؟! فنظرتْ إليَّ إحداهما وقالت : لا أرهقَكَ الحبُّ ، فقلت لها : وما الحبُّ ؟ فقالت : جلَّ عَنْ أَنْ يخفىٰ ، وخفيَ عَنْ أَنْ يُرَىٰ ، فهوَ كامنٌ في الأحشاءِ مثلَ كُمونِ النارِ في الحَجَرِ ؛ إنْ قدحتَهُ . . أَورىٰ ، وإنْ تركتَهُ . . تواریٰ ، فقلت لها : قاتلكِ اللهُ فما أوصفَكِ للحبِّ ،

---

(١) الأبيات لمجنون ليلىٰ قيس بن الملوَّح في « ديوانه » (ص٧٣) .

فقالت : أسمع يا شيخُ ، نحنُ كما قال جريرٌ : [من الكامل]

حُـورٌ حَـرَائِـرُ مَـا هَمَمْـنَ بِـرِيبَـةٍ　　كَظِبَـاءِ مَكَّـةَ صَيْـدُهُـنَّ حَـرَامُ
يُحْسَبْـنَ مِـنْ لِيـنِ ٱلْحَـدِيـثِ زَوَانِيـاً　　وَيَصُـدُّهُـنَّ عَـنِ ٱلْخَنَـا ٱلإِسْـلَامُ)[1]

وقال بعضهم : المحبَّةُ : مَيْلُكَ إلىٰ رضا محبوبِكَ ولو بهلاكِ نفسكَ ، ثم أنشد : [من الوافر]

إِذَا غَضِبَـتْ عَلَـيَّ غَضِبْـتُ أَيْضـاً　　عَلَـىٰ نَفْسِـي وَيُـرْضِينِـي رِضَـاهَـا
وَمَـا غَضَبِـي عَلَـىٰ نَفْسِـي لِـذَنْـبٍ　　وَلَكِنِّـي أَمِيـلُ إِلَـىٰ هَـوَاهَـا

وقال بعضهم : المحبَّةُ : محوُ الأشباحِ وذوبُ الأرواحِ ، ولله درُّ القائل : [من الكامل]

يَـا مُشْبِـهَ ٱلْبَـدْرِ إِذَا مَـا قَـدْ مَضَـىٰ　　خَمْـسٌ وَخَمْـسٌ بَعْـدَهُـنَّ أَرْبَـعُ
مَـا كَـانَ ذَنْبِـي حِيـنَ قَـدْ صَيَّـرْتَنِـي　　أَنْـتَ شَبِيـهَ ٱلْبَـدْرِ أَوَّلَ يَطْلُـعُ

وقال بعضهم : المحبَّة : قوةٌ غريزيَّةٌ تُحدثُ للشجاعِ جُبناً ، وللجبانِ شجاعةً ، وتؤدِّي إلى الداءِ العُضالِ الذي لا دواءَ لهُ .

وقال بعضهم : المحبَّةُ : أَلاَّ ينظُرَ المحبُّ لعيوبِ المحبوبِ ؛ قال صلى الله عليه وسلم : « حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ »[2] .

وقال الشاعر : [من البسيط]

وَحُبُّـكَ ٱلشَّـيْءَ يُعْمِـي عَـنْ قَبَـائِحِـهِ　　وَيَمْنَعُ ٱلأُذْنَ أَنْ تُصْغِي إِلَى ٱلْعَذَلِ[3]

وقال آخر : [من الطويل]

وَعَيْـنُ ٱلـرِّضَـا عَـنْ كُـلِّ عَيْـبٍ كَلِيلَـةٌ　　كَمَا أَنَّ عَيْنَ ٱلسُّخْطِ تُبْدِي ٱلْمَسَاوِيَا[4]

وقال بعضهم : الحبُّ حرفان : حاء وباء ، فحاؤه : حَيْفٌ[5] ، وباؤه : بلاء .

---

(١) انظر « مصارع العشاق » (٢/ ١٧٧) ، و« الجليس الصالح » (٢/ ١٦٣) .
(٢) أخرجه أبو داوود (٥١٣٠) ، وأحمد (٥/ ١٩٤) .
(٣) البيت للخطيب البغدادي كما في « معجم الأدباء » (٢/ ٢٧) .
(٤) البيت لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب كما في « الكامل » للمبرد (١/ ٢٧٧) ، و« العقد الفريد » (٢/ ٢٩٦) .
(٥) وقع في المطبوع : (فحاؤه : حيرة وحزن) .

وما أحسنَ ما قال بعضهم : [من المتقارب]

حُـرُوفُ ٱلْمَحَبَّـةِ مَـرْمُـوزُهَـا يُبَشِّـرُنَـا بِبُلُـوغِ ٱلْمُنَـىٰ
فَمِيـمُ ٱلْمَمَـاتِ وَحَـاءُ ٱلْحَيَـاةِ وَبَـاءُ ٱلْبَـلاَءِ وَهَـاءُ ٱلْهَنَـا
فَمُـتْ مِثْـلَ مَـا مَـاتَ أَهْـلُ ٱلْهَـوَىٰ وَذَابُـوا ٱشْتِيَـاقـاً فَنَـالُـوا ٱلْمُنَـىٰ

وقال سفيان الثوري في قوله تعالىٰ : ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ : (هو الحبُّ) .

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كان داوود عليه الصلاة والسلام يقول : اللهمَّ ؛ إنِّي أسألكَ حُبَّكَ وحُبَّ مَنْ يحبُّكَ والعملَ الذي يُبَلِّغُني حُبَّكَ ، اللهمَّ ؛ اجعلْ حُبَّكَ أحبَّ إليَّ مِنْ نفسي وأهلي ومِنَ الماءِ البارد »[(١)] .

وكان أبو يزيد البسطامي رحمه الله تعالىٰ يقول في مناجاته : (إلـٰهي ؛ لستُ أعجبُ مِنْ حبي لك وأنا عبد حقير ، وإنَّما أعجبُ مِنْ حبِّكَ لي وأنت ملك قدير)[(٢)] .

وعن أبي سليمان الداراني رحمه الله تعالىٰ أنه كان يقول في بعض مناجاته : (سيدي ؛ لئن طالبتني بذنوبي . . لأطالبنَّك بعفوك ، ولئن طالبتني ببخلي . . لأطالبنَّك بجودك وكرمك ، ولئن طالبتني بإساءتي . . لأطالبنَّك بإحسانك ، ولئن أدخلتني النار . . لأخبرنَّ أهل النَّار بأنِّي أحبُّك يا ربِّ ، فنوديتُ : يا أبا سليمان ؛ لا تدخل النار ، بل تدخل الجنَّة ، فتخبر أهلها بمحبَّتنا ؛ فإنَّ مكان المحبِّين الجنَّة ، ومكان الأعداء النار) .

وحكي عن محمد بن أحمد المفيد قال : سمعت الجنيد رحمه الله تعالىٰ يقول : (كنت نائماً عند السريِّ رحمه الله تعالىٰ ، فأيقظني وقال : يا جنيد ؛ رأيت كأني وقفت بين يدي الله تعالىٰ وقال لي : يا سريُّ ؛ خلقت الخلق كلَّهم فادَّعَوا محبَّتي ، فخلقت الدنيا ، فهرب مني تسعة أعشارهم وبقي العُشْر ، فخلقت الجنة ، فهرب مني تسعة أعشار العُشْر ، وبقي معي عُشْرُ العُشْر ، فسلطتُ عليهم ذرَّة من البلاء ، فهرب مني تسعة أعشار عُشْر العُشْر ، فقلت للباقين : لا للدنيا أردتم ، ولا للجنَّة طلبتم ، ولا مِنَ البلاء هربتم ، فما الذي تريدون ؟ وما الذي تطلبون ؟ قالوا : أنت المراد ، ولو قطعتنا بالبلاء . . لم نَحُل عنِ المحبَّة والوداد ،

---

(١) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٤٣٣) ، والترمذي (٣٤٩٠) .

(٢) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٣٤) .

فقلت لهم : إنِّي مُسلِّطٌ عليكم من البلاء والأهوال ما لا تقوم به الجبال ، أتصبرون على البلاء ؟ قالوا : بلىٰ ، إذا كنت أنت المبتلي لنا . . فافعل ما شئت بنا ، فهٰؤلاء عيالي حقّاً ، وأحبابي صدقاً)[1] .

وأعلم : أنه ينشأ عنِ المحبَّة أمور كثيرة ؛ مِنَ السهر والقلق ، بل والموت ؛ فقد حكى المدائني : أنَّ أمرأة مِنْ أهل المدينة تزوَّجها رجلٌ من أهل الشام ، فخرج إلىٰ بلده علىٰ كرهٍ منها ، فسمعتْ منشداً يقول : [من الطويل]

إِذَا بَـرَقَـتْ نَحْـوَ ٱلْحِجَـازِ سَحَـابَـةٌ	دَعَـا ٱلشَّـوْقَ مِنِّـي بَـرْقُهَـا ٱلْمُتَبَـايِـنُ
فَلَـمْ أَتْـرُكْنَهَـا رَغْبَـةً عَـنْ بِـلاَدِهَـا	وَلَكِنَّـــهُ مَـــا قَـــدَّرَ ٱللهُ كَـــائِـــنُ

فلمَّا سمعتْ . . قالتْ : واشوقاهُ إلىٰ ما ذكرتَ ، ثمَّ تنفَّسَتْ وخرَّتْ علىٰ وجهِها ميتةً[2] .

وحكى الهيثم بن عدي عن أبي مسكين قال : حدَّثنا فتىً مِنَّا ، قال : (خرجت حتىٰ كنتُ عند بئر ميمون وإذا جماعة فوق تلك الجبال ، وإذا معهم فتىً طويلٌ أبيضُ ، جَعْدُ الشعر ، حسنُ الوجه ، كأحسن ما رأيتُ من الرجال ، علىٰ هزالٍ منه وصُفرة ، وإذا هم يتعلّقون به ، فسألتهم عنه ؟ فقيل : هٰذا قيسٌ المجنون ، خرج به أبوه يستجير له بالبيت الحرام ، ويأتي به قبر النبيِّ عليه الصلاة والسلام ليدعوَ له هناك ، لعلَّ الله تبارك وتعالىٰ يكشف ما به ، وإنه ليصنع بنفسه صنعاً يرحمه منه عدوُّه ، فتقدمتُ إليه وإذا هو يقول : أَخرجوني لعلِّي أتنسَّمُ صبا نجدٍ ، فيخرجونه ، فيتوجَّهُ نحو نجدٍ ، فيخافون أن يلقيَ نفسه من الجبل فيمسكونه ، فدنوت منه وأخبرته أنِّي قدمتُ من نجدٍ ، فتنفسَ نفساً ظننتُ أنَّ كبده قد أنصدعتْ ، ثمَّ قال : واشوقاهُ إلىٰ نجدٍ ، وجعل يسألني عن وادٍ وادٍ ، وموضعٍ موضعٍ ، وأنا أخبره ، وهو يبكي أحرَّ بكاءٍ وأوجعَهُ للقلب ، ثم إنَّه أُغمي عليه حتىٰ ظنَّنا أنَّه قد مات ؛ فلمَّا أفاق . . قال : واشوقاه ؛ قال : ثمَّ إنَّهم حملوه وأرتحلوا به إلىٰ مكة ، وإنَّ كبدي لتصدعُ حزناً وأسفاً ، ولا أدري ما صنع الله به بعد ذلك) .

---

(١) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٠/ ١٨٧) .

(٢) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٧٠/ ٢٨٥) ، والبيتان لأبي قطيفة عمرو بن الوليد كما في « تاريخ دمشق » (٤٦/ ٤٤٧) .

وحكيَ عن بعضهم أنَّه قال : (كانت لي ٱبنة ، وكانت تهوىٰ شاباً ونحن لا نعلم بحالها ، وكان الشاب يهوىٰ قَيْنةً ، وكانت القَيْنة تهوى ٱبنتي ، فحضرت بعضَ الأيام مجلساً فيه ذلك الشاب والقَيْنة ، فغنَّتْ : [من مجزوء المتقارب]

عَـــلاَمَـــــةُ ذُلِّ ٱلْهَـــوَىٰ عَلَـــى ٱلْعَـــاشِقِيـــنَ ٱلْبُكَـــا
وَلاَ سِيَّمَـــا عَـــاشِـــقٌ إِذَا لَـــمْ يَجِـــدْ مُشْتَكَـــىٰ

فقال لها الشاب : أحسنتِ واللهِ يا سيدتي ، أفتأذنينَ لي أنْ أموتَ ؟ فقالت : نعم ، مُتْ راشداً إنْ كنتَ عاشقاً ؛ قال : فوضع رأسه علىٰ وسادة وغَمَضَ عينيه ، فلمَّا بلغ القدحُ إليه . . حرَّكْناه فإذا هو ميت ، فاجتمعنا له ، وتكدَّر علينا السرورُ ، وٱفترقنا مِنْ ساعتنا ، فلمَّا سِرْتُ إلىٰ منزلي . . أنكرني أهلي ؛ حيث جئتُ في غير الوقت المعتاد ، فأخبرتهم بما كان مِنَ الشاب ، فكَثُرَ تعجُّبُهم مِنْ ذلك ، فسمعَتِ ٱبنتي كلامي إلىٰ آخره ، فدخلتْ مجلساً لي ، فأنكرنا مبادرتها ، فقمتُ خلفها ، فدخلت إلى المجلس ، فوجدتها متوسِّدة علىٰ مثال ما وصفتُ مِنْ حال الشاب ، فحركتُها فإذا هي ميتة ، فأخذنا في جهازها ، وغدونا لِجنازتها وجِنازة الشاب ، فلمَّا صرنا إلىٰ طريق الجِنازة . . إذا نحن بجِنازة ثالثة ، فسألنا عنها ، فإذا هي جِنازة القَيْنة ، بلغها موتُ ٱبنتي ، ففعلتْ مثل ما فعلتْ ، فدفنا الثلاثة في يوم واحد ، وهـٰذا مِنْ عجيبِ ما سُمِعَ في هـٰذا الأمرِ) .

وقوله : (وقُلِ الفصلَ وجانبْ مَنْ هَزَلْ) المراد به : ٱتِّباع الحقِّ في الأقوال والأفعال ، وٱجتناب الباطل فيهما ، وهـٰذا مقتبَسٌ مِن قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴾ أي : باللعب ، وقيل : بالباطل ، ويطلق الهزل علىٰ ما يقع بين أراذل الناس مِنْ كلماتٍ مضحكةٍ أو رقصٍ أو نحو ذلك ، ويقرُبُ منه ما يقع بين الناس مِنَ المزاح ؛ فإنَّه منهيٌّ عنه قديماً وحديثاً ، شرعاً وعرفاً ؛ قال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ يُضْحِكُ بِهَا جُلَسَاءَهُ . . فَقَدْ يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفاً » ، أو كما قال[1] .

وأمَّا ما ورد مِنْ مِزَاحه صلى الله عليه وسلم مِنْ قوله للمرأة العجوز التي أراد أنْ يطيِّبَ

---

(١) أخرجه بهـٰذا اللفظ موقوفاً على ابن مسعود رضي الله عنه هناد في « الزهد » (١١٤٢) ، وأخرجه ابن حبان (٥٧١٦) ، وأحمد (٢/٤٠٢) مرفوعاً بلفظ : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوي بها مِن أبعدَ من الثريا » .

خاطرَها بمِزَاحه معها : « لاَ تَدْخُلُ الجَنَّةَ عَجُوزٌ »[1] ، ونحو ذلك . . فليس مِنْ هٰذا الباب ، ،وإنَّما هو من باب البيان المأمور به في قوله تعالىٰ : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ ، والمراد : أنَّهُ لا يدخل الجنة شيخ ولا عجوز ، بل تدخل الناس أبناءَ ثلاث وثلاثين سنة علىٰ صورةِ آدمَ عليه الصلاة والسلام .

وفي « الجامع الصغير » : قال صلى الله عليه وسلم : « إنِّي لأَمزحُ ولا أَقولُ إلاَّ حقّاً » رواه الطبراني عن [ابن عمر ، والخطيب عن] أنس رضي الله عنهم[2] .

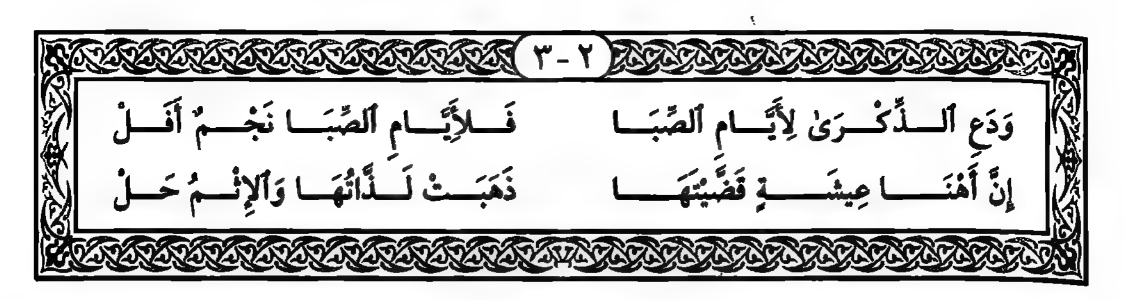
* * *

---

(١) أخرجه الترمذي في « الشمائل » (٢٤٠) ، والطبراني في « الأوسط » (٥٥٤١) .

(٢) « الجامع الصغير » (٢٦٢٨) ، والحديث أخرجه الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما في « الكبير » (١٢/٢٩٩) ، و« الأوسط » (٩٩٩) ، و« الصغير » (٢/٧) ، وأخرجه عن أنس رضي الله عنه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٤/١٤٩) .

قالَ الناظِمُ رضي الله عنهُ ونفعنا بهِ آمينَ :



البيت الأوّل مترتِّبٌ على الثاني ، والمعنىٰ : أنَّ أطيبَ وأحلىٰ ـ كما في نسخةٍ[١] ـ وألَذَّ عيشةٍ قضيتَها يا مخاطَبُ في ٱقتراف الذنوبِ والسيئاتِ ذهبتْ ومرَّتْ وٱنقضتْ لذاتها ؛ أي : العيشة ؛ أي : لذَّة الذنوب التي فعلتَها فيها ، بدليل قوله : (والإثمُ حَلْ) أي : ثبت عليك ، وحينئذٍ ينبغي لك عدمُ الذكرىٰ لأيام الصبا التي وقعت فيها الذنوب والخطايا ، وقد مرَّت كأنَّها طيف خيالٍ أو نجمٌ أفل ؛ أي : غاب ؛ لأنه ليس في ذِكْر تلك الأيام إلا التفاخرُ بالمعصية ، وقد قيل : إنَّ التحدُّثَ بالمعصيةِ والسرورَ بها يزيدُ في الإثم ، كما أنَّ التحدُّثَ بالنعمة والسرورَ بها يزيدُ في الأجر ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلُّ الناس مُعافىً إلاَّ المجاهرينَ »[٢] يعني : بالمعاصي ، وقال تعالىٰ : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ .

وٱعلم : أنه إذا كان السرورُ بكبيرةٍ . . عَظُم وزرُها وتزايدَ أمرُها ، وإذا كان بصغيرة . . أُلحقتْ بالكبيرة .

ويقال : خمسةُ أشياءَ إذا قارنت الصغائر ألحقتها بالكبائر :

الأول : السرور بالذنب ؛ فإن القلب يسودُّ بقدر الفرح بالذنب .

الثاني : إظهار الذنب ؛ بأنْ يفعلَهُ متجاهراً ، أو يتحدث به ويفتخر به ، فإنَّ مِنْ نِعَمِ الله تعالىٰ إظهارَ الجميل وسَتْرَ القبيح ، وفيما ذُكِرَ مِنَ التجاهر والتحدث والافتخار ترغيبُ مَنْ

---

(١) وهي رواية « الديوان » .

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٦٩) ، ومسلم (٢٩٩٠) .

عَلِمَ بذنبهِ في الوقوع في مثله ، وفي الأثر : (لا تذنب ، فإن أذنبت . . فلا تُرغِّب غيرَكَ فيكتبَ عليك ذنبانِ) .

الثالث : أن يستصغر الذنب ؛ فإنَّه يكثُرُ إثمُهُ علىٰ قدر استصغاره له ، فإنَّ في تصغير الذنب تصغيرَ أمر الله سبحانه وتعالىٰ ، وفي تعظيمه تعظيمَ أمر الله تعالىٰ ؛ قال أبو سعيد الخدري رضي الله تعالىٰ عنه : (إنَّكم تعملون أشياءَ هيَ عندكم أدقُّ مِنَ الشعرِ ، كنَّا نعدُّها في زمن النبيِّ صلى الله عليه وسلم مِنَ الموبقاتِ)[1] أي : المهلكات .

الرابع : الإصرار ؛ وهو العزم على العود لمثل الذنب ، ولهـٰذا قيل : لا صغيرةَ مع الإصرار ، ولا كبيرةَ مع الاستغفار ؛ وليس المراد به : استغفارَ أمثالنا باللسان ، وإنَّما المراد به : الواقعُ مع التوبة والندم والإقلاع والالتجاء إلى الله تعالىٰ بالقلب .

الخامس : أن يكون فاعلُ الذنب عالماً يُقتدىٰ به ، كما ورد في الحديث : « مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً . . فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ يَعْمَلُ بِهَا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ لاَ يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ »[2] اهـ

فَائِدَة

[في استحباب تدارك ما فات بالتوبة]

يستحبُّ للإنسان أنْ يتداركَ ما فاته وما أهملَهُ فيما مضىٰ مِنْ عمره ، وأنْ يرجعَ بالتوبة إلىٰ ربِّه ؛ فقد ورد : « إنَّ مَنْ أحسنَ فيما بقي . . غُفِرَ لهُ ما مضىٰ وما بقي ، ومَنْ أساءَ فيما بقي . . عُوقب بما مضىٰ وما بقي »[3] .

ويعجبني قول القائل : [من الطويل]

فَطَمْتُ هَوَىٰ نَفْسِي صَغِيراً فَعِنْدَمَا ... أَتَتْنِي ٱللَّيَالِي بِٱلْمَشِيبِ وَبِٱلْكِبَرْ
أَطَعْتُ ٱلْهَوَىٰ عَكْسَ ٱلْقَضِيَّةِ لَيْتَنِي ... خُلِقْتُ كَبِيراً ثُمَّ عُدْتُ إِلَى ٱلصِّغَرْ

قال بعضهم : والفائت علىٰ قسمين : فائت مستدرك ، وفائت غير مستدرك .

---

(١) أخرجه أحمد (٣/٣) .
(٢) أخرجه مسلم (١٠١٧) ، وابن خزيمة (٢٤٧٧) ، وابن حبان (٣٣٠٨) .
(٣) أخرجه الطبراني مرفوعاً في « الأوسط » (٦٨٠٢) ، و« مسند الشاميين » (٦٦٤) .

فالفائت المستدرك : كما إذا كان للإنسان وِرْدٌ أو تهجُّدٌ يفعله بالليل ، ثم نام عنه في وقته ، ثم فعله بعد ذلك ؛ فإنه يكون مدركاً له ومحصلاً لما هو مترتِّبٌ عليه من الأجر والثواب .

وأما الفائت غير المستدرك : فهو كالشباب ، فلا يمكن تداركه ، ولا ينبغي لمن ذهب شبابه وأدركه الشيب إلا الاجتهاد في الأعمال الصالحات ، والاستعداد ليوم المعاد ، قال الله تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ ، قيل : الشيب : وقيل : الهرم ، وقيل غير ذلك ، وقد قيل : إن الشيب رسولُ الموت ؛ ففي الحديث : « ما مِنْ شعرةٍ تَبْيَضُّ إلاَّ قالتْ لأختها : ٱستعدي ؛ فقد قرُبَ الموتُ » ، وما أحسن ما قيل في ذلك : [من الخفيف]

ذَهَبَتْ لَـذَّةُ ٱلصِّبَا فِـي ٱلْمَعَاصِـي ... وَبَقِـي بَعْـدَ ذَاكَ أَخْـذُ ٱلْقِصَـاصِ
وَمَضَـى ٱلْحُسْـنُ وَٱلْجَمَـالُ وَمَـا لِـي ... عَمَـلٌ أَرْتَجِيـهِ يَـوْمَ ٱلْخَـلاَصِ
غَيْـرَ ظَنِّـي فِـي ٱللهِ فَهْـوَ جَمِيـلٌ ... فِيـهِ أَخْلَصْـتُ غَـايَـةَ ٱلإِخْـلاَصِ

وقال بعضهم : [من الكامل]

ذَهَـبَ ٱلشَّبَـابُ فَمَـا لَـهُ مِـنْ عَـوْدَةٍ ... وَأَتَى ٱلْمَشِيبُ فَأَيْنَ مِنْهُ ٱلْمَهْرَبُ[1]

وقال الآخر : [من الوافر]

أَلاَ لَيْـتَ ٱلشَّبَـابَ يَعُـودُ يَـوْمـاً ... فَـأُخْبِـرَهُ بِمَـا فَعَـلَ ٱلْمَشِيـبُ[2]

وقال الآخر : [من الطويل]

تَـزَوَّدْ جَمِيـلاً مِـنْ فِعَـالِـكَ إِنَّمَـا ... قَرِينُ ٱلْفَتَىٰ فِي ٱلْقَبْرِ مَا كَانَ يَفْعَلُ
أَلاَ إِنَّمَـا ٱلإِنْسَـانُ ضَيْـفٌ لِأَهْلِـهِ ... يُقِيـمُ قَلِيـلاً عِنْـدَهُـمْ ثُـمَّ يَـرْحَـلُ[3]

---

(١) البيت لصالح بن عبد القدوس من قصيدة مطلعها :

صرمت حبالك بعد وصل زينب ... والدهر فيه تصرم وتقلب

انظر « معجم الأدباء » (٤/٣٣٧) .

(٢) البيت لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص٤٦) .

(٣) البيتان للصلصال بن الدلهمس رضي الله عنه كما في « الإصابة » (٢/١٨٦) ، و« ربيع الأبرار » (٢/٢٣١) .

فَائِدَة

[فيما ورد من الأخبار في فضل طول عمر المؤمن]

ورد في فضل طول عُمْرِ المؤمن أخبارٌ ؛ منها : ما روي عن أنس بن مالك رضي الله تعالىٰ عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما مِنْ مُعَمَّرٍ يُعَمَّرُ في الإسلامِ أربعينَ سنةً . . إلاَّ صرفَ اللهُ عنه ثلاثةَ أنواعٍ مِنَ البلاءِ : الجنونَ والجذام والبرص ، فإذا بلغَ الخَمسينَ . . سهَّلَ اللهُ له الحسناتِ ، فإذا بلغَ الستينَ . . رزقَهُ اللهُ الإنابةَ بما يحبُّ ، فإذا بلغَ السبعينَ . . أحبَّهُ الله تعالىٰ وأحبَّهُ أهلُ السماء ، فإذا بلغَ الثمانينَ . . تقبَّلَ اللهُ حسناتِهِ وتجاوزَ عن سيئاتِهِ ، فإذا بلغَ التسعينَ . . غفرَ اللهُ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر ، وسُمِّيَ أسيرَ الله في الأرض ، وشفعَ في أهل بيته ، فإذا بلغ مئة سنة . . سمي حبيسَ اللهِ في الأرض ، وحقٌّ على الله ألاَّ يعذِّبَ حبيسَه في الأرضِ »[1] .

وللشيخ الإمام صالح بن شريف الأندلسي : [من الخفيف]

إِبْـنُ عَشْـرٍ مِـنَ ٱلسِّنِيـنَ غُـلاَمٌ ... رُفِعَـتْ عَـنْ نَظِيـرِهِ ٱلأَقْـلاَمُ
وَٱبْـنُ عِشْـرِيـنَ لِلصِّبَـا وَٱلتَّصَـابِـي ... لَيْـسَ يُثْنِيـهِ عَـنْ هَـوَاهُ مَـلاَمُ
وَٱلثَّـلاَثُـونَ قُـوَّةٌ وَشَبَـابٌ ... وَهُيَـامٌ وَلَـوْعَـةٌ وَغَـرَامُ
فَـإِذَا زَادَ بَعْـدَ ذَلِـكَ عَشْـراً ... فَكَمَـالٌ وَشِـدَّةٌ وَتَمَـامُ
وَٱبْـنُ خَمْسِيـنَ مَـرَّ عَنْـهُ صِبَـاهُ ... فَيَـرَاهُ كَـأَنَّـهُ أَحْـلاَمُ
وَٱبْـنُ سِتِّيـنَ صَيَّـرَتْـهُ ٱللَّيَـالِـي ... هَـدَفـاً لِلْمَنُـونِ وَهْـيَ سِهَـامُ
وَٱبْـنُ سَبْعِيـنَ لاَ تَسَلْنِـيَ عَنْـهُ ... فَـٱبْـنُ سَبْعِيـنَ مَـا عَلَيْـهِ كَـلاَمُ
فَـإِذَا زَادَ بَعْـدَ ذَلِـكَ عَشْـراً ... بَلَـغَ ٱلْغَـايَـةَ ٱلَّتِـي لاَ تُـرَامُ
وَٱبْـنُ تِسْعِيـنَ عَـاشَ مَـا قَـدْ كَفَـاهُ ... وَٱعْتَـرَتْـهُ وَسَـاوِسٌ وَسِقَـامُ
فَـإِذَا زَادَ بَعْـدَ ذَلِـكَ عَشْـراً ... فَهْـوَ حَـيٌّ كَمَيِّـتٍ وَٱلسَّـلاَمُ

وعن أبي بَكْرَةَ رضي الله تعالىٰ عنه : أن رجلاً قال : يا رسول الله ؛ أيُّ الناس خيرٌ ؟

---

(١) أخرجه أحمد (٣/٢١٧) ، وأبو يعلىٰ (٤٢٤٦) ، وانظر « القول المسدد في الذب عن مسند الإمام أحمد » (ص٢٢) .

قال : « مَنْ طالَ عمرُهُ وحَسُنَ عملُهُ » ، قال : فأيُّ الناسِ شرٌّ ؟ قال : « مَنْ طالَ عمرُهُ وساءَ عملُهُ » رواه الترمذي وقال : حديث صحيح[1] .

وعن عائشةَ رضي الله تعالىٰ عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ بلغَ الثمانينَ مِنْ هـٰذهِ الأمَّةِ . . لَمْ يُعْرَضْ ولم يُحاسَب ، وقيل له : ٱدخلِ الجنَّةَ »[2]

وفي الخبر : (إنَّ الله ينظر في وجه الشيخ كل يوم خمس مرَّات فيقول : ٱبنَ آدمَ ؛ كَبِرَ سِنُّكَ ، ووَهَنَ عظمُكَ ، وقرُبَ أجلُكَ ، فٱستحي مني ؛ فإنِّي أستحيي أنْ أُعذِّبَ ذا شيبةٍ) . ذكره القرطبي في « تذكرته »[3] .

* * *

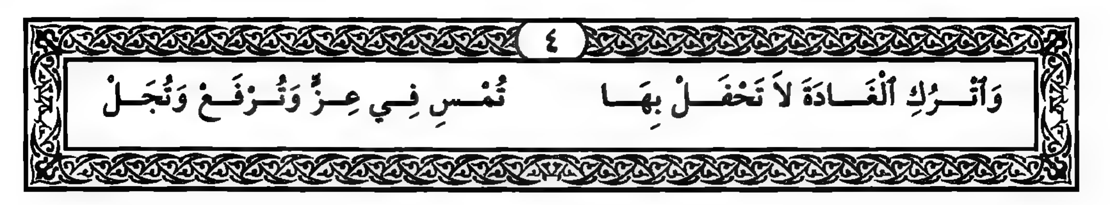
---

(١) « سنن الترمذي » (٢٣٣٠) .

(٢) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢١٥) ، وابن عدي في « الكامل » (٥/ ٣٥٤) .

(٣) « التذكرة في أحوال الموتىٰ وأمور الآخرة » (١/ ٢١١) .

قالَ الناظمُ رحمهُ اللهُ تعالىٰ [ونفعنا به آمين] :



أي : اتركِ الجاريةَ الغادةَ ؛ أي : الغانية ، فالغادة والغانية علىٰ حدٍّ سواء ، ولا تكرارَ بين هٰذا البيتِ والبيتِ الذي هو أوّل القصيدة ؛ لأنَّ النهيَ هناك عن الذكْرِ لها والتغزُّلِ بها ، وهنا عن طلبها والتعلُّقِ بها ، ثمَّ إنْ كان ذلك علىٰ وجهٍ محرَّمٍ . . فالنهيُ ظاهرٌ ، وإنْ كان علىٰ وجهٍ جائزٍ ؛ كأنْ طلب التزوُّج بها . . فهو محمولٌ علىٰ ما إذا لم تدعُ الحاجةُ إلى الزواج ؛ كأنْ يكون عاجزاً عنِ الوطء أو الإنفاقِ أوِ المهر أو نحو ذلك ، وعليه يحملُ قولُهُ صلى الله عليه وسلم : « خيركم بعد المئتين الخفيفُ الذي لا أهلَ له ولا ولدَ »[1] ، وحيث كان عاجزاً عما ذُكِرَ وتركَ ذلك . . فقد استراح ، وكانَ عزيزاً بينَ أقرانِهِ ، جليلاً بينَ الناسِ ، وهٰذا معنىٰ قوله : (تُمسِ في عِزٍّ وتُرفَعْ وتُجَلْ) ، ومَنْ لم يتركها واحتفل بها ؛ أي : طلبها من غير حاجة لها . . فقد أتعب نفسه ، وحمَّلها ما لا طاقة لها به مِنَ الذلِّ والاحتياج ونحو ذلك .

أمَّا إذا دعتِ الحاجة إلى الزواج ؛ بأنِ اشتاقتْ نفسُه إليه ، وكان واجدَ الأهبة . . فالأفضلُ له طلبُها والاحتفالُ بها ؛ لقولِهِ صلى الله عليه وسلم : « يا معشرَ الشبابِ ؛ مَنِ استطاعَ منكمُ الباءةَ . . فليتزوَّج ؛ فإنَّهُ أغضُّ للبصرِ ، وأحصنُ للفرج ، ومَنْ لم يستطعْ . . فعليهِ بالصومِ ؛ فإنَّهُ لهُ وِجَاءٌ »[2] بكسر الواو والمد ؛ أي : قاطعٌ لتَوَقانِهِ وشهوتِهِ .

وفي « الجامع الصغير » : قال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ الرجلَ إذا نظرَ إلى امرأتِهِ ونظرتْ إليه . . نظرَ اللهُ تعالىٰ إليهما نظرَ رحمةٍ ، فإذا أخذَ بكفِّها . . تساقطتْ ذنوبُهما مِنْ خلالِ أصابِعِهما »[3] .

---

(١) عزاه السخاوي في « المقاصد الحسنة » (٤٥٢) إلىٰ أبي يعلىٰ في « مسنده » .

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٦٥) ، ومسلم (١٤٠٠) .

(٣) « الجامع الصغير » (١٩٧٧) ، والحديث عزاه السيوطي إلىٰ ميسرة بن علي في « مشيخته » .

وقد ذكر الفقهاء : أنَّ النكاحَ تعتريه الأحكامُ الخمسة ؛ فالأصلُ فيه الإباحةُ ؛ كما في واجدِ الأهبة مع عدم احتياجه إليه ، وقد يجب ؛ كأنْ خافَ العنَتَ لو لم يتزوَّج ، فيتعيَّنُ الزواجُ لدفع الزنا ، وقد يسنُّ لتائقٍ واجدٍ للأهبة ؛ أي : المهر وكسوة الفصل والسكنىٰ ونفقة اليوم والليلة ، وقد يكره لمَنْ فقدها ولم يحتج إليه ، وقد يحرم وهو كثير ؛ كنكاح المتعة ـ وهو النكاح إلىٰ أجل ـ ونكاح الشِّغار ـ بكسر الشين وبالغين المعجمتين ، مِنْ شَغَرَ البلدُ عن السلطان : إذا خلا عنه ـ لخُلُوِّه عنِ المهر ؛ وهو أن يقول : زوَّجتُكَ بنتي علىٰ أن تزوِّجني بنتك ، ويضعُ كلٌّ منهما صداق الأخرىٰ ، فيقبل ذلك .

وخرج بقولنا في جانب الكراهة : (ولم يحتج إليه) : ما إذا فقدها واحتاج إليه ، فالنكاح خلاف الأولىٰ في حقِّه ، والأَولىٰ : أن يكسر شهوته بالصوم . اهـ

فائدة

[في بيان الغاية من الزواج]

التزوُّجُ عبادةٌ وقربةٌ ؛ لِمَا فيه مِنَ التحصين له ولزوجته مِنَ الوقوعِ في المحرمات ، ولِمَا فيه مِنْ كفِّ الفرجِ والنظرِ عن الوقوعِ فيما لا يجوز ، ولِمَا فيه مِنَ النفقة على العيالِ وغير ذلك .

قال رجل لإبراهيمَ بنِ أدهمَ : طوبىٰ لك ؛ تفرَّغتَ إلىٰ إلـٰهكَ بالعزوبة ، فقال : (لَرَوعةٌ منك بسبب العيال أفضلُ مِنْ جميع ما أنا فيه) .

ولمَّا حضرت معاذاً الوفاةُ . . قال : (زوِّجوني لا ألقى الله عَزَباً)[1] .

وينبغي للإنسان أن يقصدَ به النسلَ والولدَ لا قضاءَ الشهوة ؛ لأنَّ البركةَ تحصل بدعاء الولد الصالح ، ولأنَّ الولد الصغير إذا مات طلب الشفاعة لوالده الحيِّ ، وللسعي في محبَّةِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم بتكثيرِ أُمَّتِهِ ؛ فقد رويَ أنَّهُ صلى الله عليه وسلم ذمَّ المرأة التي لا تلد[2] ، كما ورد عن معبد بن يسار رضي الله تعالىٰ عنه قال : جاء رجل إلىٰ رسول الله

(١) عزاه الحافظ ابن حجر في « تلخيص الحبير » (٣/ ٩٥) إلى البيهقي من حديث الحسن عنه مرسلاً .

(٢) أو إن شئت . . قلت : لم يرغِّب في نكاح غير الولود كما يفيد الخبر .

صلى الله عليه وسلم فقال : إني أصبتُ امرأةً ذاتَ حُسْنٍ وجمالٍ ، وإنَّها لا تلدُ ، أفأتزوَّجُها ؟ قال : « لا » ، ثمَّ أتاهُ الثانيةَ ، فنهاهُ ، ثمَّ أتاهُ الثالثةَ ، فقال : « تزوَّجُوا الولودَ الودودَ ؛ فإنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الأُمَمَ »[1] ، فهـٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ المقصودَ طلبُ الولد لا مجرَّدُ الشهوة ، ولِمَا يترتَّبُ على الزواج مِنْ دعاء الولد لهُ بعدَ موتِهِ ، كما ورد في الحديث : « أو ولدٍ صالحٍ يدعو له »[2] .

قال بعضهم : لا يشترط صلاحه ؛ لأن دعاء الولد المؤمن لوالديه مفيد مطلقاً ـ صالحاً كان أو فاجراً ـ ولما يترتَّبُ على الزواج أيضاً مِنْ أنَّ للوالد مثلَ حسنات ولده ؛ لأنَّه من سعيه وكسبه ، ولا يؤاخَذُ بسيئاته ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ .

وعن أنسٍ رضي الله تعالىٰ عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المولودُ حتىٰ يبلغَ الحِنْثَ : ما عملَ مِنْ حسنةٍ . . كتبتْ لهُ ولوالديهِ ، وما عملَ مِنْ سيئةٍ . . لم تكتبْ عليهِ ولا علىٰ والديهِ ، فإذا بلغَ الحُلُمَ أُجرِيَ عليهِ القلمُ »[3] .

وأمَّا ما جاء في بكاء المولود : فروىٰ عبد الله بن عمر رضي الله تعالىٰ عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تضربوا أطفالَكُم علىٰ بُكَائهم سنةً ؛ فإنَّ أربعةَ أشهرٍ منها يشهدُ أن لا إلـٰه إلا الله ، وأربعةَ أشهرٍ يصلي عليَّ ، وأربعةَ أشهرٍ يدعو لوالديهِ » ، وفي رواية أخرىٰ : أنَّهُ صلى الله عليه وسلم قال : « بكاءُ الصبيِّ في المهدِ أربعةُ أشهرٍ توحيدٌ ، وأربعةُ أشهرٍ صلاةٌ علىٰ نبيِّكم ، وأربعةُ أشهرٍ استغفارٌ لأبويه »[4] .

وروىٰ أنس بن مالك رضي الله تعالىٰ عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما مِنْ مسلمٍ يموتُ لهُ ثلاثةٌ مِنَ الولدِ لم يبلغو الحِنْثَ . . إلاَّ أدخلَهُ اللهُ الجنةَ بفضلِ رحمتِهِ إيَّاهم » أخرجه البخاري ومسلم[5] .

---

(١) أخرجه أبو داوود (٢٠٥٠) ، والنسائي (٦/٦٥) .

(٢) أخرجه مسلم (١٦٣١) ، وأبو داوود (٢٨٨٠) ، والترمذي (١٣٧٦) .

(٣) عزاه السيوطي في « اللآلىء المصنوعة » (١/١٤٤) إلىٰ أبي يعلىٰ ، وجاء نحوه عن واثلة بن الأسقع أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٩/٣٤٨) .

(٤) أخرجه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١١/٣٣٦) ، وابن الجوزي في « الموضوعات » (١/١٠٣) ، وانظر « لسان الميزان » (٥/٤٧٧) ، و« اللآلىء المصنوعة » (١/٩٨) ، و« تنزيه الشريعة » (١/١٧١) .

(٥) أخرجه البخاري (١٢٤٨) و(١٣٨١) ، والنسائي (٤/٢٤) ، وابن ماجه (١٦٠٥) .

وقد ذكر الشريف الحسني في « شرحه علىٰ منظومة ابن العماد في الأنكحة »[1] في هٰذا المقام كلاماً مبسوطاً يخرجنا تتبُّعه عن إرادة الاختصار ، فمن أراده . . فليراجعه .

* * *

(1) ابن العماد : هو الإمام أحمد بن عماد بن يوسف الأقفهسي المتوفىٰ سنة (٨٠٨هـ) ، والشريف الحسني : هو الإمام حسن بن محمد بن أيوب الحسني الحسيني النسابة المتوفىٰ سنة (٨٦٦هـ) ، انظر « الضوء اللامع » (٤٧/٢) و(١٢١/٣) .

قالَ الناظمُ رحمهُ اللهُ تعالىٰ ونفعنا بهِ آمينَ :

٥

وَٱلْـهَ عَـنْ آلَـةِ لَهْـوٍ أَطْـرَبَـتْ وَعَـنِ ٱلأَمْـرَدِ مُـرْتَـجٍّ ٱلْكَفَـلْ

قال في « المصباح » : (اللهو : معروف ، تقول أهلُ نجدٍ : لَهَوْتُ عنه أَلْهُو لُهِيّاً ، والأصل فعولاً ، من باب قعد ، وأهل العالية : لَهِيتُ عنهُ أَلْهَىٰ ، من باب تعب ، ومعناه : السُّلْوان والترك ، ولَهَوْتُ به لَهْواً ، من باب قتل : أُولعتُ بهِ وتلهيتُ بهِ أيضاً ، وألهاني الشيءُ بالألف شغلني) اهـ

ثم قال في السين مع اللام : (السُّلُوُّ : طيبُ نفسِ الإلفِ عن إلفِهِ) اهـ

ومعنى البيت : تسلَّ وتصبَّر عن آلةِ لهوٍ ؛ بأنْ تتركَ آلاتِ الملاهي المطربة .

والطَّربُ : خِفَّةٌ تصيبُ الإنسانَ لشدَّة السرور .

وقرَّر الفقهاءُ : أنَّهُ يَحرمُ ٱستعمالُ آلاتِ الملاهي ؛ كطُنْبورٍ وجُنْكٍ وعُودٍ وسِنْطِيرٍ ومِزْمارٍ عراقي[١] ، وكذلك يحرمُ الضرب بالكُوبَةِ ؛ وهي طبلٌ صغير ضيق الوسط واسع الطرفين .

عن أبي أمامةَ رضي الله تعالىٰ عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنَّ إبليسَ لمَّا نزلَ إلى الأرض . . قال : يا ربِّ ؛ أنزلتني إلى الأرض وجعلتني رجيماً ، فٱجعل ليَ بيتاً ، قال : الحمام ، قال : ٱجعل ليَ مجلساً ، قال : الأسواق ومجامع الطرق ، قال : فٱجعل لي طعاماً ، قال : ما لم يذكر اسم الله عليه ، قال : فٱجعل لي شراباً ، قال : كلُّ مسكر ، قال : فٱجعل لي قرآناً ، قال : الشِّعْر ، قال : فٱجعل لي مؤذناً ، قال : المزمار ، قال : فٱجعل لي حديثاً ، قال : الكذب ، قال : فٱجعل لي رسلاً ، قال : النساء » رواه ابن أبي الدنيا[٢] .

---

(١) الطنبور : آله طرب ، ذات عنق طويل ، لها ستة أوتار ، أخذها العرب عن الفرس بعد الفتح الإسلامي ، والجنك : آلة موسيقية من الفصيلة الوترية ، معروفة منذ العصر الفرعوني ، والسنطير : آلة طرب تشبه القانون ، أوتارها من نحاس يضرب عليها .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في « مكائد الشيطان » ، والطبري في « تهذيب الآثار » (٢/ ٦٤٤) ، والطبراني في « الكبير » (٨/ ٢٠٧) .

واعلم : أنه يكره غناء المرأة واستماع الرجل له وإنْ أَمِنَ الفتنةَ ، قال صلى الله عليه وسلم : « الغناءُ يُنبِتُ النفاقَ في القلبِ كما يُنبِتُ الماءُ الزرعَ » رواه البيهقي عن جابر[1] ، وهٰذا بخلاف أذانها ؛ فإنَّهُ حرامٌ بحضرة الأجانب .

والفرق بينهما : أنَّ في الأذان تشبُّهاً بالرجال ، بخلاف الغناء ؛ فإنَّهُ مِنْ شعائرِ النساء ، ولأنَّهُ يُستحبُّ النظر للمؤذِّنِ حالَ أذانه ، فلو استحببناهُ للمرأةِ . . لأُمِرَ السامعُ بالنظرِ إليها ، وهٰذا مخالفٌ لمقصودِ الشارع[2] .

فائدة

[في سبب زغردة المرأة إذا حصل لها سرور]

ذكر الشريفُ الحسني في « شرحه علىٰ منظومة ابن العماد » : (أنَّهُ لمَّا التقىٰ آدم بحوَّاء ورأتْهُ من بُعدٍ . . رفعتْ صوتَها فرحاً به بكلام غيرِ مفهوم يشبه الزغاريد ، فلذلك جرتْ عادةُ المرأةِ أنَّها إذا فرحتْ وحصلَ لها سرورٌ . . زغردتْ ، وإذا حَزِنتْ . . ولولتْ) اهـ

ويجوز استعمال طبل كبير لنحو فرحٍ ؛ كعرسٍ وحجٍّ وجهادٍ ونحو ذلك ؛ فعن عائشةَ رضي الله تعالىٰ عنها : أنَّها زَفَّتِ امرأةً مِنَ الأنصارِ إلىٰ رجل مِنَ الأنصارِ ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَمَا كانَ معكم مِنْ لَهْوٍ ؟ »[3] اهـ

وقول الناظم : (وعنِ الأمرد) أي : الغلام الذي لم يبلغ أوان نباتِ اللحية ، وأمَّا الذي بلغ أوان طلوعِ لحيته ولم تطلع . . فيقال له : أَثَطُّ ـ بالمثلثة ـ لا أمردُ .

وقوله : (مرتجٍّ) أي : عظيم (الكفل) بفتحتين ؛ أي : العجيزة ، هٰكذا يؤخذ من « المصباح » .

واختلف النوويُّ والرافعيُّ رحمهما الله تعالىٰ في هٰذه المسألة : والذي تحصَّلَ فيها مِنْ كلامهما : أنَّهُ يَحرمُ النظرُ إلى الأمردِ بشهوةٍ وإنْ كانَ غير حسن بالإجماع ، ولو انتفتِ الشهوةُ

---

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٤٧٤٦) ، وأخرجه بنحوه عن ابن مسعود رضي الله عنه أبو داوود (٤٩٢٧) ، والبيهقي في « السنن » (١٠/٢٢٣) .

(٢) انظر « تحفة المحتاج » (١/٤٦٦) ، و« نهاية المحتاج » (١/٤٠٦) ، و« مغني المحتاج » (١/٢١٠) .

(٣) أخرجه البخاري (٥١٦٢) .

وخيفتِ الفتنةُ . . حَرُمَ النظر أيضاً ، قال ابن الصلاح : ليس المراد بخوف الفتنة : غلبةَ الظنِّ بوقوعها ، بَلْ يكفي ألاَّ يكونَ ذلك نادراً .

وكذا يَحرمُ النظرُ إلى الأمردِ بلا شهوةٍ عند النوويِّ رحمه الله تعالىٰ ؛ لأنَّه مَظِنَّةُ الفتنة ، فهو كالمرأة ، بل هو أشدُّ إثماً مِنَ المرأة الأجنبية ؛ لعدم حِلِّهِ بحالٍ .

وكذا يَحرمُ اللمسُ للأمردِ وإنْ حلَّ النظر[1] ؛ لأنَّهُ أفحشُ ، وكذا الخلوةُ به إنْ حَرُمَ النظرُ ؛ فإنَّها أفحشُ وأقربُ إلى المفسدة .

والمعتمد مِنْ مذهب إمامنا الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه : الذي قاله الرافعيُّ ؛ وهو : أنَّ النظر إلى الأمرد لا يحرمُ إلاَّ بشهوةٍ ، هـٰذا هو المفتىٰ به ، والذي قاله الإمام النوويُّ رحمه الله تعالىٰ مِنِ اختياراته ؛ سدّاً للباب في ذلك الزمان ، وأمَّا زماننا هـٰذا : فقد كَثُرَ فيه الفساد كما هو ظاهر لكلِّ أحدٍ ، نسألُ اللهَ تعالى السلامة والعافية ممَّا يُوجبُ عقابَهُ[2] .

وضابطُ الشهوة المحرَّمة كما قال الإمام السبكي : (أنْ ينظرَ إلى الوجه الجميل فيَلْتَذَّ به ، فإذا نظرَ ليَلْتَذَّ بذلك الجمال . . فهو النظرُ بالشهوة ، وهو حرامٌ بإجماعٍ ، قال : وليس المرادُ أنْ يشتهيَ زيادةً علىٰ ذلك من الوقاع أو مقدماته ؛ فإنَّ ذلك ليس بشرط ، بل زيادةٌ في الفسق ، قال : وكثيرٌ مِنَ الناس لا يُقْدِمونَ على الفاحشة ويقتصرون علىٰ مجرَّدِ النظرِ والمحبَّةِ ، ويعتقدون أنَّهم سالمون مِنَ الإثم ، وليسوا بسالمين) اهـ[3]

ولنذكر لك شيئاً في هـٰذا الشأن فنقول : قد قصَّ اللهُ علينا في كتابهِ العزيز ما فعله بقوم لوطٍ ، فقلبَ عليهم مدائنهم ، وأرسلَ عليهم حجارةً من سجيلٍ منضودٍ مسوَّمةً عند ربك ، وما هي مِنَ الظالمين ببعيد ؛ أي : ما هـٰذه العقوبة التي فعلتها بقوم لوطٍ من ظالمي هـٰذه الأمَّةِ الذين يعملونَ كأعمالهم ببعيدٍ .

---

(١) أي : بلا شهوة ـ عند الرافعي ـ على المعتمد .

(٢) هـٰذا في زمان المصنف ، فكيف في زماننا الذي تكثر فيه الفتن والمفاسد وما من يوم يأتي إلا والذي بعده شر منه ؟! أجارنا الله تعالىٰ وسلمنا .

(٣) انظر « الشرح الكبير » (٧/٤٧٦) ، و« منهاج الطالبين » (ص٣٧٣) ، و« مغني المحتاج » (٣/١٧٧) ، و« نهاية المحتاج » (٦/١٩٣) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أخوفُ ما أخافُ علىٰ أمَّتي عملُ قومِ لوطٍ »[1] .

وعنه صلى الله عليه وسلم : « سبعةٌ يلعنُهمُ اللهُ ولا ينظرُ إليهم يومَ القيامةِ ، ويقال لهمُ : ٱدخلوا النارَ معَ الداخلين ؛ الفاعلُ والمفعولُ به ـ يعني : اللائط والملوط به ـ وناكحُ البنتِ وأمِّها ، والزاني بٱمرأةِ جارِهِ ، وناكحُ المرأةِ في دبرها ، وناكحُ يدِهِ ، إلاَّ أن يتوبوا »[2] .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : (إنَّ اللوطي إذا مات يُمسخُ في قبرِهِ خنزيراً)[3] .

وإنَّ الشيطان إذا رأى الذكر قد ركب الذكر هربَ خشيةً من معاجلة العذاب .

وإذا ركب الذكر الذكر . . ٱهتزَّ العرشُ والكرسيُّ ، وتكادُ السمواتُ أنْ تقعَ على الأرض ، فتمسكُ الملائكةُ بأطرافها وتقرأ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ سبعينَ مرَّةً حتىٰ يسكنَ غضبُ الجبارِ عزَّ وجلَّ[4] .

وقال الحسنُ بنُ ذَكوانَ : (لا تُجالسوا أولاد الأغنياءِ ؛ فإنَّ لهم صوراً كصورِ العذارىٰ ، وهم أشدُّ فتنةً من النساء)[5] .

ودخل سفيانُ الثوريُّ رحمه الله تعالىٰ حماماً ، فدخل عليه صبيٌّ حسنُ الوجه ظاهرُ الوَضاءَةِ ، فقال سفيان لأصحابه : (أخرجوه عنِّي ، أخرجوه عنِّي ، أرىٰ مع كلِّ ٱمرأة شيطاناً ، ومع هـٰذا بضعة عشر شيطاناً)[6] .

وذكر الشعبيُّ رحمه الله تعالىٰ : أنَّ وفدَ عبد القيس قدموا على النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وكان فيهم صبيٌّ حسنٌ ظاهر الوضاءة ، فأجلسه النبيُّ صلى الله عليه وسلم

---

(١) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٣٥٧/٤) ، والترمذي (١٤٥٧) ، وابن ماجه (٢٥٦٣) .

(٢) أخرجه بنحوه البيهقي في « الشعب » (٥٠٨٧) ، والديلمي في « الفردوس » (٣٤٩٧) ، والسمرقندي في « تنبيه الغافلين » (ص١٤٠) .

(٣) أخرجه عن ابن عباس مرفوعاً ابن الجوزي في « الموضوعات » (٣٠٣/٢) ، وانظر « لسان الميزان » (١٨٩/٢) .

(٤) انظر « تنزيه الشريعة » (٢٣١/٢) .

(٥) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٥٠١٤) .

(٦) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٥٠٢١) .

خلف ظهره وقال : « إنما كانت فتنة داوود من النظر »[1] .

فإذا كان هـٰذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجلسه خلف ظهره وهو سيد الأوَّلين والآخرين ، وهو معصومٌ مِنْ كلِّ سوءٍ وإثمٍ ، وخاف فتنةَ النظرِ إلىٰ صبيٍّ أمردَ ، وأجلسه خلفَ ظهرِهِ حتىٰ لا ينظرَ إليه . . فكيف بغيره ممن ليس بمعصومٍ ؟!

وقال فتح المَوْصِلي رحمه الله تعالىٰ : (صحبتُ ثلاثينَ كلهم يُعدُّونَ مِنَ الأبدال ، وكلهم يَنهونَ عن صحبة الأحداث) يعني : المردان .

وقال ٱبن عمرَ رضي الله عنهما : (النظرُ إلىٰ أبناء الملوك حرامٌ ؛ لأنَّ لهم شهوةً كشهوة النساء العذارىٰ) .

أقول : (أبناءُ الملوكِ) ليس بقيد ، بل المراد : كلُّ مَنْ كان جميلاً حسناً ، وإنما قيَّد بـ(أبناء الملوك) ؛ لأن غالب أولادهم حسان .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ قبَّل غلاماً بشهوةٍ . . عذَّبَهُ الله في نار جهنمَ ألفَ سنةٍ »[2] .

وكان الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه يمنع الأمرد من الدخول إلىٰ مجلسه ، فٱحتال صبيٌّ حسنٌ ودخل بين الرجال ، فلمَّا علم به الإمام مالكٌ . . أخرجه .

وقال بعضهم : رآني الإمام أحمد ٱبن حنبل رضي الله تعالىٰ عنه ومعي ٱبن أختي وهو يمشي معي وكان صبياً حسناً ، فقال لي : مَنْ هـٰذا الذي معكَ ؟ فقلتُ : ٱبنُ أختي ، قال : لا تمشِ معه ولا تماشِهِ مرَّةً أخرىٰ ؛ لئلاَّ تظنَّ الناسُ بكَ الظنونَ .

وروي : أنَّ عيسىٰ عليه الصلاة والسلام مرَّ في سياحته علىٰ نارٍ تشتعلُ علىٰ رجلٍ ، فأخذَ ماءً ليطفئها عنه ، فٱنقلبت النار صبياً ، وٱنقلبَ الرجلُ ناراً ، فوقفَ عيسىٰ عليه الصلاة والسلام متعجباً مِنْ ذلك ، فسأل ربَّهُ عزَّ وجلَّ أنْ يرُدَّهما إلىٰ حالهما أو يخبرَهُ بحالهما ، فأوحى الله إليه : سلهما عن حالهما ، فرجعَ الرجلُ إلىٰ حاله ، ورجع الصبيُّ ناراً تُحرقُهُ ،

---

(١) عزاه الحافظ ابن حجر في « تلخيص الحبير » (٣/ ١٤٨) إلى ابن شاهين في « الأفراد » ، وفتنة سيدنا داوود عليه الصلاة والسلام أخرجها ابن أبي شيبة في « المصنف » (٧/ ٤٦٥) في حديث طويل .

(٢) أخرجه ابن الجوزي في « الموضوعات » (٢/ ٣٠٢) .

فقال عيسىٰ عليه الصلاة والسلام للرجل : ما أنتما ؟ فقال الرجل : يا روح الله ؛ إنِّي كنتُ في الدنيا مبتلىً بحبِّ هـٰذا الصبيِّ ، فلمَّا كان في بعض الأيام أو الأوقات.. فعلتُ به الفاحشةَ ، فلمَّا مُتُّ ومات الصبيُّ.. صار الصبيُّ ناراً يحرقني مرَّةً ، وأصير ناراً أحرقه مرَّةً ، فهـٰذا عذابنا إلىٰ يوم القيامة يا نبيَّ الله ، فتركهما ومضىٰ إلىٰ حاله ، وٱستعاذ بالله مِنْ ذلك .

فنسأل الله تعالى العفو والعافية والحماية مِنَ الوقوع في الفواحش ، ونسأله النجاةَ مِنَ النار بجاه النبيِّ المختار صلى الله عليه وسلم .

وقال أبو سهل ـ من التابعين ـ : (يكون في هـٰذه الأمة قومٌ يقال لهم : اللوطيون ، علىٰ ثلاثة أصناف : صنف ينظرون ، وصنف يصافحون ، وصنف يعملون ذلك الخبيث)[1] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « زنا العين النظر »[2] ، فلذلك بالغ الصالحون من السلف في الغضِّ والإعراض عن مجالسة المردان ؛ حذراً مِنْ فتنة النظر وخوفاً من عقوبته .

وقال بعضهم : إياكم والنظر ؛ فإنَّهُ يَنقُشُ في القلب صورة المنظور إليه ، ولا حِيْلَةَ كَحِيْلَةِ عَيْنٍ كَحِيْلَةٍ .

وذُكر عن رجل مِنَ الصالحين : أنَّه نظر إلىٰ صبيٍّ حسنِ الوجه وقال : تباركَ اللهُ أحسنُ الخالقينَ ، فجاءه سهمٌ فقلع عينه ، فبات تلك الليلة وهو مهموم بسبب ذلك ، فرأى الحق سبحانه وتعالىٰ في منامه وهو يعاتبه بسبب نظره ، فقال : يا ربِّ ؛ إنَّما نظرتُ بعين الاعتبار والتفكر في خلقك! فقال له الحق جلَّ وعلا : نظرتَ بعين الاعتبار فرميناك بسهم الأدب ، ولو نظرتَ بعين الشهوة.. رميناك بسهم الحرمان .

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من نظر إلىٰ صبيٍّ حسنٍ بشهوةٍ.. حبسَهُ اللهُ في النار أربعينَ عاماً » ، فإذا كان هـٰذا في النظر.. فكيف حالُ مَنْ يفعلُ الفاحشة ؟! حمانا الله تعالىٰ مِنْ ذلك ، آمين بجاه سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم .

وكان الربيع بن خَيْثَم مِنْ شدَّة غضِّ بصره وإطراقه يظنُّ الناس أنَّهُ أعمىٰ ، وكان يختلف إلى ابن مسعود رضي الله عنه مدَّةَ عشرينَ سنةً ، فإذا طرق الباب.. خرجت إليه الجارية ،

---

(١) أخرجه ابن الجوزي في « ذم الهوىٰ » (١/١١٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٠١٩) .

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٤٣) ، ومسلم (٢٦٥٧) .

فتراه مطرقاً غاضاً بصره ، فترجع إلىٰ سيدها وتقول : صديقك ذاك الأعمىٰ قد جاء ، فكان ابن مسعود رضي الله عنه يتبسَّمُ مِنْ قولها ، وكان ابن مسعود رضي الله عنه إذا نظر إليه يقول : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ ، أَمَا واللهِ لو رآك سيِّدنا محمد صلى الله عليه وسلم . . لفرح بك وأحبَّك[1] .

وقال محمد بن عبد الرحمـٰن رحمه الله تعالىٰ : (كنتُ مع أستاذي أبي بكر رحمه الله تعالىٰ ، فمرَّ صبيٌّ حديثُ السنِّ ، فنظرتُ إليه ، فرآني أستاذي وأنا أنظرُ إليه فقال : يا بنيَّ ؛ لتجدنَّ غِبَّها ـ بالكسر ؛ أي : عاقبتها ـ ولو بعد حين ، فبقيتُ عشرينَ سنةً وأنا أُراعي ذلك الغِبَّ ، فنمتُ ليلةً وأنا متفكِّرٌ فيه ، فأصبحت وقد نسيت القرآن كلَّه وقائل يقول : هـٰذا غِبُّ تلك النظرة)[2] .

وقال أبو بكر الكتاني رحمة الله عليه : (رأيتُ بعض أصحابنا في المنام ، فقلت له : ما فعل الله بك ؟ قال : عرض عليَّ سيئاتي وقال : فعلتَ كذا وكذا ؟ فقلت : نعم ، قال : وفعلتَ كذا وكذا ؟ فقلت : نعم ، قال : وفعلتَ كذا وكذا ؟ فاستحييت أنْ أُقِرَّ ، فقلتُ له[3] : ما كان ذلك الذنب ؟ فقال : مرَّ بي غلامٌ حسنُ الوجه ، فنظرتُ إليه ، فأقمتُ بين يدي الله سبعينَ سنةً أتصبَّبُ عرقاً مِنْ خجلي منه ، ثمَّ عفا عني) .

وروي عن أبي عبد الله رحمه الله تعالىٰ : أنه رأىٰ في المنام بعض أصحابه فقال له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لي كلَّ ذنب أقررتُ به إلا ذنباً واحداً استحييت أنْ أقرَّ به ، فأوقفني في العَرَقِ حتىٰ سقط لحم وجهي ، فقلتُ : ما كان ذلك الذنب ؟ قال : نظرتُ إلىٰ شخص جميل ، فعوقبت بذلك .

واعلم : أنَّ اللواطَ حرامٌ ، أجمع المسلمون وغيرهم مِنْ أهل الملل علىٰ أنَّهُ مِنَ الكبائر ، واختلف في حكمه :

فعند إمامنا الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه : أنَّه حكمُ الزنا ، فيُرجمُ المحصنُ ، ويُجلدُ

---

(١) أخرجه ابن سعد في « الطبقات » (٦/ ١٨٢) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٨/ ٩٤ ، ٣٠٠) ، والطبراني في « الكبير » (١٠/ ١٥١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٠٦) .

(٢) أخرجه عن أبي بكر الزقاق رحمه الله تعالى الخطيب في « تاريخ بغداد » (٣/ ٦٢) .

(٣) أي : قال الكتاني لمن رآه في منامه .

غيره مئة جلدةٍ ويغرَّبُ عن وطنه فوقَ مسافةِ القصر ؛ وأمَّا المفعول به : فإن كان صغيراً أو مجنوناً أو مكرهاً . . فلا حدَّ عليه ، وإن كان مكلفاً مختاراً . . جلد وغُرِّب محصناً كان أو غيره[1] .

وعند السادة الحنفية رضي الله تعالىٰ عنهم : أنَّهُ لا يجب به الجلد إلاَّ إذا تكرَّر ، فيقتل على المفتىٰ به[2] .

وعند الإمام أحمد ابن حنبلٍ رضي الله تعالىٰ عنه : يتحتم قتله ـ وهو قول بعض فقهائنا رضي الله تعالىٰ عنهم ـ محصناً كان أو غير محصن[3] ؛ لحديث : « مَنْ وجدتموهُ يعملُ عمَلَ قومِ لوطٍ . . فاقتلوا الفاعلَ والمفعولَ بهِ »[4] .

وعلىٰ هـٰذا : فيقتل بالسيف كالمرتدِّ .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : (يُنظرُ إلىٰ أعلىٰ بناءٍ في القريةِ فيُرمى اللوطيُّ منكَّساً ، ثم يُتبَعُ بالحجارة)[5] .

فائدة

[في بيان سبب إحداث اللواط]

ذكر بعضهم : أنَّ سبب إحداث اللواط : أنَّ قوم لوط عليه الصلاة والسلام كانت لهم مدائنُ لم يكن في الأرض مثلها ، فقصدهمُ الناس فآذَوهم ، فتعرَّض لهم إبليس ـ لعنه الله ـ في صورة شيخ وقال لهم : إنْ فعلتم بهم كذا ـ أي : لطتم ـ نجوتم منهم ولم يعودوا يقصدونكم ، فأبَوا ذلك ؛ فلمَّا ألحَّ الناس عليهم . . قصدوهم ، فأصابوا غلماناً ، فأفحشوا فيهم ، فاستحكم ذلك فيهم ، وصار دينَهم حتىٰ صاروا يحلفون به .

وعنِ الكعبي : (إنَّ أوَّلَ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قومِ لوطٍ إبليسُ ؛ اعترضَ في صورة أمردَ

---

(1) انظر « تحفة المحتاج » (٩/١٠٣ ، ١٠٤) ، و« نهاية المحتاج » (٧/٤٢٤) .
(2) انظر « شرح فتح القدير » (٥/٤٣) .
(3) انظر « الإنصاف » (١٠/١٧٦) .
(4) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٤/٣٥٥) ، وأبو داوود (٤٤٦٢) ، والترمذي (١٤٥٦) .
(5) أخرجه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٦/٤٩٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٠٠٤) .

حسنٍ ، ودعاهم إلىٰ دبره ، فأمرَ اللهُ سبحانه وتعالى السماء أنْ تمطرَ عليهم حجارةً من سجيل ، وأمر الأرض أنْ تخسفَ بهم)[1] .

خَاتِـمَة

تتعلق بهـذا المحل

وهي أنَّ طريقةَ المُطاوِعةِ : صحبتُهم للمردان ، ويجلسونَهم خلف ظهورهم ويسمونهم بالبدايات ، وتراهم يفتخرون بذلك ، ولا يصحبون إلاَّ الأمرد الجميل ، مع أنَّ طريقتهم مرضيَّة ؛ لأنَّها فرعٌ مِنْ طريقة السادة الصوفية ، وإنما سموا مُطاوِعة ؛ لطاعتهم لربِّهم فيما أمرهم به ونهاهم عنه ؛ إذ شدَّدوا علىٰ أنفسهم في الطاعة والعبادة ، فنالوا بذلك السيادة ، ولم يتتبَّعوا الرُّخَصَ ، بل جعلوا في حقِّهمُ المستحبَّ كالواجب ، والمكروهَ كالمحرَّم ، والمحرَّمَ كأنَّهُ كُفْرٌ ، ولزموا الأدبَ معَ سيِّدهم ، فلهـٰذا بلغوا مرادَهم لمَّا أخلصوا لربِّهم وِدادَهم .

وأمَّا صحبتُهم للمردان : فكان في الزمن السابق لا يصحبه إلاَّ العارف به وبمكائد الشيطان ، ولهـٰذا يصير عنده بمنزلة ولده بل أعزَّ .

فإن قلت : ما الحكمة في جعلهم البدايات خلف ظهورهم ؟

قلت : لشدَّةِ اْجتنابهم المكروهات والمحرَّمات ، فجعلوهم خلف ظهورهم ؛ لأجل ألاَّ ينظروا إلىٰ وجوههم ولا يَمَسُّوهم ، ولذلك أمروهم بغضِّ البصر ، وإطراق الرأس ، وخفض الأصوات ، وأرشدوهم إلىٰ طريق الخيرات ، فإذا رَأَوْا مِنَ الأمرد خيراً ورشداً وسلوكاً . . أحبُّوه لأجل ذلك ، وكتموا عنه المحبَّة ، ولم يُعْلِموه بها حتىٰ يكمُل عقلُه ، ويطلُع شعرُه في وجهه ؛ لأنَّ الصغير ما دام في سنِّ الصبا . . لا يوثق به ؛ لأنَّه ناقصٌ سريعُ التغيُّر ، فإذا طلع الشعر في وجهه ، وكَمَلَ عقلُه ، وثبتَ قدمُه في الطريق . . أَمِنُوا عليه ، فأعلموه بالمحبَّة له ، ونظروا في وجهه .

---

(١) أخرجه بنحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما الحاكم في « المستدرك » (٢/٥٦٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٠/٣١٣) .

وحكيَ عن سويد المالكي ـ وهو من مشايخ هـٰذه الطريقة التي أسَّسوها ـ : أنَّه رَبَّىٰ صغيراً وأدَّبه خلفَ ظهرِهِ حتىٰ طلعت لحيته وبَدَرَهُ الشيبُ وما رآه قطُّ ، فقال له يوماً : يا عمٍّ ؛ ٱشتر لي مشطاً ، فقال له : ما تصنع به ؟ قال : أُسرِّحُ به لحيتي ، فعند ذلك نظر إليه وقدمه ، فمثل هـٰذا الذي يجوز له أن يربيَ الأمرد خلف ظهره رضي الله عنه .

ويجاب أيضاً عن جعلهم البدايات خلفَ ظهورهم : بأنَّ النظرَ إلى الأمرد مِنْ غير شهوةٍ مختلَفٌ فيه ، فعلى المعتمد : أنه لا يحرم حينئذٍ ، سواء كان للتعليم أو غيره ، فلمعلمه أنْ ينظرَ إليه مِنْ غير شهوةٍ ومِنْ غير مماسَّةٍ بينهما ، وله أنْ يختليَ به إنْ أَمِنَ الفتنةَ ؛ فلمَّا كان النظر مختلفاً فيه ، وتقدم أنَّهم نزَّلوا السُّنَّةَ في حقِّهم منزلةَ الواجبِ ، والمكروهَ منزلةَ المحرَّمِ ، والمحرَّمَ منزلةَ الكفرِ . . جعلوهم خلفَ ظهورهم ؛ حسماً للباب ، وخروجاً مِنَ الخلاف ، رضي الله تعالىٰ عنهم ونفعنا بهم .

ويجاب أيضاً : بأنَّهم إنَّما فعلوا ذلك ٱقتداءً بفعله صلى الله عليه وسلم كما تقدم في وفد عبد القيس ، وقال : « إنَّما كانت فتنة داوود منَ النظرِ »[1] ، مع أنَّه صلى الله عليه وسلم كان معصوماً ، فغير المعصوم أولىٰ أنْ يَجتنبَ ما يجرُّ إلى الفتنة .

وأيضاً : الأمرد لا بدَّ له مِنْ مُرشدٍ يُرشدُهُ ، فلمَّا تعرَّضوا لإرشاده . . جعلوه خلفهم ، وعلَّموه الخير من غير أن يمسُّوه أو يناموا معه ، وإذا كانوا في سفرٍ . . أناموه وحده ، وإذا كانوا في الحضر . . أناموه في الخلوة ، ويكونُ بالنهار خلفهم ، وبالليل في الخلوة وحده ، ولا ينظرونَ إليه حتىٰ تطلُع لحيته كما تقدم عن سويد المالكي رضي الله تعالىٰ عنه ، فهـٰذه طريقة المُطاوِعة المرضيَّةُ ، وعليها يُحملُ قولُ الشيخِ محمد بن داوود الشربيني : (أنا صوفي سلكت جميع الطرق ، فما رأيتُ أحسنَ مِنْ طريقةِ المُطاوعة) اهـ

فكلُّ مَنْ وُجدتْ فيهِ الأوصافُ المتقدمة . . جاز له أنْ يربيَ الأمردَ ، وكلُّ مَنْ كانَ خلافَ ذلك . . لا يجوز له أبداً ، وإنْ خالفَ . . فهوَ هالكٌ ممقوتٌ .

ومِنَ المخالفين الهالكين : مُطاوِعةُ أهل هـٰذا الزمان ؛ فإنَّهم مُطاوِعونَ للشيطان ، وعاصون للرحمـٰن ؛ لأنَّهم ينامونَ مع المردان ، ويجلسونَ معهم كأنَّهم نسوان ، ويأمرونَهم

---

(١) تقدم تخريجه (ص٦٦) .

بتكبيسهم وتجسيسهم ، ويجعلونهم في اجتماعهم خلف ظهورهم صورةً ، وهي في الحقيقة معانقةٌ بالظهور والصدور وغير ذلك ، وهـٰذا خلافُ ما كان عليه المتقدمونَ مِنْ أهل هـٰذه الطريقة ، فنعم هـٰؤلاء الأكابر ، ولكن بئسما خلفوا ؛ فقد لَبَّس عليهمُ الشيطان ، وأوقعهم في الطغيان ، وقال لهم : هـٰذه طريقة الدين ، كذبَ عدوُّ الله ، بل هي طريقةُ الشياطين ، فإنِ اعتقدوا حِلَّ ما يفعلونهُ في هـٰذا الزمان مِنَ القبائح مع المردان . . فقد كفروا ووجبت لهمُ النيران .

قال القطب الرباني سيدي عبد القادر الجيلاني : (النظر في محاسن الأمرد كلُّهُ شرٌّ ، ما فيه ذرة من خير) اهـ

وأقبحُ هـٰذه الأمور معانقة البدايات بالظهور والصدور مع إرخاء ساتر عليهما ؛ لأنَّ أحدهم يجد بذلك لذَّة وراحة عظيمة ، ويسمُّونها راحة الفقراء ، وهو مع ذلك يزعُمُ أنَّ هـٰذه محبَّةٌ لله ، وليس كما زعم ، بل هي معصية له ، تُغضِبُ اللهَ تعالىٰ وتُوجِبُ عقابَه ، حمانا اللهُ مِنْ كلِّ فعلٍ يُبعدنا عنِ الرحمـٰن ، ومِنْ كلِّ خَصْلَةٍ تُرضي الشيطان ، آمين ، بجاه سيِّد ولد عدنان عليه أفضل الصلاة والسلام .

[تَتِـمَّة]

[في وظيفة البدايات والنهايات مع بعضهم البعض]

مِنْ وظيفة البدايات بالنهار : خدمةُ الفقراء ، وتفليةُ ثيابهم ، وغسلُ أيديهم ، وحملُ الأباريق والنعال ، وغير ذلك ، مع غضِّ أبصارهم ، وإطراقِ رُؤوسهم ، وخفضِ أصواتهم ، وطلبِهمُ الدعاء من الفقراء الكبار ، وبالليل : تهجدُهم فيه علىٰ قدر نشاطهم .

ومِنْ وظيفة كبارهم معهم : تعليمُهمُ الخير ، والشفقةُ عليهم ، وترغيبُهم في الخصال الحميدة والأفعال السديدة ، ولينُ الكلام لهم ، وتأليفُهم للطريق ، إلىٰ غير ذلك ممَّا يُرضي الرحمـٰن ويُغضِبُ الشيطان ، وهـٰذا لا يكون إلاَّ مِنْ عالمٍ عارفٍ ربانيٍّ ؛ كالمتقدمين مِنْ مشايخ أهلِ هـٰذه الطريقةِ ، وقد أَحوجنا الحالُ إلى الخروجِ عنِ الاختصار في هـٰذا المقام ، نسأل الله تعالى العفو والعافية ، وأنْ يجيرَنا من النار ، وألاَّ يهتِكَ أَستارَنا بينَ يديه ؛ إنَّهُ جوادٌ كريمٌ غفَّارٌ .

وللهِ درُّ القائل حيث قال : [من الرجز]

لاَ تَصْحَبَنَّ أَمْرَداً يَا ذَا ٱلنُّهَىٰ وَٱتْرُكْ هَوَاهُ وَٱرْتَجِعْ عَنْ صُحْبَتِهْ

فَهْوَ مَحَلُّ ٱلنَّقْصِ دَوْماً وَٱلْبَلاَ كُلُّ ٱلْبَلاَءِ أَصْلُهُ مِنْ فِتْنَتِهْ

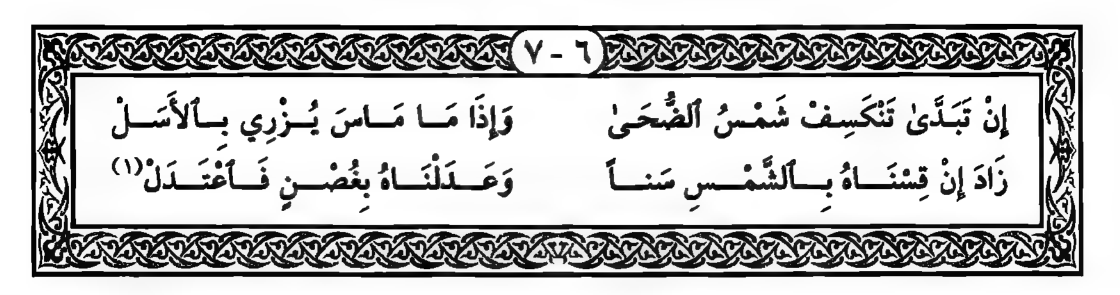
وقال بعضهم : [من البسيط]

لاَ تَرتَجِي أَمْرَداً يَوْماً عَلَىٰ ثِقَةٍ مِنْ حُسْنِهِ طَامِعاً فِي ٱلْخَصْرِ وَٱلْكَفَلِ

فَذَاكَ دَاءٌ عُضَالٌ لاَ دَوَاءَ لَهُ مُسْتَجْلِبُ ٱلْهَمِّ وَٱلأَسْقَامِ وَٱلْعِلَلِ

* * *

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



الغرض مِنْ هـٰذين البيتين : وصف الأمرد المذكور في البيت الذي قبلهما ، وإِنَّما وصفه بذلك ؛ لحسنه وجماله الفائق ، حتَّىٰ إِنَّه إن تبدَّىٰ ؛ أي : ظهر . . تنكسِف شمسُ الضحىٰ ؛ أي : تسودُّ ويذهب ضوؤها ـ وخَصَّ (الضحىٰ) بالذكر ؛ لأنَّ شمسَهُ أَضْوَأُ مِنْ غيره ـ وحتىٰ إنَّه إذا ماس ؛ أي : حلق رأسه بالموسىٰ . . يُزْري ؛ أي : يتهاونُ بالأَسَل ، يقال : أزرىٰ بالشيء إزراءً : تهاون به ، والأسل بالمهملة محركاً : الرماح ؛ لدقَّة أطرافها ، ومنه أسلة اللسان : لطرفِهِ المُسْتَدِقِّ ، وأصل الأسل : نبات تُتَّخذُ منه الحُصُر ، شُبِّهتْ به الرماحُ ، قاله في « شرح لامية الطغرائي »(٢) عند قوله : [من البسيط]

فَٱلْحُبُّ حَيْثُ ٱلْعِدَا وَٱلأُسْدُ رَابِضَةٌ حَـوْلَ ٱلْكِنَـاسِ لَهَـا غَـابٌ مِـنَ ٱلأَسَـلِ

وفي « الأشموني على الألفية » عند قوله : (وَشَذَّ إِيَّايَ وَإِيَّاهُ أَشَذْ) ما نصه : (وشذَّ « إِيَّاي » في قول عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه : « لِتُذَكِّ لكم ـ أي : لتذبح لكم ـ الأسلُ والرماحُ والسهامُ ، وإِيَّايَ وأَنْ يحذِفَ أحدُكم الأرنبَ »(٣) ، والأصل : إِيَّايَ باعدوا عن حذفِ الأرنبِ) اهـ(٤) ، قال في « حواشي الأشموني » : (الأسل : ما رَقَّ من الحديد ؛ كالسيف والسكين) اهـ ، ومقتضىٰ عطف الرماح على الأسل أنَّه غيرُها .

والمعنىٰ هنا : إذا حلق رأسه بالموسىٰ . . ٱزداد جمالاً علىٰ جمالٍ ، وزاد قتلُهُ للناظرينَ لهُ علىٰ قتل الرماح أو ما رقَّ مِنَ الحديد للمضروبينَ بها ، فأزرىٰ بالرماح أو بما رقَّ مِنَ

---

(١) في « الديوان » والمطبوع : (بالبدر) بدل : (بالشمس) ، ولعله الأنسب ؛ لذكر الشمس سابقاً .

(٢) « غيث الأدب الذي انسجم في شرح لامية العجم » للصفدي (١/ ٣٨٢) .

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٤/ ٦٢٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٤/ ٢٠) .

(٤) « شرح الأشموني » باب التحذير والإغراء (٣/ ١٩١) .

الحديد ، وصارت دونه تأثيراً ، هٰكذا ظهر لنا ، والله أعلم[١] .

وقد ذكر العلامة الشيرازي في « روضة القلوب » : (أنَّه رأىٰ بحماة رجلاً مِنْ أهل حمص يقال له : ابن الدوري ، وكان فاضلاً في فنِّه ، وعنده صبيان يعلِّمُهمُ الخطَّ ، فأفتتن بغلام منهم وأستهام به ، فبلغ ذلك أباه ، فمنعه مِنَ المُضيِّ إليه ، وأرسله إلىٰ مؤدِّب آخر وكان عدوّاً له ، فلمَّا بلغه الخبر . . أرتاع لذلك واشتدَّ به الغمُّ والأسف ، ولم يكن له حيلة في ذلك ، فكتب إلىٰ أبي الغلام رُقعةً يسألُهُ أنْ يعيدَهُ إليه ويستعطفُهُ بكلامٍ لطيفٍ ، فكتب إليه أبو الغلام يقول : هيهات ؛ لا تَطمعْ نفسُك بِعَودِ الغلام إليك أبداً بعد أن بلغني عنك ما بلغني ، ولئن ذكرت ولدي بعد ذلك . . رفعتُك إلى السلطان ؛ فلمَّا قرأ الرُّقعة . . أطرق ساعة إلى الأرض ، وأحمرَّت عيناه ووجهه حتىٰ كاد أن يقطر منهما الدم ، ثم جاشت نفسه ، وجاءه القيء ، فخرج إلىٰ باب المسجد وتقايأ دماً أسود ، ومضىٰ إلىٰ بيته ، فأضطجع والدم يخرج من حلقه ساعة بعد ساعة ، فجاءه الطبيب وسأله عن السبب ، فأخبره ، فحكم عليه أنَّ كبدَهُ أنفطرتْ ، ثمَّ عالجه ثلاثة أيام ، فلم ينقطعِ الدم ، ومات في اليوم الرابع) اهـ

فائدة : (ما) بعد (إذا) زائدة[٢]

وقوله : (زاد إن قسناه) أي : شبَّهناه بالشمس (سَناً) بالقصر ؛ أي : ضوءاً ؛ أي : زاد ضياءً على الشمس إنْ شبَّهناه بها .

وقوله : (وعَدَلْناه بغُصنٍ فأعتدل) أي : سوَّيناه وأقمناه مُقام الغصن فأعتدل ؛ أي : أستوىٰ وقامَ مَقامه ؛ أي : أنَّه مِنْ كثرة أعتدال قدِّه . . يقوم مَقام الغصن في ذلك .

وهٰذا التفسير الذي فسَّرنا به البيتين غالبه مأخوذ من « المصباح » .

---

(١) لكن جاء في مادة (ماس) في كتب اللغة : أنَّ الميس هو التبختر في المشية ، والرماح الأسل يضرب بها المثل باعتدالها واستقامتها ودقتها ، فعليه يكون المعنىٰ والله أعلم : أنه إذا تبختر ومشىٰ ، فلدقة قدِّه وجمال قوامه واعتداله . . أزرىٰ بالرماح ، وهزأ بها ، فكانت دونه حتىٰ لا تكاد تذكر ، علىٰ نحو قول أمين الجندي رحمه الله : [من البسيط]

تُزري الغصونَ فيا لله كم هزأتْ ... يا قومُ قامتُها الهيفاءُ بالأَسَلِ
بيضاءُ ميَّاسةٌ تَسبي العقولَ إذا ... ما أقبلتْ تنجلي بالحُلي والحُلَلِ

(٢) كما في قول الناظم : (وإذا ما ماس) .

والمقصود من كلام الناظم رحمه الله تعالىٰ : أنَّه يجب التغافل والتلاهي عن الأمرد الجميل جداً ، الجامع للصفات الخمسة التي ذكرها في قوله : (وعن الأمرد مرتجٍّ الكفل) ، و(إنْ تبـدَّىٰ . . .) إلـخ ، (وإذا مـا مـاس . . .) إلـخ ، و(زاد إنْ قسنـاه . . .) إلـخ ، (وعدلناه . . .) إلخ ؛ لأنَّه هو الذي يُخاف منه الفتنةِ كالمرأة ؛ لجمال وجهه ، واْعتدال قدِّه ، وأمَّا غيره ممَّن ليس فيه الصفات المذكورة . . فالواجب التغافل عنه أيضاً ؛ لأنَّه تقدَّم أنَّه يحرُم النظر إلى الأمرد بشهوة وإن كان غيرَ حسنٍ باْتِّفاقِ النوويِّ والرافعيِّ[1] ، وإنَّما لم يذكره الناظم ؛ لأنَّ الغالب عدم الافتتان به ، هـٰكذا ظهر لنا ، والله أعلم .

* * *

---

(١) انظر (ص٦٣) وما بعدها .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :

٨

وَٱفْتَكِرْ فِي مُنْتَهَىٰ حُسْنِ ٱلَّذِي ... أَنْتَ تَهْوَاهُ تَجِدْ أَمْراً جَلَلْ

هـٰذا معطوفٌ علىٰ قوله :

(وَٱلْهَ عَنْ آلَةِ لَهْوٍ أَطْرَبَتْ ... وَعَنِ ٱلأَمْرَدِ ....)

أي : أَرِحْ نفسك عنِ الاشتغال بآلة لهوٍ وبالأمرد ، فإذا غلبت عليك نفسك ، ودعتك إلىٰ محبة شيء مِنْ زينة الحياة الدنيا . . فأفتكر[1] وتذكر في منتهىٰ ؛ أي : في نهاية وآخرة حُسْنِ ذلك الشيء الذي أنت تهواه وتحبُّه وتميل إليه ، تجدْه أمراً جَلَلاً ـ بفتحتين ـ أي : هيِّناً غيرَ عظيم ؛ لأنَّ الدنيا فانيةٌ ، عاقبتها إلى الزوال ، فأميرها حقير ، وغنيُّها فقير ، وعزيزها ذليل ، فإذا تفكَّرت في عاقبة الشخص الذي أنت تحبُّه . . تجدْ عاقبته الموت ، ثمَّ يصيرُ جيفةً قذرةً لا يطيق أحدٌ الجلوس عندها ، ثم يفنىٰ ويصير تراباً ، وكذا كلُّ مَنْ عليها مِنْ خلق وإبل وبقر وخيل وأشجار ودور مزخرفة ، فسبحان الباقي بعد فناء خلقه!

قال تعالىٰ : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴾ أي : هي في إعجابها لكم وذهابها كمثل غيث ؛ أي : مطر ﴿ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ ﴾ أي : الزراع ﴿ نَبَاتُهُۥ ﴾ أي : الناشيء عنه ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ أي : ييبس ﴿ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ﴾ أي : فُتاتاً يذهب بالرياح ﴿ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ أي : لمن آثر الدنيا على الآخرة ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ﴾ أي لمن لم يؤثر الدنيا على الآخرة ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ .

وخرج بما ذكره الناظم : ما إذا كان تفكُّرُه في نهاية ما عند الله عزَّ وجلَّ مِنَ الملْك الذي

---

(١) أي : تفكَّر ، وفي « تاج العروس » مادة (فكر) : أن (افتكر) من استعمال العامة .

لا يبلىٰ ، والنعيم الذي لا يفنىٰ ، وما أعدَّ الله للمتقين من عباده في الجنَّة ممَّا لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر علىٰ قلب بشر ؛ فإنَّ الأمر فيه عظيم وليس بهيِّن ، بل هو من باب الاعتبار المنصوص عليه بقول الله تعالىٰ : ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ .

تنبيه

[في الفرق بين الجُلَل والجَلَل]

قال الخليل والجوهري رحمهما الله تعالىٰ : الأمر الجلل بضم الجيم : العظيم ، وبفتحها : الحقير[1] ، وهـٰذه اللفظة وقعت في بعض غزواته صلى الله عليه وسلم مِنِ امرأةٍ قُتل أبوها وابنها وزوجها في تلك الغزوة ، ورأتهم صرعىٰ على الأرض ، ورأتِ النبيَّ صلى الله عليه وسلم راكباً علىٰ فرسه ، فقالت له : يا رسول الله ؛ كلُّ شيء دونك جَلَل ؛ أي : هيِّنٌ حقيرٌ ، رضي الله تعالىٰ عنها ونفعنا بها آمين[2] .

فائدة

[في معاني الهوىٰ]

الهوىٰ يطلق بمعنى المحبَّة ؛ كما في قول الناظم : (أنتَ تهواه) أي : تحبُّه ، وكما في قول البوصيري : [من البسيط]

لَوْلاَ الْهَوَىٰ لَمْ تُرِقْ دَمْعاً عَلَىٰ طَلَلٍ ... وَلاَ أَرِقْتَ لِذِكْرِ الْبَانِ وَالْعَلَمِ

ويطلق بمعنى الباطل ؛ كما في قوله تعالىٰ : ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ، وقوله تعالىٰ : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ أي : بالباطل ، فـ(عن) في الآية بمعنىٰ (الباء) .

قال بعضهم : وإنَّما سمِّيَ الهوىٰ هوىً ؛ لأنَّه يهوي بصاحبه إلىٰ ما لا مردَّ له .

---

(١) الذي في « الصحاح » للجوهري مادة (جلل) ، و« العين » للخليل (٦/١٩) ، وغيرهما من كتب اللغة : أنَّ الجَلَل بالفتح يطلق على العظيم والحقير ، وأنه من الأضداد ، وأما بالضم : فهو جمع جُلَّىٰ ؛ وهي الأمر العظيم ، ككُبْرَىٰ وكُبَر ، ويكون المعنىٰ في أنَّ الجلل الأمر العظيم : تأمل في نهاية حسن الذي تهواه وتميل إليه . . تجده أمراً عظيماً مفزعاً تنفر عنه الطباع ، على أن ما ذكره المصنف رحمه الله لا يبعد ، والله أعلم .

(٢) أخرجه الواقدي في « المغازي » (١/٢٩٢) ، والطبري في « التاريخ » (٢/٥٣٢) ، والبيهقي في « الدلائل » (٣/٣٠٢) .

روى البزار عن أنس بن مالك رضي الله تعالىٰ عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثٌ منجياتٌ ، وثلاثٌ مهلكاتٌ ؛ فالمنجياتُ : خشيةُ الله تعالىٰ في السرِّ والعلانية ، والحكمُ بالعدل في الرضا والغضب ، والاقتصادُ في الغنىٰ والفقر ، والمهلكاتُ : شحٌّ مُطاع ، وهوىً مُتَّبع ، وإعجابُ المرءِ برأيه »[1] .

وكان علىٰ خاتَم بعض الحكماء مكتوب : (مَنْ غلبَ هواه علىٰ عقله . . ٱفتُضِح) .

وعن سليمان بن داوود عليهما الصلاة والسلام : (الغالب لهواه أشدُّ مِنَ الذي يفتح المدينة وحده)[2] .

وعن حذيفة بن قتادة قال : (كنتُ في مركب ، فكسرت بنا ، فوقعت أنا وٱمرأة علىٰ لوح ، فمكثنا سبعة أيام ، فقالت المرأة : عطشنا ، فسألت الله أن يسقيها ، فنزلت عليها من السماء سلسلة فيها كوز معلَّقٌ فيه ماء ، فشربتْ ، فرفعتُ رأسي أنظر إلى السلسلة ، فرأيت رجلاً جالساً في الهواء ، فقلت : ممَّن أنت ؟ فقال : مِنَ الإنس ، فقلت : فما الذي بلَّغك هـٰذه المنزلة ؟ قال : آثرتُ مراد الله علىٰ هواي ، فأجلسني كما تراني)[3] .

وعن عبد الواحد بن محمد الفارسي قال : (سمعت بعض أصحابنا يقول : رأيت غرفة في الهواء وفيها رجل ، فسألته عن حاله التي بلَّغتْهُ إلىٰ تلك المنزلة ؟ فقال : تركتُ الهوىٰ ، فأُدخلت في الهواء) .

وقال رجل للحسن : يا أبا سعيد ؛ أيُّ الجهاد أفضل ؟ قال : جهادُك هواك .

وقيل ليحيىٰ بنِ معاذ : مَنْ أصحُّ الناس عزماً ؟ فقال : الغالبُ لهواه .

ودخل خلف بن خليفة علىٰ سليمان بن عبد الملك وعنده جاريةٌ يقال لها : البدر ، مِنْ أحسن الجواري وجهاً ، وأكملهنَّ خَلْقاً ، فقال سليمان لخلف : كيف ترىٰ هـٰذه الجارية ؟ فقال : أَصْلَحَ اللهُ أمير المؤمنين ، ما رأتْ عينايَ أحسنَ منها ، فقال : خُذْ بيدها ، فقال :

---

(١) أخرجه البزار كما في « مجمع الزوائد » (٩٦/١) ، والطبراني في « الأوسط » (٥٤٤٨) ، والقضاعي في « مسنده » (٣٢٥) .

(٢) أخرجه ابن جميع في « معجم الشيوخ » (٢٢٦/١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٢٦/٩) .

(٣) أخرج القصة ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (١٨٨/٤) .

ما كنتُ لأفعل ولا أسلبها الأميرَ وقد عرفتُ عجبَهُ بها ، فقال : خُذْها علىٰ عجبي بها ؛ لِيَعْلَمَ هوايَ أنّي غالِبٌ له ، فأخذ بيدها وخرج وهو يقول : [من البسيط]

لَقَدْ حَبَانِي وَأَعْطَانِي وَفَضَّلَنِي ... مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ مِنِّي سُلَيْمَانُ
أَعْطَانِيَ ٱلْبَدْرَ جُوداً فِي مَحَاسِنِهَا ... وَٱلْبَدْرُ لَمْ يُعْطَهُ إِنْسٌ وَلاَ جَانُ
وَلَسْتُ حَقّاً بِنَاسٍ عُرْفَهُ أَبَداً ... حَتَّىٰ يُغَيِّبَنِي لَحْدٌ وَأَكْفَانُ[1]

وٱعلم : بأنَّ الهوىٰ ـ بالقصر ـ هو المراد هنا ، ويجمع علىٰ : أهواء ، وأما الهواء ـ بالمد ـ : فهوَ ما بين السماء والأرض ، ويجمع علىٰ : أهوية ، ويجمعهما قولُ بعضهم : [من الكامل]

جُمِعَ ٱلْهَوَاءُ مَعَ ٱلْهَوَىٰ فِي أَضْلُعِي ... فَتَكَامَلَتْ فِي مُهْجَتِي نَارَانِ
فَقُصِرْتُ بِٱلْمَمْدُودِ عَنْ نَيْلِ ٱلْمُنَىٰ ... وَدُرِجْتُ بِٱلْمَقْصُورِ فِي أَكْفَانِي[2]

* * *

---

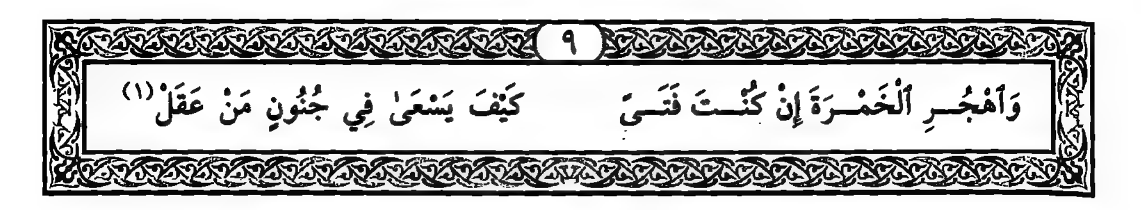
(١) القصة والأبيات أخرجهما اليزيدي في « أماليه » (ص٢٢٢) ، ووقع في الأصل : أنَّه دخل علىٰ سليمان بن حبيب ، ولعل الصواب ما أثبت من أنَّه دخل علىٰ سليمان بن عبد الملك الخليفة ، كما في « أمالي اليزيدي » .

(٢) البيتان لبليغ الدين القسطيني كما في « الوافي بالوفيات » (١٧/ ٥٥٦) ، لكن وقع البيت الثاني فيه :

فقصرت بالمقصور عن وصل الظبا ... ومددت بالممدود في أكفاني

وتعقبه الصفدي فقال : (لو قال : فقصرت بالممدود ، ومددت بالمقصور .. لكان أغزل وأشعر وأصنع) .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



أي : أتركِ الخمرةَ وتجنَّبها إنْ كنتَ فتىً ؛ أي : شاباً قوياً حاذقاً كاملاً مستجمعاً لخصال الكمال ، وجمعه : فتية وفتيان ، كما قرئ بهما في السبع في قوله تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ﴾ الآية[٢] ، وسمَّى الله تعالىٰ يوشع بن نون عليه الصلاة والسلام فتىً في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ ؛ لأنَّه كان سيِّداً عظيماً ملازماً لمن يأخذ عنه العلم .

ثمَّ أظهرَ الناظم رحمه الله تعالى التعجُّبَ ممَّن أعطاه الله عزَّ وجلَّ جزءاً مِنَ العقل الذي هو أحبُّ المخلوقات إليه تعالىٰ ، ومع ذلك يَصدُرُ منه هـٰذا الفعلُ الذميمُ الذي لا يَصدُرُ إلاَّ مِنَ المجانين ، فقال : (كيفَ يسعىٰ) أي : يذهبُ ويتسبَّبُ (في جنونٍ) أي : زوال عقلٍ (مَنْ عَقَلَ) بفتحتين ؛ أي : مَنْ تدبَّرَ ونَظَرَ في العواقب ، قال في « المصباح » : (عقلتُ الشيءَ عقلاً ؛ من باب ضرب : تدبَّرتُهُ) اهـ

واعلم : أنَّ حقيقة الخمرة هي المتخذة من عصير العنب خاصةً ، واتفق العلماء رضي الله تعالىٰ عنهم علىٰ أنَّ هـٰذا خمر نجس يحدُّ شاربه ويفسق ، ويكفر مستحلُّه ولو لم يسكر ، وأمَّا غيرُه كالمتخذ من التمر والحنطة والشعير والذرة والزبيب . . فلا يكون له حكم الخمرة إلا إذا أسكر ، فحينئذ يكون نجساً ويحدُّ شاربه ويفسق ، ويكفر مستحلُّه . اهـ

وكانت مباحة في صدر الإسلام يحلُّ تناولها لكلِّ أحد كسائر المباحات ، ولمَّا حرَّمها الله تعالىٰ . . سلب منها جميع المنافع .

قال البغوي في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ الآية ما نصه : (وجملة القول علىٰ تحريم الخمر : أنَّ الله أنزل في الخمر أربع آيات نزلت بمكة ، [وهي] :

---

(١) رواية « الديوان » تأخير هـٰذا البيت عن الذي بعده .

(٢) قرأ حفص وحمزة والكسائي من السبعة ، وخلف من العشرة : ﴿وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ﴾ ، وقرأ الباقون : ﴿وَقَالَ لِفِتْيَتِهِ﴾ .

﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ ، فكان المسلمون يشربونها وهي لهم حلال يومئذٍ ؛ ثمَّ إنَّ عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل وجماعة من الأنصار رضي الله عنهم أَتَوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ؛ أفتنا في الخمر والميسر ؛ فإنَّهما مذهبة للعقل مسلبة للمال ، فأنزل الله تعالىٰ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ ، فتركها قوم لقوله : ﴿ إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ ، وشربها قوم لقوله : ﴿ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾[1] ، إلىٰ أن صنع عبد الرحمـٰن بن عوف طعاماً ، فدعا أناساً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأتاهم بخمر ، فشربوا وسكروا ، وحضرت صلاة المغرب ، وتقدم بعضهم ليصلي بهم ، فقرأ : « قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون » بحذف « لا » النافية ، فأنزل الله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ ، فحرم السُّكر في أوقات الصلاة ؛ فلمَّا نزلت هـٰذه الآية . . تركها قوم وقالوا : لا خير في شيء يحول بيننا وبين الصلاة ، وتركها قوم في أوقات الصلاة ، وشربوها في غير أوقاتها حتىٰ كان الرجلُ يشرب بعد صلاة العشاء ، فيصبح وقد زال عنه السكر ، ويشرب بعد صلاة الصبح ، فيصحو إذا جاء وقت الظهر[2] ، واتَّخذ عِتبان بن مالك طعاماً ودعا رجالاً من المسلمين فيهم سعد بن أبي وقَّاص ، وكان قد شوىٰ لهم رأس بعير ، فأكلوا وشربوا الخمر حتىٰ أَخذَتْ منهم ، ثمَّ إنَّهمُ افتخروا عند ذلك وانتسبوا وتناشدوا الأشعار ، فأنشد سعد قصيدة فيها هجوٌ للأنصار وفخرٌ لقومه ، فأخذ رجل من الأنصار لَحْي البعير ، فضرب به رأس سعد ، فشجَّه شجَّة موضحة ، فانطلق سعد إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكا إليه الأنصاريَّ ، فقال عمر : اللهمَّ ؛ بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً ، فأنزل الله تعالىٰ تحريم الخمر في « سورة المائدة » في قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ وذلك بعد غزوة الأحزاب بأيام ، فقال عمر : انتهينا يا ربِّ)[3] اهـ[4]

---

(١) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٤/١٤٣) ، وأبو داوود (٣٦٧٠) ، والترمذي (٣٠٤٩) .
(٢) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٤/١٤٢) ، وأبو داوود (٣٦٧١) ، والترمذي (٣٠٢٦) .
(٣) أخرجه مسلم (١٧٤٨) ، وابن حبان (٦٩٩٢) ، والبيهقي (٨/٢٨٥) .
(٤) « تفسير البغوي » (١/٢٥٥) .

وفي « الخازن » عند تفسير هٰذه الآية : (عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ شرب الخمر . . لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحاً ، فإن تاب . . تاب الله عليه ، فإذا عاد . . لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحاً ، فإن تاب . . تاب الله عليه ، فإنْ عاد . . لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحاً ، فإن تاب . . لم يتب الله عليه ، وسقاه من نهر الخَبال » ، قالوا : يا أبا عبد الرحمٰن ؛ وما نهر الخَبال ؟ قال : صديد أهل النار .

أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن[1] .

وعن ابن عمر أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه » أخرجه أبو داوود)[2] .

قال في « تنبيه الغافلين » في الباب الخامس عشر ما نصه : (عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يُجاء بشارب الخمر يوم القيامة مسوداً وجهُهُ ، مزرقةً عيناه ، خارجاً لسانُهُ علىٰ صدره ، يسيل لعابُهُ ، يتقذّره كلُّ مَنْ رآه ، فلا تسلموا علىٰ شاربي الخمر ، ولا تعودوهم إذا مرضوا ، ولا تصلُّوا عليهم إذا ماتوا »[3] .

أقول : هٰذا محمول على المستحلِّ لها ، والله أعلم .

وقال كعب الأحبار رضي الله تعالىٰ عنه : « لأَنْ أشربَ قدحاً مِنْ نار أحبُّ إليَّ مِنْ أن أشرب قدحاً مِنْ خمر » .

---

(١) « سنن الترمذي » (١٨٦٢) ، وأخرجه بنحوه أحمد (٢/١٨٩) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، وعنه أيضاً ابن حبان (٥٣٥٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/١٤٦) ، والنسائي (٨/٣١٧) ، وابن ماجه (٣٣٧٧) ، وأحمد (٢/١٧٦) ، لكن بدون قوله : « فإن تاب . . لم يتب الله عليه » ، وكذا جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً ، وقد قال السندي ـ رحمه الله ـ عنه : (وهٰذا مشكل ، إلا أن يراد بعدم قبول التوبة : أنه لا يوفق للتوبة غالباً ، والله تعالىٰ أعلم) ، وقال أبو بكر ابن العربي رحمه الله في « العارضة » (٨/٥٣) : (وهٰذا مما لم يثبت ، ولا يعول عليه ، فإنَّ الله قد مدَّ التوبة إلى المعاينة عند الموت ، وثبت الخبر والإجماع علىٰ قبولها قطعاً إلىٰ ذلك الحدِّ ، فهٰذا الخبر وأمثاله لا يلتفت إليه) .

(٢) « تفسير الخازن » (١/١٤٧) ، وانظر حديث أبي داوود في « سننه » (٣٦٧٤) .

(٣) أخرجه ابن عدي في « الكامل » (٢/٢١٤) ، والديلمي في « الفردوس » (٧٤٦٥) ، ووقع في المخطوط : عن ابن مسعود رضي الله عنه .

وعن ابن عمر عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « كلُّ مسكرٍ حرامٌ ، وكلُّ مسكرٍ خمرٌ ، فمَنْ شربَ الخمر في الدنيا ومات وهو مدمنها ولم يتب منها . . لم يشربها في الآخرة »[1] .

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما أسكر كثيرُهُ . . فقليلُهُ حرامٌ »[2] .

وعن الزهري رضي الله عنه : أنَّ عثمان بن عفان رضي الله تعالىٰ عنه قام خطيباً فقال : « يا أيها الناس ؛ اتقوا الخمرَ ؛ فإنَّها أمُّ الخبائث ، وإنَّ رجلاً ممَّن كان قبلكم مِنَ العُبَّاد ، وكان يختلف إلىٰ مسجده ، فلقيتْهُ امرأةُ سوءٍ ، فأمرتْ جاريتها ، فأدخلته المنزل وأغلقت الباب ، وعندها خمرٌ وصبيٌّ ، فقالت : لا تفارقني حتىٰ تشربَ كأساً مِنْ هـٰذا ، أو تواقعَني ، أو تقتُلَ هـٰذا الصبيَّ ، وإلاَّ . . صِحْتُ وقلتُ : هـٰذا دخَلَ عليَّ في بيتي ، فمَنِ الذي يصدِّقُكَ ؟! فقال الرجل : أمَّا الفاحشةُ . . فلا آتيها ، وأمَّا النفْسُ . . فلا أقتلها ، فشربَ كأساً مِنَ الخمرة ، واللهِ ؛ ما بَرِحَ حتىٰ واقعَ المرأةَ وقتلَ الصبيَّ ، فقال عثمان رضي الله عنه : فاجتنبوها ؛ فإنَّها أُمُّ الخبائث ، وإنَّه ـ والله ـ لا يجتمع الإيمانُ والخمرُ في قلب رجلٍ . . إلاَّ يوشكُ أن يُذْهِبَ أحدُهُما الآخرَ »[3] يعني : أن شارب الخمر يجري علىٰ لسانه كلمة الكفر ، فيُخاف عليه أن يقولها عند الموت ، فيخرج من الدنيا على الكفر ، فيبقىٰ في حسرةٍ وندامة .

وروي في بعض الأخبار عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يخرج يوم القيامة شارب الخمر مِنْ قبره وهو أنتنُ مِنَ الجيفة ، والكوزُ معلَّقٌ في عنقه ، والقدحُ بيده ، ويملأُ ما بين جلده ولحمه حيات وعقارب ، ويلبس نعلاً يغلي منها رأسه ، ويجد قبره حفرة مِنْ حفر النار ، ويكون في النار قرينَ فرعون وهامان »[4] .

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٠٣) ، وابن حبان (٥٣٦٦) ، وأبو داوود (٣٦٧٩) ، والترمذي (١٨٦١) .

(٢) أخرجه أبو داوود (٣٦٨١) ، والترمذي (١٨٦٥) ، وابن ماجه (٣٣٩٣) .

(٣) أخرجه النسائي (٨/ ٣١٥) ، والبيهقي (٨/ ٢٨٧) ، وعبد الرزاق في « المصنف » (٩/ ٢٣٦) .

(٤) يشهد لحاله تلك ـ أن الكوز معلق في عنقه ، والقدح بيده ـ ما في « صحيح مسلم » (٢٨٧٨) وغيره : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يبعث كل عبد علىٰ ما مات عليه » ، وما في « مستدرك الحاكم » (٢/ ١٤٤) ، وغيره : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من مات علىٰ مرتبة من هـٰذه المراتب . . بعث عليها يوم القيامة » .

واعلم : أنَّ في شربها عشرَ خصال مذمومة :

أولها : إذا شربها يصير بمنزلة المجنون ، ويصير مَضحكة للصبيان ، ومذموماً عند العقلاء ، كما ذكر عن ابن أبي الدنيا أنه قال : رأيت سكران في بعض سكك بغداد يبول ويمسح بثوبه[1] ويقول : اللهمَّ ؛ اجعلني مِنَ التوَّابين واجعلني مِنَ المتطهرين .

وذكر : أنَّ سكران تقيأ في الطريق ، فجاء كلب فجعل يلحس فاه وهو يقول : يا سيدي ؛ حاشاك ، لا تفسد المنديل بارك الله فيك ، ثمَّ إنَّ الكلب رفع رجله وبال في وجهه وهو يقول : وماء جار .

الثانية : أنَّها مذهبة للعقل ، متلفة للمال ، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه : « اللهمَّ ؛ أرنا رأيك في الخمر ؛ فإنَّها متلفة للمال ، مذهبة للعقل » .

الثالثة : أنَّ شربها سبب للعداوة بين الإخوان والأصدقاء والناس ، كما قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ﴾ ، وهو القمار .

الرابعة : أنَّ شربها يمنع مِنْ ذكر الله تعالىٰ ومِنَ الصلاة ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ .

الخامسة : أنَّ شربها يحمل على الزنا ، وعلىٰ طلاق امرأتِه وهو لا يدري .

السادسة : أنَّها مفتاح كلِّ شرٍّ ؛ لأنَّه إذا شرب الخمر . . سَهُلَ عليه جميع المعاصي .

السابعة : أنَّ شربها يؤذي الحفظة الكرام بالرائحة الكريهة .

الثامنة : أنَّ شاربها أوجب علىٰ نفسه ثمانين جلدة ، فإن لم يُضرب في الدنيا . . ضُرِبَ في الآخرة بسياط مِنْ نار علىٰ رؤوس الأشهاد ، والناس ينظرون إليه والآباء والأصدقاء .

التاسعة : أنَّه أغلق باب السماء علىٰ نفسه ، فلا ترفع حسناته ولا دعاؤه أربعين يوماً .

العاشرة : أنَّه مخاطِرٌ بنفسه ؛ لأنَّه يُخاف عليه أنْ يُنْزَعَ الإيمانُ منه عند موته .

---

(١) وقع في « تنبيه الغافلين » (ص١٤٨) بدل قوله : (ويمسح بثوبه) : (وهو يتمسح ببوله) .

وأمَّا العقوبات التي له في الآخرة : فإنَّها لا تحصىٰ ؛ كشرب الحميم ، والزَّقُّوم ، وفوت الثواب .

وعن أسماء بنت زيد رضي الله تعالىٰ عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ شربَ الخمر فجعلتْ في بطنه . . لم يقبلِ الله منه صلاةَ سبعةِ أيَّامٍ ، فإنْ هيَ أذهبتْ عقلَهُ . . لم يقبلِ الله منه صلاةَ أربعينَ يوماً »[1] .

وروي عن بعض الصحابة أنَّه قال : « مَنْ زوَّج ابنتَهُ لشارب الخمر . . فكأنَّما ساقها إلى الزنا » معناه : أنَّ شارب الخمر يجري الطلاق علىٰ لسانه ، فربَّما حَرُمت عليه امرأته وهو لا يشعر .

وروي عن ابن مسعود أنه قال : « إذا مات شارب الخمر . . فادفنوه ، ثم أجلسوني ، ثم انبشوه ، فإنْ لم تجدوه مصروفاً عن القبلة . . فاقتلوني » .

وروىٰ أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « حلف ربي بعزَّته ؛ لا يشرب عبدٌ مِنْ عبيدي الخمر في الدنيا . . إلاَّ حرَّمتُها عليه في الآخرة ، ولا يتركها عبدٌ مِنْ عبيدي في الدنيا . . إلاَّ شربها في حظيرة القدس » ، قيل : وما حظيرة القدس ؟ قال : « الجنة »[2] .

وروي أنَّه صلى الله عليه وسلم قال : « حقٌّ على الله ألاَّ يشربَ الخمر عبدٌ مِنْ عبيده في الدنيا . . إلاَّ شربَ مِنْ طينة الخبال » ، قيل : يا رسول الله ؛ وما طينة الخبال ؟ قال : « صديدُ أهلِ النارِ »[3] .

وروي عن ابن عباس أنَّه قال : « لمَّا نزلت آية تحريم الخمر . . قالوا : كيف إخواننا الذين ماتوا وهم يشربونها ؟ فنزل قوله تعالىٰ : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ

---

(١) أخرجه الرافعي في « التدوين في أخبار قزوين » (١/١١٠) ، والسمرقندي في « تنبيه الغافلين » (ص١٥٢) مطولاً ، وأصله عند أحمد (٦/٤٦٠) ، والطبراني في « الكبير » (٢٤/١٦٨) .

(٢) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٨٥٨٧) بلفظ : « إنه لا يلج حظيرة القدس مدمن خمر » ، وبلفظ مقارب للمتن أخرجه عن أبي أمامة رضي الله عنه أحمد (٥/٢٥٧) ، والطيالسي في « مسنده » (١/١٥٤) ، والطبراني في « الكبير » (٨/١٩٧) .

(٣) سبق تخريجه (ص ٨٣) .

﴿ فِيمَا طَعِمُوٓاْ ﴾ الآية »[1] ؛ يعني : لا إثم على الذين شربوا الخمر قبل تحريمها ، والله أعلم)[2] .

ومَنْ أراد المزيد . . فعليه بالكتاب المذكور[3] .

فائدة

[في بيان حكم شرب الدخان]

ذكر سيدي علي الأجهوريُّ المالكي في « غاية البيان لحِلِّ شُربِ ما لا يغيِّب العقل من الدخان » نقلاً عن الشيخ خليل ما نصُّه : (قاعدةٌ تنفع الفقيه يعرف بها الفرق بين المسكر والمفسد والمرقد ؛ فالمسكر : ما غيَّب العقل دون الحواس مع نشأة[4] وطرب وفرح ، والمفسد : ما غيَّب العقل دون الحواس لا مع نشأة وطرب وفرح ، والمرقد : ما غيَّب العقل والحواس .

وينبني على الإسكار ثلاثة أحكام : الحدُّ ، والنجاسة ، وتحريم القليل .

إذا تقرَّر ذلك . . فللمتأخِّرين في الحشيشة قولان :

قيل : إنَّها مُسكرة ، وبه قال الشيخ عبد الله المنوفي ، قال : لأنَّا رأينا مَنْ يتعاطاها يبيع أمواله لأجلها ، فلولا أنَّ لهم فيها طرباً . . لَمَا فعلوا ذلك ، قلت : وبهـٰذا قال الزركشيُّ من الشافعية ، فقال : لا يجوز مِنَ الحشيشة لا قليل ولا كثير .

وقيل : إنَّها مِنَ المفسدات ، وصحَّح هـٰذا القول الشيخ أبو الحسن في « شرح المدونة » ، والعلامة ابن مرزوق ، والشهاب القرافي[5] ، وتبعه عليه المحقِّقون ؛ لأنَّ المتعاطين لها لا يميلون إلى القتال والنصرة ، بل عليهم الذِّلة والمسكنة ، قلت : وبهـٰذا قال ابن دقيق العيد من الشافعية ، فقال : « والأفيون ـ وهو لبن الخشخاش ـ أقوىٰ فعلاً مِنَ الحشيشة ؛ لأنَّ القليل منه يسكر مع أنَّهُ طاهر بالإجماع ، وكذلك الحشيشة طاهرة » .

---

(١) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٤/١٤٣) ، والترمذي (٣٠٥٢) ، وأحمد (١/٢٣٤) .

(٢) « تنبيه الغافلين » (ص١٤٥ـ١٥٤) .

(٣) أي : كتاب « تنبيه الغافلين » للسمرقندي .

(٤) النشأة : النشوة ، وهي بالواو أفصح من الهمز ، وهي : الشدة والقوة والنشاط .

(٥) انظر « الفروق » (١/٣٦١) .

وقال النووي في « شرح المهذب » : « لا يحرم أكل القليل الذي لا يسكر من الحشيشة ، بخلاف الخمر ؛ فيحرم قليلها الذي لا يسكر » اهـ[1]

ومثل الحشيشة : البنج والأفيون ، فيجوز أكل القليل الذي لا يسكر من الثلاثة ، وأمَّا الواصل إلى التأثير في العقل والحواس منها . . فحرام[2] .

ثم قال : إذا تقرَّر هـٰذا . . فنقول : شرب الدخان المعروف ليس ممَّا يغيِّب العقلَ أصلاً ، وليس بنجس ، وما كان كذلك . . لم يحرمِ استعماله لذاته ، بل لِمَا يعرِضُ عنه مِنْ ضررٍ ونحوه ، فمَنْ لم يضرَّهُ . . لم يحرُم عليه ، ومَنْ ضرَّهُ بإخبار عارفٍ يوثق به أو بتجربةٍ في نفسه . . حَرُمَ عليه ، وقد جرى الخلاف في الأشياء التي لم يَرِد في الشرع حكمُها ، والمرجَّحُ منه : تحريمُ الضارِّ دون غيره ؛ وأنت خبير بأنَّ ما يحصل منه لبعض مبتدئي شربهِ مِنَ الفتور ، كما يحصلُ لمَنْ ينزلُ في الماء الحارِّ ، أو لمن يشرب مسهلاً . . ليس مِنْ تغييب العقل في شيء كما يظنُّهُ بعضُ مَنْ لا معرفة له ، وإنْ سُلِّمَ أنَّهُ ممَّا يغيِّبُ العقلَ . . فليس مِنَ المسكر قطعاً ؛ لأنَّهُ ليس مع نشأة وفرح كما علم ، وحينئذٍ : فيجوز استعماله لمن لا يغيِّبُ عقلَهُ ، كاستعمال الأفيون لمن لا يغيِّب عقلَهُ ، وهـٰذا يختلف باختلاف الأمزجة والقِلَّة والكَثْرة ، وقد يُغيِّبُ عقلَ شخصٍ ولا يُغَيِّبُ عقلَ آخر ، وقد يُغيِّبُ منه استعمالُ الكثير دون القليل ، فلا يسع عاقلاً أن يقول : إنَّهُ حرامٌ لذاته مطلقاً ، إلاَّ إذا كان جاهلاً أو مكابراً معانداً ؛ فإنَّهُ بعد الوقوف علىٰ كلام أهل المذهب ومعرفته . . يصير الحكم بحلِّ ما لا يغيِّبُ العقلَ منه لذاته مِنْ قِسْم البديهي الذي لا يسع عاقلاً إنكارُهُ .

ولنذكره بصورة الشكل الأوَّل من القياس الذي هو بديهي الإنتاج فنقول : إنَّ شرب الدخان على الوجه المذكور لا يغيِّب العقلَ مع نشأة وفرح وهو طاهر ، وكل ما كان كذلك يجوز استعمال القدر الذي لا يغيِّب العقلَ منه ، فشربُ الدخان يجوز استعمالُ القدر الذي

---

(١) عبارة الإمام النووي رحمه الله تعالىٰ في « المجموع » (٣/٩) : (وأما ما يزيل العقل من غير الأشربة والأدوية كالبنج وهـٰذه الحشيشة المعروفة . . فحكمه حكم الخمر في التحريم ووجوب قضاء الصلوات ويجب فيه التعزير دون الحد ، والله أعلم) .

(٢) انظر « تحفة المحتاج » (١/٢٨٩) (٩/١٦٨) ، و« الإنصاف » (١٠/٢٢٨) ، و« حاشية الدسوقي » (١/٤٩) (٤/٣٥٢) ، و« حاشية ابن عابدين » (١٢/١٣٨) ، و« الزواجر » (١/٣٥٤) (٢/٢٦٣) ، و« الفتاوىٰ الفقهية الكبرىٰ » (٤/٢٢٣) لابن حجر الهيتمي رحمه الله تعالىٰ .

لا يغيِّب العقلَ منه ، فالصغرىٰ بيِّنة ؛ إذ هيَ مِنَ الوجدانيات والمشاهدات ؛ والكبرىٰ دليلها ما سبق مِنْ كلام الأئمة ، والنتيجة بديهية ، فمنكرها منكر البديهي .

فإن قلت : قولك : إنَّ الدخان المذكور طاهر . . ممنوعٌ ؛ لأنَّهُ يُبَلُّ بالخمر .

قلت : إنْ تحقَّق هـٰذا . . فحرمتُهُ لأمرٍ عارض لا لذاته ، وإنْ لم يتحقَّق ذلك . . فالأصل الطهارة ، وهـٰذا ـ علىٰ فَرْضِ صحتِهِ ـ إنَّما هو فيما يأتي مِنْ بلاد النصارىٰ ونحوها ؛ وأمَّا ما يأتي مِنْ بلاد التكرور ونحوها . . فهو محقَّقُ السَّلامة مِنْ هـٰذا ، علىٰ أنَّ ابن رُشدٍ جازمٌ بطهارة دخان النجس[1] .

فإن قلت : ٱستعمال هـٰذا سَرَفٌ ، وهو حرام .

قلت : صرف المال في المباحات علىٰ هـٰذا الوجه ليس بسرف .

فإن قلت : هو مضرٌّ ، فيحرم لضرره .

قلت : إنْ تحقَّق هـٰذا . . فحرمته لأمر عارض كما سبق ، فيحرم علىٰ مَنْ يضرُّهُ خاصةً دون غيره ، ودعوىٰ أنَّهُ مضرٌّ مطلقاً دعوىٰ بلا دليل ، كيف وقد وجد نفعه بالمشاهدة في بعض الأمراض ؛ كإزالة الطحال ؟!

هـٰذا ؛ وقد أفتى العلامة الشيخ عبد الله بن العلامة الشيخ محمد النحريري الحنفي بأنَّ شرب الدخان إنَّما يحرم علىٰ مَنْ يضرُّهُ بإخبار طبيب عارف مسلم يُوثَقُ به ، أو بتجرِبةٍ ، وإلاَّ . . فهو حلال . اهـ

وأفتىٰ مرَّة أخرىٰ علىٰ سؤالٍ رُفِعَ إليه بأنه لا يحرم إلاَّ علىٰ مَنْ يغيِّبُ عقلَهُ أو يضرُّهُ .

ونصُّ السؤال : ما قولكم ـ رضي الله عنكم ـ في شرب الدخان الحادث في هـٰذا الزمان ، هل يحرم علىٰ مَنْ لا يغيِّبُ عقلَهُ ولا يضرُّ جسدَهُ ، وهل ورد حديث في ذمِّهِ ولو ضعيفاً أم لا ؟ أَفْتُونا مأجورين .

ونصُّ الجواب : « الحمد لله ربِّ العالمين ، ربِّ زدني علماً ، لا يحرم إلاَّ علىٰ مَنْ

---

(١) وهو ما ذهب إليه الحنفية في الصحيح ، والمعتمد عند المالكية ، واختيار بعض من متأخري الشافعية ، وغير ظاهر المذهب عند الحنابلة . « الموسوعة الفقهية » (١١٧/٢) .

يغيِّبُ عقلَه أو يضرُّهُ ، ومَنْ لا . . فلا ، وأمَّا ورود حديث في شأن ذلك . . فغير منقول في شيء ممَّا وقفنا عليه مِنْ كتب الحديث ، لا علىٰ طريق الصحَّة ، ولا علىٰ طريق الضعف ، بل ولا علىٰ طريق الوضع ممَّنِ ٱلتزم ذكر الموضوعات ؛ وأمَّا ما يُنقل على الألسنة . . فهو مِنْ أكاذيب أهل عصرنا ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم بحقيقة الحال . وكتبه عبد الله بن محمد النحريري الحنفي حامداً مصلياً » .

وأفتىٰ شيخ الشافعية في زمنه الشيخ علي الزِّيَّادي علىٰ سؤال رُفع إليه : أنَّه يحرم شربه لمن يغيِّبُ عقلَهُ دون غيره ، وكذا أفاده الشيخ العارف بالله تعالى العلامة عبد الرؤوف المُناوي الشافعي .

وكذلك الشيخ الفقيه المتقن المحرِّر الشيخ محمد الشوبري الشافعي ، ونصُّ ما كتبه : « ليس شرب الدخان حراماً لذاته ، بل هو كغيره مِنَ المباحات ، ودعوىٰ كونه حراماً لذاته مِنَ الدعاوي التي لا دليل عليها ، وإنَّما منشؤها إظهار المخالفة علىٰ وجه المجازفة ، فلا حول ولا قوَّة إلا بالله العليِّ العظيم ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم بالصواب . وكتبه محمد بن أحمد الشوبري الشافعي » اهـ

وقد أفاد ذلك العالم الكامل الشيخ مرعي الحنبلي رحمه الله تعالىٰ ؛ فإنَّهُ كتب علىٰ سؤال يتضمَّن حكم شرب الدخان المذكور ما نصُّه : « شربه ليس بحرام لذاته حيث لم يترتب عليه مفسدة ، بل هو بمنزلة شرب دخان النار التي لم ينفخها نافخ ، وباتفاقٍ لا قائل بتحريم ذلك ، ولا تقتضي قواعد الشريعة تحريم شرب الدخان المذكور ؛ ولا شبهة أنَّه مِنَ البدع ، ومِنَ المعلوم أنَّ البدعة الحادثة تُعرَضُ علىٰ قواعد الشريعة ؛ فإن أشبهت المباح . . فمباحة ، أو الحرام . . فمحرمة ، إلىٰ غير ذلك مِنْ بقية الأحكام ، وإذا تدَّبر العاقل أمرَ الدخان . . وجده ملحقاً بالبدع المباحة إن لم يترتَّب عليه مفسدة ، ولم يَرِدْ في ذَمِّه حديث عند فقهاء الحنابلة ، والله أعلم . وكتبه الفقير مرعي الحنبلي المقدسي » .

وأفتىٰ بذلك الشيخ العلامة العارف بالله تعالى الشيخ أحمد المالكي ، ونصُّ ما كتبه : « الدخان المذكور حرامٌ لمَنْ يغيِّبُ عقلَه أو يؤذي جسدَه إذا أخبره بذلك طبيب عارف يوثق به ، أو عَلِم ذلك مِنْ نفسه بتجربةٍ ، وإلاَّ . . فهو غير حرام ، والله أعلم » اهـ

وأمَّا ما يورد مِنَ الأحاديث المتعلِّقة بذمِّه.. فهو باطل لا أصل له ، وقد ذكر الشيخ العلامة عبد الرؤوف المُناوي المذكور : أنَّهُ ورد عليه أسئلة كثيرة تشتمل علىٰ أحاديثَ في ذمِّ الدخان لا أصل لها ، وأنَّه لم يوجد حديث بذمِّه أصلاً ، والله أعلم .

فقد اتضح لك أنَّ شرب ما لا يغيِّب العقلَ مِنَ الدخان غيرُ محرَّم لذاته باتفاق المذاهب الأربعة .

وإذا ثبت هٰذا : فلا يحرم بمنع وليِّ الأمر علىٰ مَنْ عَلِمَ أنتفاعه به ولم يغيِّبه ؛ لأنَّه حينئذٍ صار مطلوباً بأستعماله ، فترك أستعماله ترك لما طلب منه ، وطاعة الإمام لا تجب في مثل هٰذا علىٰ أحد القولين الآتيين ، وكذا إن لم يعلم ذلك ولم يضرَّه ولم يغيِّب عقله إنْ عَلِمَ أنَّ سببَ منع وليِّ الأمر مِنِ أستعماله أعتقادُ حرمته ، وإنْ عَلِمَ أنَّ سببَ المنع مِنِ أستعماله مصلحةٌ أخرىٰ مع أعتقاد إباحته.. حرم ؛ لأنَّه تجب طاعة السلطان في غير المعصية ، فإذا مَنَعَ مِنْ مباحٍ.. وجبت طاعته ، وإنْ لم يعلم سبب ذلك.. فإنَّه يُحمل على الأوَّل ؛ لأنَّ المظنون بل المتحقَّق : أنَّه لا يمنع الناس مِنَ المُباح الذي لا يعتقد حرمته ، علىٰ أنَّه قد يقال : إنَّ منع الإمام مِنَ المباح لا يعمل به إلاَّ إذا كان مذهبه ذلك .

وأفتى الشيخ عبد الله الحنفي المذكور بأنَّ منع الإمام مِنَ المباح لغوٌ لا يوجب حرمته ، وليس له منع الناس منه .

وأفتى العلامة ابن قاسم الشافعي بأنَّ منع الإمام مِنَ المباح إنَّما يوجب المنع ظاهراً فقط ، ونصُّ ما كتبه : « نهي الإمام يمنع أرتكاب المنهي عنه وإن كان مباحاً علىٰ ظاهر كلام أصحابنا ، ويكفي الانكفاف ظاهراً »[1]) .

وهٰذا آخر ما أردنا إيراده مِنْ « رسالة سيدي علي الأجهوري » المذكور رحمه الله .

---

(١) داعي كلامه في وجوب طاعة أمر السلطان ووقتها هو الرد علىٰ ما استدل به من قال بتحريم الدخان ؛ وهو أنه صدر أمر سلطاني من الخليفة العثماني في وقته بناء علىٰ فتاوىٰ علماء عصره بمنع استعمال الدخان ومعاقبة شاربيه ، وحرق ما وجد منه ، فيعتبر من وجوه تحريمه : الخروج عن طاعة السلطان ، فإن امتثال أمره واجب في غير ما أجمع علىٰ تحريمه ، ومخالفته محرمة . « الموسوعة الفقهية » (١٠/ ١٠٤) .

فائدة ١٧

[في بيان حكم أحاديث نقلت في شرب الدخان]

ذكر الزرقانيُّ علىٰ « العزية » ما نصُّه : (سئل سيدي علي الأجهوري عن الدخان ، وأنَّ شخصاً ينقل فيه أحاديث ؛ وهي : « إيَّاكم والخمر والخضرة » ، وأنَّ حذيفة قال : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأىٰ شجرة ، فهزَّ رأسه ، فقلت : يا رسول الله ؛ لم هزيت[1] رأسك ؟ فقال : « يأتي ناس في آخر الزمان يشربون مِنْ أوراق هـٰذه الشجرة ، ويصلُّون وهم سُكارىٰ ، أولـٰئك هم الأشرار ، هم بريئون منِّي ، والله بريء منهم » ، وعن عليٍّ : « مَنْ شربها . . فهو في النار أبداً ، ورفيقه إبليس ، فلا تعانقوا شارب الدخان ولا تصافحوه ولا تسلموا عليه ؛ فإنَّه ليس مِنْ أمَّتي » ، وفي خبر : « إنَّهم مِنْ أهل الشِّمال ، وهو شراب الأشقياء ، وهي شجرة خُلقت مِنْ بول إبليس حين سمع قول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ الآية ، فدُهِش فبال ، فخُلقت مِنْ بوله » ، بيِّنوا لنا الجواب عن هـٰذه الأحاديث ، وهل هي واردة ؟ وماذا يترتَّب علىٰ راويها بالكذب ؟ وماذا يلزمه حيث نفىٰ الإيمان والإسلام عن شاربها مِنْ غير أصل ؟ وهل يحرم استعماله أم لا ؟

فأجاب بما نصُّه : دعوىٰ أنَّ هـٰذه الأحاديث واردة في الدخان كذبٌ وٱفتراء كما بيَّنه الحفاظ الأعيان ، وركاكةُ تلك الألفاظ دالَّةٌ أيضاً علىٰ ذلك ، قال الربيع بن خَيْثَم : « إنَّ للحديث ضوءاً كضوء النهار ، ولغيره ظلمةً كظلمة الليل »[2] ، ومَنْ كذب عليه صلى الله عليه وسلم متعمداً . . فهو في النار ، كما في خبر « الصحيحين » : « مَنْ كذب عليَّ متعمداً . . فليتبوَّأ مقعده مِنَ النار »[3] ، والكذب عليه صلى الله عليه وسلم كبيرة إجماعاً حتىٰ في الترغيب والترهيب ، ولا التفات لقول إمام الحرمين بتكفير الكاذب عليه ، ولا لمن شذَّ فجوَّزه في الترغيب والترهيب ، ويلزمه التعزيرُ اللائق بحاله بحسَب ٱجتهاد الحاكم ؛ بسبب

---

(١) الصحيح : (هززت) ، وهـٰذا تعبير ركيك من أدلة وضع الحديث كما سيأتي بعد قليل .

(٢) أخرجه هناد في « الزهد » (١/٢٩٣) .

(٣) أخرجه البخاري (١٠٧) ، ومسلم (٣) .

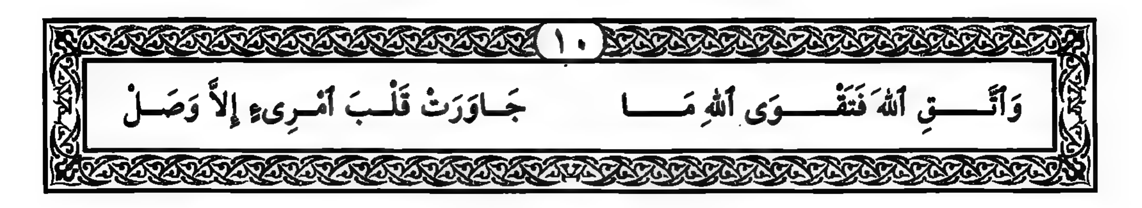
كذبه على الوجه المذكور ، وينفيه الإيمان والإسلام عن شاربه ، ولا يحرمُ ٱستعماله إلاَّ لمَنْ يغيِّبُ عقلَه ، أو يضرُّه في جسده ، أو يؤدِّي ٱستعماله إلىٰ ترك واجب عليه ؛ كنفقة مَنْ تلزمه نفقته ، أو تأخيره الصلاة عن وقتها ، أو نحو ذلك ، والله أعلم .

وسئل أيضاً عن جواز بيع الأفيون ونحوه ، فأجاب بما نصُّه : « يجوز بيع الأفيون ونحوه مِنَ المفسدات التي لا تغيِّبُ العقل لا مع نشأة وطرب لمن يأكل منه القدر الذي لا يغيِّب عقلَه ، وكذا لمَنِ اعتاد أكله حتىٰ صار يحصل له الضرر الشديد بالترك ، وكذا لمَنْ يستعمله في غير الأكل مِنَ الأدوية ونحوها ، ثم قال : وأمَّا بيع العشب المسمَّىٰ بالدخان في هٰذا الزمان ـ وإن كان ٱسمه في كتب الطبِّ : الطُّبَّاق ، بكسر الطاء المهملة وفتح الموحدة المشددة ـ : فلا يمتنع بيعه إلاَّ لمَنْ تحقَّق أو غلب على الظنِّ أنَّه إذا ٱستعمله . . غيَّبَ عقلَه ، وهو نادرٌ جداً كما هو مشاهد »[1]) اهـ

* * *

(١) قد ذهب إلى القول بإباحة الدخان غير العلامة علي الأجهوري من المالكية : الدسوقي ، والصاوي ، والأمير ، وذهب إليه من الشافعية : الحفني ، والحلبي ، والرشيدي ، والشبراملسي ، والبابلي ، وعبد القادر الطبري المكي ، وله رسالة تسمىٰ : « رفع الاشتباك عن تناول التنباك » ، ومن الحنفية : الشيخ عبد الغني النابلسي ، وألف فيه رسالة : « الصلح بين الإخوان في إباحة شرب الدخان » ، وصاحب « الدر المختار » ، وابن عابدين ، والحموي ، ومن الحنابلة : الكرمي ، وله رسالة : « البرهان في شأن شرب الدخان » ، والشوكاني . علماً أن جميع من قال بإباحة الدخان أو بكراهته قيَّده بعدم الضرر وتغييب العقل وإيذاء الجسد ، وأن يكون ـ إن وجد ـ بإخبار طبيب عارف يوثق به ، وعليه فينضم القائلون بإباحته إلىٰ جَمْع العلماء المعاصرين ، والكثرة من المتأخرين القائلين بتحريمه ؛ كالسنهوري واللقاني ، وله : « نصيحة الإخوان باجتناب الدخان » ، والفكون ـ وألف في ذلك ـ وابن حمدون وغيرهم من المالكية ، والقليوبي ـ وألف في ذلك ـ وابن علان وله : « إعلام الإخوان بتحريم الدخان » ونجم الدين الغزي وغيرهم من الشافعية ، والشرنبلالي والحصكفي واللكنوي ـ وله : « ترويح الجنان بتشريح حكم شرب الدخان » و« زجر أرباب الريان عن شرب الدخان » ـ والمسيري من الحنفية ، والبهوتي وبعض علماء نجد من الحنابلة ، وذلك أنه قد ثبت ضرره ، وتضافرت الأدلة علىٰ ذلك ، والأطباء مجمعون علىٰ أنه مضر ، للتوسع أكثر ينظر « الموسوعة الفقهية » (١٠/ ١٠٢) .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



أي : ٱتَّبِعِ الأمر وٱجتنبِ النهي ؛ لأنَّ ٱتباع المأمور وٱجتناب المنهيِّ ما جاور قلب شخص سواء كان ذكراً أو أنثىٰ إلاَّ وصل لربِّه سبحانه وتعالىٰ .

فالمراد بـ(التقوى) : ٱتِّباع الأوامر وٱجتناب النواهي .

فمِنَ المأمور به : أنواع الطهارة ؛ كالوضوء والغسل والتيمم وإزالة النجاسة ، ومنه أيضاً الصلاة بأنواعها فرضاً ونفلاً عيناً وكفاية ؛ ومنه أيضاً : الزكاة بأنواعها ، والصوم بأنواعه ، والحجُّ والعمرة بأنواعهما ؛ ومنه أيضاً : المعاملات ؛ كالبيع والسلم والصلح والحوالة والإجارة ونحو ذلك ؛ ومنه أيضاً : الأنكحة والأصدقة والطلاق والرضاع والنفقات ونحو ذلك ؛ ومنه أيضاً : فروض الكفايات ؛ كالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإحياء الكعبة بالحجِّ كلَّ عام وغير ذلك ؛ ومنه أيضاً : ما كمَّل الله به نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم مِنْ مكارم الأخلاق ؛ كالزهد والورع والتوكُّل والقناعة وحسن الخُلق وكظم الغيظ والعفو عند القدرة وقضاء حوائج المسلمين وغير ذلك .

ومِنَ المنهيِّ عنه : الشرك بالله تعالىٰ ، وقتل النفس بغير حقٍّ ، والزنا ، والربا ، وشرب الخمر ، والسرقة ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ، والغيبة ، والنميمة ، وأكل أموال الناس ظلماً وعدواناً ؛ كالغصب ونحو ذلك .

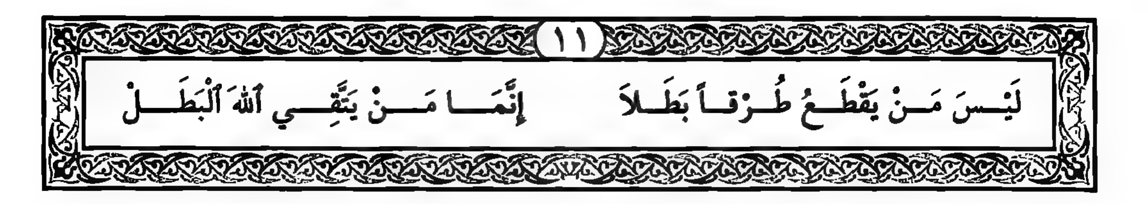
قال : وكلُّ هـٰذه المأمورات والمنهيَّات داخلةٌ تحت قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ، ومثلها قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ ، وإذا ٱتَّبع الإنسان الأمر وٱجتنب النهي . . فقد جاورتِ التقوىٰ قلبَهُ ، وصار في كلِّ وقت يشاهد ربَّه ، فيكون حينئذٍ سامعاً بالله ، ناطقاً بالله ، باطشاً بالله ، ماشياً بالله ، متحركاً بالله ، وهو

معنىٰ قوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربّه عزَّ وجلَّ : « وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أفضل ممَّا ٱفترضتُهُ عليه ، ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتىٰ أحبَّه ، فإذا أحببتُهُ . . كنتُ سمعَهُ الذي يسمع به ، وبصرَهُ الذي يبصر به ، ويدَهُ التي يبطش بها ، ورجلَهُ التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينَّه ، ولئنِ ٱستعاذني لأعيذنَّه »[1] اهـ

* * *

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) ، وابن حبان (٣٤٧) ، وأحمد (٦/٢٥٦) .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



أي : ليس الشخص الذي يقطع الطرق[1] ـ أي : يمنع الناس مِنَ المرور فيها ـ بطلاً ؛ أي : شجاعاً ماهراً ، سمِّي بذلك ؛ لبطلان الحياة عند ملاقاته ؛ بل البطل والشجاع هو الشخص المتَّقي اللهَ سبحانه وتعالىٰ ؛ لأنَّه مِنْ شجاعته قهر نفسه وأبطل كيدها التي هي أقوىٰ مِنْ سبعين شيطاناً ، حيث جعلها متَّبعةً للمأمورات ومجتنبةً للمنهيَّات ، وقد قال صلى الله عليه وسلم حين رجوعه مِنْ بعض الغزوات : « رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس »[2] ، وقال صلى الله عليه وسلم : « ليس الشديد بالصُّرَعَة ، إنَّما الشديد مَنْ يملك نفسَهُ عند الغضب »[3] ، وفي « الجامع الصغير » : قال صلى الله عليه وسلم : « ألا أدلُّكم علىٰ أشدِّكم ؟ أملكُكم لنفسه عند الغضب » رواه الطبراني عن أنس[4] .

واعلم : بأنَّ التقوىٰ ـ وإن قلَّ لفظها ـ كلمةٌ كثيرة المعنىٰ ، شاملة لخير الدارين ؛ إذ هي تجنُّبُ كلِّ منهيٍّ عنه ، وفعلُ كلِّ مأمور به كما سبق[5] .

وسئل عليُّ بن أبي طالب رضي الله تعالىٰ عنه عن التقوىٰ فقال : (هي الخوفُ من الجليل ، والعملُ بالتنزيل ، والقناعةُ بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل) .

---

(١) الطرق ـ بضم الراء ، وسكن لضرورة الوزن ـ : جمع طريق ، وهو الممر الواسع الممتد .

(٢) أخرجه البيهقي في « الزهد » (٣٧٣) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (١٣/٤٩٨) عن جابر رضي الله عنه .

(٣) أخرجه البخاري (٦١١٤) ، ومسلم (٢٦٠٩) .

(٤) عزاه السيوطي في « الجامع الصغير » (٢٨٧٤) إلى الطبراني في « مكارم الأخلاق » ، وأخرجه عن أنس رضي الله عنه العسكري في « تصحيفات المحدثين » (١/ ٣٥٠) ، وأخرجه أيضاً عن علي رضي الله عنه (١/٣٤٩) ، وجاء عن ابن عجلان رحمه الله مرسلاً عند البيهقي في « الشعب » (٧٩٢٢) ، وأبي عبيد في « غريب الحديث » (١/ ١٥) .

(٥) انظر (ص ٩٤) .

وقال عمر بن عبد العزيز : (التقوىٰ : تركُ ما حرَّم الله ، وأداء ما ٱفترض الله ، فما رزق الله بعد ذلك . . فهو خير إلىٰ خير)[1] .

وقيل : تقوى الله : ألاَّ يراك حيث نهاك ، ولا يفقدك حيث أمرك ، ولهٰذا قال بعضهم لشخص : إذا أردت أن تعصي الله . . فٱعصه حيث لا يراك ، وٱخرج مِنْ داره ، وكُلْ رزقاً غيرَ رزقه .

وقال أكثر المفسرين في قوله تعالىٰ : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ : إنَّها نزلت في عوف بن مالك الأشجعي ، أَسر المشركون ٱبناً له يسمَّىٰ سالماً ، فأتىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكا الفاقة إليه وقال : إنَّ العدوَّ أسر ٱبني ، وجَزِعتِ الأمُّ ، فما تأمرُنا ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « ٱتَّقِ الله وٱصبر ، وآمرك وإيَّاها أن تكثرا مِنْ قول : لا حول ولا قوَّة إلا بالله العلي العظيم » ، فعاد لبيته وقال لامرأته : إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني وإيَّاكِ أن نكثر مِنْ قول : لا حول ولا قوَّة إلا بالله العليِّ العظيم ، قالت : فنعم ما أمرنا به ، فجعلا يقولانها ، فغفلَ العدوُّ عن ٱبنه ، فساق غنمهم وجاء بها إلىٰ أبيه ، وهي أربعةُ آلافِ شاةٍ ، فنزلتِ الآية[2] .

وقال مقاتل : (أصاب غنماً ومتاعاً)[3] .

وكتب [عمر] لابنه عبد الله : (أما بعد ؛ فإنِّي أوصيك بتقوى الله عزَّ وجلَّ ؛ مَنِ ٱتقاه . . وقاه ، ومَنْ أقرضه . . جازاه ، ومَنْ شكره . . زاده ، فاجعل التقوىٰ نُصب عينيك وجلاء قلبك) .

ولمَّا ولي عليٌّ رضي الله تعالىٰ عنه الخلافة . . بعث رجلاً علىٰ سريَّةٍ فقال : (أوصيك بتقوى الله الذي لا بُدَّ لك مِنْ لقائه ، ولا منتهىٰ لك مِنْ دونه ، وهل تُملك الدنيا والآخرة إلاَّ بالتقوى ؟!) .

---

(١) أخرجه البيهقي في « الزهد » (٩٦٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٥/ ٢٣٠) .

(٢) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٤٩٢) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٩/ ٨٥) ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٠/ ٣٣٥٩) .

(٣) « تفسير مقاتل بن سليمان » (٤/ ٢٦٤) ، وفيه : (أصاب إبلاً ومتاعاً) .

وفي « منهاج العارفين » : أنَّ بعض الصالحين قال لبعض أشياخه : أوصني بوصية ، قال : أوصيك بوصية ربِّ العالمين للأوَّلين والآخرين ؛ وهي قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ .

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « مَنْ أحبَّ أنْ يكون أكرم الناس . . فليتَّقِ الله »[1] ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ .

ولبعضهم رضي الله عنه : [من الرجز]

مَـنْ عَـرَفَ ٱللهَ فَلَـمْ تُغْنِـهِ ... مَعْـرِفَـةُ ٱللهِ فَـذَاكَ ٱلشَّقِـي

مَـا يَصْنَـعُ ٱلْعَبْـدُ بِعِـزِّ ٱلْغِنَـى ... وَٱلْعِـزُّ كُـلُّ ٱلْعِـزِّ لِلْمُتَّقِـي

وقال بعضهم : [من الطويل]

إِذَا ٱلْمَرْءُ لَـمْ يَلْبَسْ ثِيَاباً مِنَ ٱلتُّقَى ... تَقَلَّـبَ عُـرْيَانـاً وَلَـوْ كَـانَ كَـاسِيَـا[2]

وَخَيْـرُ لِبَـاسِ ٱلْمَـرْءِ طَـاعَـةُ رَبِّـهِ ... وَلاَ خَيْـرَ فِيمَـنْ كَـانَ للهِ عَـاصِيَـا

ولأبي الدرداء رضي الله تعالىٰ عنه : [من الوافر]

يُـرِيـدُ ٱلْمَـرْءُ أَنْ يُعْطَـىٰ مُنَـاهُ ... وَيَـأْبَـى ٱللهُ إِلاَّ مَـا أَرَادَا

يَقُـولُ ٱلْمَـرْءُ فَـائِـدَتِـي وَمَـالِـي ... وَتَقْـوَى ٱللهِ أَفْضَـلُ مَـا ٱسْتَفَـادَا[3]

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا جَمَعَ اللهُ الأوَّلينَ والآخرينَ لميقاتِ يومٍ معلومٍ . . يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : يا أيُّها الناسُ ؛ إنِّي قد جعلتُ لي نسباً ولكم نسباً ، فوضعتم نسبي ورفعتم نسبكم ؛ قلتُ : إنَّ أكرمكم عندَ اللهِ أتقاكم ، وأبيتم إلاَّ فلان بن فلان ، فاليوم

---

(1) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٤/٢٧٠) ، وعبد بن حميد في « مسنده » (٦٧٥) ، وأحمد في « الزهد » (١٧٠٧) .

(2) البيت لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص٤٨٢) .

(3) البيتان لأبي الدرداء رضي الله عنه كما أخرج أبو نعيم في « الحلية » (١/٢٢٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/١٨٣) .

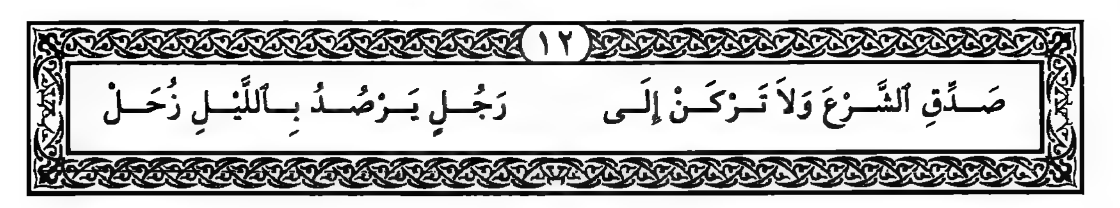
أضعُ نسبكم وأرفع نسبي ، أينَ المتَّقونَ ؟ فيُنصبُ للمتَّقين لواءٌ ، فيتبعون لواءهم ، فيدخلونَ الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ »[1] .

وإذا تأمَّلتَ ما تقدم.. ظهرتْ لك ثمرةُ التقوىٰ ، وعلمتَ أنَّها كافلةٌ للسعادة في الدارين ، نسألُ الله سبحانه وتعالىٰ أن يجعلنا مِنَ المتقين المنسوبين إليه آمين .

* * *

(١) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٢/٤٦٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٧٧٥) ، وأخرجه الطبراني في « الأوسط » (٤٥٠٨) ، و« الصغير » (١/٢٣٠) ، والبيهقي في « الزهد » (٧٦٥) .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



الكلام علىٰ حذف مضاف ؛ أي : صدِّق صاحب الشرع وهو النبيُّ صلى الله عليه وسلم في جميع ما جاء به مِنْ عند الله ، وصار معلوماً بالضرورة .

والأمر في عبارة الناظم للوجوب ؛ لأنَّهُ يجبُ التصديق بالقلب والإقرار باللسان لكلِّ ما جاء به النبيُّ صلى الله عليه وسلم ؛ مِنَ الطهارة ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحجِّ والجهاد ، والمعاملات بأنواعها ، والجنَّة والنار ، واللوح والقلم ، والحوض والصراط والميزان ، وعذاب القبر ونعيمه ، وسؤال منكر ونكير ، والشفاعة العظمىٰ ، وإخراج قوم مِنَ النار بشفاعة الشافعين ، والبعث بعد الموت ، وأنَّ الجنَّة والنار خلقهما الله تعالىٰ للبقاء ، وأنَّ أهل الجنَّة فيها منعَّمون أبداً ، وأنَّ أهل النار ـ غيرَ أهل الكبائر مِنَ المؤمنين فيها ـ معذَّبون أبداً .

ويحتمل أنَّ المراد بـ(الشرع) : الدين المبعوث به المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم ، وعليه : فليس في عبارته حذف ؛ أي : صدِّقِ الشرع فيما جاء به مِنْ أمر ونهي ووعد ووعيد ، وفي كونه ناسخاً لجميع الشرائع القديمة ، وغير ذلك .

فَائِدَة

[في بيان ماهية الدين والملة والشريعة]

الدين والملة والشرع والشريعة ألفاظ مترادفة مختلفةٌ اعتباراً ؛ وذلك لأنَّ الأحكام مِنْ حيث اشتهارُها وظهورُها وتشريعُها . . تسمَّىٰ شرعاً وشريعة ، ومِنْ حيث إملاءُ الشارع إيَّاها لنا . . تسمَّىٰ ملةً ، ومِنْ حيث انقيادُ الخلق لها . . تسمَّىٰ ديناً .

وقوله :

(. . . . . ولا تركن إلى رجل يرصد بالليل زحل)

أي : ولا تعتمد علىٰ رجلٍ يرصُد ؛ أي : يترقَّبُ وينظر في الليل زحلَ ؛ أي : لا تصدِّق قولَ المنجِّمين ؛ لأنَّ أقوالَهم كاذبةٌ ، قال الله تعالىٰ : ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ ، فمَنْ صدَّقهم . . فقد سلك طريقاً مهلكاً .

وتخصيص الناظم رحمه الله تعالى النهيَّ عن الإرصاد بزحل ليس بقيد ، بل الكواكب السبعة السيَّارة كذلك ، وهي القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل ، وكل واحد منها له فلك يختصُّ به ، فالفلك الأوَّل للقمر ، والثاني لعطارد ، والثالث للزهرة ، والرابع للشمس ، والخامس للمريخ ، والسادس للمشتري ، والسابع لزحل ، وكلُّ فلك منها في سماء ، وقد جمع ذلك بعضهم مبتدئاً بما في السماء السابعة فما دونها على الترتيب في قوله :

زُحَلٌ شَرَىٰ مَرِّيخَهُ مِنْ شَمْسِهِ ... فَتَزَاهَرَتْ لِعُطَارِدَ ٱلْأَقْمَارُ[1]

قال الثعالبي رحمه الله تعالىٰ : (سعة القمر ألف فرسخ في ألف فرسخ مكتوب في وجهه : لا إلـٰه إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، طوبىٰ لمن أجرى الله الخير علىٰ يديه ، والويل لمن أجرى الله الشرّ علىٰ يديه) .

وفي « الجامع الصغير » : قال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ مِنَ الناس ناساً مفاتيح للخير مغاليق للشر ، وإنَّ مِنَ الناس ناساً مفاتيح للشرِّ مغاليق للخير ، فطوبىٰ لمن جعل الله مفاتيح الخير علىٰ يديه ، وويل لمن جعل الله مفاتيح الشرِّ علىٰ يديه » رواه ابن ماجه عن أنس[2] .

---

(١) هـٰذا مستند إلى الرأي القديم الذي يعد السيارات سبعاً ، ويحسب منها الشمس والقمر ، ويقول : إنَّ الأرض قائمة في مركز الفلك ، وإنّ السيارات السبع تدور حولها ، وإنَّ لكل واحد فلكاً ، وكل فلك في سماء . لكن العلم الحديث أثبت أنّ الشمس نجم مضيء كغيره من النجوم يدور في فلكه مجموعة كواكب ، وهي : عطارد ، والزهرة ، والأرض ، والمريخ ، والمشتري ، وزحل ، وأورانوس ، ونبتون ، وبلوتو ، والعاشر اكتشف حديثاً ، وسمي ابتداء (اكس) ، وأن بعض الكواكب يدور في فلكها قمر أو أقمار ، وتسمىٰ : المجموعة الشمسية ، ومجموعتنا الشمسية هي واحدة من مئات الملايين من المجموعات الشمسية التي هي ضمن مجرّة واحدة ؛ هي مجرّة (درب التبانة) ، ومجرّتنا (درب التبانة) هي واحدة من مليارات المجرّات .

(٢) « الجامع الصغير » (٢٤٦٥) ، والحديث أخرجه ابن ماجه (٢٣٧) ، والطيالسي في « مسنده » (٢٠٨٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٨٧) .

وأما الشمس : فقال الثعالبي أيضاً : (سعتها سبعة آلاف فرسخ وأربع مئة فرسخ في مثلها ، مكتوب في وجهها : لا إلـٰه إلا الله محمد رسول الله ، سبحان من رضاه كلام ، وغضبه كلام ، ورحمته كلام ، وعقابه كلام ، سبحان القادر الحكيم الخالق المقتدر) اهـ

فقد عُلم مِنْ كلام الناظم رحمه الله تعالىٰ : أنَّه لا تأثير لهـٰذه الكواكب المذكورة ولا لغيرها مِنَ المخلوقات ؛ فقد ذكر الشبرخيتي علىٰ « الأربعين النووية »[1] ما نصُّه : (عن عليٍّ رضي الله عنه : أنَّه لمَّا أراد لقاء الخوارج . . قال له مسافر بن عوف : يا أمير المؤمنين ؛ لا تَسِرْ في هـٰذه الساعة ، وسِرْ بعد ثلاث ساعات تمضي من النهار ، فقال له عليٌّ رضي الله عنه : ولم ؟ قال : لأنَّك إن سرت في هـٰذه الساعة . . أصابك أنت وأصحابك بلاء عظيم وضرر شديد ، وإن سرت في الساعة التي أمرتك بها . . ظفرت وظهرت وأصبت مطلوبك ، فقال عليٌّ رضي الله عنه : ما كان لمحمد صلى الله عليه وسلم منجمٌ ولا لنا مِنْ بعده ، فمَنْ صدَّقك في هـٰذا القول . . أخاف عليه أن يكون كمن اتخذ مع الله نداً أو ضداً ، اللهمَّ لا خير إلا خيرك ، ولا إلـٰه غيرك ، ثم قال له : نكذبك ونخالفك ، ونسير في هـٰذه الساعة التي تنهانا عنها ، ثمَّ أقبل على الناس فقال : أيُّها الناس ؛ إيَّاكم وتعلُّمَ النجوم ، إلا ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر ، إنَّما المنجِّمُ كالساحر ، والساحر كالكافر ، والكافر في النار ، والله ؛ لئن بلغني أنَّك تنظر في النجوم وتعمل بها . . لأخلدنَّك في الحبس ما بقيت ، ولأمنعنَّك العطاء ما بقي لي مِنْ سلطان ، ثم سار في الساعة التي نهاه عنها ، فلقي القوم وقتلهم ، وهي واقعة النهروان) اهـ[2]

وذكر الجلال السيوطي في « تاريخ الخلفاء » : (أنَّه في سنة اثنتين وثمانين وخمس مئة أجتمعت الكواكب في الميزان ، فحكم المنجِّمون بخراب العالم في جميع البلاد بريح عظيمة ، فشرع الناس في حفر مغارات في الأرض وتوثيقها وسدِّ منافذها على الريح ، ونقلوا إليها الماء والزاد ، وانتقلوا إليها ، وانتظروا الليلة التي أخبروا فيها بريح كريح عاد ، وهي

---

(١) هو كتاب « الفتوحات الوهبية في شرح الأربعين حديثاً النووية » لبرهان الدين إبراهيم بن مرعي الشبرخيتي المتوفىٰ سنة (١١٠٩هـ) .

(٢) أخرج قصة سيدنا علي رضي الله عنه الحارث بن أبي أسامة كما في « زوائد مسنده » للهيثمي (٥٦٤) ، وأبو الشيخ في « العظمة » (٤/ ١٢٣٠) .

الليلة التاسعة من جمادى الآخرة ، فلم يأت فيها شيء ، ولا هبَّ فيها نسيم ، بحيث أوقدت الشموع ، فلم يتحرَّك فيها ريح تطفئها ، فظهر بذلك كذبُ المنجِّمين) اهـ[1]

والأحاديث في النهي عن تصديقهم كثيرة :

منها : ما ذكره في « الجامع الصغير » : عن الإمام أحمد عن بعض أمهات المؤمنين : أنَّه صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ أتىٰ عرَّافاً فسأله عن شيء . . لم تقبل صلاته أربعين ليلة»[2] .

قال العلامة المُناوي : (العرَّاف ـ بفتح العين المهملة وتشديد الراء المهملة أيضاً ـ : مَنْ يخبر بالأمور الماضية أو بما خفي ، وقوله : « فسأله عن شيء » أي : مِنْ نحو المغيبات ، وإنَّما خصَّ الأربعين ؛ علىٰ عادة العرب في ذكر الأربعين والسبعين والتسعين للتكثير ، وخصَّ الليلة ؛ لأنَّ عادتهم ابتداء الحساب بالليالي ، وخصَّ الصلاة بعدم القبول ؛ لكونها عماد الدين ، فصومه كذلك ، ومعنىٰ عدم القبول : عدم الثواب وإن كانت مُجْزِئَةً في سقوط الفرض عنه ولا يحتاج معها إلىٰ إعادة ، ونظير هـٰذا : الصلاة في الأرض المغصوبة ؛ فإنَّها مسقطة للقضاء ، ولكن لا ثواب فيها) اهـ[3]

ومنها : ما ذكره في « الجامع الصغير » أيضاً : عن الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه : أنه صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ أتىٰ عرَّافاً أو كاهناً فصدَّقه بما يقول . . فقد كفر بما نزل علىٰ محمد »[4] .

قال العلامة المُناوي بعد قوله : « أو كاهناً » : (وهو مَنْ يُخْبِرُ عمَّا يَحْدُث ، وقوله : « فصدَّقه » أي: أتاه وسأله معتقداً صِدْقَهُ، فلو سأله معتقداً كَذِبَهُ . . لم يلحقه الوعيد) اهـ[5]

ومنها : ما ذكره في « الجامع الصغير » أيضاً : عن واثلة بن الأسقع : أنَّه صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ أتىٰ كاهناً يسأله عن شيء . . حُجِبَتْ عنه التوبة أربعين ليلة ، فإن صدَّقه بما

---

(١) « تاريخ الخلفاء » (ص ٥٣٥) .

(٢) « الجامع الصغير » (٨٢٨٤) ، والحديث أخرجه مسلم (٢٢٣٠) ، والبيهقي (١٣٨/٨) ، وأحمد (٦٨/٤) .

(٣) « فيض القدير » (٢٢/٦) .

(٤) « الجامع الصغير » (٨٢٨٥) ، والحديث أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٨/١) ، وأبو داوود (٣٩٠٤) ، والترمذي (١٣٥) .

(٥) « فيض القدير » (٢٣/٦) .

قال . ا كفر »[1] ، قال العلامة المُناوي بعد قوله : « كفر » : (أي : ستر النعمة ، فإنِ اعتقد صِدْقَه في دعواه الاطلاع على الغيب . . كفر حقيقة) اهـ[2]

وقال العلقمي[3] : (قال النووي : قال القاضي عياض : « كانت الكهانة في العرب ثلاثة أضرب :

أحدها : أن يكون للإنسان وليٌّ مِنَ الجنِّ يخبرُهُ بما يَسْتَرِقُ السمع مِنَ السماء ، وهٰذا القسم بطل مِنْ حين بعث نبيَّنا صلى الله عليه وسلم .

وثانيها : أن يخبرَهُ بما يطرأ أو يكون في أقطار الأرض ، وما خفي عنه ممَّا قَرُبَ أو بَعُدَ ، وهٰذا لا يبعُدُ وجودُهُ ، ونفتِ المعتزلةُ وبعضُ المتكلمين هٰذين الضربين وأحالوهما ، ولا استحالة في ذلك ولا بُعْدَ في وجودِهِ .

وثالثها : المنجِّمون ، وهٰذا الضرب يخلقُ الله تعالىٰ فيه لبعض الناس قوَّة ما ، لكنَّ الكذب فيه أغلب ، ومِنْ هٰذا الفنِّ العرافة ، وصاحبها عرَّاف ، وهو الذي يستدلُّ على الأمور بأسباب ومقدمات يدَّعي معرفتها بها ، ومنه : الضرب بالحصى الذي تفعله النساء ، ومنه أيضاً : الخطُّ بالرمل والنجوم ، وهٰذه الأضرب كلُّها تسمَّىٰ : كهانة ، وقد كذَّبهمُ الشرعُ ونهىٰ عن تصديقهم وإتيانهم » ، وقال الخَطَّابي وغيره : العرَّاف : هو الذي يتعاطىٰ معرفة مكان المسروق ومكان الضالة ونحوهما) اهـ[4]

* * *

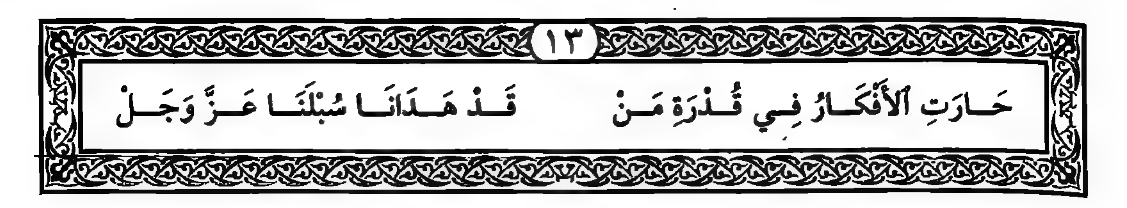
(١) « الجامع الصغير » (٨٢٨٩) ، والحديث أخرجه الطبراني في « الكبير » (٢٢/٦٩) .

(٢) « فيض القدير » (٦/٢٤) .

(٣) العلقمي : هو شمس الدين محمد بن العلقمي المتوفىٰ سنة (٩٢٩هـ) تلميذ الإمام السيوطي ، نقلاً عن شرحه لـ« الجامع الصغير » المسمىٰ بـ« الكوكب المنير » .

(٤) وقول القاضي في « إكمال المعلم » (٧/١٥٣) .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



أي : تحيَّرتِ الأفكار في قدرة الله تعالى الذي هدانا ، وبيَّن لنا الطرق الموصلة إلى النعيم الدائم ؛ وذلك كالإيمان والصلاة والزكاة والصيام والحجِّ وغير ذلك مِنَ الأعمال الصالحة التي لا تنحصر ، فهٰذه الطرق بيَّنها لنا المولىٰ سبحانه وتعالىٰ علىٰ لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ، وهي موصلة إلى الجنَّة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

واْعلم : أنَّ دخول الجنَّة بمحض فضل الله تعالىٰ ، قال صلى الله عليه وسلم : « لن يدخُلَ أحدٌ منكم الجنَّةَ بعمله » ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلاَّ أن يتغمَّدنيَ اللهُ برحمته »[١] .

وأما القصور والحور والولدان وغير ذلك من النعيم : فعلىٰ قدر الأعمال قلَّةً وكثرة .

وما ذكره الناظم رحمه الله تعالىٰ من أنَّ الأفكار تحيَّرت في قدرة الله تعالىٰ مأخوذٌ :

مِنْ قوله صلى الله عليه وسلم : « تفكَّروا في آلاء الله ، ولا تفكَّروا في الله » رواه الطبراني في « الأوسط » عن ابن عمر[٢] ، قال المُناوي : (« تفكَّروا في آلاء الله » أي : نعمِه التي أنعم بها عليكم)[٣] ، ولا تفكروا في الله ، فإنَّ كلَّ ما يخطر بالبال فهو بخلافه .

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٣) ، ومسلم (٢٨١٦) .

(٢) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٦٣١٥) ، وأبو الشيخ في « العظمة » (١/٢١٠) ، وانظر « المقاصد الحسنة » (ص ١٥٩) .

(٣) « فيض القدير » (٣/٢٦٣) .

ومِنْ قوله صلى الله عليه وسلم : « تفكَّروا في خلق الله ، ولا تفكَّروا في الله » رواه أبو نعيم في « الحلية » عن ابن عباس[1] ، قال المُناوي : (لأنَّه لا تحيط به الأفكار)[2] ، بل تتحيَّر فيه العقول والأنظار) .

ومِنْ قوله صلى الله عليه وسلم : « تفكَّروا في كلِّ شيء ولا تفكَّروا في الله ؛ فإنَّ بين السماء السابعة إلىٰ كرسيه سبعةَ آلاف نور ، وهو فوق ذلك » رواه أبو الشيخ في كتاب « العظمة » عن ابن عباس[3] .

ومِنْ قوله صلى الله عليه وسلم : « تفكَّروا في خلق الله ، ولا تفكَّروا في الله » رواه أبو الشيخ عن أبي ذرٍّ[4] ، قال المُناوي : (« تفكَّروا في خلق الله » أي : مخلوقاته التي يعرف العباد أصلها جملة لا تفصيلاً ؛ كالسماء بكواكبها وحركتها ، والأرض وما في جبالها وأنهارها وحيواناتها ونباتها ومعدِنها ، فلا تتحرَّك ذرَّة إلاَّ ولله فيها حكمة دالَّة علىٰ عظمته)[5] .

ومِنْ قوله صلى الله عليه وسلم : « تفكَّروا في الخلق ، ولا تفكَّروا في الخالق ؛ فإنَّكم لا تقدرون قدره » رواه أبو الشيخ عن ابن عباس[6] ، قال المُناوي : (« تفكَّروا في الخلق » أي : تأملوا في المخلوقات ، ودوران هـٰذا الفلك ، ومجاري هـٰذه الأنهار ، فمَنْ تحقَّق ذلك.. عَلِمَ أنَّ لها صانعاً لا يَعْزُب عنه مثقال ذرَّة ، « ولا تتفكَّروا في الخالق ؛ فإنَّكم لا تقدرون قدره » أي : لا تعرفونه حقَّ معرفته)[7] .

---

(١) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٦٦) عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه مطولاً ، وأصل الحديث عنده عن ابن عباس رضي الله عنهما ، لكن بغير هـٰذه اللفظة ، وهو عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظه عند أبي الشيخ في « العظمة » (١/٢١٦) كما سيأتي .

(٢) « فيض القدير » (٣/٢٦٣) .

(٣) أخرجه أبو الشيخ في « العظمة » (١/٢٤٠) .

(٤) أخرجه أبو الشيخ في « العظمة » (١/٢١٥) .

(٥) « فيض القدير » (٣/٢٦٢) .

(٦) أخرجه أبو الشيخ في « العظمة » (١/٢١٦) .

(٧) « فيض القدير » (٣/٢٦٢) .

قال رجل لعليٍّ : يا أمير المؤمنين ؛ أين الله ؟ قال : « أين » سؤالٌ عن مكان ، وكان الله ولا مكان .

وٱعلم : أنَّ (مَنْ) في كلام الناظم ٱسم موصول بمعنى الذي كما تقرَّر ، و(**الأفكار**) : جمع فِكر ـ بالكسر ـ وهو : تردُّد القلب بالنظر والتدبُّر لطلب المعاني ، يقال : لي في الأمر فِكر ؛ أي : نظرٌ ورَوِيَّة ، ويقال : هو ترتيب أمور في الذهن يُتوصَّل بها إلىٰ مطلوب يكون علماً أو ظناً ، كذا في « المصباح » .

وما مشىٰ عليه الناظم رحمه الله تعالىٰ مِنْ عدم تعدِّي (هدى) بالحرف . . هو لغة الحجازيين ، قال في « المصباح » : (هديته الطريق أهديه هداية ، هـٰذه لغة الحجاز ، ولغة غيرها يتعدَّىٰ بالحرف ، فيقال : هديته إلى الطريق وللطريق) اهـ[1]

وقوله : (عزَّ) أي : غلب وقوي فلا يساويه أحد في ذلك ، قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ ، و(جلَّ) أي : عَظُمَ ، فالعزَّة : القوَّة ، والجلال : العظمة ، كذا في « المصباح » .

قال بعض العارفين : النظر في المخلوقات مِنْ أقرب القربات ، قال تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الآية ، فالمصنوعات المعلومة بالضرورة شيئان : علوية ، وسفلية .

فالعلوية : كالشمس ، والقمر ، والسموات السبع ، وسكانها مِنَ الملائكة على اختلافهم ، والعرش ، والكرسي ، والبيت المعمور ، وما فيه مِنَ الملائكة الذين يعبدون الله عزَّ وجلَّ ويسبحونه ولا يَفْتُرون عن عبادته طرفةَ عينٍ ، والجنَّة وما فيها مِنَ القصور والأنهار والحُور والوِلْدان والنعيم الذي أعدَّه الله فيها لأوليائه المؤمنين ، ممَّا لا عينٌ رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر علىٰ قلب بشر ، والنار وما أعدَّه الله فيها لأعدائه الكافرين مِنَ العذاب والنَّكال والسلاسل والأغلال والحيات والعقارب وغير ذلك ، ممَّا لا عين رأت ، ولا أذن

---

(١) وبكلٍّ جاء الذكر الحكيم ، فبلغة الحجاز قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾ وهي مُقْتَبَسُ البيت ، وبلغة غيرها من العرب : في المتعدي بـ(إلىٰ) قوله تعالىٰ : ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ ، وفي المتعدي بـ(اللام) قوله تعالىٰ : ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا ﴾ ، وغيرها من الآيات .

سمعت ، ولا خطر علىٰ قلب بشر مِنْ أنواع العذاب ، نسأل الله العافية والسلامة .

والمصنوعات السفلية : كالأَرَضِين السبع ، والجبال ، والأنهار ، والبحار ، والشجر ، والدوابّ ، وبني آدم على ٱختلاف ألسنتهم وألوانهم ، إلىٰ غير ذلك ممَّا خلق الله فيها ، وأوجده علىٰ ظهرها ، وأودعه في بطنها مِنَ الكنوز والمعادن والنبات وغير ذلك ؛ ففي كلِّ جزءٍ مِنْ هـٰذه المصنوعات دلالة كافية علىٰ أنَّ الله هو خالقها وموجدها مِنْ غير شريك ولا معين[1] ، ولذلك سئل بعض الأعراب عن الدليل علىٰ وجود الله تعالىٰ ، فقال : البعرة تدلُّ على البعير ، وأثر الأقدام يدلُّ على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، أفلا يدلان على اللطيف الخبير ؟!

وأقرب المصنوعات إليك نفسك ، قال تعالىٰ : ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ ، ففي نظرك إلىٰ نفسك وما ٱشتملت عليه مِنْ سمع وبصر وذوق وشمٍّ ورضىً وغضب وكفر وإيمان وشهوة وعدمها . . كفاية في الاعتبار ، ودلالة علىٰ أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ قادرٌ علىٰ كلِّ شيء ، وبيده الإعطاء والمنع ، والوصل والقطع ، والخفض والرفع ، والضرُّ والنفع ، ما شاء الله . . كان ، وما لم يشأ . . لم يكن .

قال بعض العارفين : مَنْ تفكَّر في عجائب المخلوقات . . كان مِنَ المقربين .

وقال بعضهم : تفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ مِنْ قيام ليلة ؛ فإِنَّ الفكر حجُّ العقل .

---

(١) ولله در القائل : [من الطويل]

سَلِ الـواحـة الخضـراء والمـاءَ جـاريـا ... وهـٰـذي الصحـارىٰ والجبـال الـرواسيـا
سَلِ الـروضَ مُـزْدانـاً سَلِ الـزهـر والنـدى ... سَلِ الليـلَ والإصبـاحَ والطيـر شـاديـا
وسَـلْ هـٰـذه الأنسـامَ والأرضَ والسمـا ... وسَـلْ كـلَّ شـيء تسمـع الحمـد ساريـا

والقائل : [من البسيط]

ألشمـسُ والبـدرُ مـن أنـوار حكمتـه ... والبـر والبحـر فيـض مـن عطـايـاهُ
فـالطيـر سبَّحـه والـزرع قـدَّسـه ... والمـوجُ كبَّـره والحـوتُ نـاجـاهُ
والنمـل تحـت الصخـور الصُّـمِّ مجَّـدهُ ... والنحْـلُ يهتِـفُ حمـداً فـي خـلايـاهُ
ربُّ السمـاء وربُّ الأرض قـد خضعـتْ ... إنـسٌ وجـنٌّ وأمـلاكٌ لعليـاهُ
النـاس يعصـونـه جهـراً فيستـرُهـم ... والعبـد ينسـىٰ وربِّـي ليـس ينسـاه

وقال بعضهم : الفكرُ مرآةٌ تُرِيكَ حسناتك وسيئاتك ، وتدلُّكَ علىٰ أنَّ الله هو الصانع المختار ، وغيرُهُ صائرٌ إلى الزوال .

وما أحسن ما قال الأستاذ اللقَّاني :

فـانْظـرْ إلـىٰ نفسِـكَ ثـمَّ انتقـل ... للعـالـمِ العُلْـويِّ ثـمَّ السُّفْلـي

تَجِـدْ بـهِ صُنعـاً بـديـعَ الحِكَـمِ ... لكـنْ بـهِ قـامَ دليـلُ العَـدَمِ

وكُـلُّ مـا جـازَ عليـهِ العَـدَمُ ... عليـهِ قطعـاً يستحيـلُ القِـدَمُ[1]

* * *

(١) الأبيات من منظومة « جوهرة التوحيد » للإمام برهان الدين إبراهيم بن هارون اللقاني المتوفىٰ سنة (١٠٤١هـ) .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :

١٤

كَتَبَ ٱلْمَوْتَ عَلَى ٱلْخَلْقِ فَكَمْ ‌ ‌ ‌ ‌ قَلَّ مِنْ جَمْعٍ وَأَفْنَىٰ مِنْ دُوَلْ[1]

أي : أوجبَ سبحانه وتعالى الموتَ ـ الذي هو مفارقة الروح للجسد ـ علىٰ جميع الخلق ؛ مِنْ صغير وكبير ، وجليل وحقير ، وغنيٍّ وفقير ، وإنس وجنٍّ وملك ، وطير ووحش ، وذباب ونمل ، وبعوض وبراغيث ، وغير ذلك مِنْ كلِّ ما خلق الله تعالىٰ ، وبسبب ذلك الموت الدالِّ علىٰ قدرة الله تعالىٰ وقهره لجميع خلقه.. قلَّتِ الجموع ، وخَلَتِ الربوع ، فكم قلَّلَ ذلك الموتُ مِنْ جَمْع وأفنىٰ مِنْ دول ، فأين أهل المدن والحصون ؟ أين أهل المعاني والفنون ؟ أين الأمم الماضية ؟ أين أرباب القصور العالية ؟

تَنْبِيه

[في بيان مادَّتين لغويَّتين]

قال في « المصباح » : (الموت ضدُّ الحياة ، والمَيتة ما لم تلحقها الذكاة الشرعية ، والمُوات ـ بضم الميم ـ : المَوْت ، وبالفتح : الأرض التي لا مالك لها ولا ينتفع بها أحد) اهـ

وقال فيه أيضاً : (تداولَ القومُ الشيءَ : هو حصوله في يد هـٰذا تارة ، وفي يد هـٰذا تارة أخرىٰ ، والاسم الدُّولة ، بفتح الدال وضمِّها ، وجمع المفتوح : دِوَل بالكسر ، مثل : قَصعة وقِصَع ، وجمع المضموم : دُول بالضم ، مثل : غُرفة وغُرَف) اهـ ، فعلم مِنْ عبارته : أنَّه يجوز في كلام الناظم كسر الدال وضمُّها .

---

(١) رواية « الديوان » : (فل) بدل : (قل) ، ولعله الصواب ؛ ولم نجد من معاني (قل) ما ذكره الشارح في شرح البيت ، وفل : غلب وهزم ، وأصل الفل : الكسر ، والمراد هنا : أن الموت كثيراً ما فرق الجموع وأهلكهم ، والله أعلم .

فائدة

[في بيان دول الإسلام]

الدول قبل الإسلام كثيرة ؛ كالفراعنة والعمالقة والقياصرة والأكاسرة والتابعة ونحوها[1] ، وأمَّا دول الإسلام من لدن عصره صلى الله عليه وسلم إلىٰ يومنا هـٰذا . فهي سبع دول :

الأولىٰ : دولة النبيِّ صلى الله عليه وسلم والخلفاء الأربعة بعده رضي الله تعالىٰ عنهم .

الثانية : دولة بني أمية ، وهم اثنا عشر[2] .

الثالثة : دولة بني العباس رضي الله تعالىٰ عنه ، وهم ثلاثة وثلاثون[3] .

الرابعة : دولة العبيديين ، وهم ثمانية[4] .

---

(١) العمالقة من أبناء عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح ، ومنهم تفرقت الجبارة والعتاة بأرض الشام ، ومنهم الفراعنة ملوك مصر ، ومنهم الأكاسرة ملوك فارس وخراسان ، وأما القياصرة : فهم من أبناء يافث بن نوح ، وهم ملوك الروم ، والله أعلم .

(٢) بل أربعة عشر ، وهم : معاوية ابن أبي سفيان بن ويزيد بن معاوية ، ومعاوية بن يزيد ، ومروان بن الحكم ، وعبد الملك بن مروان ، والوليد بن عبد الملك ، وسليمان بن عبد الملك ، وعمر بن عبد العزيز ، ويزيد بن عبد الملك ، وهشام بن عبد الملك ، والوليد بن يزيد ، ويزيد بن الوليد ، وإبراهيم بن الوليد ، ومروان بن محمد .

(٣) بل هم ثمانية وثلاثون إن اعتبرنا خلافة الراضي عبد الله بن المعتز ، وسبعة وثلاثون إن لم نعتبر خلافته ، وهم : أبو العباس السفاح ، وأبو جعفر المنصور ، وابنه محمد المهدي ، وابنه موسى الهادي ، وأخوه هارون الرشيد ، وابنه محمد الأمين ، وأخوه المأمون ، وأخوه محمد المعتصم ، والواثق هارون ، والمتوكل جعفر بن المعتصم ، والمنتصر بن المتوكل ، والمستعين بن المعتصم ، والمعتز بن المتوكل ، والمهتدي محمد بن الواثق ، والمعتمد أحمد بن المتوكل ، والمعتضد أحمد بن الموفق ، وابنه المكتفي بن المعتضد ، وأخوه المقتدر جعفر بن المعتضد ، والراضي عبد الله بن المعتز إن اعتبرناه ، والقاهر محمد بن المعتضد ، والراضي أحمد بن المقتدر ، والمتقي إبراهيم بن المقتدر ، والمستكفي عبد الله بن المكتفي ، والمطيع بن المقتدر ، والطائع عبد الكريم بن المطيع ، والقادر أحمد بن إسحاق ، والقائم عبد الله بن القادر ، والمقتدي عبد بن محمد ، والمستظهر أحمد بن المقتدي ، والمسترشد فضل بن المستظهر ، والراشد أبو جعفر بن المستظهر ، والمقتفي محمد بن المستظهر ، والمستنجد يوسف بن المقتفي ، والمستضيء الحسن بن المستنجد ، والناصر بن المستضيء ، والظاهر محمد بن الناصر ، والمستنصر أبو جعفر بن الظاهر ، والمستعصم عبد الله بن المستنصر .

(٤) بل جملتهم أربعة عشر ، وهم : المهدي ، وابنه محمد القائم ، وابنه إسماعيل المنصور ، وابنه المعز معد ، وابنه العزيز نزار ، وابنه الحاكم منصور ، وابنه الظاهر علي ، وابنه المستنصر معد ، وابنه المستعلي أحمد ، وابنه الآمر منصور ، وابن عمه الحافظ ، وابنه الظافر إسماعيل ، وابنه الفائز عيسىٰ ، وابن عمه العاضد عبد الله .

الخامسة : دولة الأتراك ، وهم ثلاثة عشر[١] .

السادسة : دولة الجراكسة ، وهم مِنْ برقوق إلىٰ آخر ولاية الغوري ، ولم يوقف لهم علىٰ عدد[٢] .

السابعة : دولة بني عثمان ، أدام الله دولتهم ، ومكَّن خلافتهم ، وأيَّد سلطنتهم ، أولهم مولانا السلطان سليم رحمه الله تعالىٰ ، قدم إلىٰ مصر المحروسة في أواخر سنة اثنتين وعشرين وتسع مئة ـ بتقديم المثناة على السين ـ وهـٰذا بالنسبة لمن ولي الخلافة منهم بمصر المحروسة ، وإلا . . فلهم أسلاف في السلطنة والخلافة في البلاد الرومية قبل السلطان سليم بكثير ، فأوَّلُهم : السلطان عثمان الأكبر ، ولي الخلافة في البلاد الرومية في سنة ستٍ وتسعين ـ بتقديم المثناة على السين ـ وست مئة مِن الهجرة النبوية ، وليس منسوباً إلىٰ سيِّدنا عثمان بن عفان رضي الله تعالىٰ عنه كما يتوهَّمه كثيرون ، وقد نقل أهل السير أنَّه كان رجلاً صالحاً مباركاً حافظاً لكتاب الله تعالىٰ ، ملازماً لتلاوة القرآن آناء الليل وأطراف النهار ، وكان قبل ورود الأمر عليه يعاني حرفة الزراعة ، ويأكل مِنْ عمل يده ، فاْصطفاه الله تعالىٰ واْختاره للخلافة الشرعية ، ثم توفَّاه الله ، وجعل الخلافة باقية في ذرِّيَّته ، أدام الله سلطنتهم وخلافتهم ، وأهلك أعداءهم الكافرين ، آمين[٣] .

---

(١) وهم : طغرل بك محمد ، وابن أخيه ألب أرسلان سليمان بن داوود ، وابنه ملكشاه بن ألب أرسلان ، وابنه محمود بن ملكشاه ، وأخوه بركيارق بن ملكشاه ، وابنه ملكشاه بن بركيارق ، وعمه محمد شاه بن ملكشاه ، وابنه محمود بن محمد شاه ، وابنه داوود بن محمود ، وعمه مسعود بن محمد شاه ، وسليمان شاه بن محمد شاه ، وابن أخيه أرسلان شاه بن طغرل ، وابنه طغرل شاه بن أرسلان شاه .

(٢) وهم قرابة اثنين وعشرين ؛ الظاهر برقوق ، وابنه الناصر ، وأخوه المنصور عبد العزيز بن الظاهر برقوق ، والمؤيد شيخ المحمودي ، وابنه المظفر أحمد بن المؤيد ، والظاهر ططر ، وابنه الصالح محمد بن الظاهر ططر ، والأشرف برسباي ، وابنه العزيز يوسف بن برسباي ، والظاهر جقمق ، وابنه المنصور عثمان بن جقمق ، والأشرف إينال ، وابنه المؤيد أحمد بن إينال ، والظاهر خوشقدم ، والظاهر بلباي ، والظاهر تمر بغا ، والأشرف قايتباي ، وابنه الناصر محمد بن قايتباي ، والظاهر قانصوه ، والأشرف جان بلاط ، والعادل طومان باي ، والأشرف قانصوه الغوري ، وربما عدوا معهم طومان باي الثاني ، وعليه : فعددهم ثلاثة وعشرون .

(٣) ذكر المصنف رحمه الله تعالى اثنين من سلاطين بني عثمان ، وهم خمسة وثلاثون ؛ عثمان بن أرطغل ، وابنه أورخان ، وابنه مراد الأول ، وابنه بايزيد خان الأول ، وابنه محمد جلبي بن بايزيد خان ، وابنه مراد الثاني ، وابنه محمد الثاني الفاتح ، وابنه بايزيد الثاني ، وابنه سليم الأول ، وابنه سليمان القانوني ، وابنه سليم الثاني ، وابنه مراد الثالث ، وابنه محمد خان الثالث ، وابنه أحمد الأول ، وأخوه مصطفىٰ خان الأول ، وابن أخيه عثمان الثاني بن أحمد الأول ، وأخوه

=

فائدة ١٧٦

[في ذكر ما جاء عن الموت وهوله]

ذكر في « تنبيه الغافلين » ممَّا جاء في هول الموت وشدَّته ما نصُّه : (عن أنس بن مالك : أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ أحبَّ لقاء الله . . أحبَّ الله لقاءه ، ومَنْ كره لقاء الله . . كره الله لقاءَهُ » ، قيل : يا رسول الله ؛ كلُّنا نكره الموت ، قال : « ليس ذلك كراهة الموت ، ولكن إذا احتضر المؤمن . . جاءه البشير مِنَ الله تعالىٰ بما يصير إليه ، فليس شيء أحب إليه مِنْ لقاء الله تعالىٰ ؛ فأحبَّ الله لقاءه ، قال : وإنَّ الفاجر الكافر إذا احتضر . . جاءه النذير مِنَ الله تعالىٰ بما هو صائر إليه مِنَ الشرِّ ، فكره لقاء الله ؛ فكره الله لقاءه »[1] .

وروي عن جابر بن عبد الله الأنصاري : أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « تحدَّثوا عن بني إسرائيلَ ولا حَرَج ؛ فإنَّه قد كانت فيهم الأعاجيب » ، ثمَّ أنشأ يحدِّث فقال : خرجتْ طائفة مِنْ بني إسرائيلَ حتىٰ أتَوا مقبُرَة ، فقالوا : لو صلينا ثمَّ دعونا حتىٰ يخرجَ لنا بعض الموتىٰ فيخبرنا عن الموت ؟ فصلَّوا ثمَّ دعوا ربهم ، فبينما هم كذلك إذا برجل قد طلع عليهم من قبره برأسه أسود اللون وقال : يا هؤلاء ؛ ما أردتم ؟ فوالله لقد مُتُّ منذ سبعين أو مئة سنة وإنَّ مرارة الموت ما ذهبت مني إلى الآن ، وكان بين عينيه أثر السجود[2] .

= مراد خان الرابع ، وأخوه إبراهيم خان ، وابنه محمد خان الرابع ، وأخوه سليمان خان الثاني ، وأخوه أحمد خان الثاني ، وابن أخيه مصطفىٰ خان الثاني ، وأخوه أحمد خان الثالث ، وابن أخيه محمود الأول ، وعثمان خان الثالث ، ومصطفى الثالث ، وأخوه عبد الحميد الأول ، وابن أخيه سليم خان الثالث ، وابن عمه مصطفى الرابع ، وأخوه محمود الثاني ، وابنه عبد المجيد ، وأخوه عبد العزيز ، وابن أخيه مراد الخامس ، وأخوه عبد الحميد الثاني ، وأخوه محمد رشاد الخامس .

(١) أخرجه البخاري عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه (٦٥٠٧) ، ومسلم عن عائشة رضي الله عنها (٢٦٨٤) ، وهو عند السمرقندي بإسناده عن أنس رضي الله عنه (ص٣٥) .

(٢) أخرج الحديث مع القصة أحمد في « الزهد » (ص١٧) ، والخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (ص١٣) ، وتمام في « فوائده » (٢٢٩) .

وعن الحسن : أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « شدَّة الموت وكربه على المؤمن أشدُّ مِنْ ثلاث مئة ضربة بالسيف »[1] .

وروي عن عليِّ بن أبي طالب رضي الله تعالىٰ عنه : أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم رأىٰ ملك الموت عند رأس رجل مِنَ الأنصار ، فقال له : « ٱرفُق بصاحبي ؛ فإنَّه مؤمن » ، فقال له ملك الموت : أبشر يا محمد ؛ فإنِّي بكلِّ مؤمنٍ رفيقٌ ، والله يا محمد ؛ إنِّي لأقبض روح ٱبنِ آدمَ ، فإذا صرخ صارخٌ مِنْ أهله . . قلت : ما هٰذا الصارخ ؟ والله ما ظلمناه ولا سبقنا أجله ولا ٱستعجلنا قدره ، وما لنا في قبضه مِنْ ذنب ، فإنْ تَرْضَوا بما صنع الله تعالىٰ . . تؤجروا ، وإنْ تسخطوا وتجزعوا . . تأثموا ، وما لكم عندنا من عتيبة ، وإنَّ لنا عليكم لغَيبة وعودة ، فالحذرَ ثمَّ الحذر ، وما مِنْ أهل بيت شعر ولا مدر في برٍّ ولا بحر . . إلاَّ وأنا أتصفَّح في وجوههم في كلِّ يوم وليلة خمس مرات ، حتىٰ إنِّي لأعْرَفُ بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم ، والله يا محمد ؛ لو أنِّي أردتُ أنْ أقبض روح بعوضة . . ما قدرت علىٰ ذلك حتىٰ يكون الله هو الذي يأمرني بقبضها[2] .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه لكعب الأحبار رضي الله عنه : حدثني عن الموت ، فقال : كأنَّه غصنُ شوكٍ أُدخل في جوف رجل ، فأخذتْ كلُّ شوكة بعرق ، ثمَّ أخذها رجلٌ شديدُ الجَذْب ، فجذبها جذبة شديدة ، فقطع منها ما قطع ، وأبقىٰ ما أبقىٰ[3] .

وقال حاتم الأصم : أربعة لا يعرفها إلا أربعة : لا يعرف قدر الشباب إلاَّ الشيوخُ ، ولا قدر العافية إلاَّ أهلُ البلاء ، ولا قدر الصحة إلاَّ المرضىٰ ، ولا قدر الحياة إلاَّ الموتىٰ .

وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « لو علمتِ البهائمُ ما تعلمون مِنَ الموت . . ما أكلتم منها لحماً سميناً أبداً »[4] .

وذُكِرَ : أنَّ عيسىٰ عليه السلام كان يحيي الموتىٰ بإذن الله تعالىٰ ، فقال له بعض الكفرة :

---

(١) أخرجه ابن المبارك في « الزهد » عن الحسن رحمه الله مرسلاً (٦٢٠) .

(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٤/٢٢٠) ، وابن أبي عاصم في « الآحاد والمثاني » (٢٢٥٤) ، وأبو الشيخ في « العظمة » (٤٧٣) ، كلهم عن أبي الحارث بن الخزرج الأنصاري رضي الله عنه .

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٨/٣١٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/٣٦٥) .

(٤) أخرجه القضاعي في « مسنده » (١٤٣٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٧٣) .

إنَّك تحيي جديدَ العهد بالموت ، ولعله لم يكن ميتاً ، فأحيِ لنا مَنْ مات في الزمن الأوَّل ، فقال لهم : أختاروا مَنْ شئتم ؟ فقالوا : أَحيِ لنا سام بن نوح ، فجاء إلىٰ قبره ، وصلىٰ ركعتين ، ودعا الله تعالىٰ ، فأحيا الله تعالىٰ سام بن نوح ، فإذا برأسه ولحيته قد أبيضَّتا ، فقال له : ما هٰذا الشيب ؛ فإنَّ الشيب لم يكن في زمانك ؟ فقال : سمعت النداء ، فظننت أنَّها القيامة ، فشاب رأسي ولحيتي مِنَ الهيبة ، فقال له : منذ كم أنتَ ميت ؟ فقال : منذ أربعة آلاف سنة ، فما ذهبت عني سكرات الموت .

ويقال : ما مِنْ ميت يموت . . إلاَّ وعرض عليه الحياة والرجوع إلى الدنيا ، فيكره الرجوع إلى الدنيا ؛ لِمَا يلقىٰ مِنْ شدَّة الموت ، إلا الشهداء ؛ فإنَّهم لم يجدوا شدَّة الموت ، فيتمنون الرجوع لكي يقاتلوا ويقتلوا ثانياً .

وروي عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالىٰ عنه أنَّه قال : ما مِنْ نفس بارَّة ولا فاجرة ، إلاَّ والموت خير لها ، فإنْ كان باراً . . فقد قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ ، وإنْ كان فاجراً . . فقد قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ .

وعن البراء بن عازب رضي الله تعالىٰ عنه قال : « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جَنازة رجل مِنَ الأنصار ، فأنتهينا إلى القبر ولم يلحد بعد ، فجلس النبيُّ صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله وكأنَّ علىٰ رؤوسنا الطير ، وفي يده عود ينكت به الأرض ، فرفع رأسه إلى السماء وقال : « أستعيذوا بالله مِنْ عذاب القبر » مرَّتين أو ثلاثاً ، ثمَّ قال : « إنَّ العبد المؤمن إذا كان في إقبالٍ مِنَ الآخرة ، وأنقطاعٍ مِنَ الدنيا . . تنزل عليه ملائكةٌ بيضُ الوجوه ، كأنَّ وجوهَهُمُ الشمسُ ، ومعهم كفنٌ مِنْ أكفان الجنَّة ، وحَنُوطٌ مِنْ حَنُوط الجنَّة ، فيجلسون منه مدَّ البصر ، ثم يجيء ملكُ الموت حتىٰ يجلسَ عند رأسه فيقولُ : أيَّتها النفسُ المطمئنةُ ؛ أخرُجي إلىٰ مغفرةِ الله ورضوانِهِ ، فتخرجُ وتسيل كما تسيل القطرة منَ السقاء ، فيأخذُها ، فلا يدعونها في يده طرفةَ عينٍ حتىٰ يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن والحَنُوط ، فيخرج منها ريحٌ كأطيبِ نفحةِ مِسْكٍ وُجدت علىٰ وجه الأرض ، فيصعدون بها إلى السماء ، فلا يمرُّون بها علىٰ ملإٍ مِنَ الملائكةِ إلاَّ قالوا : ما هٰذه الروح الطيبة ؟ فيقولون : روح فلان ، بأحسن أسمائه ، حتىٰ ينتهوا بها إلى السماء الدنيا ، فيستفتحون لها أبواب السماء ،

[فيفتح لهم] ، فيشيِّعُهُ مِنْ كلِّ سماءٍ ملائكتُها إلى السماء التي تليها ، حتىٰ ينتهوا بها إلى السماء السابعة ، فيقول الله عزَّ وجلَّ : ٱكتبوا كتابَهُ في عِلِّيِّينَ ، وأعيدوه إلى الأرض التي منها خلقتُهم ، وفيها أُعيدُهم ، ومنها أخرجُهُم تارةً أخرىٰ ، فتُعادُ الروحُ في جسده ، ويأتيه ملكان ، فيقولان له : مَنْ ربُّك ؟ فيقول : ربِّيَ اللهُ ، ثمَّ يقولان له : ما دينُكَ ؟ فيقول : دينيَ الإسلامُ ، فيقولان له : ما تقول في هٰذا الرجل الذي بُعِثَ فيكم ؟ فيقول : هو رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فيقولان له : ما عِلمُك وما عملك ؟ فيقول : قرأتُ كتابَ الله تعالىٰ ، فآمنتُ به وصدقتُ ، قال : فينادي منادٍ مِنَ السماء : صدقَ عبدي ، فأفرِشوا له فراشاً مِنَ الجنَّة ، وأَلبسوهُ لباساً مِنَ الجنَّة ، وٱفتحوا له طاقةً مِنَ الجنَّةِ ، فيأتيه مِنْ ريحها وطيبها ، ويُفسَحُ له في قبره مدَّ بصره ، ويأتيه شخصٌ حسنُ الوجه ، طيِّبُ الريحِ ، فيقول له : أبشرْ بالذي بشَّركَ اللهُ تبارك وتعالىٰ به ، هٰذا يومُكَ الذي كنتَ تُوعَدُ به ، فيقول له : مَنْ أنتَ ؟ فيقول : أنا عملُكَ الصالحُ ، فيقول : يا ربِّ ؛ أقمِ الساعة حتىٰ أرجع إلىٰ أهلي ومالي ـ يعني : في الجنَّة ـ قال : وأمَّا الكافر إذا كان في إقبالٍ من الآخرة ، وانقطاعٍ مِنَ الدنيا . . أنزل الله إليه ملائكةً مِنَ السماء ، سودُ الوجوه ، معهمُ المُسُوحُ ، فيجلسون منه مدَّ البصر ، ثم يجيء ملكُ الموت حتىٰ يجلسَ عند رأسه ، فيقول : أيَّتها النفسُ الخبيثة ؛ أخرجي إلىٰ سُخْطِ الله وغضبه ، فتَفَرَّقُ في أعضائه كلِّها ، فينزِعُها كما يُنزَعُ الشوكُ مِنَ الصوف المبلول ، فيتقطَّعُ منها العروقُ والعصبُ ، فيأخذُها ، فإذا أخذها . . لم يدعوها في يده طرفةَ عينٍ حتىٰ يأخذوها فيجعلوها في تلك المُسُوح ، فتخرجُ منها رائحةٌ كأنتنِ ريحِ جيفةٍ وُجِدَتْ علىٰ وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرُّون بها علىٰ ملإٍ مِنَ الملائكة إلاَّ قالوا : ما هٰذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون : روح فلان بن فلان ، بأقبح أسمائه [التي كان يسمىٰ بها في الدنيا] ، حتىٰ ينتهوا بها إلى السماء الدنيا ، فيستفتحون فلا يفتح لها ، وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هٰذه الآية : ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ ، ثمَّ يقول الله عزَّ وجلَّ : ٱكتبوا كتابَهُ في سِجِّين ، ثمَّ تُطرحُ روحُهُ طرحاً ، ثمَّ قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ ، فتُعادُ روحُه في جسده ، فيأتيه ملكان ، فيجلسانه ، فيقولان له : مَنْ ربُّك ؟ فيقول : هاه

لا أدري ، فيقولان له : وما دينُك ؟ فيقول : هاه لا أدري ، فيقولان له : ما تقول في هـٰذا الرجل الذي بُعِثَ فيكم ؟ فيقول : هاه لا أدري ، فينادي منادٍ مِنَ السماء : كذب عبدي ، فافرُشوا له فراشاً مِنْ نارٍ ، وألبسوه لباساً مِنْ نارٍ ، وافتحوا له طاقةً مِنَ النار ، فيدخلُ عليه مِنْ حرِّها وسَمُومها ، ويُضَيَّقُ عليه قبرُه حتىٰ تختلفَ فيه أضلاعُهُ ، ويأتيه شخصٌ قبيحُ الوجهِ ، قبيحُ الثيابِ ، منتنُ الريحِ ، فيقول له : أبشر بالذي يسوؤك ، هـٰذا يومك الذي كنت تُوعَدُ به ، فيقول له : من أنت ؟ فيقول : أنا عملُكَ [الخبيث] ، فيقول : يا ربِّ ؛ لا تقمِ الساعة ، يا ربِّ ؛ لا تقمِ الساعة »[1]) اهـ[2]

وقال الحريفيش في الفصل الثاني ما نصُّه : (روي عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « ما الميت في قبره إلاَّ كالغريق ، ينتظر دعوةً تلحقُهُ مِنْ أبٍ أو أخٍ أو صديقٍ له ، فإذا لحقتْهُ . . كانت أحبَّ إليه مِنَ الدنيا وما فيها »[3] .

وعن كعب الأحبار رضي الله تعالىٰ عنه : أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « لا يمرُّ أحد في المقابر إلاَّ وتناديه أهل القبور : يا غافلاً لو علمت ما نحن فيه . . لذاب لحمُكَ وجسدُكَ كما يذوب الثلج على النار » .

وقال سليمان بن عبد الملك لأبي حازمٍ : يا أبا حازم ؛ ما لنا نكره الموت ؟ فقال : لأنَّكم عمَّرتم دنياكم وخرَّبتم أُخراكم ، فأنتم تكرهون النُّقْلَةَ مِنَ العمار إلى الخراب ، فقال : كيف القدومُ على الله ؟ قال : يا أميرَ المؤمنين ؛ أمَّا المحسنُ : فكالغائب يأتي أهله فرِحاً مسروراً ، وأمَّا المسيءُ : فكالعبد الآبِقِ يأتي مولاهُ خائفاً محزوناً[4] .

وقال بعض العارفين : كان رجل يحاسب نفسه ، فحسب يوماً سنينه ، فوجدها ستين سنةً ، فحسب أيَّامها ، فوجدها إحدىٰ وعشرين ألف يوم وخمس مئة ، فصرخ صرخةً عظيمةً ، وخرَّ مغشياً عليه ، فلمَّا أفاق . . قال : يا ويلتاه ؛ أنا آتي ربي بإحدىٰ وعشرين ألف

---

(١) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (١/٣٧) ، وأبو داوود (٤٧٥٣) ، وأحمد (٤/٢٨٧) .

(٢) « تنبيه الغافلين » (ص ٣٥ـ٤٨) .

(٣) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٧٥٢٧) .

(٤) أخرجه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٦/٦٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٢/٢٩) .

ذنب وخمس مئة ذنبٍ ؟ ثمَّ قال : آهِ عليَّ ؛ عمَّرتُ دنياي ، وخرَّبتُ أُخراي ، وعصيتُ مولاي ، ثمَّ لا أشتهي النُّقْلَةَ مِنَ العمران إلى الخراب ، ثمَّ شهق شهقةً عظيمةً ووقع على الأرض ، فحرَّكوه ، فإذا هو ميتٌ رحمةُ الله تعالىٰ عليه[1] ، وإذا كان هـٰذا حالُ مَنْ يكسِبُ كلَّ يومٍ ذنباً واحداً ، فكيف بمَنْ له ذنوبٌ لا تحصىٰ ؟!

ويروىٰ عن عثمان بن عفان رضي الله تعالىٰ عنه : أنَّه وقف علىٰ قبر فبكىٰ ، فقيل له : إنَّك تذكر الجنَّة والنار فلا تبكي ، وتبكي مِنْ هـٰذا ؟ فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنَّ القبرَ أوَّلُ منزلةٍ مِنْ منازلِ الآخرة ، فإنْ نجا منه.. فما بعدَهُ أيسرُ منه ، وإنْ لم ينجُ منه.. فما بعدَهُ أشدُّ »[2] .

ويروىٰ : أنَّ رجلاً جاء إلىٰ مقبُرة فصلَّىٰ ركعتين ، ثم اضطجع ، فرأىٰ صاحب القبر ، فقال له : يا هـٰذا ؛ إنَّكم تعملون ولا تعلمون ، ونحن نعلم ولا نعمل ، ولأن تكون ركعتان في صحيفتي خيرٌ مِنَ الدنيا وما فيها[3] .

ويروىٰ : أنَّ فارساً مرَّ بغلام ، فسأله : يا غلام ؛ أين العُمران ؟ فقال له : اصعد تشرف ، فصعد فأشرف علىٰ مقبُرة ، فقال : هـٰذا الغلام إمَّا جاهل وإمَّا حكيم ، فرجع إليه فقال : سألتك عن العُمران ، فدللتني على المقابر ، فقال الغلام : إنِّي رأيتُ أهلَ تلك القرية ينتقلون إلىٰ هـٰذه ، ولم أرَ أحداً منهم ينتقل مِنْ هـٰذه إلىٰ تلك القرية ، وإنَّما ينتقل مِنَ الخراب إلى العُمران ، ولو سألتني عمَّن يواريك.. لدللتُكَ .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله تعالىٰ عنهما ، عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « ما مِنْ يومٍ إلاَّ وملك يهتف في المقابر فينادي : يا أهلَ القبور ؛ مَنْ تحسُدُون اليوم ؟ فيجيبونه فيقولون : نحسُد أهل المساجد في مساجدهم ؛ يصلُّون ولا نقدر أنْ نصلِّيَ ، ويصومون ولا نقدر أنْ نصومَ ، ويتصدَّقون ولا نقدر أنْ نتصدَّقَ ، ويذكرون ولا نقدر أنْ نذكرَ ، فيندمون علىٰ ما مضىٰ مِنْ زمانِهم » .

---

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٩١٦) ، ووقع عنده أنَّ الراوي من ولد طلحة بن عبيد الله ، والمحاسب لنفسه : توبة بن الصمة .

(٢) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٣٧١) ، والترمذي (٢٣٠٨) ، وابن ماجه (٤٢٦٧) .

(٣) أخرجه ابن عبد البر في « الاستذكار » (٢/ ١٦٥) .

ولله درُّ القائل : [من الرمل]

رَبِّ يـا رَبَّـاهُ هَـٰـذَا جَسَـدي تحـتَ أَطْبـاقِ الثَّـرىٰ مُـرتهَنـا
مـا أَرَىٰ لـي عمـلاً لَـٰكِـنْ أَرَىٰ يـا إِلَـٰهـي فِيـكَ ظَنِّـي حَسَنـا
وَعَلَـىٰ عَفْـوِكَ يـا ذَا الفَضْـلِ قَـدْ كُنْـتُ فـي دُنيـايَ أَحْسَنْـتُ الثَّنـا
فَـأَقِـلْ عَثْـرَةَ عَبْـدٍ مُـذْنِـبٍ وتَجَـاوَزْ وٱعْـفُ عَنْـهُ مُحْسِنـا

وعن الأوزاعيِّ رحمةُ الله تعالىٰ عليه قال : مرَّ ميسرة بن حسينٍ بالمقابر يوماً وقائدُهُ يقودُهُ ، وكان كفيفَ البصر ، فقال له قائدُهُ : هـٰذه المقبُرة ، فقال : السلام عليكم يا أهل القبور ؛ أنتم لنا سلف ، ونحن لكم تبع ، فرحمنا الله وإيَّاكم ، وغفر لنا ولكم ، وبارك لنا ولكم في القدوم عليه إذا صرنا إلىٰ ما صرتم إليه ، قال : فردَّ الله تبارك وتعالى الروح إلىٰ رجل منهم ، فأجابَهُ بلسان فصيح فقال : طوبىٰ لكم يا أهل الدنيا ؛ تحجُّون في الشهر أربع مرَّات ، قال ميسرة : إلىٰ أين نحج في الشهر أربع مرَّات يرحمك الله ؟ قال : إلى الجمعة ، أَمَا تعلمون أنَّها حِجَّة مبرورةٌ متقبَّلةٌ ؟ قال : فقلت له : أخبرنا ما أنفع ما قدمتم عليه يرحمك الله ؟ فقال : الاستغفار يا أهل الدنيا أنفع الأشياء في الآخرة ، قال ميسرة : فما منعك أن تردَّ علينا السلام ؟ قال : السلام حسنةٌ ، والحسنات قد رفعتْ عنَّا ، فلا حسنةٌ تزيد ، ولا سيئة تَنقُص ، قد رضينا منكم يا أهل الدنيا بقولكم : رحم الله فلاناً المتوفىٰ .

وقال الحارثُ بن نبهان رحمةُ الله تعالىٰ عليه : كنتُ أَخرُجُ إلى الجبَّانات فأترحَّم علىٰ أهل القبور ، وأتفكَّر فيهم ، وأَعتبر بأحوالهم ، وأنظرهم سكوتاً لا يتكلَّمون ، وجيراناً لا يتزاورون ، قد صار لهم مِنْ بطن الأرض وطاءٌ ، ومِنْ ظهرها غطاءٌ ، وأنادي : يا أهل القبور ، مُحيتْ مِنَ الدنيا آثاركم ، وما مُحيتْ عنكم أوزاركم ، وسكنتم إلىٰ دار البلاء ، فتورَّمتْ أقدامكم ، قال : ثمَّ بكَيتُ بكاءً شديداً ، ثمَّ ملتُ إلىٰ قبَّةٍ فيها قبرٌ ، فنمتُ في ظلِّها ، فبينما أنا نائمٌ إلىٰ جانب القبر ، وإذا بصاحب القبر والسلسلةُ في عُنقه ، وقدِ ٱزرقَّتْ عيناه ، وٱسودَّ وجهُهُ ، وهو يقول : ويلي ما حلَّ بي ، ولو رآني أهل الدنيا . لَمَا رَكبوا معاصي الله تعالىٰ أبداً ، طولبتُ ـ والله ـ باللذات فأوثقتني ، وبالخطايا فأغرقتني ، فهل مِنْ شافعٍ أو مخبرٍ أهلي بأمري ؟

قال الحارث : فاستيقظت وأنا مرعوب ، وكاد أن يخرج قلبي مِنْ هول ما رأيتُ ، فمضيت إلىٰ داري وبتُّ ليلتي وأنا متفكِّرٌ فيما رأيتُ ، فلمَّا أصبحت. . قلتُ : دعني أعود إلى الموضع لعلِّي أجدُ به أحداً مِنْ زوَّار القبور فأعلمه بالذي رأيتُ ، فلمَّا مضَيتُ إلى المكان الذي كنتُ فيه بالأمس. . لم أجد به أحداً ، فنمتُ ، وإذا أنا بصاحب القبر يُسحَبُ علىٰ وجهه وهو يقول : يا ويلتاه ؛ ماذا حلَّ بي ، ساء في الدنيا عملي ، وطال فيها أجلي ، قد غضب عليَّ ربُّ الأرباب ، فالويل لي إن لم يرحمني وينقذني مِنَ العذاب .

قال الحارث : فاستيقظتُ وقد تولَّه عقلي ممَّا سمعتُ ورأيتُ ، فرجعتُ إلىٰ داري وبتُّ ليلتي ، فلمَّا أصبحتُ. . أتيتُ القبر لعلِّي أجد أحداً ، فأخذني النوم فنمت ، فرأيتُ صاحب القبر وقد قُيِّد بين قدميه وهو يقول : ما أغفل أهل الدنيا عني ، ضوعف عليَّ العذاب ، وانقطعتْ عنِّي الحيل والأسباب ، وغضبَ عليَّ ربُّ الأرباب ، وغُلق في وجهي كلُّ باب ، فالويل لي إن لم يرحمني ربُّ العزَّة الوهابُ .

قال الحارث : فاستيقظتُ مِنْ منامي مرعوباً ، وهممتُ بالانصراف ، وإذا بثلاث جوارٍ أقبلْنَ كأنَّهنَّ الأقمار ، فتباعدتُ عنهنَّ ، وتواريتُ منهنَّ في المقبُرة لكي أسمع كلامهنَّ ، فتقدمتِ الصغرىٰ حتَّىٰ وقفتْ على القبر وقالتْ : السلام عليك يا أبتاه ، كيف هدؤوك في مضجَعك وقدِ انقطعت عنا أخبارك ، فما أشدَّ حزننا عليك وشوقنا إليك ، ثمَّ بكت بكاءً شديداً ؛ ثمَّ تقدمتِ الاثنتان ، فسلمتا على القبر ثمَّ قالتا : هـٰذا قبر أبينا الشفيق علينا والرحيم بنا ، آنسك الله برحمته ، وصرف عنك شرَّ عذابه ونقمته ، يا أبتاه ؛ جرتْ بعدك همومٌ لو عاينتها. . لأهمَّتك ، ولو أطلعتَ عليها. . لأحزنتك ، كشف الرجال وجوهنا وقد كنتَ أنتَ تسترها .

قال الحارث : فبكَيتُ لمَّا سمعتُ كلامهنَّ ، ثمَّ قمتُ مسرعاً إليهنَّ ، فسلمتُ عليهنَّ ، وقلتُ لهنَّ : أيتها الجواري ؛ إنَّ الأعمال ربَّما قبلت وربَّما ردت علىٰ صاحبها ، فما كان عمل أبيكنَّ المخلَّد في هـٰذا القبر الذي عاينت مِنْ أمره ما أحزنني وأبكاني وأهمَّني ؟

قال الحارث : فلمَّا سمعْنَ كلامي. . كشفْنَ عن وجوههنَّ وقلْنَ لي : أيُّها العبد الصالح ؛ وما الذي رأيتَ ؟ قلتُ لهنَّ : لي ثلاثة أيَّام أختلف إلىٰ هـٰذا القبر أسمع صوت المقمعة والسلسلة ؛ قال : فلمَّا سمعْنَ ذلك. . قلْنَ لي : هـٰذه بشارة ما أضرَّها

ومصيبة ما أحرَّها ، نحن نقضي الأوطار ونعمُرُ الديار وأبونا يُحرق بالنار ، فوالله ما يقِرُّ لنا قرار حتَّىٰ نتضرَّع إلى الملك الغفار ، فلعلَّه بعفوه وكرمه يُعتق أبانا مِنَ النار ، ثمَّ مضَين يتعثَّرْنَ في أذيالهنَّ ، قال الحارث : فمضَيتُ إلىٰ داري ، فبِتُّ ليلتي ، فلمَّا أصبحتُ . . أتيتُ القبر فجلستُ عنده وأنا متفكِّرٌ في حاله ، فغلبني النوم فنمتُ ، وإذا أنا بصاحب القبر له حُسْنٌ وجمال ، وفي رجليه نعلٌ مِنْ ذَهَبٍ ، ومعه خَدَمٌ وغِلمان ؛ قال الحارث : فسلمتُ عليه وقلتُ له : يرحمك الله ، مَنْ أنتَ ؟ قال : أنا الرجل الذي عاينتَ مِنْ أمري ما أحزنك ، وٱطلعت مِنْ حالي علىٰ ما أوجعك ، فجزاك الله عنِّي خيراً ، فقلتُ له : وكيف كان حالك ؟ قال : لمَّا أطلعك الله عليَّ ، وأخبرتَ بناتي بالأمس بحالي... أهملْنَ عيونَهُنَّ ، وأسبلْنَ شعورَهُنَّ ، وتضرَّعنَ لمولاهُنَّ ، ومرَّغْنَ خدودهُنَّ في التراب ، واستوهبْنني مِنَ العزيز الوهّاب ، فغفر لي الذنوب والأوزار ، وأسكنني دار القرار ، فإذا رأيتَ بناتي . . فأعلمْهُنَّ بأمري ؛ ليزول عنهنَّ رَوعهنَّ وحزنُهُنَّ ، ويعلمْنَ أنِّي قد صرتُ إلىٰ جنات وقصور ، وولدان وحور ، ومِسْك وكافور ، وفرح وسرور ، وقد عفا عنِّي العزيز الغفور ، قال الحارث : فٱستيقظتُ فرِحاً مسروراً ، ومضَيتُ إلىٰ داري ، وبتُّ ليلتي ، فلمَّا أصبحتُ . . أتيتُ المقبُرة ، فوجدتُهُنَّ حافياتِ الأقدام ، عليهنَّ آثار الحزن والاغتمام ، فسلمتُ عليهنَّ ، وقلتُ لهنَّ : أبْشِرْكُنَّ ؛ فقد رأيتُ أباكُنَّ في خير عظيم ، وقد أخبرني أنَّ الله تعالى ٱستجاب دعاءكُنَّ ، وقد وهبَ لَكُنَّ أباكُنَّ ، قال الحارث : فلمَّا سمعْنَ ذلك . . رفعتِ الصغرىٰ يدها وقالتْ : اللهمَّ يا مؤنس القلوب ، يا ساتر العيوب ، يا كاشف الكروب ، يا غافر الذنوب ، يا علام الغيوب ؛ قد علمتَ ما كان مِنْ مسكنتي ، وٱعتذاري في خلوتي ، وإقالتي مِنْ زلَّتي ، وتنصُّلي مِنْ خطيئتي ، وأنتَ اللهمَّ المالكُ لي ، والآخذُ بناصيتي ، ورجائي عند شدَّتي ، ومؤنسي في وحدتي ، فإنْ كنتُ قصرتُ عمَّا أمرتني ، وٱرتكبتُ ما عنه نهيتني . . فبجاهك حميتني ، وبسترك سترتني ؛ فيا أكرم الأكرمين ، [ويا منتهىٰ غاية الطالبين ، ومالك يوم الدين ، أنت تعلم ما أخفي في الضمير ، وتدبِّرُ أمر الصغير والحقير] ؛ إنْ كنتَ قد قضيتَ حاجتي بفضلك ، وشفعتني في عبدك أبي الفقير الكسير الذليل الحقير . . فٱقبضني إليك ، وأنتَ علىٰ كلِّ شيء قدير ، ثمَّ صرختْ صرخةً فارقتِ الدنيا ، قال : ثمَّ قامتِ الثانية ونادتْ بأعلىٰ صوتها : اللهمَّ يا ربَّ الأرباب ، يا معتق الرقاب ؛ خلِّص مِنَ الشكِّ قلبي ،

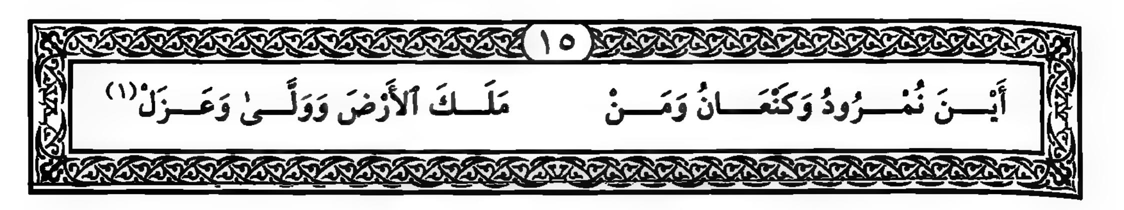
يا مَنْ أقالني مِنْ عثرتي ، وأعانني في شدَّتي ؛ إنْ كنتَ قبلتَ دعوتي ، وقضيتَ حاجتي ، وعَمَرْتَ بذكرك وقتي . . فألحقني بأختي ، ثمَّ صاحتْ صيحةً فارقتِ الدنيا ، ثمَّ قامتِ الثالثة ونادتْ بأعلىٰ صوتها : يا أيها الجبار الأعظم ، والملك الأكرم ، لك الفضل العظيم ، والوجه الكريم ، السعيد مَنْ أسعدتَهُ ، والشقيُّ مَنْ أشقيتَهُ ، والمحروم مَنْ حرمتَهُ ، [والرابح مَنْ وهبتَهُ ، والخاسر مَنْ عذَّبتَهُ] ؛ أسألك بآسمك العظيم ، ووجهك الكريم ، وبآسمك الذي جعلته على الليل فدجا ، وعلى النهار فأضاء ، وعلى الجبال فتدكدكتْ ، وعلى السماوات فآرتفعتْ ، وعلى الأرَضِين فسُطحتْ ، وعلى الملائكة فسجدتْ ، اللهمَّ إنِّي أسألك إنْ كنتَ قضيتَ حاجتي ، وأجبت دعوتي . . فألحقني بأختيَّ ، ثمَّ شهقتْ شهقةً فارقتِ الدنيا ، رحمة الله تعالىٰ عليهنَّ ؛ قال الحارث : فتعجبتُ مِنْ أحوالهنَّ وتقارُب آجالهنَّ) اهـ[1]

* * *

---

(1) « الروض الفائق » (ص٢٧ـ٣٨) .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



صدَّر الناظمُ رحمه الله تعالىٰ هـٰذا البيت والأبيات الثلاثة التي بعده بلفظ (أين) الاستفهامية ؛ تقريراً للموعظة المذكِّرة للموت الذي ذكره في البيت السابق ، كالخطيب الذي يقول : أين مَنْ مضىٰ مِنَ القرون ؟ أين الأنبياءُ والمرسلون ؟

قال في « المصباح » : (و« أين » ظرف مكان ؛ يكون استفهاماً ، فإذا قيل : « أين زيد ». . لزم الجواب بتعيين مكانه ، ويكون شرطاً أيضاً ، ويزاد « ما » فيقال : « أينما تقم . . أقم ») اهـ

فكأنَّ الناظم رحمه الله تعالىٰ يقول لك : يا أخي ؛ أنتَ غافلٌ عن ذكر الموت ، وكأنَّك عن قريب وقد نقلت مِنْ هـٰذه الدار ؟ فإنْ كنتَ تُنكرُ ذلك . . فأين نمرود وكنعانُ وعادٌ وفرعونُ وغيرهم ممَّنْ ذكر لك ، فإنَّهم مع عتوِّهم وفسادهم في الأرض وقوَّتهم وشدَّة بأسهم وتكبرهم وتجبرهم . . أخذهمُ الموت علىٰ بغتةٍ وهم لا يشعرون ، ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ ، ﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾ ، فينبغي لك يا أخي أنْ تعتبر وتتذكَّر الموت ، وتُكثِرَ مِنْ ذكره ، وتستعدَّ له ؛ فإنَّه ليس له أجلٌ محدود ، ولا وقتٌ معروف ، بل يأتي بغتةً ، فإنْ أتاك وأنتَ مستعدٌّ له . . كنتَ مِنَ السعداء الفائزين ، الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ، هـٰذا هو المراد مِنْ كلامه رحمه الله تعالىٰ .

ولنتكلَّم علىٰ مَنْ ذكرهم مِنَ الجبابرة فنقول :

أمَّا كنعان : فهو أبو النمرود ، مِنْ أولاد حام بن نوح كما سيأتي ، وكان مِنَ الجبابرة العُتاة الذين يعبدون الأصنام .

واعلم : بأنَّ الجزاء مِنْ جنس العمل ، فكلُّ مَنْ تجبَّر علىٰ عباد الله في الدنيا . . أذلَّه الله

---

(١) رواية « الديوان » : (ملك الأمر) بدل : (ملك الأرض) .

يوم القيامة ؛ فقد روى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال : « يُجاء بالجبارين يوم القيامة رجالٌ في صورة الذَّرِّ ، تطؤهمُ الناسُ مِنْ هوانهم على الله تعالىٰ حتَّىٰ يُقضىٰ بين الناس ، قال : ثمَّ يُذهبُ بهم إلىٰ نار الأنيار » ، قيل : يا رسول الله ؛ وما نار الأنيار ؟ قال : « عصارة أهل النار »[1] .

وعن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده : أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « يُحشرُ المتكبرونَ يومَ القيامةِ أمثالَ الذَّرِّ في صورةِ الناسِ ، يغشاهمُ الصَّغَارُ في كلِّ مكان ، ويساقون إلىٰ سجن يقال له : بُولَس ـ بسين مهملة ـ ويسقون مِنْ طينة الخبال ؛ عصارة أهل النار »[2] .

وأمَّا نمرود : فهو بالدال المهملة وبالذال المعجمة ، وهو ابن كنعان ، وهو نمرودُ إبراهيمَ الخليل عليه الصلاة والسلام ؛ وذكر في « الخازن » : (أنَّه كان ابن زنىً ، وهو أوَّل مَنْ وضع التاج علىٰ رأسه ، وتجبَّر في الأرض ، وادَّعى الربوبية ، وملك الأرض كلها)[3] .

وذكر الشريف الحسني النسَّابة في « شرحه علىٰ منظومة ابن العماد في الأنكحة » : أنَّ نمرود إبراهيم عليه الصلاة والسلام مِنْ أولاد نمرود الأكبر ، ونص عبارته : (ومِنْ أولاد حام بن نوح : كوش ، وولد كوش : نمرود الجبار[4] ، ومن أولاد نمرود هـٰذا : نمرود الذي أبتُلي به إبراهيم عليه الصلاة والسلام) اهـ

قال بعضهم : كانت سيرة النمرود هـٰذا مذمومة عند الله تعالىٰ وعند الناس ؛ وذلك أنَّه كان بخيلاً في قومه ، جائراً في حكمه ، محتجباً عن رعيَّته ، ولهـٰذا لم يذكره الله تعالىٰ في

---

(١) أخرجه أحمد في « الزهد » (١٢١) ، ونار الأنيار : قال ابن الأثير في « النهاية » (٥/١٢٦) : (لم أجده مشروحاً ، فإن صحت الرواية . . فيحتمل أن يكون معناه : نار النيران ، فجمع النار علىٰ أنيار ، وأصلها أنوار ؛ لأنها من الواو ، كما جاء في « ريح » و« عيد » ، والله أعلم) .

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٩٢) ، وأحمد (٢/١٧٩) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٥٥٧) ، والذر : جمع ذرة ، وهي النملة الحمراء الصغيرة ، والصَّغار : الذُّلُّ والهَوان ، وعصارة أهل النار : صديدهم .

(٣) « تفسير الخازن » (١/١٨٧) .

(٤) ومن أولاد نمرود الأكبر : سنحاريب ، ومن أولاد سنحاريب : كنعان ، ومن أولاد كنعان : نمرود الذي ابتلي به إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، كما سيأتي .

القرآن العظيم بلفظ العَلَم ، وإنَّما ذكره بلفظ الكناية ؛ كقوله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾ ، وغير ذلك .

وحاصل قصته مع سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام كما ذكرها الله سبحانه وتعالىٰ في كتابه العزيز : أنَّ الله تعالىٰ أعطىٰ إبراهيم عليه الصلاة والسلام الاهتداء لوجوه الصلاح في الدين والدنيا في صغره قبل بلوغه حتَّىٰ تفكَّر في الربِّ ، وظهرتْ له الكواكبُ ، وٱستدلَّ بها علىٰ ربِّه ، فرأىٰ قومه يعبدون الأصنام ، وكانت ٱثنين وسبعين صنماً ، بعضها مِنْ ذَهَب ، وبعضها مِنْ فضة ، وبعضها مِنْ نحاس ، وبعضها مِنْ حديد ، وبعضها مِنْ رصاص ، وبعضها مِنْ حجر ، وبعضها مِنْ خشب ، وكان كبيرهم مِنْ ذهب مطليّاً بالجواهر[1] ، في عينيه ياقوتتان تتَّقدان تضيئان بالليل ، فقال لهم علىٰ سبيل التجاهل : هل هـٰذه الأصنام تستحقُّ أنْ تعبدَ ؟ فلم يكن لهم جوابٌ إلاَّ التقليد ، فقالوا : ﴿ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴾ فٱقتدينا بهم ، وهـٰذا التقليد الواقع منهم باطل ؛ لعدم ٱستناد الآباء إلىٰ دليل ، فقال لهم : ﴿ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ ، فقالوا له : ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴾ ؟ فقال لهم : هـٰؤلاء الأصنام ليست أرباباً لكم ، ﴿ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم ﴾ الذي قلته لكم ﴿ مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ * وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم ﴾ بالتكسير ، فكسرها بالفعل بعد ذهابهم إلىٰ عيدٍ لهم ، وقد ذهب إبراهيم عليه الصلاة والسلام معهم ، فلمَّا كان ببعض الطريق . . ألقىٰ نفسه وقال : إنِّي سقيم أشتكي رجلي ، فتركوه ومضَوا ، ثمَّ نادىٰ في آخرهم وقد بقي ضعفاء الناس ، حيث قال بصيغة الحلف : ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم ﴾ ، فسمعها الضعفاء منه ، فرجَع إبراهيم إلىٰ بيت الأصنام وقبالةَ البيت صنمٌ عظيم ، وإلىٰ جانبه أصغر منه ، وهـٰكذا كلُّ صنمٍ منها أصغر مِنَ الذي يليه ، وكانوا وضعوا عند الأصنام طعاماً يأكلون منه إذا رجعوا مِنْ عيدهم إليهم ، فقال لهم : ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ ؟ فلم يجيبوه ، فكسرها ؛ فلمَّا رجعوا ورأوهم مكسرين . . ﴿ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ، فقال الضعفاء مِنْ قوم إبراهيم ـ الذين سمعوا حلفه بقوله : ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم ﴾ ـ : ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ ، فقالوا فيما بينهم : ﴿ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ ﴾ أي :

---

(١) أي : مرصعاً بها .

ظاهراً مكشوفاً للناس ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ علىٰ فعله ؛ بأن يكون أحدٌ رآه يكسرُها ، فأتوا به وقالوا له : ﴿ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾ ، فتفكَّروا وتذكَّروا وقالوا : مَنْ لا يقدر علىٰ دفع المضرَّة عن نفسه بوجهٍ مِنَ الوجوه . . يستحيل أن يقدر علىٰ دفع مضرَّة عن غيره ، فكيف يستحقُّ أن يكون معبوداً ؟ ! وأقرُّوا علىٰ أنفسهم بأنَّهم كانوا ظالمين في عبادتهم لها ، ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾ أي : انقلبوا إلى المجادلة بعد ما استقاموا ورجعوا إلىٰ كفرهم ، وقالوا : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ ، وقال بعضهم لبعض لمَّا عجزوا عن المجادلة وضاقت عليهمُ الحيل : حرِّقوهُ وانصروا آلهتكم ، ـ والقائل هو نمرود بن كنعان بن سنحاريب بن نمرود بن كوش بن حام بن نوح عليه الصلاة والسلام ؛ وقيل : القائل رجل مِنْ فارس اسمه غيون خسف الله به الأرض ، وهٰكذا شأن المبطِل المغلوب إذا قرعت[1] حجَّتُهُ بالحُجَّة القاطعة . . لا يبقىٰ له مَفْزَعٌ إلاَّ المغالبة والمقاتلة ـ فجمعوا له الحطب ، وكانت مدَّةُ الجمع شهراً ، ومدةُ الإيقاد سبعةَ أيام ، وكانوا يتقرَّبون إلىٰ آلهتهم بجمع الحطب ، حتَّىٰ كانت المرأةُ منهم التي لا دراهمَ عندها . . تبيعُ غزلها وتشتري بثمنه حطباً وتلقيه في النار ، حتَّىٰ صارتِ النار مِنْ شدَّة حرِّها علىٰ بعدٍ يُقذفُ فيها الطير مِنْ كبد السماء ، فعجزوا عن إلقاء سيِّدنا إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام فيها مِنْ شدَّة حرِّها علىٰ بعدٍ ؛ فأمرهم إبليسُ بفعلِ المَنجَنيق ، فوضعوه فيه ورمَوه في النار ، وكان له مِنَ العمر حينئذٍ ستَّ عشرةَ سنةً ، وأوجد الله له فيها عينَ ماءٍ عذبٍ ووردًا أَحمرَ ونَرْجِساً ، فصارت في حقِّه روضةً ، وبعثَ اللهُ له جبريلَ بقميصٍ مِنْ حرير وطنفسة ، فألبسه القميص أوَّلاً .

وفي « الرازي » : (أنَّ مدَّة مُكْثه فيها أربعون يوماً ، أو خمسون يوماً ، أو سبعة أيام)[2] .

ولمَّا ألقوه فيها . . قال الله سبحانه وتعالىٰ للنار : ﴿ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ أي : ابردي برداً غير ضارٍّ ، ولو لم يقل علىٰ إبراهيم . . لَمَا أحرقت نارٌ ولا اتقدت أصلاً ؛ وذلك لأنَّه طُفِئَتْ جميعُ النيران في ذلك اليوم .

---

(١) في الأصل : (فرغت) .

(٢) « التفسير الكبير » (٢٢/١٨٨) .

قال العلماء رضي الله عنهم : لولا أنَّ الله عزَّ وجلَّ تدارك إبراهيمَ بالنعمة فقال : ﴿ وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ . . لهلك مِنْ شدَّة البرد اهـ[1] .

وورد : أنَّ سيِّدنا جبريل عليه الصلاة والسلام أتىٰ لسيِّدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام وهو في النار فقال له : هل لك مِنْ حاجة ؟ فقال : أمَّا إليك . . فلا ، قال له جبريل : فسل ربَّك ، فقال إبراهيم : حَسْبي مِنْ سؤالي علمه بحالي[2] .

قال سيِّدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام : (ما كنتُ قطُّ بأنعمَ أياماً مِنَ الأيام التي كنتُ فيها في النار) .

فائدة ١٧

[في الأمر بقتل الوزغ]

ذكر بعض حواشي « البيضاوي » : أنَّه لمَّا أُلقي سيِّدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام في النار . . جاء الوزغُ ـ وهو سام أبرص ـ فنفخ علىٰ إبراهيم ؛ فصمَّ بسبب ذلك .

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل الوزغ وقال : « كان ينفخ علىٰ إبراهيم »[3] ، [وقال] : « مَنْ قَتَلَ وزغَةً في أَوَّل ضربةٍ . . كُتبتْ له مئةُ حسنةٍ ، وفي الثانية دون ذلك ، وفي الثالثة دون ذلك »[4] .

وذكر بعض الحكماء : أنَّ الوزغ لا يدخل بيتاً فيه زعفران ، وأنَّه يبيض . اهـ

وأما من ملك الأرض وولىٰ غيره المناصب وعزل غيره عنها . . فكثيرٌ كما هو معلوم ، فكلُّ زمان لا بُدَّ فيه مِنْ نافذِ الأمر والنهي ، يجلس مدَّةً ثمَّ يزول ، وتتداول عليه الأيام حتىٰ يذهبَ رسمُهُ ويُنسى اسمُهُ ، فسبحان مَنْ لا يزول ولا يتغيَّرَّ!

---

(١) ذهب الإمام الرازي رحمه الله في « تفسيره » (٢٢/١٨٩) إلىٰ إبعاد هٰذا فقال : (أفيجوز ما روي من أنه لو لم يقل : ﴿ وَسَلَٰمًا ﴾ . . لأتى البرد عليه ؟ والجواب : ذلك بعيد ؛ لأنَّ برد النار لم يحصل منها ، وإنما حصل مِن جهة الله تعالىٰ ؛ فهو القادر على الحرِّ والبرد ، فلا يجوز أن يقال : كان البرد يعظم لولا قوله : ﴿ وَسَلَٰمًا ﴾) .

(٢) انظر « تنزيه الشريعة » (١/٢٥٠) ، والذي في « صحيح البخاري » (٤٥٦٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (« حسبنا الله ونعم الوكيل » قالها إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين أُلقي في النار) .

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٥٩) ، ومسلم (٢٢٣٧) .

(٤) أخرجه مسلم (٢٢٤٠) ، وأبو داوود (٥٢٦٣) ، والترمذي (١٤٨٢) ، وأحمد (٢/٣٥٥) .

قال بعضهم[1] : ملوكُ الأرض الذين ملكوها منْ شرقها إلىٰ غربها ، ومِنْ يمينها إلىٰ شمالها أربعةٌ : اثنان مسلمان ، واثنان كافران .

فأمَّا المسلمان : فسليمان بن داوود عليهما الصلاة والسلام ، وإسكندر ذو القرنين ؛ أما سليمان : فقد ذكره الله تعالىٰ في القرآن العزيز في قوله عزَّ مِنْ قائل : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۞ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ ﴾ الآيات ، وأمَّا إسكندر ذو القرنين : فذكره الله تعالىٰ أيضاً في قوله : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ۞ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ الآيات ، وهو مِنْ أولاد سام بن نوح ، وأسلم علىٰ يد إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، وكان رجلاً صالحاً ولم يكن نبياً ، وعاش ألفَ سنةٍ وستَّ مئةِ سنةٍ رضي الله تعالىٰ عنه ؛ وهو ذو القرنين الأكبر .

وأمَّا الاثنان الكافران : فالنمرود بن كنعان المتقدم ذكره ، والثاني : ذو القرنين الأصغر ؛ وهو مِنْ أولاد العيص بن إسحاق ، وكان بينه وبين المسيح عليه الصلاة والسلام ثلاث مئة سنة ، وهو كافر باتفاق ، وهو الذي تنسب إليه الإسكندرية المدينة المشهورة .

وذكر « الخازن » : أن الثاني مِنَ الكافرين : بختنصر بدل ذي القرنين الأصغر[2] .

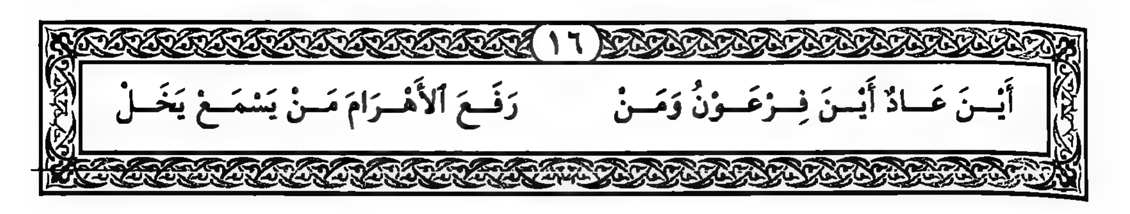
* * *

---

(١) القائل هو الإمام مجاهد بن جبر كما أخرج ابن أبي شيبة في « المصنف » (٧/٤٦٩) ، أو ابن عباس كما أخرج الطبري في « تاريخه » (١/٢٣٤) .

(٢) انظر « تفسير الخازن » (١/١٨٧) .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



أي : فتذكَّرِ الموتَ ، وٱنظر إلىٰ هٰؤلاء الجبابرة كيف قصمهم الله تعالىٰ وأبادهم وأهلكَهم ، ولم تنفعهم أموالهم ولا جنودهم ولا حصونهم العالية المرتفعة ، كما سيأتي في قول الناظم : (**هلكَ الكُلُّ فلم تُغْنِ القُلَلْ**) .

وقوله : (**أين عادٌ**) شامل لعادٍ الأولىٰ ولعادٍ الثانية .

أمَّا عادٌ الأولىٰ : فهو عادُ بن عوص بن إرم بن سام بن نوح ، وكان جباراً عنيداً ، عاش ألفَ سنةٍ ومئتي سنةٍ ، وتزوَّج ألفَ بِكْرٍ ، ورُزِقَ مِنْ صُلْبه أربعةَ آلافِ ولدٍ مِنَ الذكور ، وكان طولُ الطويل منهم أربعَ مئةِ ذراعٍ ، ورُزِقوا مِنَ القوَّة ما لا يُرزقه أحدٌ ، كما قال تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ ، فانظر إلىٰ قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ ، فلم تكن قبيلةٌ في الأرض أشدَّ منهم ؛ لأنَّه لو كان هناك قبيلة في الأرض أشدَّ منهم . . لردَّ الله عليهم بها ، فلمَّا لم يكن أشدَّ منهم إلاَّ الله الذي خلقهم . . قال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ﴾ الآية .

وكان مِنْ قصَّتهم ما ذكره ٱبن إسحاق ؛ أنَّهم كانوا ينزلون اليمن ، وكانت مساكنهم بالأحقاف ؛ وهي رمالٌ بين عُمان وحضرموت ، وقهروا الخلق جميعاً ، وكانوا يعبدون صنماً يقال له : صُداء ، وصنماً يقال له : هَباء ، وصنماً يقال له : صَمُود ، فبعث الله إليهم أخاهم هوداً نبياً ، وكان مِنْ أوسطهم نسباً وأفضلهم حسباً ، فأمرهم أنْ يوحِّدوا الله تعالىٰ ، ويكفُّوا عن مظالم الناس ، ولم يأمرهم بغير ذلك ، فكذَّبوه وقالوا : مَنْ أشدُّ منَّا قوَّةً ؟! وبطشوا بطشة الجبارين ؛ فلمَّا فعلوا ذلك . . أمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين حتَّىٰ أجهدهم ذلك ، فخرج منهم نحو سبعين رجلاً ، وتوجَّهوا لمكَّةَ للاستسقاء ؛ لأنَّ الناس في

ذلك الزمان كانوا يعظِّمون البيت الحرام مؤمنُهم وكافرهم ، وكان فيهم رجل مؤمنٌ يكتُمُ إيمانه ، فقال : والله لا تسقون بدعائكم ، ولكنْ إنْ أطعتُم نبيَّكم وتبتُم إلىٰ ربِّكم . . سُقيتم ، وأظهر إسلامه في ذلك الوقت ، وأنشد يقول : [من الوافر]

عَصَتْ عادٌ رسولَهُمُ فَأَمْسَوْا ... عِطَاشاً ما تَبُلُّهُمُ السماءُ

لهمْ صَنَمٌ يُقالُ لهُ : صَمُودٌ ... يُقابِلُهُ صُداءٌ والهباءُ

فَبَصَّرَنا الرسولُ سبيلَ رُشْدٍ ... فأَبصَرْنا ٱلْهُدَىٰ وجَلَى ٱلْعَماءُ

وإنَّ إلٰهَ هودٍ هُوْ إلٰهي ... عليهِ لِيَ التوكُّلُ والرجَاءُ[1]

فلمَّا سمعوا منه ذلك . . منعوه أنْ يصحبهم للاستسقاء ، ولمَّا توجَّهوا إلىٰ مكَّةَ وكان فيهم ولدٌ لعادٍ ، فدعا الله وقال : إلٰهنا ؛ إنْ كان هودٌ صادقاً . . فأسقنا ؛ فإنَّا قد هلكنا ، فأنشأ الله سحائبَ ثلاثاً : بيضاء ، وحمراء ، وسوداء ، ثمَّ ناداه منادٍ مِنَ السماء وقال له : ٱختر لنفسك وقومك مِن هٰذه السحائب ، فقال ولد عاد : ٱخترت السحابة السوداء ؛ لأنَّها أكثرُ السحاب ماءً ، فناداه منادٍ : ٱخترتَ رماداً رِمْدِداً ، لم يبقِ مِنْ آلِ عادٍ أحداً ؛ وساقَ الله السحابة السوداء بما فيها مِنَ البلاء علىٰ عاد ، حتَّىٰ خرجتْ عليهم مِنْ وادٍ يقال له : الغيث ، فلمَّا رأَوها . . ٱستبشروا وقالوا : ﴿ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمۡطِرُنَا ﴾ ، فقال الله لهم : ﴿ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۞ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا ﴾ ، وكان أوَّلَ مَنْ أبصر ما فيها وعرفَ أنَّها ريحٌ ٱمرأةٌ منهم ، فصاحتْ ثمَّ صَعِقَتْ ، فلمَّا أفاقت . . قالوا لها : ما رأيتِ ؟ قالتْ : رأيتُ ريحاً فيها

---

(١) واسم الرجل المؤمن : مَرْثد بن سعد بن عُفير كما في « تاريخ الطبري » (١/ ٢٢٣) ، و« جمهرة أشعار العرب » للقرشي (ص٣٣) ، وتتمة الأبيات :

وسُيِّرَ وفدهم شهراً ليُسقَوا ... فأردفهم معَ العطشِ العماءُ
بكفرِهِمُ بربِّهمُ جهاراً ... علىٰ آثارِ عادهمُ العفاءُ
ألا نزعَ الإلٰه حُلومَ عادٍ ... فإنَّ قلوبهمْ قفْرٌ هواءُ
مِنَ الخبرِ المبيَّنِ أن يعوهُ ... وما تغني النصيحةُ والشفاءُ
فنفسي وابنتايَ وأمُّ وُلْدِي ... لنفسِ نبيِّنا هودٍ فِداءُ
أتانا والقلوبُ مصمَّداتٌ ... علىٰ ظُلْمٍ وقدْ ذهبَ الضياءُ
فإنِّي سوفَ ألحقُ آلَ هودٍ ... وإخوتَهُ إذا جنَّ المساءُ

كشُهُبِ النار ، أمامها رجالٌ يقودونها ، فسخَّرها الله عليهم سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيامٍ حُسُوماً ، فلم تدعْ مِنْ عادٍ أحداً إلاَّ هلك ، ونجا هودٌ ومَنِ اتبعه .

قال السُّدي : بعث اللهُ عليهمُ الريحَ العقيم ، فلمَّا دنتْ منهم . . نظروا إلى الإبل تطير بها الريح بين السماء والأرض ، فهربوا وأغلقوا بيوتهم ، فجاءتْ ريحٌ فقلعت أبوابهم ، ثمَّ دخلتْ عليهم فأهلكتهم ، ثمَّ أخرجتهم مِنَ البيوت ، فلمَّا أهلكتهم . . أرسل الله عليهم طيراً سوداً ، فنقلتهم إلى البحر ، قالوا : ولم يخرج ريحٌ قطُّ إلاَّ بمِكيال ، إلاَّ في ذلك اليوم ؛ فإنَّها عتتْ على الخزنة فغلبتهم ، فلم يعلموا كم كان مكيالها[1] .

وأمَّا عادٌ الثانية : فهو مِنْ نسل وعقب عادٍ الأولىٰ ؛ لأنَّه لمَّا مات عاد كافراً . . ترك ابناً له يقال له : شدَّاد ، وكان أعتىٰ مِنْ أبيه ، وهو الذي هلك وطائفتُهُ بالصيحة .

قال الشَّعبي : إنَّ شدَّاد بن عادٍ مَلَكَ سائر الدنيا ، وكان قومُهُ بقيةَ قوم عادٍ الأولىٰ الذين زادهم اللهُ بسطةً في الأجسام ، وقوَّة في الأعضاء ، فبعث الله إليهم هوداً عليه السلام نبياً ، كما بعثه إلىٰ عاد الأولىٰ ، فدعاهم إلى الله تعالىٰ ، فقال له شدَّادُ بنُ عادٍ : إذا آمنت بربِّكَ فما لي عنده ؟ قال : يعطيك في الآخرة جنَّةً مبنيَّةً مِنْ ذهبٍ وياقوت ولؤلؤ ، وبأرضها أنواع الجواهر والمسك والعنبر ، فقال شدَّاد : أنا أبني مثلَ هـٰذا ، ولا أحتاجُ إلىٰ ما تعدني به ، ثمَّ أمر شداد ألفَ أميرٍ مِنْ جبابرة قومه أن يخرجوا ويطلبوا أرضاً واسعةً ، كثيرةَ الماء ، طيبةَ الهواء ، بعيدةً مِنَ الجبال ، ليبني فيها مدينةً مِنَ الذهب ؛ قال : فخرج أولـٰئك الأمراء ، ومع كلِّ أمير ألفٌ مِنْ خدمه وحشمه ، فساروا في أرض اليمن حتىٰ وصلوا جبل عدن ، فوجدوا هناك أرضاً واسعةً طيبةَ الهواء ، فأمروا البنَّائين والمهندسين ، فاختطُّوا مدينةً طولُها أربعون فرسخاً ، مِنْ كلِّ جهةٍ عشرةُ فراسخَ ، ثمَّ حفروا الأساس إلى الماء ، وبنَوه بحجارةِ الجَزْع اليماني ـ بفتح الجيم وسكون الزاي : خَرَزٌ فيه بياضٌ وسوادٌ ، الواحدة : جَزْعة ، مثل : تمرٌ وتَمْرة ـ حتىٰ ظهروا علىٰ وجه الأرض ، ثمَّ أحاطوا بها سوراً ارتفاعه خمسُ مئةِ ذراعٍ ، وصفَّحوه بصفائح الفضَّة المطليَّة بالذهب ، حتىٰ صار لا يدركه البصر إذا أشرقتْ

(١) انظر « تاريخ الطبري » (١/٢١٦ـ٢٢٦) .

عليه الشمس ، وقد جَمَعَ المعادن مِنْ سائر الدنيا ، وٱتخذها لَبِناً ، حتَّىٰ إنَّه لم يبقَ في يد أحدٍ شيئاً منها إلاَّ أخذه ، وٱستخرجَ الكنوز المدفونة ، ثمَّ بنىٰ داخل المدينة ألفَ قصرٍ ، كعَدَدِ رؤساء مملكته ، كلُّ قصرٍ علىٰ ألفِ عمود مِنْ أنواع الزبرجَدِ معقود بالذهب والفضة ، طولُ كلِّ عمود مئةُ ذراع ، وأجرىٰ في وسطها الأنهار ، وأوصل منها جداول لتلك القصور والمنازل ، وجعل حصاها مِنَ الذهب والفضة وأنواع الجواهر واليواقيت ، وجعل علىٰ حافات الأنهار أشجاراً مِنَ الذهب ، وجذوعها مِنَ الزبرجَد ، وطلىٰ حيطانها بالمسك والعنبر ، وجعل بها جنَّةً مزخرفةً لنفسه ، وجعل أشجارها الزبرجَد واليواقيت ، ونصب عليها الطيور المطربة وغير ذلك ، ثمَّ بنىٰ حول المدينة ألفَ منارةٍ ، فلمَّا كمُل بناؤُها . . أمر عماله بمشارق الأرض ومغاربها أن يتخذوا مِنَ البلاد بسطاً وستائر وفرشاً مِنْ أنواع الحرير المرقوم بالذهب والفضة ؛ لتوضع في تلك الغرف والقصور ، وأمر بٱتخاذ أواني الذهب والفضة ؛ ليوضع فيها الأطعمة والأشربة ، فٱتخذوا جميع ما أمر به ، فلمَّا فعلوا ذلك كله . . خرج شداد مِنْ أرض حضرموت مع أكابر دولته وأمراء مملكته ، وقصدوا مدينة إرم ذات العماد ، فلمَّا أشرفوا عليها . . قال : لقد صدقتُ في قولي ، ولا أنتظر ما قاله هود ووعدني به ؛ فإنَّه بعيدٌ وهـٰذا قريب ، وقد قدرتُ عليه في الدنيا ، فلمَّا أراد دخولها . . أمر الله تعالىٰ ملكاً مِنَ الملائكة أن يصيح فصاح بهم صيحةً ، فخرُّوا علىٰ وجوههم صرعىٰ ، وقبض ملك الموت أرواحهم جميعهم في طرفة عين ، كما قال الله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۞ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۞ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ ، ومدَّةُ بنائها ثلاثُ مئةِ سنةٍ ، كما قاله الشيخ خالد علىٰ « البردة » ، وأخفاها الله تعالىٰ عن أعين الناس إلىٰ يوم القيامة .

وقد قيل : إنَّ رجلاً مِنْ أصحاب النبيِّ صلى الله عليه وسلم يقال له : عبد الله بن قلابة دخل فيها ؛ وذلك أنَّه ضلَّتْ له إبلٌ ، فخرج في طلبها ، فنظر إلى المدينة ، فلمَّا رآها . . دهش لرؤيتها ، فلمَّا وصل إليها . . أناخ ناقته ودخلها ، فرأىٰ تلك القصور والأنهار والأشجار ولم ير أحداً ، فقال : أرجع إلىٰ معاوية فأخبره بهـٰذه المدينة وما فيها ، ثم حمل معه شيئاً مِنْ تلك اليواقيت والجواهر ، وعلَّم على المدينة بجهاتها ، ثمَّ سار بعد ما ظفر بإبله إلىٰ معاوية بدمشقَ وأخبره بما رأىٰ ، فقال له معاوية رضي الله تعالىٰ عنه : في اليقظة رأيتها أم في المنام ؟ فقال : بل في اليقظة وحملتُ مِنْ حصبائها ، فقال : أرني ، فأخرج له شيئاً

مِنَ الجواهر واليواقيت ، فتعجَّب معاويةُ مِنْ ذلك ، وأرسل إلىٰ كعب الأحبار ؛ فلمَّا دخل عليه. . قال له معاوية : يا أبا إسحاق ؛ هل بلغك أنَّ في الدنيا مدينةً حصباؤها الدرُّ والياقوت ؟ فقال : نعم ، وقد ذكرها الله تعالىٰ في كتابه العزيز فقال : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۞ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ ، وقد أخبر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أخفاها الله تعالىٰ عن أعين الناس إلىٰ يوم القيامة ، وسيدخلها رجل مِنْ هـٰذه الأمة يقال له : عبد الله بن قلابة الأنصاري ، ثمَّ ٱلتفت كعبٌ فرأىٰ عبد الله فقال : هـٰذا يا أمير المؤمنين ، وصفتُهُ وٱسمه في التوراة ، ولا يدخلها أحدٌ بعده إلىٰ يوم القيامة ، وقيل : إنَّ ذلك كان في خلافة عمر رضي الله تعالىٰ عنه . اهـ[1]

وأمَّا فرعون : فٱبتداء أمره : أنَّه كان بمصرَ رجلٌ يقال له : مصعب بن عمير ، وكان يرعى البقر لقومه ، وكانت له ٱمرأة مِنْ أولاد العمالقة ، ولم يكن له ولد ، فبينما هو ذات يوم وإذا ببقرة قد وضعت عجلاً ، فتأوَّه حزناً علىٰ أنَّه عُمِّر ولم يرزق ولداً ، فنادته البقرة : يا مصعب ؛ لا تحزن فإنَّك ترزق ولداً يكون ركناً مِنْ أركان جهنم ، فرجع إلى ٱمرأته فأخبرها بذلك ، فحملت بفرعون ، ومات أبوه قبل ولادته ، فلمَّا ولدته. . سمته الوليد بن مصعب ، فربَّته وعلمته النجارة ، ثمَّ ولع بالقمار فعاتبته أمُّه علىٰ ذلك ، فقال لها : يا أمَّاه كُفِّي عنِّي ؛ فإنِّي عون نفسي ، ولزم اللعب ، فلم يكن يدعىٰ إلاَّ عون نفسه ، فخرج يوماً يقامر ، فقمروه بقميصه ، فأخذوه منه ولم يبقَ عليه شيء يواري عورته ، فهرب علىٰ وجهه حتَّىٰ صار إلىٰ قرية مِنْ قرىٰ مصر ، فخدم عند رجل بقال ، فكساه البقال ، ثمَّ فرَّ مِنَ البقال ورجع إلىٰ أمِّه ، فقالت له : إنَّك نجار حاذق ، فلوِ ٱشتغلت بصنعتك. . لكفتك ، فقال : يا أمَّاه ؛ أنا عون نفسي ، فلقبوه بفرعون نفسه ، وكان يشتري بطيخاً وبقلاً ويبيع علىٰ قارعة الطريق ، وجعل يدور في أهل مصر يسرق ويهرب مرَّة ، ويقع مرَّة ، ثمَّ خدم عند رجل مِنَ العمالقة ، وجعل يسوس فرسه حتىٰ مات الرجل ولم يخلف ورثة ، فاحتوىٰ فرعون ماله فأكله ، ثمَّ ضاق به

---

(١) قصة المدينة التي بناها شداد ودخلها ابن قلابة فأخبر بها سيدنا معاوية أخرجها أبو الشيخ في « العظمة » (٩٨٣) ، والثعالبي في « تفسيره » (١٠/١٩٦) وغيرهما . وانظر « فتح الباري » (٨/ ٧٠٢) ، و« تفسير ابن كثير » (٤/٥٠٨) .

الأمر ، فقعد علىٰ مقابر مصر يطالب أصحاب الموتى الكبير والصغير ، فٱستمرَّ مدَّة ويُظهِر أنَّه بإذن الملك ، حتَّىٰ جمع مالاً كثيراً وجعل بين يديه أعواناً ، ولم يعرف الملكُ بشيءٍ مِنْ ذلك ، فماتت بنته ، فتعلَّق بها ، فبلغ ذلك الملك ، فغضب منه وهمَّ بقتله ، فقال فرعون : أيُّها الملك ؛ لا تعجل عليَّ ، فحمل له مِنَ المال الذي جمعه شيئاً كثيراً ، فٱنخدع له الملك ـ فهو أوَّل مَنْ أسَّس البرطيل علىٰ وجه الأرض[1] ـ فطاب قلب الملك عليه ، وأقرَّه علىٰ ما كان يأخذه مِنَ الجنائز ، فرتب علىٰ جِنازةِ الملوك ألفَ درهمٍ ، وعلىٰ جِنازة الوزراء سبع مئة درهمٍ ، وعلىٰ جِنازة الجند خمس مئة درهم ، وٱستمرَّ مدَّةً علىٰ ذلك ، ثمَّ ٱجتمع أشراف مصر ودخلوا على الملك وقالوا : ما هـٰذه إلاَّ سمعة قبيحة بين الملوك ، تأخذ الحقَّ على الموتىٰ ، فٱستدعى الملك فرعون ، وأخذ جميع ما حصَّله ، فطلب منه فرعون أن يجعله والياً علىٰ حراسة الليل ، وكانت حراسة الليل في ذلك الوقت شديدة ؛ لأنَّ الملك كان يخاف ممَّن يقتله ، فقال لفرعون : كلُّ مَنْ لقيتَهُ بالليلِ ٱقْتله ، أيّ شخص كان ، وخلع عليه الملك وجعل بين يديه أعواناً ، واتخذ فرعون لنفسه قبة في وسط البلد ، وجعل يفرِّق الأعوان في نواحي البلد ، فكلُّ مَنْ وجدوه في الليل يقتلونه ، ثمَّ ٱتفق أنَّ الملك رأىٰ مناماً أفزعه ؛ وهو أنَّه رأىٰ أربعة قرون ، في وسط كلِّ قرن شعلةٌ مِنْ نار ، قد جمعَ شعاعُها جميعَ أهل مصر ، ثمَّ جاءت عقربة وصعدت إلىٰ سريره وفتحت فاها ؛ قال : فرأيت لها أنياباً حداداً ، ثمَّ قالت : أيُّها الملك ؛ قد قرُبَ أجلك ، فٱختر لك واحدة مِنْ هـٰذه الثلاث ؛ إمَّا أن أبلعك ، وإمَّا أن أقطعك ، وإمَّا أن أطرحك ، فقامت العقربة فضربتني ضربة رمتني بها إلى الأرض ، ثمَّ ٱستوت جالسة علىٰ سريري ، ثمَّ قالت : يا أهل مصر ؛ كونوا لي عبيداً ، ثمَّ رأيت بعد ذلك عمران بن صهيب وقد خرجت مِنْ ظهره حيَّة سوداء ، لها قرون مِنْ فضة وذهب ونحاس وحديد ، فقرن الذهب بلغ السماء ، وقرن الفضة بلغ المشرق ، وقرن الحديد بلغ المغرب ، وقرن النحاس تعلَّق به ناس بيض الوجوه لهم نور ساطع ، فقال المعبِّرون : أيُّها الملك ؛ لرؤياك شأن عظيم ، فأجِّل لنا شهراً ننظر فيها ، فوقع في قلب الملك ليلاً أنَّه يخرج عند بعض وزرائه ليسليه عمَّا به ، فخرج سرّاً وليس معه أحدٌ مِنَ الخدم ، فوقع به أعوان فرعون ،

---

(١) البرطيل : الرشوة .

فحملوه إليه ، فصار يقول : أنا الملك ، فلم يسمعوا منه مخافة أن يكون كاذباً ، حتَّىٰ أتوا به إلىٰ فرعون ، فقال : أنا الملك ، فلم يسمع منه وأمر بإنزاله عن فرسه فضرب عنقه ، وبادر فرعون مِنْ ساعته هو وجميع أعوانه ودخلوا قصر الملك ، فأستوىٰ فرعون علىٰ سرير الملك ، ووضع التاج علىٰ رأسه ، وأستدعى الأمراء والوزراء وكبار الدولة ، فأمرهم ونهاهم ، فدانوا له بأجمعهم ، فأوّل مَنْ سجد له هامان وكان غلاماً للملك ، ثمَّ الوزراء ، ثمَّ الملوك ، ثمَّ العوام ، ثمَّ بعث إلىٰ أسباط بني إسرائيل فدعاهم إلى الطاعة ، فأمتثلوا له ظاهراً وعبدوا الله سبحانه وتعالىٰ باطناً ، فعلم بذلك فرعون ، فأمر بقدور مِنْ نحاس وحديد وملأها زيتاً ، وأضرم تحتها النيران ، وألقاهم فيها ، فجعلوا يقولون : أدركنا يا إلـٰهنا وإلـٰه آبائنا إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ؛ فإنَّا بك مؤمنون ، وعليك متوكلون ، فأقض يا فرعون ما أنت قاض ، فلمَّا طرحوا فيها . . طارت أرواحهم إلى الجنة ، وأختفىٰ مِنْ بني إسرائيل جماعة يعبدون الله سرّاً .

فبينما فرعون جالس علىٰ سريره قبل ولادة موسى بن عمران بن صهيب . . إذ أشرف عليه رجل مِنْ جدار قصره وهو عاضٌّ علىٰ أنامله وهو يقول : يا فرعون ؛ أتظنُّ أنَّ إلـٰهك غافل عن سوء فعلك وأستعبادك للناس دون ربِّ العالمين ؛ ففزع فرعون مِنْ هـٰذا القول وتحوَّل إلىٰ قصر آخر ؛ فلمَّا أستقرَّ به . . أتاه ذلك الرجل بعينه ، فقال له مثل تلك المقالة وقال : هلكت يا ملعون إن لم تؤمن بربِّك الذي خلقك ورزقك ، وأنتقل إلىٰ قصر آخر فسمع تلك المقالة ، فلم يزل ينتقل مِنْ قصر إلىٰ قصر إلىٰ أن دخل أربعين قصراً .

ثمَّ إنَّ فرعون خاف مِنْ كثرة ما أهلك مِنَ الخلق وقال : ما أظنُّ أن يكون هلاكي إلا علىٰ يد بني إسرائيل ، فأتوني بعمران ؛ فإنَّه كبيرهم ، لأصنع إليه ولمن بقي معه معروفاً ، فلمَّا دخل عليه عمران . . قال له فرعون : يا عمران ؛ أحبُّ أن تكون لي وزيراً ، فقال : عمران بين يديك ، فخلع عليه ، وتوَّجه بتاج ، وجعله سيِّد وزرائه ، حتَّىٰ بقي هامان وغيره تحت نظره .

ثمَّ وُصفت آسية لفرعون ، فأرسل إلىٰ أبيها مزاحم بن صهيب ، ومزاحم أخو عمران ، فأعطاه المال الجزيل ، وأمر باتخاذ قصر وتزيينه ؛ فلمَّا دخلت آسية إلىٰ دار فرعون ، ونظرت إلىٰ حسن بنائها . . قالت : ما أحسنها لو كان بناؤها مِنْ رجل طائع لله تعالىٰ ، ودخل

عليها فرعون ، فلمَّا همَّ بها . . خذله الله عنها ، وكان ذلك حاله معها إلىٰ أن ماتت رحمة الله عليها ، ولم يقدر عليها أبداً .

فبينما فرعون مع آسية . . إذ سمع هاتفاً يقول : ويلك يا فرعون ؛ لقد قَرُبَ زوال ملكك علىٰ يد فتىً مِنْ بني إسرائيل ، فعند ذلك ٱستشار وزراءه ، فقالوا : الرأي في ذلك أن توكل بالنساء الحبالىٰ مَنْ يحفظهُنَّ ، فيذبح البنين ويترك البنات ، ففعل ذلك حتّىٰ قتل ٱثني عشر ألف طفل ، فضجَّتِ الملائكة إلىٰ ربِّها ، فأوحى الله إليهم : إنَّ له أجلاً محدوداً ؛ فبينما عمران بن صهيب جالس علىٰ كرسي فرعون ذات ليلة . . إذ نظر إلى ٱمرأته يوحانذ قد دخلت عليه علىٰ جناح ملك ، ففزع وقال لها : ما جاء بك ؟ فقال له الملك : إنَّ الله يأمرك أن تواقعها علىٰ فراش فرعون ، فواقعها فحملت بموسىٰ عليه الصلاة والسلام .

فلما أصبح فرعون . . دخل عليه المنجمون وقالوا له : المولود الذي كنت تخاف منه قد حملت به أمُّه الليلة وظهر نجمه ، فشدَّد فرعون في الطلب ؛ فلمَّا تمَّ لموسىٰ تسعة أشهر . . وضعته أمُّه وهي شديدةُ الخوف مِنْ فرعون ، وسمع فرعون في تلك الليلة هاتفاً يقول : ولد موسىٰ وهلك فرعون ، فاغتمَّ فرعون وشدَّد في الطلب ، فأدخلته أمُّه في التنور وخرجت ، وكانت أخته قد عجنت فسجرت التنور ، فدخل هامان دار عمران ، ففتش فلم يجد فيها شيئاً ، ورأى التنور مسجوراً فانصرف ، ورجعت أمُّ موسىٰ إلىٰ منزلها ، فأسرعت نحو التنور ، فأخرجته ولم تمسه النار ، ثمَّ أقبلت علىٰ نجار وكان قريباً لها ، فلذلك أخبرته بمولودها ، فقالت له : ٱتخذ لي تابوتاً محكماً ، فقال : ما تصنعين به ؟ فقالت : قد ولَدتُ مولوداً ، وأخاف عليه مِنْ فرعون ؛ فلمَّا ٱنصرفت . . قام ليخبر هامان ، فأخذته الأرض إلىٰ كعبيه ، وسمع الأرض تقول : وعزَّة ربِّي ؛ لئن لم ترجع وتتخذ تابوتاً وإلا . . ٱبتلعتك ، فتاب ، فخلته الأرض ، وٱتخذ التابوت ، وحمله في الليل إلىٰ دار عمران ، وسلَّمه إلىٰ أمِّ موسىٰ ، وطلب منها أن تريه المولود ، فلمَّا رآه . . قبَّله ، وكان أوَّل مَنْ آمن بموسىٰ ، ومات عمران ، فعمدت أمُّ موسىٰ إلى التابوت ، ووضعته فيه وبكت ، فسمعت النداء : ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ، فأطبقت عليه باب التابوت ، وطرحته في النيل ، وأمر الله الملائكة بحفظ التابوت ، وبقي أربعين يوماً في البحر ، قاله وهب ، وقيل : ثلاثة أيام ، قاله كعب ، وقال ابن عباس : ليلة ، فبينما فرعون جالس وهو مشرف على النيل . . فإذا هو

بتابوت والرياح تضربه ، حتَّىٰ أوقفته إلىٰ قصر فرعون ، فلم يزل يجري في النهر حتىٰ ركض[1] في الحوض الذي في دار فرعون ، فنظرت إليه آسية ، وأخرجته وقبّلته وهي لا تعلم أنَّه ابن عمِّها عمران ، فحملته إلىٰ فرعون ؛ فلمَّا رآه فرعون.. فزع منه ، فقالت آسية : أيُّها الملك ؛ لا تخف ، هو في أيدينا ، متىٰ رأينا منه شيئاً.. قتلناه ، ولم تزل تشير عليه حتَّىٰ صدق وفعل ما قالت له .

ثمَّ إنَّ موسىٰ صاح وبكىٰ ، فأتَوه بالمراضع كلهنَّ ، فلم يقبل ثدي واحدة منهنَّ ، فسمعت أمُّه بأنَّ التابوت صار إلىٰ دار فرعون ، فقامت مِنْ ساعتها ودخلت علىٰ آسية وموسىٰ بين يديها ، فقربتها آسية حين عرفت أنَّها امرأة عمِّها عمران ، فقالت لها : خذي هـٰذا المولود ؛ فلمَّا أخذته أمُّه.. وجد موسىٰ رائحة أمه ، فضحك وقبِلَ ثديها ، فأرضعته[2] ، فقال لها فرعون : إنِّي أرىٰ لك لبناً غزيراً ، فهل لك ولد ؟ فقالت : وهل ترك الملك لأحد ولداً ؟ فقالت آسية لأمِّ موسىٰ : إنِّي أرىٰ أن تكوني عندي إلىٰ أن يُفطم مِنَ الرضاع ، فقامت واتخذت لها مهداً مِنْ صفائح الذهب ، فلمَّا أرادت أمُّ موسى الانصراف إلىٰ منزلها.. أمرت لها آسية بشيء مِنَ الذهب ومِنَ القماش الفاخر وغيره .

فلمَّا صار لموسىٰ عليه الصلاة والسلام ثلاث سنين.. دعاه فرعون وأقعده في حِجْره ، وجعل يلاعبه ، فقبض موسىٰ علىٰ لحية فرعون ونتفَ منها شعراً كثيراً ، ثمَّ لطمه لطمةً ، فقال فرعون : هـٰذا المولود هو الذي أخافُهُ ، وهمَّ بقتله ، فجاءته آسية وقالت له : إنَّ الصبيان لهم جراءة ولعب مِنْ غير عقل ، وأمرت بطشت فيه جمرة ودينار ، فمدَّ موسىٰ يده إلى الجمرة ، وجعلها في فيه فأحرقته ، فقالت له : لو كان يعقل.. لَمَا كان يُؤْثِرُ الجمرةَ على الدينار ، فعند ذلك سكن غضبه .

ولمَّا تمَّ لموسىٰ سبع سنين.. قرصه فرعون وهو قاعد معه ، فغضب موسىٰ ونزل عن السرير ، وضرب قوائمه برجله فتكسر السرير ، فسقط فرعون عن السرير وسال الدم مِنْ

(١) في الأصل : (رضَّ) ، وكلاهما بمعنىً ؛ أي : دقَّ وضرب واصطدم .

(٢) لكن في كتاب الله تعالىٰ : أنَّ أمَّ سيدنا موسىٰ أرسلت ابنتها في خبره ، فلمَّا نزلت ورأته معهم يبحثون عن مرضع له.. قالت لهم : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۞ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ .

أنفه ، فغضب فرعون ، فقالت آسية : أَلاَ يسرُّك أن يكون لك ولدٌ بهـٰذه القوَّة يعينك علىٰ هـٰؤلاء الجنود ؟ فسكن غضبه .

فلمّا بلغ موسىٰ ثلاثين سنة ، فإذا هو برجلين يقتتلان ؛ وذلك أن طباخاً لفرعونَ أمر فتىً مِنْ بني إسرائيل يحمل معه الحطب إلىٰ دار فرعونَ ، وخاف أن ينفلت منه ، فلم يقدر عليه حتَّى ٱستجار بموسىٰ ، فقال موسىٰ للطباخ : ٱتركه يا قبطيُّ ، فقال : لا أتركه ، فوكزه موسىٰ في صدره فمات ومضى الفتىٰ ، فندم موسىٰ ، وأُخبر فرعونُ بفعل موسىٰ فلم يصدِّق ، فلمَّا كان مِنَ الغد . . خرج موسىٰ ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ إلىٰ آخر الآية ، فدخل قبطيٌّ علىٰ فرعون ، وأخبره بقتل موسىٰ للرجل بالأمس ، فأرسل فرعون في طلب موسىٰ ، وأذن لأولياء القتيل أن يقتلوه حيثما وجدوه ، فسمع حزقيل ـ وهو رجل مؤمن مِنْ آل فرعون يكتم إيمانه ـ فأقبل إلىٰ موسىٰ وقال له : ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ ، فخرج موسىٰ نحو أرض مدين ، فلم يزل يسير . . حتىٰ صار إلىٰ أهل مدين وبه جهد مِنَ الجوع والعطش ، وإذا بجماعة يسقون مِنْ بئر لأغنامهم بدلْوٍ عظيم ، يجرُّه جماعة منهم ، وإذا بامرأتين تذودان غنمهما عن غنم الرعاة ، فسكت موسىٰ حتىٰ فرغوا مِنْ سقي أغنامهم ، وأطبقوا الحجر على البئر وٱنصرفوا ، ثمَّ قال موسىٰ للمرأتين : قرِّبا أغنامكما إلى الحوض ، ثمَّ تقدم وضرب الحجر برجله ، فبعُدَ أربعين ذراعاً مع ضعفه مِنَ الجوع ، وسقىٰ أغنامهما ، فتمنَّىٰ موسىٰ في ذلك الوقت شبعة مِنْ خبز الشعير ، فٱنصرفتا إلىٰ أبيهما وأخبرتاه بما كان ، فقال لإحداهما : ٱذهبي فأتيني به ، فأقبلت إلىٰ موسىٰ وهي شديدة الحياء وقالت له : ﴿إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ ، فقام موسىٰ وهي تمرُّ بين يديه ، فكشفتِ الريح عن ساقها ، فقال لها موسىٰ : تأخَّري ، فتأخَّرت ودلَّته على الطريق حتَّىٰ دخل علىٰ شعيب عليه السلام وهو يومئذ شيخٌ كبير ؛ فلمَّا قصَّ عليه القصص . . دعا له شعيب بالطعام فأكل ، وقالتِ ٱبنته : ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ ، فرغب فيه وقال : ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ﴾ ، فرضي موسىٰ ، فجمع شعيب المؤمنين وزوَّجه ٱبنته ، والتمس موسىٰ عصاً ، فقال شعيب : ٱدخل البيت وخذ لك عصاً ، وكان فيه عِصيٌّ كثيرة ، فدخل موسىٰ ونظر إلىٰ عصيِّ الأنبياء ، فأخذ مِنْ جُملتها عصاً حمراء ، فقال شعيب : يا موسىٰ ؛ هـٰذه مِنْ أشجار

الجنَّة أهداها الله إلىٰ آدم فلا تخرجها مِنْ يدك ، وإنِّي موصيك أنَّ أهل مدين قوم حُسَّادٌ فلا تقبل قولهم ، وإن هٰهنا وادياً كثيرَ الخير ، وفيه حيَّةٌ عظيمة ، فإن دلوك علىٰ هٰذا الوادي . . فلا تدخل فيه .

فخرج موسىٰ بغنم شعيب وهي يومئذٍ أربعون رأساً ، فعمد موسىٰ إلى الوادي الذي فيه الحية ، فأقبلت تلك الحية على الغنم ، فأخذ موسىٰ عصاه وضربها ضربة فقتلها ، ثمَّ رجع إلىٰ شعيب فأخبره بذلك ففرح ، وأحبَّه أهل مدين محبَّةً عظيمة ، ولم تزل تزيد غنم شعيب حتَّىٰ بلغت أربع مئة رأس ، ثمَّ عزم موسىٰ على الخروج فقال : يا شعيب ؛ قد طالت غيبتي عن أمي وخالتي وأخي هارون ، فإنَّهم في مملكة فرعون ، فبادر إلىٰ موسىٰ وتعانقا ، ثمَّ أقبل على ٱبنته وقال لها : لا تخالفيه ؛ فنعم الصاحب لك ، وودَّعهما ، ودعا لهما ، وشيعهما مشايخ مدين .

ثمَّ سار موسىٰ بزوجته جادّاً في السير حتىٰ بلغ جانب الطور الأيمن في ليلة شديدة البرد ، وجَنَّ الليل ، وهبتِ الرياح ، وغيَّمتِ السماء ، فأنزل موسىٰ أهله عن الأتان ، وضرب خيمته علىٰ شفير الوادي ، وأدخل أهله فيها ، وأمطرتِ السماء ، فأخذ أهلَهُ الطلقُ في ذلك الوقت ، فجمع الحطب ليوقد ناراً ، فضرب الزند بالحجر ، فلم يخرجا ناراً ، فغضب مِنْ ذلك وبقي متحيِّراً ، فإذا هو بنار تلمع على البعد ، فأسرع حتىٰ أتاها ، ولم تكن ناراً ، ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۞ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴾ ، ﴿ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۞ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ۞ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ۞ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ۞ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ۞ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ۞ هَٰرُونَ أَخِي ۞ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ۞ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴾ يعني : في النبوَّة والرسالة ، ثمَّ تذكر موسىٰ ما كان منه مِنْ قتل القبطي فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴾ فنودي : ﴿ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾ ، ثمَّ قال : ﴿ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۞ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ۞ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ۞ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۞ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡ ﴾ أي : بالبنيان ونقل الحجارة ، وكانت هٰذه المخاطبة لموسىٰ وحده ، والرسالة له ولأخيه هارون .

وفي ذلك الوقت ـ أي : وقت مخاطبة الرب لموسىٰ ـ قد ٱشتدَّ بٱبنة شعيبٍ الطلْق ،

فسمع أنينَها سكانُ الوادي مِنَ الجنِّ ، فحضروا عندها ، وأوقدوا لها ناراً ، وعلَّلوها حتَّىٰ ولدت ، ثمَّ قيَّض الله لها راعياً مِنْ أهل مدين ، فعرفها وحملها وأتىٰ بها إلىٰ والدها شعيب ، فلم تزل عنده حتَّىٰ فرغ موسىٰ مِنْ أمر فرعون وعاد إلىٰ بلاد التيه ، فبلغ ذلك شعيباً ، فردَّ إليه امرأته[1] .

فلمَّا خاطب الله موسىٰ بالرسالة إلىٰ فرعونَ . . سار حتَّىٰ أتىٰ إلىٰ بلاد مصر ، فأوحى الله إلىٰ هارون بقدوم موسىٰ ، وهو يومئذٍ وزير مِنْ وزراء فرعون لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً علىٰ مرتبة أبيهِ عمرانَ ؛ ثمَّ إنَّ الله تعالىٰ أذن لهما بالالتقاء ، فالتقيا وتعانقا ، وبشَّره بالشركة في الرسالة ، ثمَّ إنَّهما أقبلا يريدان أمَّهما وجبريل معهما ، وهارون خائف يقول : أخفض صوتك يا موسىٰ ، فقال موسىٰ : ذهب الباطل وجاء الحقُّ ، فلا أخاف مِنْ فرعون وجنوده ؛ فإنَّ الله تعالىٰ قال لي : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ ، وأقبلا حتىٰ أتيا باب أمِّهما ، فقال هارون : إنَّ أمِّي لا تعرف قرعك ، فقرع هارون الباب وكانت تصلِّي ، فأنكرتِ القرع ؛ لأنَّه كان في الليل في غير وقته ، ثمَّ قالت : هو قرع ابني هارون ، فقامت مِنْ محرابها وقالت : مَنْ هٰذا ؟ فلم يتمالك موسىٰ نفسه حين سمع صوتها حتَّىٰ قال : ولداك موسىٰ وهارون ، ففتحتِ الباب ، فلمَّا نظرت إليهما . . صاحت صيحة عظيمة وغُشي عليها ، وبقيت شاخصة ، فقال جبريل : إنَّها لا تُفيق إلاَّ بدموعك يا موسىٰ ، فوضع موسىٰ وجهه علىٰ وجهها ، ولم يزل يبكي رحمة لها حتىٰ أفاقت ، فدخلوا الدار ، وذكر لها موسىٰ كيف خرج إلىٰ مدين ، وكيف رعى الغنم لشعيب ، وكيف تزوَّج بابنته ، وكيف خرج مِنْ هناك ، وكيف صيَّره الله رسولاً ، وكيف سأل ربَّه الشركة لأخيه هارون في الرسالة ، فخرَّت ساجدة شكراً لله تعالىٰ ، وأقام موسىٰ بقيَّة ليلته عند أمِّه ، فلمَّا كان مِنَ الغد . . خرج متنكراً ، فجعلَ ينظر إلىٰ ما أحدثه فرعون مِنَ البنيان بأرض مصرَ ، ثمَّ رجع إلىٰ أمِّه حين أقبلتِ الليلة الثانية .

---

(١) في حديث السدي كما في « تاريخ الطبري » (١/ ٤٠٣) : أن سيدنا موسىٰ سار إلىٰ مصر بالرسالة إلىٰ فرعون ومعه أهله لم يخلفه ، وانظر قصة سيدنا موسىٰ فيما أخرجه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (١١٢٦٣) ، وفي « التفسير » (٣٤٦) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٢٦١٨) ، والطحاوي في « شرح مشكل الآثار » (٦٦) ، والطبري في « تاريخه » (١/ ٣٨٥ـ٤٣٥) ، وفي « تفسيره » (٢٤١٣٣) ، وغيرهم كما في « الدر المنثور » (٥/ ٥٦٩) .

فلمَّا أنتصف الليل. . خرج إلىٰ فرعونَ حتَّىٰ صار إلىٰ بابه ، فنظر إلى الحجاب والجنود فوجدهم نياماً ما فيهم مَنْ يرفع رأسه ، فتقدَّم موسىٰ فقرع باب فرعونَ بعصاه فانفتح ، فدخل القصر وله عدة أبواب ، وصار موسىٰ يقرع كل بابٍ قرعةً بعصاه ويقول : باسم الله الفتاح العليم ، حتَّىٰ دخل الدار ، ولم يزل يتقدَّم حتَّىٰ صار إلى المحل الذي فيه فرعون ، فإذا بفرعونَ نائم ، وهارونُ جالس علىٰ رأسه ، فلمَّا رآه. . قام إليه وأخرجه مِنَ القبة وقال له : يا أخي ؛ قد تعجَّلتَ فأنصرفِ الآن ، فأنصرف موسىٰ وأنغلقت الأبواب ، فرجع موسىٰ وأخبر أمَّه بجميع ما كان .

فلمَّا كان مِنَ الغد. . سار موسىٰ إلىٰ باب فرعونَ ، فوقف عليه والقوم ينظرون إليه ، فمنهم مَنْ عرفه ، ومنهم مَنْ أنكره ، فلم يزل كذلك حتَّىٰ دخل عليه وزيرٌ مِنْ وزرائه فقال : أيُّها الملك ؛ إنِّي رأيت اليوم علىٰ بابك رجلاً أنكرتُهُ ، فسألت عنه ، فقيل لي : هـٰذا موسى بن عمران ، فتغيَّر وجه فرعونَ ، ثم قال لذلك الوزير : وما صفته ؟ فقال : رجل طويل ، تام ، أسمر ، حسن الوجه ، كثُّ اللحية ، عليه جبَّة مِنْ صوف ، وفي يده عصاً حمراء ، فأقبل فرعونُ علىٰ هامان وقال : يا هامان ؛ ألك معرفة به ؟ فقال : لا ، فخرج إليه هامان وسأله عنِ أسمه وحسبه ، فعرفه ولم ينكره ، فقال لأعوانه : خذوا هـٰذا وأحبسوه حتَّىٰ يأتيَكم أمرُ الملك ، فسُجن ، وأَخبر فرعونَ أنَّه موسىٰ ، وأنَّه أَمر بحبسه ، فألتفت فرعون إلىٰ هارون وقال له : أخوك موسىٰ قد قَدِمَ مِنْ أرض مَدْين ولم تخبرني به ؟ فقال : أيُّها الملك ؛ أردت أن أخبرك به فخفت أن تغضب ، والآن هو في حبسك وتحت حكمك ، فاحمله بين يديك ، فدعا فرعون بالفراش بين قصره ومحله الذي هو فيه ، وهو سريرٌ مِنْ ذهب بقوائمَ مِنَ الفضة يصعد إليه بالمرقاة ؛ فلمَّا فرغ من زينته. . أرسل إلىٰ موسىٰ فأحضره ، فلما أتي به. . خافت عليه بنو إسرائيل ، ولم يشكُّوا في قتله له ، فلمَّا جاء إلىٰ باب فرعونَ. . قال : اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذ بك مِنْ شرِّه ؛ فإنَّك علىٰ كلِّ شيءٍ قدير ، ثمَّ دخل ووقف بين يديه ، فعرفه فرعونُ حقَّ المعرفة ، ولكن قال له : مَنْ أنت ؟ فقال له موسىٰ : أنا عبد الله ورسوله وكليمه ، فقال له فرعون : إنَّك عبد فرعونَ ، فقال موسىٰ : الله أعز مِنْ أن يكون له نِدٌّ ، فقال له فرعون : ولأيِّ شيءٍ جئتَ ؟ فقال : أرسلني ربي إليك وإلىٰ جميع أهل مصر ، فقال فرعون : فبِمَ أُرسلتَ ؟ فقال له موسىٰ : بقول : لا إلـٰه إلاَّ الله وحده لا شريك له وأنَّ موسىٰ

عبده ورسوله ، فقال فرعون لموسىٰ : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۞ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ﴾ يعني : قتلة القبطي ، فقال موسىٰ : ﴿ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ عنِ النبوّة ، ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ إليك يا فرعون ، ثمَّ قال له : تذْكرُ يا فرعون إحسانك وتَدَعُ إساءتك لبني إسرائيل وهم عبيد لربِّ العالمين ؟ وكان فرعون متكئاً فأستوىٰ جالساً فقال : ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، إلىٰ قوله : ﴿ قَالَ ﴾ أي : موسىٰ ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴾ ، قال فرعون : ﴿ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ ، فأضطربتِ العصا في كفِّ موسىٰ عليه الصلاة والسلام ، وقال له جبريل : ألقها يا نبيَّ الله ، ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ ، قيل : تمثَّلت مثل الجمل البختي ، ثم قام ذلك الثعبان الذي هو علىٰ صورة العصا علىٰ رجليه حتَّىٰ أشرف برأسه علىٰ حيطان قصر فرعونَ ، ثمَّ رفع القصر علىٰ يده وتنفَّس في البيوت والخزائن ، فأشتعلت ناراً وصارت رماداً ، وجعلت تلك العصا لا تمرُّ بشيء إلاَّ أبتلعته ، ثمَّ تهيجُ كهيجان الجمل ، ولها صوت كصوت الرعد القاصف ، وآسية تنظر وهي متعجبة ، ثمَّ أقبلتِ الحيَّة إلى القبة التي فيها فرعون ، فوضعت لَحْيها الأسفل تحت القبة ولحيها الأعلىٰ فوقها ، ثمَّ رفعت القبة في الهواء ثمانين ذراعاً ، ثمَّ قالت : يا فرعون ؛ وعزَّة ربي لئن أذن لي . . لأبلعنَّك مع قصرك ، فوثب فرعون عن سريره وكان به عرج ، فجعل يعدو بعرجته ويقول : يا موسىٰ بحقِّ التربية وبحقِّ الرضاع وبحقِّ آسية ، فلمَّا سمع موسىٰ بذكر آسية . . صاح بالحيَّة ، فأقبلت نحوه ، فأدخل يده في فيها وقبض علىٰ لسانها ، فإذا هي عصاً كما كانت ، فلمَّا نظر فرعون ذلك . . رجع إلىٰ موضعه وقال : يا موسىٰ ؛ لقد تعلمت بعدي سحراً عظيماً ، فقال : يا فرعون ؛ ﴿ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴾ .

فبعث فرعون في المدائن حاشرين للسحرة ، فأجتمع إليه سبعون ألف ساحر ، فأختار أحذقهم ، ثمَّ بعث إلىٰ موسىٰ وقال له : أجعل ﴿ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴾ هـٰذا الموضع ، فقال موسىٰ : ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ ﴾ ؛ وهو أول يوم مِنَ السنة ، كانوا يخرجون فيه إلىٰ ظاهر البلد ، فلمَّا كان ذلك اليوم . . أجتمع الناس مِنْ أطراف مصرَ ، وأجتمعتِ السحرةُ ، فقال لهم فرعون : أجتهدوا لأجل أن تغلبوا موسىٰ ، فقالوا : ﴿ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۞ قَالَ ﴾ لهم ﴿ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ أي : المجالسين لي ، وأجتمع الناس في صعيد واحد صفوفاً لينظروا إلى الغالب منهم ، وخرج فرعون إلىٰ ذلك الوادي ،

وفرش فيه مِنَ الفرش شيئاً كثيراً ، ونصبت له الأسرَّة والكراسي ، وكان موسىٰ في منزله ، فأرسل إليه ، فأقبل ومعه أخوه هارون ، فقال لهم موسىٰ : أيُّها السحرة ﴿ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴾ ، فقالوا : ﴿ يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴾ فـ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾ ، ﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ ﴾ ، و﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ ، قال الله تعالىٰ : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۞ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ۞ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ﴾ الآية ، فألقىٰ موسىٰ عصاه في وسط الوادي ، فصارت ثعباناً له سبعة رؤوس ، فأبتلعت حبالهم وعصيهم جميعاً ، ثمَّ أبتلعت جميع ما في الوادي مِنَ الزينة التي أخرجها فرعون ، فوثب فرعون ووزراؤه ، فوقفوا علىٰ تلٍّ ينظرون ، ثمَّ حملت الحية على السحرة ، فولَّوا هاربين ، ثمَّ أجتمعوا في موضع وقالوا : ما هـٰذا سحر ، ثمَّ خرُّوا بأجمعهم سُجَّداً ، و﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ الآية ، ثمَّ قال فرعون لهامان : ﴿ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ۞ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ ، فجمع هامان خمسين ألف بناء وصانع ، فقومٌ يطبخون الآجرَّ ، وآخرون ينقلون الجِصَّ . . . إلىٰ غير ذلك ، فبنَوا ليلاً ونهاراً حتَّىٰ أرتفع الصرح في الهواء أرتفاعاً ما انتهىٰ إليه أحدٌ ، فأشتدَّ ذلك علىٰ موسىٰ وهارون ، فأوحى الله إليهما لا تعجلا ، ثمَّ أمر الله عزَّ وجلَّ جبريل عليه السلام ، فهدم الصرح ، وجعل أعلاه أسفله ، ومات كلُّ مَنْ كان فيه مِنَ العملة الذين كانوا علىٰ دين فرعونَ ، وجعل المؤمنون يزيدون مع موسىٰ عليه السلام حتَّىٰ كثروا ، ثمَّ إنَّ جبريل عليه السلام أتىٰ إلىٰ فرعونَ في صورة آدميٍّ حسن الوجه واللباس ، فوقف بين يديه ، فقال له فرعون : مَنْ أنتَ ؟ فقال : أنا عبد مِنْ عبيد الملك ، جئتُكَ مستفتياً علىٰ عبد مِنْ عبيدي مكنتُهُ مِنْ نعمتي وأحسنتُ إليه كثيراً ، فأستكبر وجحد حقِّي وتسمَّىٰ بأسمي ، فما جزاؤه عندك ؟ قال : جزاؤه عندي أن يُغْرَق في هـٰذا البحر ـ كلمة أجراها الله علىٰ لسانه ـ قال : فأسألك أن تكتب لي خطاً بذلك ، فأعطاه خطَّه بذلك ، فأخذه جبريل عليه السلام وعرج به مِنْ عنده والصحيفة معه حتَّىٰ صار إلىٰ موسىٰ وأطلعه عليها ، فقال جبريل لموسىٰ : إنَّ الله يأمرك أن ترحل مع قومك ، فنادىٰ موسىٰ في بني إسرائيل وأمرهم بالرحيل ، فأرتحلوا وهم ستُّ مئةِ ألفٍ ، والكلُّ مِنْ ولد يعقوب ، فسمع فرعون بأرتحالهم ، فنادىٰ فرعون بجنوده ، فأجتمعوا وكانوا لا يحصون عدداً لكثرتهم ، وأعتقد

فرعون أنَّ موسىٰ خرج هارباً منه ، فسار فرعون وجنوده خلف موسىٰ حتَّىٰ قربوا مِنْ بني إسرائيل ، فقالوا : يا موسىٰ قد لَحِقَنا فرعون ، فقال موسىٰ : ﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ ، فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر ، فضربه فانفلق اثني عشر طريقاً للأسباط الاثني عشر ، لكلِّ سبطٍ طريق ، فجعلوا يسيرون في البحر ، ويتحدَّثون ، ويرىٰ بعضهم بعضاً ، وموسىٰ أمامهم وهارون وراءهم حتَّىٰ خَلَصُوا مِنَ البحر ، فجاء فرعون وحوله وزراؤه ، فنظر إلى البحر يابساً ، فتحدَّث في نفسه أن يدخل في تلك الطريق قبل الاختلاط لأجل أن يلحق موسىٰ ، فهبط جبريل علىٰ فرسه في صورة آدميٍّ فقال : أيها الملك ؛ ما يمنعك مِنَ العبور ، وتقدَّمَ بجنبه ، فاشتمَّ مُهْرُ فرعونَ رائحةَ فرس جبريلَ فتبعها ، وتبعته جنوده ، وجعل جبريل يقول : أيُّها الملك لا تعجل ، وميكائيل يسوق الناس حتَّىٰ لم يبقَ مِنْ جنود فرعونَ أحدٌ ، فأخرجَ جبريل الصحيفة وقال : أيُّها الملك ؛ أتعرف هٰذه الصحيفة ؟ فلمَّا فتحها . . علم أنَّه هالك ، ثمَّ أخذتِ الطرق يلطم بعضها بعضاً ، والناسُ يغرقون ، وفرعونُ ناظر إليهم ، فلمَّا ٱستيقن الموت . . قال : ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ ، فقال جبريل : ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ ، قال تعالىٰ : ﴿ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

ثمَّ إنَّ بني إسرائيل قال بعضهم لبعض : إنَّ فرعون لم يغرق ، فأمر الله تعالى البحر ، فألقاه إلى الساحل ليراه بنو إسرائيل ، فلمَّا رأَوه . . عرفوا أنَّه قد غرِقَ وهلك .

فسبحان الملك الجبار الذي يمهل على الطغاة ولا يهملهم ، بل يأخذُهم أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ .

ولنرجع إلىٰ قول الناظم : (ومن رفع الأهرام) أي : بناها ، فنقول : هو رجل مِنْ جبابرة العمالقة ، يقال له : سنان بن المهلهل ، بنى الأهرام الموجودة بإقليم الجيزة بٱستعانة جماعة مِنَ العمالقة ، وأحكم بناءها وجدرانها ، وأعدَّها لخزن الغِلال ، وهي باقية إلىٰ يومنا هٰذا ، هٰكذا قيل .

وقيل : إنَّ الباني لها ملك مِنْ ملوك مصر ، يقال له : سوريد ، قبل الطوفان ، وسبب ذلك : أنَّ الملك المذكور قد رأىٰ في منامه كأنَّ الأرض قدِ ٱنقلبت بأهلها ، وكأنَّ الكواكب

قد تساقطت وصار يضرب بعضها بعضاً بأصوات هائلة ، فأغمَّه ذلك ، ولم يذكره لأحد ، وعلم أنَّه سيحدث في العالم أمرٌ عظيم ، ثمَّ رأىٰ بعد ذلك بأيام كأنَّ الكواكب نزلت إلى الأرض في صور طيور بيض ، وكأنَّها تخطَفُ الناس وتلقيهم بين جبلين عظيمين ، وكأنَّ الجبلين قد ٱنطبقا عليهم ، وكأنَّ الكواكب النيِّرة صارت مظلمة مكسوفة ، فٱنتبه مذعوراً ، فلمَّا أصبح . . جمع رؤساء الكهنة مِنْ جميع أعمال مصر ، وكانوا مئةً وثلاثين كاهناً ، فخلا بهم ، وحكىٰ لهم ما رآه أوَّلاً وآخراً ، فأوَّلوه بأمرٍ عظيم ، فقال الملك : خذوا الارتفاع للكواكب ، وٱنظروا هل مِنْ حادث ، فبلغوا غايتهم في ٱستقصاء ذلك ، وأُخبروا بأمر الطوفان ، فقال الملك : ٱنظروا هل تَلحق هٰذه الآفةُ بلادنا ؟ قالوا : نعم ، يأتي الطوفان عليها وتخرب مدَّة سنين ، قال : فٱنظروا هل تعود عامرة كما كانت أو تبقىٰ مغمورة بالماء ؟ فقالوا : بل تعود البلاد كما كانت وتعمر ، فأمر عند ذلك بعمل الأهرام ، وشرع في بنائها ، وجعل ٱرتفاع باب كل واحد مِنَ الأهرام في الهواء مئة ذراعٍ بذراعهم ، وهو خمس مئةِ ذراع بذراعنا الآن ، فلمَّا فرغتْ . . كساها ديباجاً ملوَّناً مِنْ فوقها إلىٰ أسفلها ، وعَمِل لها عيداً حضره أهلُ مملكته بأجمعهم ، ثمَّ عمل في الهرم الغربي ثلاثين مخزناً مِنْ حجارة صوَّان ملوَّن ، ومُلِئَتْ بالأموال الجمَّة والآلات والتماثيل المعمولة مِنْ أنواع الجواهر النفيسة ، والسلاح الذي لا يوصف ، والزجاج اللَّيِّن الذي ينطوي ولا ينكسر .

وذكر القبط في كتبهم : أنَّ عليها كتابةً منقوشةً تفسيرها : أنا سوريد الملك ، بنيت هٰذه الأهرام وأتممتُ بناءها في ستين سنة ، فمَنْ أتىٰ بعدي وزعم أنَّه ملكٌ مثلي . . فليهدمها في ست مئةِ سنةٍ ، وإنِّي كسوتُها الديباجَ عند فراغها ، فليكسها الحصر ، فنظروا فوجدوا أنَّه لا يقوم بهدمها شيءٌ مِنَ الأزمان الطوال ، ولمَّا مات سوريد . . دفن في الهرم ومعه ما جمع مِنْ أمواله وكنوزه ، ووكَّل بها روحانيات تحفظها ممَّن يقصدها .

وقال بعض الحكماء : ليس شيء لا يُخشىٰ عليه مِنَ الدهر إلاَّ الأهرام ؛ فإنَّ الدهر يخاف منها ؛ وقد نظم ذلك عُمارةُ اليمنيُّ وأجاد فقال : [من الطويل]

خَلِيلَـيَّ مَـا تَحْـتَ ٱلسَّمَـاءِ بُنَيَّـةٌ ... تُمَـاثِـلُ فِـي إِتْقَـانِهَـا هَـرَمَـيْ مِصْـرِ

بِنَـاءٌ يَخَـافُ ٱلـدَّهْـرُ مِنْـهُ وَكُـلُّ مَـا ... عَلَىٰ ظَاهِرِ ٱلدُّنْيَا يَخَافُ مِنَ ٱلدَّهْرِ

تَنَـزَّهَ طَـرْفِـي فِـي بَـدِيـعِ بِنَـائِهَـا وَلَـمْ يَتَنَـزَّهْ فِـي ٱلْمُـرَادِ بِهَـا فِكْـرِي

ولله درُّ القائل : [من الكامل]

أُنظُـرْ إِلَـى ٱلْهَـرَمَيْـنِ وَٱسْمَـعْ مِنْهُمَـا مَـا يَـرْوِيَـانِ عَـنِ ٱلـزَّمَـانِ ٱلْغَـابِـرِ

لَـوْ يَنطِقَـانِ لَخَبَّـرَانَـا بِـالَّـذِي فَعَـلَ ٱلـزَّمَـانُ بِـأَوَّلٍ وَبِـآخِـرِ[1]

* * *

(١) بقي قول الناظم : (مَنْ يَسْمَعْ يَخَلْ) ، وهو من كلام العرب ، كما في « الأمثال » لابن سلام (ص٢٩٠) ، و« جمهرة الأمثال » للعسكري (٢/٢٦٣) ، و« مجمع الأمثال » للميداني (٣/٣٦٣) ، و« المستقصىٰ في أمثال العرب » للزمخشري (٢/٣٦٢) ، و« لسان العرب » مادة (خيل) ، قال ابن سلام : (أي : مَنْ يسمع أخبار الناس ومعايبهم يقعْ في نفسه عليهم المكروه) ، وقال الزمخشري : يخل ؛ أي : يَظُنُّ وَيَتَّهِم ، وهو مثل يقوله الرجل إذا بُلِّغَ شيئاً عن رجل فأتهمه ، ومفعولا يخل محذوفان .

قال في « اللسان » : (قال ابن هانىء ـ في قولهم : من يسمع يخل ـ : يقال ذلك عند تحقيق الظن) ، والمعنىٰ علىٰ هٰذا : أن من يسمع بأخبار الأمم والملوك التي فنيت وبادت وأكل الدهر عليها وشرب .. لا بد وأن يتحقق ويعتقد بأن مآله صائر إلىٰ ما صاروا إليه من الموت والهلاك ، فعليه أن يعتبر ويتعظ .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :

١٧

أَيْـنَ مَـنْ شَـادُوا وَسَـادُوا وَبَنَـوْا هَلَـكَ ٱلْكُـلُّ وَلَـمْ تُغْـنِ ٱلْقُلَـلْ

الأُولىٰ بالشين المعجمة ؛ أي : بنوا بيوتهم بالشِّيد ، والثانية بالسين المهملة ؛ أي : سادوا أقرانهم ونظراءهم بما أعطاهمُ الله مِنَ القوة والبأس والعتوّ ؛ وفي نسخةٍ بدل الثانية : جادوا ؛ أي : تكرموا ، قال في « المصباح » : (جاد الرجل يجود ـ من باب قال ـ جُوداً بالضم : تكرَّم ، فهو جواد ؛ أي : كريم ، وجاد بالمال : بذله وأعطاه) اهـ

وقال في « المصباح » أيضاً : (الشِّيد بالكسر : الجِصُّ ، وشِدتُ البيتَ أشيدُهُ ، مِنْ باب باع : بنيتُهُ بالشيد ، فهو مَشِيد ، وشيَّدتُهُ تشييداً : طوَّلته ورفعته) اهـ

وقوله : (وبنوا) ـ بفتح النون وسكون الواو ؛ أي : دوراً مزخرفة ـ :

يحتمل أنَّ الناظم رحمه الله تعالىٰ أراد بذلك ثمودَ قومَ صالحٍ ؛ فقد ذكرهم بعد عادٍ كما هو الغالب في ترتيب القرآن العظيم ، فهم الذين بنَوا الأرض ، واتخذوا مِنْ سهولها قصوراً ، ونحتوا مِنَ الجبال بيوتاً ، وبقوَّتهم وكثرتهم استكبروا في أنفسهم وعتَوا عتوّاً كبيراً ، فأُهلكوا بالطاغية ، وأخذتهمُ الصيحة ، كما قال تعالىٰ : ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ .

ويحتمل أنَّه أراد غيرهم مِنْ مطلق الناس ، فيكون شاملاً لكلِّ مَنْ شاد وساد وبنىٰ .

وقوله : (**هلك الكل**) أي : الجميع مِنْ نمرود وما بعده (**ولم تُغْنِ القُلل**) بضم القاف ؛ أي : القصور العالية ، قال في « المصباح » : (قُلَّة الجبل : أعلاه ، والجمع : قُلل وقِلال ، وقُلَّة كلِّ شيءٍ : أعلاه) اهـ

ولله درُّ الملاح حيث قال في « تخميسه » :

أَيْـنَ مَـنْ مِـنْ بَهْجَـةِ ٱلْعِلْـمِ دَنَـوْا أَيْـنَ مَـنْ مِـنْ رَوْضَـةِ ٱلْفَضْـلِ جَنَـوْا

أَيْـنَ مَـنْ شَـادُوا وَسَـادُوا وَبَنَـوْا   أَيْنَ مَنْ جَـازُوا الْمَعَـالِـي وَاقْتَنَـوْا

هَلَـكَ الْكُـلُّ فَلَـمْ تُغْـنِ الْقُلَـلْ[1]

واعلم : أنَّه قد جرت عادة الله في خلقه : أنَّه لا يمضي قرن مِنَ القرون إلاَّ ويموت أهله ، وتبطل معالمه ، وتندرسُ رُسومه ، كلُّ ذلك إظهاراً لقدرته وتحقيقاً لعجز الخلق ، وقد أخبر الله تعالىٰ في كتابه العزيز في آيات كثيرة بهلاك الأمم الماضية ، قرناً بعد قرن ، وجيلاً بعد جيل ، وعالماً بعد عالم ، قال تعالىٰ : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ ، والآيات في هلاك القرون السالفة كثيرةٌ جداً ، فكفىٰ بالقرآن واعظاً .

* * *

---

(١) « تخميس الملاح » (ص٥) .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :

١٨

أَيْـنَ أَرْبَـابُ ٱلْحِجَـا أَهْـلُ ٱلنُّهَـىٰ ... أَيْـنَ أَهْـلُ ٱلْعِلْـمِ وَٱلْقَـوْمُ ٱلأُوَلْ

هٰذا شروعٌ مِنَ الناظم في ذكر موت الصالحين بعد أنْ ذكر هلاك الجبابرة ، فالدنيا ليست دارَ إقامةٍ لا لصالح ولا لطالح كما هو مشاهد .

أي : أين أصحاب الحِجَا بالكسر والقصر ؛ أي : العقل ، ويُسمَّى العقل أيضاً : نُهْيَة ، علىٰ وزن غُرْفَة ، وجمعها : نُهَىً ؛ كما في قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ﴾ أي : لأصحاب العقول ، ويُسمَّىٰ أيضاً : لُبّاً ، وجمعه : ألباب ؛ كما في قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ، ويُسمَّىٰ أيضاً : قلباً ؛ كما في قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أي : عقل ، قال بعضهم : وكثرة الأسماء تدُلُّ علىٰ شرف المسمَّىٰ ، فليس شيءٌ أفضلَ مِنَ العقل ، ولذلك كان نبيُّنا عليه أفضل الصلاة والسلام أعقلَ الناس .

وقوله : (أَهْلُ ٱلنُّهَىٰ) بالرفع بدل مِنْ أربابُ الحِجَا ؛ لأنَّ النُّهىٰ جمع نُهْيَة ، والنُّهْيَةُ هي العقل كما تقدم ، فهي مرادفةٌ للحِجَا .

وقوله : (أين أهل العلم) كالأئمة الأربعة المجتهدين وأتباعهم المتقدمين .

وقوله : (والقوم) بالرفع عطف علىٰ أهل ؛ أي : وأين القوم الأُوَل ـ بضمِّ الهمزة ، وفتح الواو ، جمع أَوَّل ـ كالصحابة والتابعين ؛ أي : فالكلُّ قد حكم الله عليهم بالموت ، قرناً بعد قرن ، وجيلاً بعد جيل ، فسبحان الباقي بعد فناء خلقه!

* * *

[قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين]



أي : سيجمع الله نمرود وكنعان ومَنْ ذكرهمُ الناظم بعدهما ، ويجمع غيرهم أيضاً مِنْ جميع الحيوانات ، ويجازي كلَّ فاعلٍ بما فعله مِنْ خيرٍ وشرٍّ .

وفي كلامه إشارةٌ إلىٰ أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ يجمع الخلق بعد الموت مِنَ التراب والخزف واللَّبِن ، ومِنْ أجواف السمك والسباع والطيور والهوامِّ كيف كانوا ، إنَّ الله تعالىٰ ينبتُهم مِنَ الأرض نباتاً كما بدأهم أوَّل مرَّة ، فينبُتون كما تنبُت الحبَّةُ في حميل السيل ، ويجمعهم في صعيدٍ واحدٍ ، ويحاسبُهم على الفتيل والنقير والقطمير وغير ذلك ، قال تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۞ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ ، وقال صلى الله عليه وسلم : « الناس مجزيون بأعمالهم ؛ إنْ خيراً . . فخير ، وإن شرّاً . . فشرّ » ، والآيات والأحاديث الدالة علىٰ إثبات البعث كثيرة شهيرة .

وقد ذكر مولانا وشيخنا سيِّدي أحمد السجاعي في رسالة سماها : « القول الأزهر فيما يتعلَّق بأرض المحشر » ما نصُّه : وقع السؤال عن الأرض في يوم المحشر مِنْ أيِّ شيءٍ تكون هيَ ؟ وهل تُبدَّلُ جميعُها أو البعضُ ؟ وما المراد بقوله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾ ؟ وما مكان حشر الناس ؟

الجواب : أنَّه ذكر المفسرون في معنىٰ هـٰذا التبديل قولين :

أحدهما : أنَّه تُبدَّل صفةُ الأرض والسماء ذاتُهما ، فأمَّا تبديلُ الأرض : فتتغيَّر صفتُها وهيئتُها مع بقاء ذاتها ، وهو أن تُدَكَّ جبالُها ، ويستوي منخفضُها ومرتفعُها ، وتذهب

أشجارها وجميع ما عليها مِنَ العمارات ، ولا يبقىٰ علىٰ وجهها شيءٌ إلاَّ ذهب ، وأمَّا تبديلُ السماء : فهو أن تنتثر كواكبُها ، وتُطمَس شمسُها وقمرُها ويكوَّران ، وتكون تارة كالدهان ؛ كما قال تعالىٰ : ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ أي : صارت حمراء كالأَدِيم ، وتارة كالمُهْل ؛ كما قال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴾ أي : النحاس المذاب .

ويدلُّ علىٰ صحَّة هٰذا القول : ما روي عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يُحشر الناسُ يومَ القيامة علىٰ أرضٍ بيضاءَ عفراءَ كقُرْصَةِ النَّقِي ، ليس فيها مَعْلَمٌ لأحدٍ »[1] ، قال في « تفسير الخازن » : (العفراء بالعين المهملة ؛ وهي البيضاء إلىٰ حُمرة ، ولهٰذا شبهها بقُرْصَة النَّقِي ، وهو الخبزُ الأبيضُ المائلُ إلىٰ حُمرة ، والنقي ـ بفتح النون وكسر القاف ـ : الدقيق الذي نقي مِنَ القشر والنخالة ، وقوله : ليس فيها مَعْلَم لأحد ـ بفتح الميم واللام بينهما مهملة ساكنة ـ : الشيء الذي يستدلُّ به على الطريق ؛ يريد أنَّها مستوية ليس فيها حدب يرد البصر ، ولا بناء يستر ما وراءه) اهـ[2] ، والحدب : ما ٱرتفع مِنَ الأرض .

وثانيهما : أن تبدل ذات الأرض والسماء ، ثمَّ ٱختلف أصحاب هٰذا القول في معنىٰ هٰذا التبديل :

فقال ٱبن مسعود في معنى الآية : (تبدَّل الأرض بأرضٍ كالفضة البيضاء نقيَّة لم يُسفك فيها دمٌ ، ولم تُعمل عليها خطيئة)[3] .

وقال عليُّ بن أبي طالب كرَّم الله وجهه : (تبدَّل الأرض مِنْ فضة ، والسماء مِنْ ذهب)[4] .

وقال أبو هريرة رضي الله تعالىٰ عنه وسعيد بن جبير : (تبدَّل الأرضُ خبزةً بيضاء يأكل المؤمن مِنْ تحت قدميه)[5] .

---

(1) أخرجه البخاري (٦٥٢١) ، ومسلم (٢٧٩٠) .
(2) « تفسير الخازن » (٨٦/٣) .
(3) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٥٧٠/٤) ، والطبري في « تفسيره » (٢٠٩٤٢) .
(4) أخرجه الطبري في « تفسيره » (٢٠٩٥٥) .
(5) أخرج حديث ابن جبير ابنُ جرير الطبري في « تفسيره » (٢٠٩٦٠) .

قال ابن حجر : (ويستفاد منه : أنَّ المؤمنين لا يعاقبون بالجوع في طول نهار الموقف ، بل يقلب الله بقدرته طبع الأرض حتَّىٰ يأكلوا منها مِنْ تحت أقدامهم ما شاء الله بغير علاج ولا كلفة)[١] .

وعن ابن مسعود رضي الله تعالىٰ عنه أنَّه قال : (تصير الأرضُ كلُّها ناراً يوم القيامة)[٢] .

وعن كعب الأحبار أنَّه قال : (يصير مكان البحر ناراً)[٣] .

وعن أُبيِّ بن كعبٍ رضي الله تعالىٰ عنه أنَّه قال : (تصير الأرضُ والجبالُ غَبَرةً علىٰ وجوه الكفار لا علىٰ وجوه المؤمنين)[٤] .

وعن ابن عباس في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ قال : (تُسْجَرُ حتَّىٰ تصيرَ ناراً)[٥] .

واعلم : أنَّه لا تنافيَ بين أحاديثِ مصيرِها خبزةً وغبرةً وناراً ، بل يُجمع بأن بعضَها يصيرُ خبزةً ، وبعضَها غبرةً ، وبعضَها ناراً ؛ وهو أرض البحر خاصةً ، بدليل ما تقدم .

وفي « تفسير الخازن » : (فإن قلت : إذا فسرتَ التبديل بما ذكرتَ . . فكيف يمكن الجمعُ بينه وبين قوله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ ، وهو أن تحدِّث بكل ما عُمل عليها ؟ قلت : وجه الجمع : أنَّ الأرض تبدل أولاً صفتُها معَ بقاء ذاتها كما تقدَّم ، وفيها القبور والبشر علىٰ ظهرها وفي بطنها ، فحينئذ تُحدِّثُ أخبارها ، ثمَّ بعدَ ذلك تُبدَّل ، فذلك تبديلٌ ثانٍ ، وهو أنْ تُبدَّل ذاتُها بغيرها كما تقدَّم أيضاً)[٦] أي : وذلك إذا وقفوا في المحشر ، فتُبدَّلُ لهمُ الأرض التي يقال لها : الساهرةُ ، يحاسبون عليها ؛ وهي أرضٌ عفراءُ بيضاءُ مِنْ فضةٍ ، لم يُسفك فيها دَمٌ ، ولم تُعمل عليها معصيةٌ ، وحينئذٍ يقومُ الناسُ على الصراط وهو

---

(١) « فتح الباري » (١١/ ٣٧٤) ، وقوله : (يستفاد منه) أي : من حديث البخاري (٦٥٢٠) ، ومسلم (٢٧٩٢) ؛ وهو : « تكون الأرض يوم القيامة خبزةً واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يَكفأ أحدكم خبزته في السفر ، نزلاً لأهل الجنة » .

(٢) أخرجه هناد في « الزهد » (٣٣٧) .

(٣) أخرجه الطبري في « تفسيره » (٣٦٤٣٦) من قول أبي بن كعب رضي الله عنه .

(٤) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٥٠٠) .

(٥) أخرجه الطبري في « تفسيره » (٣٦٤٣٨) .

(٦) « تفسير الخازن » (٣/ ٨٧) .

لا يسعُ جميعَ الخلق ، فيقومُ مَنْ فَضُلَ علىٰ متنِ جهنم وهي كإهالة جامدة ـ والإهالة بالكسر : الودك المذاب ـ وهي الأرض التي قال عبد الله : إنَّها أرضٌ مِنْ نار ، فإذا جاوزوا الصراط ، ودخل أهلُ النار في النار ، وأهلُ الجنَّة في الجنَّة مِنْ وراء الصراط ، وقاموا علىٰ حِيَاضِ الأنبياء يشربون . . بُدِّلتِ الأرضُ كقُرْصَةِ النَّقِي ، فأكلوا مِنْ تحت أرجلهم وعند ذهابهم إلى الجنَّة كانت خبزةً واحدةً ؛ أي : قرصاً واحداً يأكلُ منه جميعُ الخلق ممَّن دخل الجنَّة ، وإدامُهم زيادةُ كبدِ الحوت ، قاله الجلال السيوطيُّ في « البدور السافرة » .

ويدُلُّ علىٰ صحَّةِ هٰذا التأويل : ما أخرجه الإمام أحمد عن أبي أيوب قال : أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم حَبْرٌ مِنَ اليهود قال : أرأيتَ إذ يقول اللهُ : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ ، فأين الخلق عند ذلك ؟ قال : « أضيافُ اللهِ لنْ يُعجِزَهُ ما لديهِ » .

والمبدَّل هو الأرض جميعها كما يؤخذ ذلك مِنْ عدَّة أحاديث :

منها : ما أخرجه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله تعالىٰ عنه عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال : « يقبضُ اللهُ الأرضَ يومَ القيامةِ ، ويطوي السماواتِ بيمينِهِ ، ثمَّ يقولُ : أنَا الملكُ ، أينَ ملوكُ الأرضِ ؟ »[1] .

ومنها : ما أخرجه مسلم عن ابن عمر رضي الله تعالىٰ عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يطوي اللهُ السماواتِ يومَ القيامةِ ثمَّ يأخذُها بيدِهِ اليمنىٰ ، ثمَّ يقولُ : أنَا الملكُ ، أينَ الجبارونَ ؟ أينَ المتكبرونَ ؟ ثمَّ يطوي الأرضينَ ، ثمَّ يأخذهنَّ بشمالِهِ ، ثمَّ يقولُ : أنَا الملكُ ، أينَ الجبارونَ ؟ أينَ المتكبرونَ ؟ »[2] .

قال القاضي عياض : (القبضُ والطيُّ والأخذُ كلُّها بمعنى الجمعِ ، ثمَّ يرجعُ ذلك إلىٰ معنى الرفعِ والإزالة والتبديل ، فعاد ذلك إلىٰ ضمٍّ بعضها إلىٰ بعضٍ وإبادتها)[3] .

وقال القرطبيُّ : (المراد بالطيِّ هنا : الإذهابُ والإفناءُ ، يقال : قدِ انطوىٰ عنَّا ما كنَّا فيه وجاءنا غيره ؛ أي : مضىٰ وذهبَ)[4] .

---

(١) « صحيح البخاري » (٤٨١٢) ، و« صحيح مسلم » (٢٧٨٧) .
(٢) « صحيح مسلم » (٢٧٨٨) .
(٣) « إكمال المعلم » (٨/٣١٩) .
(٤) « تفسير القرطبي » (١٥/٢٧٨) .

وأما اليد اليمنىٰ والشمال : فهو مِنْ باب أحاديث الصفات التي لا يعتقَدُ ظاهرُها ، والناسُ فيها علىٰ قسمين :

فبعضُهم ـ وهم السلف ـ يعتقدون ورودَها ، ويعلمون ٱستحالة ظاهرها ، ويَكِلُون أمرها إلى الله .

وبعضُهم ـ وهم الخلف ـ يعتقدون ورودها ، ويعتقدون تنزيه الله تعالىٰ عن ظاهرها ، ويؤوِّلونها تأويلاً موافقاً ؛ كتأويل اليمين بقبضة الرحمة ، والشمال بقبضة النِّقمة . اهـ

فَائِدَة

[في الأرض المبدلة ومكان الحشر]

أخرجَ الطبرانيُّ في « الأوسط » وٱبنُ عَدِيٍّ بسند ضعيفٍ عن ٱبن عباسٍ رضي الله تعالىٰ عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تذهبُ الأرضونَ كلُّها يومَ القيامةِ إلاَّ المساجدَ ؛ فإنَّه ينضمُّ بعضُها إلىٰ بعضٍ »[1] اهـ

ومكانُ الحشر : الشام ، كما ذكرهُ الجلالُ السيوطيُّ في « البدور السافرة » ، ونصه : أخرج البزَّارُ والطبرانيُّ بسندٍ حَسَن عن سَمُرة بن جندُب : أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول لنا : « إنَّكم تحشرونَ إلىٰ بيت المقدس ، ثمَّ تجتمعونَ »[2] . وأخرج أبو نعيم في « الحلية » عن وهب بن منبه قال : (يقولُ اللهُ تعالىٰ لصخرةِ بيتِ المقدس : لأَضعنَّ عليك عرشي ، ولأحشرنَّ إليك خلقي ، وليأتينَّكِ داوودُ يومئذٍ راكباً)[3] .

وٱعلم : أنَّ الأرضَ المبدَّلة لا تُسمَّىٰ بعد التبديلِ إلاَّ باعتبار ما كانَ .

وقد نظم سيِّدي أحمدُ السجاعيُّ رحمه الله تعالى السؤالَ المتقدِّمَ فقال : [من الطويل]

أَلاَ أَيُّهَـا ٱلأَحْبَـارُ مَـا أَرْضُ حَشْـرِنَـا ... وَمَـا مَقْصِـدُ ٱلتَّنْـزِيـلِ أَنْ تَتَبـدَّلاَ

وَأَيُّ مَكَـانٍ فِيـهِ حَشْـرٌ لِجِسْمِنَـا ... أَجِيبُوا وَأَفْتُوا بِٱلنُّصُوصِ ذَوِي ٱلْعُلاَ

---

(١) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٤٠٢١) ، وابن عدي في « الكامل » (١/٤٠٤) .

(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٧/٢٦٤) ، والبزار كما في « مجمع الزوائد » (١٠/٣٤٦) .

(٣) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٤/٦٦) .

وأجابَ رحمه الله تعالىٰ بقوله : [مِنَ الطويل]

لِـرَبِّـيَ حَمْـدٌ مَـعْ صَـلاَةٍ لِحِبِّـهِ ... وَصَحْـبٍ كَـذَا وَٱلتَّـابِعِيـنَ مِـنَ ٱلْمَـلاَ

قُـلَ ٱرْضٌ سَمَـاءٌ يَـوْمَ حَشْـرٍ تُبَـدَّلاَ ... بِـوَرْقٍ وَقِيـلَ : ٱلتَّـالِي عَسْجَـدَ أُبْـدِلاَ

فَيَأْكُلُ ذُو الإِيمَانِ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلٍ ... لِكَيْـلاَ يَـذُوقُـوا ٱلْجُـوعَ مِنْـهُ تَفَضُّـلاَ

وَلَيْـسَ مُنَـافٍ لِلتَّبَـدُّلِ أَكْلُهُـمْ ... فَتَشْبِيهُهَـا ٱلْمَقْصُـودُ إِذْ خُبْـزُ تُجْعَـلاَ

وَقِيـلَ : بِنَـارٍ تُبْـدَلَ اَوْ غَبْـرَةٍ وَلاَ ... تَنَـافِـي إِذَا ٱلْبَعْـضُ ٱلْمُـرَادُ فَحَصِّـلاَ

وَنَـاحِيَـةٌ لِلشَّـامِ مَحْشَـرُنَـا أَتَـى ... فِـي ٱلاخْبَـارِ عَـنْ هَـادٍ شَفِيعٍ مُجَمَّـلاَ

وأَحْمَـدُ رَاجٍ لِلْقَبُـولِ بِجَـاهِـهِ ... عَلَيْـهِ صَـلاَةٌ مَـعْ سَـلاَمٍ وَمَـنْ تَـلاَ

وقوله : (بورق) أي : بفضَّةٍ مضروبة ؛ أي : في البياض والنقاوة .

وقوله : (وقيل : التالي) وهو السماء أبدلتْ عسجداً ؛ أي : ذهباً .

وقوله : (وليس مُنافٍ) المقصودُ مِنْ هـٰذا البيت : بيان أنَّ أكلَهم لا ينافي إبدالها ؛ لأنَّها كالفضة في نقاوتها وبياضها ، وإلاَّ . . فهي خُبزةٌ .

وقوله : (ولا تنافي إذا البعض المراد فحصلا) هـٰذا جواب عن سؤال ؛ وهو أنَّه تقدَّم أنَّ المؤمن يأكلُ منها وأنَّها كالفضة البيضاء ، فكيف يقال : إنَّها تبدَّل ناراً أو غبرة ؟

وحاصل الجواب : أنَّ المراد به : أنَّ بعضَها يُبدَّلُ بذلك لا جميعها ؛ فلا تنافي . اهـ

* * *

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :

٢٠

أَيْ بُنَـيَّ ٱسْمَـعْ وَصَـايَـا جُمِعَـتْ　　　حِكَمَـاً خُصَّـتْ بِهَـا خَيْـرُ ٱلْمِلَـلْ

لفظة (أي) للنداء ، فـ(أي) مِنْ أدوات النداء ، مثل (يا) ، و(بنيَّ) : منادىٰ يحتمل أن يكون ٱبنه مِنَ النسب حقيقةً والخطاب له ، ويحتمل أن يكون الخطاب لغيره مطلقاً علىٰ سبيل العموم وعلىٰ وجه النصحية ، ويكون النداء له علىٰ حدِّ نداء النكرة غير المقصودة ، كقول الواعظ : يا غافلاً والموت يطلبه ، وقولِ الأعمىٰ : يا رجلاً خذ بيدي .

و(الوصايا) : جمع وصية ، والمراد بها هنا : نشر العلم ، ونفع المسلمين ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والدلالة على الخير ، وغير ذلك .

و(الحكم) : جمع حكمة ، والمراد بها : العلم المقرون بالعمل ، وقيل : هي علم القرآن ناسخه ومنسوخه ، ومُحكَمِه ومتشابهه ، ومقدَّمه ومؤخَّره ، وحلاله وحرامه ، وأمثاله ، وقيل : هي الأمانة في القول والفعل ، وقيل : هي معرفة معاني الأشياء وفهمها ، وقيل : هي النبوَّة ، وقيل غير ذلك ، قال تعالىٰ : ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ .

و(الملل) : جمع مِلَّة ، وخيرُها ملة الإسلام ، قال تعالىٰ : ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ ﴾ وقد فضل الله تعالىٰ هٰذه الأمة علىٰ سائر الأمم ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ ، وقال تعالىٰ : « وجعلتُ أمَّتك وسطاً ، وجعلت أمتك هم الأولون والآخرون ، وجعلت من أمتك أقواماً قلوبهم أناجيلهم، . . . »[١] إلىٰ آخر ما مَنَّ الله به عليه صلى الله عليه وسلم ، وعلىٰ أمَّته في ليلة المعراج .

---

(١) حديث قدسي أخرجه البيهقي في « دلائل النبوة » (٢/٣٩٦) ، والطبري في « تفسيره » (٢٢٠٢٢) من حديث طويل في قصة الإسراء والمعراج .

وفي كتاب « طهارة القلوب والخضوع لعلاَّم الغيوب » : (قال وهب بن مُنَبِّه : لمَّا قرأ موسىٰ عليه السلام الألواحَ ، ووجد فيها فضيلة أمَّة سيِّدنا محمدٍ صلى الله عليه وسلم . . قال : يا ربِّ ؛ مَنْ هـٰذه الأمة المرحومة التي أجدها في الألواح ؟ قال : هي أمَّة محمد ، يرضون منِّي باليسير أعطيهم إياه ، وأرضىٰ منهم باليسير مِنَ العمل ، أدخلهم الجنَّة بشهادة أن لا إلـٰه إلا الله ، قال : يا ربِّ ؛ فإنِّي أجد في الألواح أمَّة يحشرون يوم القيامة وجوهُهُم علىٰ صورة القمر ليلة البدر ، فأجعلهم أمَّتي ، قال : هي أمَّة محمدٍ ؛ أحشرهم يوم القيامة غرّاً محجَّلين ، قال : يا ربِّ ؛ إنِّي أجد في الألواح أمَّة يطلبون الجهاد بكلِّ أُفُقٍ ، حتَّىٰ يقاتلوا الأعور الدجال ، فأجعلهم أمَّتي ، قال : هي أمَّة أحمد ، قال : يا ربِّ ؛ إنِّي أجد في الألواح أمة يُصلُّون في اليوم والليلة خمس صلوات في خمس ساعات مِنَ النهار والليل ، وتفتح لهم أبواب السماء ، وتنزل عليهم الملائكةُ ، فأجعلهم أمَّتي ، قال : هي أمَّة أحمد ، قال : يا ربِّ ؛ إنِّي أجد في الألواح أمَّة الأرضُ لهم مسجدٌ وطهور ، وتحلُّ لهمُ الغنائم ، فأجعلهم أمَّتي ، قال : هي أمَّة أحمد ، قال : يا ربِّ ؛ إنِّي أجد في الألواح أمَّة يصومون لك شهر رمضان ، فيغفر لهم ما كان قبل ذلك ، فأجعلهم أمَّتي ، قال : هي أمَّة أحمد ، قال : يا ربِّ ؛ إنِّي أجد في الألواح أمَّة يحجُّون لك البيت الحرام ، يعجُّون بالبكاء عجيجاً ، ويضجُّون ضجيجاً ، فأجعلهم أمَّتي ، قال : هي أمَّة أحمد ، قال : فما تعطيهم علىٰ ذلك ؟ قال : المغفرةَ ، وأشفعُهم فيمن وراءهم ، قال : يا ربِّ ؛ إنِّي أجد في الألواح أمَّة يرفع أحدهم اللقمة إلىٰ فِيْهِ ، ويفتتحها باسمك ، ويختتمُها بحمدك ، فلا تستقرُّ في جوفه حتَّىٰ يغفر له ، فأجعلهم أمَّتي ، قال : هي أمَّة أحمد ، قال : يا ربِّ ؛ إنِّي أجد في الألواح أمَّة همُ السابقون يوم القيامة ، وهمُ الآخرون مِنَ الخلق ، فأجعلهم أمَّتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال : يا ربِّ ؛ إنِّي أجد في الألواح أمَّة أناجيلهم في صدورهم يقرؤونها ، فأجعلهم أمَّتي ، قال : تلك أمَّة أحمد ، قال : يا ربِّ ؛ إنِّي أجد في الألواح أمَّة إذا هَمَّ أحدُهم بحسنة فلم يعملها . . كتبت له حسنة واحدة ، وإن عملها . . كتبت له عشر أمثالها إلىٰ سبع مئة ضعفٍ ، فأجعلهم أمَّتي ، قال : تلك أمَّة أحمد ، قال : يا ربِّ ؛ إنِّي أجد في الألواح أمَّة إذا همَّ أحدُهم بسيئة ثمَّ لم يعملها . . لم تكتب عليه ، وإن عملها . . كتبت عليه سيئة واحدة ، فأجعلهم أمَّتي ، قال : تلك أمَّة أحمد ، قال : يا ربِّ ؛ إنِّي أجد في الألواح أمَّة هُم خير

الناس ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، فأجعلهم أمتي ، قال : هي أمَّة أحمد ، قال : يا ربِّ ؛ إنِّي أجد في الألواح أمَّة يحشرون يوم القيامة علىٰ ثلاث ثلل : ثلة يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلة يحاسبون حساباً يسيراً ، وثلة يمحصون ثمَّ يدخلون الجنة ، فأجعلهم أمَّتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال : يا ربِّ ؛ بسطت هـٰذا الخير لأحمد وأمته ، فأجعلني مِنْ أمَّته ، قال الله تعالىٰ : ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[1] .

وعنِ ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً لأصحابه : « ما تقولونَ في هـٰذه الآية : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، فقال : « لمَّا كَلَّم اللهُ موسىٰ عليه الصلاة والسلام . . قال : يا ربِّ ؛ هل في الأمم أكرمُ عليك مِنْ أمَّتي ؟ ظلَّلتَ عليهمُ الغَمَامَ وأنزلتَ عليهمُ المَنَّ والسَّلْوى ؟ فقال الله تعالىٰ : أَمَا علمتَ أنَّ فضل أمَّةِ محمدٍ علىٰ سائر الأمم كفضلي علىٰ سائر خلقي ، قال موسىٰ : يا ربِّ ؛ أفأراهم ؟ قال : لن تراهم ، ولكن إذا أحببت أن تسمع كلامهم . . فعلت ، قال : فإنِّي أحبُّ ذلك ، قال الله تعالىٰ : يا أمة محمد ؛ فأجابوا كلُّهم بصيحة واحدة يقولون : لبيكَ اللهمَّ لبيكَ ، وهم في أصلاب آبائهم ، ثمَّ قال الله تعالىٰ : صلاتي عليكم ورحمتي سبقت غضبي ، وعفوي سبق عذابي ، وإنِّي قد غفرتُ لكم قبل أن تستغفروني ، فمَنْ لقيني منكم يشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأنَّ محمداً رسولُ الله . . غفرتُ له ذنوبَهُ ، فأراد الله أن يَمُنَّ عليَّ بذلك فقال : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ أي : أمَّتك »[2] .

وفي بعض كتب الله المنزَّلة : أنا الله الذي لا إلـٰه إلا أنا وحدي لا شريك لي ، محمدٌ المختارُ عبدي ورسولي ، أمَّته الحامدون رعاة الشمس ، فيهم صلاةٌ لو كانت في قوم نوحٍ . . ما هلكوا بالطوفان ، ولو كانت في قوم عادٍ . . ما هلكوا بالريح ، ولو كانت في قوم ثمودَ . . ما هلكوا بالصيحة) اهـ[3]

---

(١) أخرجه البيهقي في « دلائل النبوة » (١/٣٧٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣/٣٩٥) .

(٢) أخرجه ابن مردويه في « تفسيره » كما في « الدر المنثور » (٦/٤١٨) ، وجاء نحوه عن أبي هريرة رضي الله عنه عند الحاكم في « المستدرك » (٢/٤٠٨) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (١١٣١٨) .

(٣) « طهارة القلوب » (ص٣٢٨ـ ٣٣٢) ، والأثر الأخير أخرجه بنحوه عن كعب الأحبار رحمه الله تعالىٰ فيما وجده في التوراة الدارمي في « السنن » (٥) ، (٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/٣٨٦) .

قال في « تنبيه الغافلين » في الباب الرابع والسبعين ما نصُّه : (قال كعبُ الأحبار : « إنَّ الله تعالىٰ أكرم هـٰذه الأمة بثلاثة أشياء قد أكرم بها أنبياءه :

أحدها : أنَّه جعل كلَّ نبيٍّ شاهداً علىٰ قومه ، وجعل هـٰذه الأمة شهداء على الناس .

والثاني : أنَّه قال للرسل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ ، وقال لهـٰذه الأمَّة : ﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ .

والثالث : قال : لكل نبيٍّ دعوة مستجابة ، وقال لهـٰذه الأمَّة : ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ »[1] .

ويقال : إنَّ الله تعالىٰ أكرم هـٰذه الأمَّةَ بستٍّ كرامات :

أوَّلها : أنَّه خلقهم ضعفاء ؛ حتَّىٰ لا يستكبروا .

وثانيها : خلقهم صغاراً في أنفسهم ؛ حتَّىٰ تكونَ مؤنةُ الطعام والثياب عليهم أقلَّ .

وثالثها : جعل أعمارهم قِصاراً ؛ حتَّىٰ تكونَ ذنوبُهم أقلَّ .

ورابعها : خلقهم فقراءَ ؛ حتَّىٰ يكونَ حسابُهم في الآخرة أقلَّ .

وخامسها : خلقهم آخرَ الأمم ؛ حتَّىٰ يكونَ مُقامُهُم في القبر أقلَّ .

وسادسها : جعلهم آخر الأمم ؛ لئلاَّ يفتضحوا بين الأمم .

وعن كعبِ الأحبار قال : « قرأت في بعض ما أنزل الله علىٰ موسىٰ عليه الصلاة والسلام : يا موسىٰ ؛ ركعتان يصليهما أحمدُ وأمَّتُه ـ وهي صلاة الغَدَاة ـ يقول الله تعالىٰ : ما صلاهما أحد . . إلاَّ غفرتُ له ما أصاب مِنَ الذنوب في يومه وليلته ، ويكون في ذمَّتي .

يا موسىٰ ؛ أربع ركعات يصليهنَّ أحمدُ وأمَّتُه ـ وهي الظهر ـ أعطيهم بأوَّل ركعة منها المغفرة ، وبالثانية أثقِّل موازينهم ، وبالثالثة أُوَكِّلُ عليهم الملائكة يسبحون ويستغفرون لهم ، وبالرابعة أفتح لهم أبواب السماء وتشرف عليهم الحور العين .

يا موسىٰ ؛ أربع ركعات يصليهنَّ أحمدُ وأمَّتُه ـ وهي صلاة العصر ـ فلا يبقىٰ ملك في السماوات والأرض إلاَّ استغفر لهم ، ومَنِ استغفرتْ له الملائكة . . لم أعذِّبهُ أبداً .

---

(١) أخرجه بنحوه عن كعب الأحبار رحمه الله تعالى ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٠/ ٣٢٦٨) .

يا موسىٰ ؛ ثلاث ركعات يصليهنَّ أحمدُ وأُمَّتُه ـ وهي صلاة المغرب حين تغرُب الشمس ـ أفتح لهم أبواب السماء ، فلا يسألون حاجة إلاَّ قضيتُها لهم .

يا موسىٰ ؛ أربع ركعات يصليهنَّ أحمدُ وأُمَّتُه ـ وهي صلاة العتمة حين يغيب الشفق ـ خيرٌ لهم مِنَ الدنيا وما فيها ، ويخرجون مِنْ ذنوبهم كيومَ ولدتهم أُمَّهاتُهم .

يا موسىٰ ؛ إذا توضَّأ أحمدُ وأُمَّتُه كما أمرتُهم . . أعطيتُهم بكلِّ قطرة تقطُرُ مِنَ الماء جنَّةً عرضُها كعرض السماء والأرض .

يا موسىٰ ؛ يصوم أحمدُ وأُمَّتُهُ شهراً مِنْ كلِّ سنةٍ ـ وهو شهر رمضان ـ أعطيهم بصيام كلِّ يوم مدينة في الجنَّة ، وأعطيهم بكلِّ خير يعملون فيه مِنَ التطوع أجر فريضة ، وأجعل فيه ليلة القدر ، فمَنِ ٱستغفر منهم فيها مَرَّةً واحدةً ، نادماً صادقاً مِنْ قلبه ؛ فإن مات مِنْ ليلته أو شهره . . أُعطيه أجر ثلاثين شهيداً ») اهـ[1]

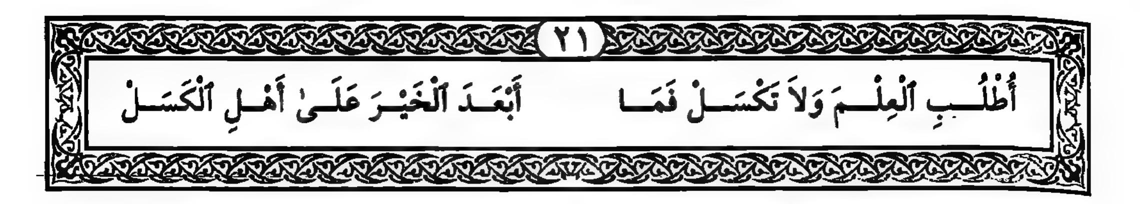
وٱعلم : أنَّ الله تعالى ٱختار أمَّة سيِّدنا محمد صلى الله عليه وسلم على الأمم ، وخيارُ الأمَّة علماؤُها ، وأَعلمُ هٰذه الأمَّة أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثمَّ خيارُ كلِّ قَرْنٍ علماؤُهُ . اهـ

* * *

---

(١) « تنبيه الغافلين » (٥١٠ـ٥١٣) .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



أيِ : ٱجتهد في تحصيل العلم وطلبه ؛ وهو إدراك المعلوم علىٰ ما هو عليه في الواقع ، أو هو حكم العقل الجازم المطابق للواقع ، فخرج بالأول : الشكُّ والوهم ؛ بناءً على القول بأنَّه لا حكم فيهما ، وخرج بقيد الجازم : الظنُّ ، وبقيد المطابق للواقع : غيرُه ؛ وهو الجهل المركَّب ، وهو ٱعتقاد الشيء علىٰ خلاف ما هو عليه في الواقع ؛ كإدراك الفلاسفة قِدَم العالم ، وسمِّيَ مركباً ؛ لتركُّبه مِنْ جهلين : عدم العلم ، وٱعتقاد أنَّه عالم .

وقوله : (ولا تكسل) أي : لا تسأم أيُّها الطالبُ عن الاشتغال به ؛ لأنَّ آفةَ الكسل والسآمة قبيحةٌ شنيعة ، كما قال الناظم : (فما أبعد الخير علىٰ أهل الكسل) ، والخير : اسمٌ جامعٌ لأنواع الفضائلِ ، فهو خلاف الشرِّ ، ويرحم الله القائل : [من السريع]

أُطْلُبْ وَلاَ تَضْجَرَ مِنْ مَطْلَبِ فَآفَةُ ٱلطَّالِبِ أَنْ يَضْجَرَا[1]
أَمَا تَرَى ٱلْحَبْلَ بِتَكْرَارِهِ فِي ٱلصَّخْرَةِ ٱلصَّمَّاءِ قَدْ أَثَّرَا

وقال بعضهم : [من البسيط]

أَلْعِلْمُ نُورٌ فَلاَ تُهْمِلْ مَجَالِسَهُ وَٱعْمَلْ جَمِيلاً يُرَىٰ فَٱلْفَضْلُ فِي ٱلْعَمَلِ
لاَ تَرْقُدِ ٱللَّيْلَ مَا فِي ٱلنَّوْمِ فَائِدَةٌ لاَ تَكْسَلَنَّ تَرَى ٱلْحِرْمَانَ فِي ٱلْكَسَلِ

تَنْبِيه
[فيما يجب طلبه من العلوم]

الأمرُ في قول الناظم : (ٱطلب) للوجوبِ ، فطلبُ العلم واجبٌ ، كما قال صلى الله

---

(١) في الأصل : (اطلب ولا تضجرن) ، ولا يستقيم وزناً ورواية ، والتصويب مِن « مغني اللبيب » (٢/٥١٩) ، و« شرح الأشموني » (٢/١٨٦) ، و« همع الهوامع » (٢/٣٢٠) ، والبيت منسوب إلىٰ أحد المولدين .

عليه وسلم : « طلبُ العلمِ فريضةٌ علىٰ كلِّ مسلم ومسلمةٍ »[1] ، قال بعض العلماء : أراد به علمَ التوحيد وعلمَ أحوال القلب وعلمَ الشريعة .

فأمَّا علمُ التوحيد : فهو أن يعرفَ الشخصُ أنَّ له إلـٰهاً عالماً قادراً حيّاً مريداً متكلماً سميعاً بصيراً واحداً ، متصفاً بصفات الكمال ، منزَّهاً عن النقصان والزوال ، ليس كمثله شيءٌ ، وأن يعرفَ أنَّ له ملائكةً ، وهم عبادُهُ ، لا يعصونه فيما أمرهم به ويفعلون ما يؤمرون به ، لا يأكلون ولا يشربون ، وأن يعرف أنَّ له كتباً منزَّلة ، وكلُّها منسوخة بالقرآن ، وأن يعرف أنَّ له رسلاً أرسلهم إلى الخلق ، أوَّلُهم آدمُ عليه الصلاة والسلام ، وآخرهم سيِّدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنَّ شريعتَهُ باقيةٌ إلىٰ يوم القيامة ، وأن يعرف أنَّ سؤال منكر ونكير حقٌّ ، والحشر والنشر حقٌّ ، والجنَّة والنار حقٌّ ، والحساب والميزان والصراط حقٌّ ، وأن يعرف أنَّ القدر خيرُهُ وشرُّهُ مِنَ الله تعالىٰ ، لا يجري شيءٌ في الوجود إلاَّ بإرادته ومشيئته .

وأمَّا علم أحوال القلوب : فهو أن يعرف الشخصُ أنَّ للقلب أخلاقاً محمودة فيفعلُها ، وأخلاقاً مذمومة فيتباعدُ عنها ، أمَّا المحمودة : فكالتوكل على الله تعالىٰ ، والإخلاص له سبحانه وتعالىٰ ، والحمد والشكر على النعم ، والتوبة مِنَ المعاصي ، والخوف ، والرجاء ، والزهد ، والصبر ، والمحبَّة ، والرضا بالقضاء ، وذكر الموت ، وأمَّا المذمومة : فكالحرص على الطعام والشراب ، وكراهية الجوع ـ مع أنَّ فيه فوائد ؛ منها : صفاء القلبِ ورقَّته ، وذُلُّ النفس ، وكسر الشهوات ، وزوال النوم المانع مِنَ العبادة ـ وكالحرص على الكلام فيما لا يعني ـ لأنَّ للسان آفاتٍ كثيرة ، والغالبُ عليه منها : الغِيبة والكذب والمدح والمِزاح ـ وكالغضب ، والحسد ، والبخل ، وحبِّ الجاه ، وحبِّ الدنيا ، والكِبْر ، والعُجْب ، والرِّياء ، وغير ذلك مِنْ أمراض القلوب .

وأمَّا علم الشريعة : فكلُّ ما تعيَّن عليك فعلُه فالواجب عليك معرفتُهُ لتؤديه علىٰ حقيقته ؛ كالطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحجِّ ، وغير ذلك مِنْ أنواع العبادات والمعاملات والمناكحات ، وأفضلُ العبادات البدنيَّةِ الصلاةُ ؛ لأنَّ العبادات إمَّا قلبيَّة ؛ كالإيمان والتفكُّر

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٢٤) ، والطبراني في « الأوسط » (٩) ، وفي « الصغير » (١٦/١) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٢٨٣٧) ، وأما زيادة لفظة : « ومسلمة » .. فقد قال الإمام السخاوي : (قد ألحق بعض المصنفين بآخر هـٰذا الحديث : « ومسلمة » ، وليس لها ذكر في شيء من طرقه ، وإن كان معناها صحيحاً) .

والتوكُّل والصبر والورع والزهد ونحوها ، وإمَّا بدنية ؛ كالإسلام والصلاة والصوم والحجِّ ، والقلبيَّة أفضلُ مِنَ البدنيَّة ، وأفضلُ القلبيَّة الإيمان ، ولا يكون إلاَّ واجباً ، وقد يكون تطوُّعاً بالتجديد ، وأفضلُ البدنيَّة الصلاة كما تقدَّم ؛ لأنَّه اجتمع فيها ما تفرَّق في غيرها ؛ مِنْ ذكر الله تعالىٰ ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وقراءةٍ ، وتسبيحٍ ، ولبث ، وطهارةٍ ، وسترٍ ، واستقبالٍ ، وتركِ أكلٍ وشربٍ ، وغيرِ ذلك ، وزادت بالركوع والسجود ونحوهما .

واعلم : أنَّ أعضاءك كالأغنام السائمة وأنت راعيها ، وقد رَعَتْ في أودية المعاصي ، فتجمعها في وقت الصلاة بين يديِ الله تعالىٰ ، فإذا قمتَ إلى الصلاة . . قمتَ بين يدي مولاك سبحانه وتعالىٰ ، فإذا كبرتَ . . فقد أذعنت بأنَّ الكبرياء والعظمة له سبحانه وتعالىٰ ، وإذا ركعتَ . . فكأنَّك قلت : يا ربِّ ؛ رقبتي لك وأنا عبدك ، وثقل المعصية أنقض ظهري فاطرحه عني ، وإذا سجدتَ . . فكأنَّك تقول : عفرت وجهيَ بالتراب تائباً خاضعاً لك ، فإذا قمتَ للصلاة . . فاجتهد في تطهير قلبك ، وتذكَّر في قيامك أنَّك واقفٌ بين يديه كوقوفك يوم العرض عليه سبحانه وتعالىٰ ، وإذا كبَّرتَ بلسانك . . فلا يكذِّبْكَ قلبُك ، فإذا كان فيه شيء كبير سوى الله تعالىٰ . . فاطرحه عنه .

ويكفينا في فضيلة الصلاة ما روي : أنه سُئل البخاريُّ : ما تقول فيمن لا يصلي ؟ فنكس رأسه طويلاً ، ثمَّ رفع رأسه فقال للسائل : لا تظنَّ أنِّي فعلتُ ذلك عجزاً عن جوابك ، ولكنْ نظرتُ بقلبي في كتب شرائع الإسلام ، وعرضتُ جميع القرآن مِنْ أوَّله إلىٰ آخره ؛ هل أجدُ فيه أنَّ مَنْ لا يصلي يكون مسلماً أم لا ؟ فما وجدت أنَّ مَنْ ترك الصلاة متعمداً يكون مسلماً .

نسأل الله سبحانه وتعالىٰ أن يوفقنا لأداء ما افترض علينا مِنَ الصلوات وغيرها علىٰ وجه يرضيه سبحانه وتعالىٰ . آمين .

* * *

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :

(٢٢)

وَٱحْتَفِلْ لِلْفِقْهِ فِي ٱلدِّينِ وَلاَ تَشْتَغِلْ عَنْهُ بِمَالٍ وَخَوَلْ

أي : ٱجمع جواسك للفقه ؛ أي : للفهم في الدين ؛ أي : في أحكامه ، ولا تشتغل ؛ أي : لا تلته عنه بمال ولو كَثُرَ ، ولا خَوَل ، بفتح الخاء المعجمة والواو ، كخَدَمٍ وحَشَمٍ وزناً ومعنىً ، أفاده في « المصباح » .

ففي هٰذا البيت : الأمر بالاجتهاد في طلب العلم الذي لا بدَّ منه ؛ وهو العلم الشرعي ؛ كالفقه والحديث والتفسير والآلات الموصلة إلىٰ فهم ذلك ؛ لأنَّه هو الذي يجب على الإنسان الاشتغال به لأجلِ أن يعرفَ ما هو مطلوب منه مِنْ فرضٍ ونفل ، وما هو منهيٌّ عنه مِنْ حرامٍ ومكروه .

فعُلِمَ مِنْ هٰذا التقرير : أنَّ المراد بـ(الفقه) في النظم : معناه اللغوي ؛ وهو الفهم ، فقوله : (وٱحتفل للفقه) أي : للفهم في الدين ؛ أي : في أحكامه ، وليس المراد به معناه الاصطلاحي ؛ الذي هو : العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب مِنْ أدلَّتها التفصيلية ؛ لأنَّه بهٰذا المعنىٰ قاصرٌ على الفقه فقط .

والدين في اللغة يطلق علىٰ معان : منها : الجزاء ؛ قال تعالىٰ : ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي : الجزاء ، ومنها : الطاعة ، يقال : فلان دان لفلان ؛ أي : أطاعه .

وٱصطلاحاً : ما شرعه الله مِنَ الأحكام علىٰ لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

والدين والملة والشريعة والشرع ألفاظ متَّحدةٌ في المعنىٰ ، مختلفةٌ بالاعتبار ؛ لأنَّ الأحكام مِنْ حيثُ ٱشتهارُها وظهورُها وتشريعُها . . تسمَّىٰ : شريعة وشرعاً ، ومِنْ حيثُ إملاءُ الشارع إيَّاها لنا . . تسمَّىٰ : ملةً ، ومِنْ حيثُ ٱنقيادُ الخلق لها . . تسمَّىٰ : ديناً . اهـ

وفي هٰذا البيت أيضاً : النهي عنِ الاشتغال عنِ العِلْم بما هو مِنَ القواطع عنه ؛ كالمال ، والحَشَم ، والخَدَم ، والأمور المتعلِّقة بتحصيل الدنيا ، وغير ذلك .

ولله درُّ القائل :

تَعَلَّمْ فإنَّ العِلْمَ زينٌ لأهلِهِ — وفضلٌ وعُنوانٌ لكلِّ المحامدِ
وكُنْ مستفيداً كُلَّ يومٍ زيادةً — مِنَ العِلْمِ واسبح في بحورِ الفوائدِ
تفقَّهْ فإنَّ الفِقْهَ أفضلُ قائدِ — إلى البِرِّ والتقوىٰ وأعدلُ قاصدِ
هُوَ العَلَمُ الهادي إلىٰ سننِ الهدىٰ — هُوَ الحصنُ يُنْجِي مِنْ جميعِ الشدائدِ
فإنَّ فقيهاً واحداً متورِّعاً — أشدُّ على الشيطانِ مِنْ ألفِ عابدِ

وذكر في « الجامع الصغير » : أنَّه صلى الله عليه وسلم قال : « فقيهٌ واحدٌ أشدُّ على الشيطان مِنْ ألفِ عابدٍ »[1] .

* * *

(١) « الجامع الصغير » (٥٨٩٦) ، والحديث أخرجه الترمذي (٢٦٨١) ، وابن ماجه (٢٢٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٥٨٦) ، والطبراني في « الكبير » (١١/ ٦٥) . والمراد بالفقه في الحديث : ما قاله الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ في « الإحياء » (١/ ٣٢) : (كان اسم الفقه في العصر الأول مطلقاً علىٰ علم طريق الآخرة ، ومعرفة دقائق النفوس ، ومفسدات الأعمال ، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا ، وشدّة التطلّع إلىٰ نعيم الآخرة ، واستيلاء الخوف على القلب ، ويدلُّك عليه قوله عز وجل : ﴿ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ﴾ ، وما يحصل به الإنذار والتخويف . . هو هٰذا الفقه ، دون التفريعات ؛ الطلاق والعتاق واللعان والسلم والإجارة و . . . ، فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف ، بل التجرد له على الدوام يقسي القلب وينزع الخشية منه ، ولعمري ؛ إن الفقه والفهم في اللغة اسمان لمعنىً واحد) .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



أي : اترك النوم ، وحصِّله ؛ أي : العلم الشرعي مع آلاته ، لا كلّ علمٍ ؛ لأنَّ العمر يقصر عن تحصيل كلِّ علم ، خصوصاً في هٰذا الزمن الذي كثرت فيه الشواغل ، ولا تستعظم ترك النوم في تحصيله ؛ لأنَّ مَنْ يعرف المطلوب وعظمته ونفعه . . يحقر ـ بفتح الياء التحتية وكسر القاف ، من باب ضرب ـ أي : لا يعبأ ولا يعتني بالشيء الذي بذله وأعطاه عن طيبِ نفسٍ ، هٰكذا يستفاد من « المصباح » .

فقد أمر الناظم رحمه الله تعالىٰ بهَجْرِ النوم وتحصيل العلم ؛ لأنَّ مِنْ طبع النفس النوم والكسل ، والميل إلى اللهو واللعب والتنعم ، والفتور عن الطاعات خصوصاً عن العلم ، والليلُ تتفرَّغُ فيه الحواسُّ عن الشواغل ، وتنقطعُ فيه الأمور المتعلِّقة بالدنيا غالباً ، فينبغي سهره وتحصيل العلوم فيه ، فهو وإن فاتته لذَّة النوم . . فقد حصلتْ له لذَّةٌ أعلىٰ وأعظم مِنْ ذلك ؛ لأنَّ من المعلوم عند أهله أنَّهم لا يتلذذون بشيءٍ أحلىٰ منه ، حتَّىٰ إنَّ المشتغلين به ، الملازمين لتحقيق مسائله ، وتدقيق فضائله . . يحصل لهم به مِنَ الفرح والسرور والطرب ما لا يحصل لغيرهم ممَّن يتحرَّىٰ سماع الآلات والمآكل والمشارب وغير ذلك ، كما قال بعضهم : [من الكامل]

سَهَرِي لِتنقيحِ العلومِ أَلَذُّ لي ... مِنْ وصلِ غانيةٍ وطِيبِ عِنَاقِ
وتمايُلي طرباً لِحَلِّ عَويصةٍ ... أشهىٰ وأحلىٰ مِنْ مُدامةِ ساقِ
وَصَريرُ أقلامي علىٰ أوراقِها ... أحلىٰ مِنَ الدَّوكاةِ والعُشَّاقِ
وأَلَذُّ مِنْ نَقْرِ الفتاةِ لِدُفِّها ... نقري لأُلقي الرملَ عن أوراقي
أأَبيتُ سهرانَ الدجىٰ وتبيتُهُ ... نوماً وتبغي بعدَ ذاكَ لحاقي[1]

(١) الأبيات للإمام الشافعي رحمه الله تعالىٰ في « ديوانه (ص١٠٢) » ، والدوكاة : هو غشيان المرأة ، والنقر على =

ثم إن الناظم رحمه الله تعالىٰ ذكر مثالاً بيَّن به : أنَّ مَنْ يعرف فضل العلم وما أعده الله لطالبه في الدار الآخرة من الأجر العظيم والنعيم المقيم . . آحتقر في جنب ذلك ما يلاقيه مِنَ الأمور الشاقة في الدنيا ، وما يحصلُ له مِنَ التعب والسهر وترك اللذات الدنيوية ، وما يصيبه مِنَ المصائب ؛ كنقصٍ في رزقهِ ، أو ولده ، أو نحو ذلك ، وهو قوله : (**فمَنْ يعرفِ المطلوبَ يحقرْ ما بذل**) .

ولله درُّ إمامنا الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه حيث قال : [من الطويل]

تَصبَّرْ علىٰ مُرِّ الجَفَا مِنْ مُعلِّمٍ ... فإنَّ رُسُوبَ العِلْمِ في نَفَرَاتِهِ
وَمَنْ لم يَذُقْ ذُلَّ التَّعلُّمِ ساعةً ... تجرَّعَ ذُلَّ الجهلِ طُولَ حياتِهِ
ومَنْ فاتَهُ التَّعليمُ وقتَ شبابِهِ ... فكبِّرْ عليه أَربعاً لوفاتِهِ
حياةُ الفتىٰ واللهِ بالعلم والتقى ... إذا لم يكونا لا آعتبارَ لذاتِهِ(١)

وله أيضاً نوَّر الله ضريحه : [من الوافر]

رأيتُ العِلْمَ صاحبُهُ كريمٌ ... ولو ولدتْهُ آباءٌ لِئَامُ
وليسَ يزالُ يرفعُهُ إلىٰ أنْ ... تعظِّمَ أمرَهُ القومُ الكرامُ
ويتَّبعونَهُ في كلِّ حالٍ ... كراعي الضأنِ تتبعُهُ السَّوامُ
فلولا العِلْمُ ما سعدتْ رجالٌ ... ولا عُرِفَ الحلالُ ولا الحرامُ(٢)

= الأوراق لإلقاء الرمل : هو عمل يكون بعد تتريب أوراق الكتاب ، والتتريب : هو وضع التراب عليها فور الانتهاء من كتابتها للإسراع في جفاف الحبر المكتوب به ؛ وذلك لئلا ينطمس ويفسد هو وما قابله إن طبق الأوراق فوق بعضها .
ولمحمد بن هارون الدمشقي كما في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٤٢٣) ، و« الجامع لأخلاق الراوي » (٧٦) ، و« تاريخ دمشق » (٥٥/٢٤٤) : [من الوافر]

لَمحبرةٌ تُجالسُني نهاري ... أَحَبُّ إليَّ مِن أُنْسِ الصديقِ
ورُزمةُ كاغِدٍ في البيت عندي ... أَحَبُّ إليَّ مِنْ عِدْلِ الدقيقِ
ولَطْمَةُ عالِمٍ في الخدِّ منِّي ... أَلَذُّ إليَّ مِنْ شُرْبِ الرحيقِ

(١) الأبيات في « ديوانه » (ص٤٤) .
(٢) الأبيات في « ديوانه » (ص١٢٥) ، ونسبها ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٦٧) إلىٰ بكر بن حماد ، وفيها زيادة ؛ وهي قوله : [من الوافر] =

وقال بعضهم : [من الكامل]

أَلعِلْمُ مَغْرَسُ كلِّ فضلٍ فاْجتهِدْ ... ألاَّ يفوتَكَ فضلُ ذاكَ المَغْرَسِ

وٱعلمْ بأنَّ العِلْمَ ليسَ ينالُهُ ... مَنْ همُّهُ في مطعمٍ أو مَلبَسِ

إلاَّ أخو العِلْمِ الذي يُعنَىٰ بهِ ... في حالتيهِ عارياً أو مُكتسي

وٱحرِصْ لتبلغَ فيهِ حظّاً وافراً ... وٱهجُرْ لهُ طِيبَ المنامِ وغَلِّسِ

لِتَعِزَّ حتَّىٰ إنْ حضرتَ لمجلسٍ ... أُكرمتَ فيهِ وكنتَ صدرَ المجلسِ

إنَّ الخليَّ مِنَ العلومِ مقامُهُ ... عندَ النعالِ لهُ صُموتُ الأخرسِ[1]

* * *

=

ويُحمَلُ قولُهُ في كلِّ أُفْقِ ... ومَنْ يَكُ عالماً فهو الإمامُ

وإنَّ طِلابَهُ حقٌّ علىٰ مَنْ ... لهُ عقلٌ وليس به سقامُ

فلولا العلمُ ما سعدتْ نفوسٌ ... ولا عُرِفَ الحلالُ ولا الحرامُ

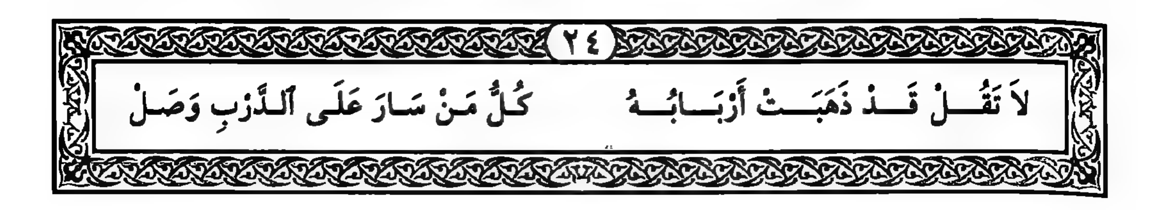
فبالعلمِ النجاةُ مِنَ المخازي ... وبالجهلِ المذلَّةُ والرغامُ

هوَ الهادي الدليلُ إلى المعالي ... ومصباحٌ يضيءُ بهِ الظلامُ

كذاكَ عنِ الرسولِ أتىٰ ، عليهِ ... مِنَ اللهِ التحيةُ والسلامُ

(1) الأبيات عدا البيت الأخير للإمام الشافعي رحمه الله تعالىٰ في « ديوانه » (ص٧٨) .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



أي : لا تقل قد مضت أربابه ـ أي : أصحابه ـ بموتهم وٱنقراضهم ؛ لأنَّ في المثل المشهور : أنَّ كل مَنْ سار على الدرب وصل إلىٰ مطلوبه ، والدَّرْب : المدخل بين الجبلين ، والجمع : دُرُوب ، مثل : فَلْس وفُلُوس ، وليس أصله عربياً ، والعرب تستعمله في معنى الباب ، فيقال لباب السكة : درب ، وللمدخل الضيق : درب ؛ لأنه كالباب في التوصل بكلٍّ ، أفاده في « المصباح » .

وهٰذا البيت جواب عن سؤالٍ مقدَّرٍ ؛ فكأنَّ قائلاً قال للناظم رحمه الله تعالىٰ : كيف يتيسَّرُ الاشتغالُ بالعلم وقدِ ٱنقرض بٱنقراض أهلِهِ وتعذَّر تحصيلُهُ ؟!

فأجابه بقوله : (لا تَقُلْ قد ذهبتْ أربابُهُ) فإنَّه قد جرتْ عادة الله في خلقه علىٰ ممرِّ الأعوام والدهور : أنَّه لا يخلو زمنٌ مِنَ العلماء ؛ إقامةً لشريعته صلى الله عليه وسلم ، وأنه إذا ماتت طائفة . . خلفتها أخرىٰ ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ يُرِدِ اللهُ بهِ خيراً . . يفقِّهْهُ في الدينِ ، وإنَّما أنا القاسمُ واللهُ المعطي ، ولن يزالَ أمرُ هٰذه الأمَّةِ مستقيماً لا يضرُّهم مَنْ خالفَهُم حتَّىٰ يأتيَ أمرُ اللهِ »[1] ، فينبغي الاجتهاد في العلوم ؛ لأنَّ لكلِّ مجتهدٍ نصيباً ، قال صلى الله عليه وسلم : « ٱغْدُ عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محبّاً ، ولا تكن الخامسة فتهلِكَ »[2] ، وهو الذي يكره العلماءَ .

---

(١) أخرجه البخاري (٣١١٦) ، ومسلم (١٠٣٧) .

(٢) أخرجه البزار في « مسنده » (٣٦٢٦) ، والبيهقي في « الشعب » (١٥٨١) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٥١) ، وقال البيهقي : (تفرد به عطاء الخفاف ، وإنما يروىٰ هٰذا عن عبد الله بن مسعود وأبي الدرداء من قولهما) . قال ابن عبد البر : (الخامسة التي فيها الهلاك : معاداة العلماء وبغضهم ، ومن لم يحبَّهم . . فقد أبغضهم أو قارب ذلك ، وفيه الهلاك ، والله أعلم) .

وقال صلى الله عليه وسلم لعليٍّ : « لأن يهديَ اللهُ بكَ رجلاً واحداً خيرٌ لكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَم »[1] .

وقال الشافعيُّ رضي الله تعالىٰ عنه : (مجلسُ فقهٍ خيرٌ مِنْ عبادة ستينَ سنةً) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « العلماءُ ورثةُ الأنبياء » حديث صحيح[2] .

وأمَّا حديث : « علماءُ أمّتي كأنبياءِ بني إسرائيلَ » . . فمتكلَّمٌ فيه[3] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ العالِمَ والمتعلِّمَ إذا مرَّا علىٰ قريةٍ . . فإنَّ الله تعالىٰ يرفعُ العذابَ عن مقبُرة تلكَ القريةِ أربعينَ يوماً »[4] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « فضلُ العالمِ على العابدِ كفضلِ القمرِ علىٰ سائرِ الكواكبِ »[5] .

وقال صلى الله عليه وسلم « فضلُ العالمِ على العابدِ كفضلي علىٰ أمَّتي »[6] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « فضلُ العالمِ على العابدِ كفضلي علىٰ أدناكم ، إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ وملائكتَهُ وأهل السماواتِ والأَرَضِينَ ، حتَّى النملةُ في جُحْرِها وحتَّى الحوتُ . . لَيُصلُّونَ علىٰ معلِّمِ الناسِ الخيرَ » ذكره في « الجامع الصغير »[7] .

وفي « تنبيه الغافلين » في الباب السابع والخمسين ما نصُّهُ : (عن كثير بنِ قيسٍ قال : كنتُ جالساً معَ أبي الدرداء في مسجدِ دمشقَ ، فأتاهُ رجلٌ فقال : يا أبا الدرداء ؛ جئتك مِنَ المدينة في حديثٍ بلغني أنَّك حدثته عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما جئتَ لتجارةٍ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤٢) ، ومسلم (٢٤٠٦) .

(٢) أخرجه أبو داوود (٣٦٤١) ، والترمذي (٢٦٨٢) ، وابن ماجه (٢٢٣) .

(٣) انظر « المقاصد الحسنة » (ص٢٨٦) .

(٤) قال في « المصنوع » (ص٦٥) : (قال الحافظ الجلال ـ يعني : السيوطي رحمه الله ـ : لا أصل له) ، وانظر « كشف الخفاء » (١/ ٢٢١) .

(٥) تقدم تخريجه قبل قليل في حديث : « العلماء ورثة الأنبياء » .

(٦) أخرجه الحارث في « مسنده » كما في « زوائد الهيثمي » (٣٩) ، والرافعي في « التدوين في أخبار قزوين » (٣/ ١١٨) .

(٧) « الجامع الصغير » (٥٨٥٩) ، والحديث أخرجه الترمذي (٢٦٨٥) ، والدارمي في « السنن » (٢٩٧) ، والطبراني في « الكبير » (٨/ ٢٣٣ـ٢٣٤) .

ولا حاجةٍ ، وما جئتَ إلاَّ لهـٰذا ؟ فقال : ما جئتُ إلاَّ لهُ ، قال : أبشر ؛ فإنِّي سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ سَلَكَ طريقاً يطلبُ فيها علماً . . سهَّلَ اللهُ لهُ طريقاً إلى الجنَّةِ ، وإنَّ الملائكةَ لتضعُ أجنحتها لطالبِ العلمِ رضاً بما يصنعُ ، وإنَّ العالمَ يستغفرُ له مَنْ في السماوات ومَنْ في الأرضِ ، والحيتانُ في جوفِ الماءِ »[1] .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أحبَّ أن ينظرَ إلىٰ عُتقاءِ الله مِنَ النار . . فلينظرْ إلى المتعلِّمين ؛ فوالذي نفسُ محمدٍ بيده ؛ ما مِنْ متعلِّم يختلفُ إلىٰ بابِ العالمِ . . إلاَّ كتبَ اللهُ لهُ بكلِّ قَدَمٍ عبادةَ سنةٍ ، وبنىٰ لهُ بكلِّ قَدَمٍ مدينةً في الجنَّةِ ، ويمشي على الأرضِ والأرضُ تستغفرُ لهُ ، ويمسي ويصبحُ مغفوراً لهُ »[2] .

وروي : أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم دخل المسجد ، فرأىٰ مجلسين : أحدُهما يذكرون الله تعالىٰ فيه ، والآخر يتعلمون فيه الفقه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كِلا المجلسينِ علىٰ خيرٍ ، وأحدُهما أفضلُ مِنَ الآخرِ ؛ أمَّا هـٰؤلاء : فيدعونَ اللهَ ويرغبونَ إليهِ ، فإنْ شاءَ . . أعطاهُم ، وإنْ شاءَ . . منعَهُم ، وأمَّا هـٰؤلاء : فيتعلمونَ ويعلِّمونَ الجاهلَ ، وإنَّما بُعِثْتُ معلماً ، فهؤلاءِ أفضلُ » ، ثمَّ جلسَ معهم[3] .

وعن أنس بن مالك : أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « إنَّ باباً مِنَ العلمِ يتعلَّمُهُ الرجلُ خيرٌ لهُ مِنْ أن لو كانَ لهُ أبو قبيسٍ ذهباً فينفقُهُ في سبيلِ اللهِ تعالَىٰ » .

وعن الحسن البصريِّ رضي الله تعالىٰ عنه أنَّه قال : لا أعلم شيئاً أفضلَ مِنَ الجهاد في سبيل الله . . إلاَّ أن يكون طلبَ العلم ؛ فإنَّه أفضلُ مِنَ الجهادِ في سبيلِ الله ، ومَنْ خرج مِن بيته في طلب باب مِنَ العلم . . حفَّته الملائكة بأجنحتها ، وصلَّت عليه الملائكة في جوِّ السماء ، والسباعُ في البرِّ ، والحيتانُ في البحر ، وآتاهُ اللهُ أجرَ اثنينِ وسبعينَ صِدِّيقاً[4] .

---

(١) تقدم تخريجه قبل قليل في حديث : « العلماء ورثة الأنبياء » .

(٢) أخرجه السمرقندي بإسناده في « تنبيه الغافلين » (ص٤٢٧) وانظر «الفتاوى الحديثية» (ص ١٧٣) .

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٢٩) ، والدارمي في « السنن » (٣٦١) ، والطيالسي في « مسنده » (٢٢٥١) .

(٤) أخرجه السمرقندي في « تنبيه الغافلين » بإسناده (ص٤٢٩) .

وعن أبي الدرداء قال : ما لي أرىٰ علماءكم يذهبون وجهالكم لا يتعلمون ؟! تعلَّموا العِلْمَ قبل أن يُرفعَ بموت العلماء[1] .

ويقال : العلماء سُرُجُ الأزمنة ، فكلُّ عالم مصباح زمانه .

وروي عن سالم بن أبي الجعد رضي الله تعالىٰ عنه قال : اشتراني مولايَ بثلاث مئةِ درهمٍ فأعتقني ، فقلت في نفسي : بأيِّ الحرفة أحترفُ ؟ فاخترتُ العِلْم علىٰ كلِّ حرفةٍ ، فلم يمضِ بي كثيرُ مدَّةٍ حتَّىٰ أتاني الخليفة زائراً ، فلم آذن له[2] .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : الناس رجلان : عالم ، ومتعلِّم ، ولا خيرَ فيما سوىٰ ذلك[3] .

ويقال : مَنْ ذهب إلىٰ عالم وجلس عنده ولم يقدر علىٰ حفظ شيء ممَّا قاله . . أعطاه الله سبع كرامات :

أولها : ينال فضل المتعلِّمين .

وثانيها : ما دام عنده جالساً كان محبوساً عن الذنوب والخطايا .

وثالثها : إذا خرج مِن منزله . . نزلت عليه الرحمة .

ورابعها : إذا جلس عنده . . نزلت الرحمة على العالم فتصيبه ببركته .

وخامسها : تكتب له الحسنات ما دام مستمعاً .

وسادسها : تحفُّهمُ الملائكة بأجنحتها وهو فيهم .

وسابعها : كلُّ قَدَمٍ يرفعها ويضعها . . تكون كفارةً للذنوب ، ورفعاً للدرجاتِ ، وزيادةً في الحسنات ، هٰذا لمن لم يحفظ شيئاً ، وأمَّا الذي يحفظ . . فله أضعاف ذلك مضاعفة .

وعن عمر رضي الله تعالىٰ عنه أنَّه قال : إنَّ الرجل ليخرج مِنْ منزله وعليه مِنَ الذنوب مثلُ جبالِ تِهامةَ ، فإذا سمع العِلْمَ . . خاف الله واسترجع مِنْ ذنوبه ، فينصرف إلىٰ منزله وليس

---

(١) أخرجه الدارمي في « السنن » (٢٥١) ، وأحمد في « الزهد » (٧٨٠) .

(٢) ذكره الإمام الغزالي في « الإحياء » (٨/١) .

(٣) أخرجه الدارمي في « السنن » (٢٥٢) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (١٨٨/٦) .

عليه ذنبٌ ، فلا تفارقوا مجالس العلماء ، فإنَّ الله لم يخلق علىٰ وجه الأرض أكرمَ مِنْ مجالسهم .

قال : لو لم يكن لحضور مجلس العلم منفعةٌ سوى النظر إلىٰ وجه العالم. . لكان الواجب على العاقل أن يرغب فيه ، فكيف وقد أقام النبيُّ صلى الله عليه وسلم العلماء مقام نفسه فقال : « مَنْ زارَ عالماً . . فكأنَّما زارني ، ومَنْ صافحَ عالماً . . فكأنَّما صافحني ، ومَنْ جالسَ عالماً . . فكأنَّما جالسني ، ومَنْ جالسني في الدنيا . . أجلسهُ اللهُ تعالىٰ معي يومَ القيامةِ في الجنَّةِ »[1] ؟!

وروى الحسنُ قال : مثل العلماء كمثل النجوم ؛ إذا بدتِ . . ٱهتدوا بها ، وإذا أظلمتْ . . تحيَّروا[2] ، وموتُ العالم ثُلمةٌ في الإسلام ، لا يسدُّها شيءٌ ما ٱختلفتِ الليالي والأيام) اهـ[3]

* * *

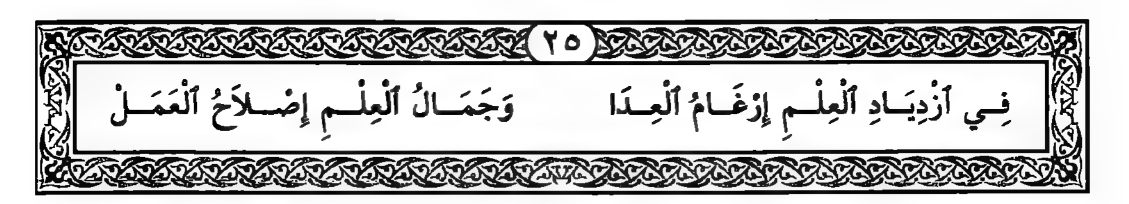
---

(١) الحديث أورده الحافظ الذهبي في « الميزان » (٣/ ٦٨٠) ، والحافظ ابن حجر في « لسان الميزان » (٧/ ٤٣٤) في ترجمة محمد بن غانم الأزرق التنوخي ، وعزاه الكناني في « تنزيه الشريعة » (١/ ٢٧٢) لابن النجار .

(٢) رواه الحسن مرفوعاً كما أخرجه البيهقي في « المدخل » (٣٩٢) ، ورواه موقوفاً علىٰ أبي مسلم الخولاني كما أخرجه البيهقي أيضاً في « المدخل » (٣٩٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/ ١٢٠) .

(٣) « تنبيه الغافلين » (٤٢٦ـ ٤٤٣) .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



أي : في زيادة العلم والإكثار منه إرغام ـ أي : إذلال وإهانة[١] ـ **العِدَا** بكسر العين : جمع عدوٍّ ، ويجمع أيضاً علىٰ : أعداء ، والعدوُّ : خلافُ الصديق ، قاله في « المصباح ».

وإنَّما كانت الزيادة في العلم إرغاماً للأعداء ؛ لأنَّ مَنْ زاد علماً . . بلغ مناه ، وارتفع قدره بين الأنام ، وتكامل فخره عند الخاصِّ والعامِّ ، وطاب عيشه ، وظفر بسعادة الدنيا والآخرة ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « لا خير في عيشٍ إلا لعالمٍ ناطق ، أو مستمعٍ واعٍ »[٢]

وقول الناظم رحمه الله تعالىٰ : (**وجمال العلم**) أي : زينته (**إصلاح العمل**) أي : تحسينه وموافقته للشريعة ، فحينئذٍ يكون عالماً عاملاً ، وهٰذا هو الممدوح ، وما سواه مذموم[٣]

قال في « تنبيه الغافلين » في الباب الثامن والخمسين ما نصُّهُ : (قال أبو الدرداء رضي الله تعالىٰ عنه : لا يكون الرجل عالماً حتىٰ يكون بالعلم عاملاً[٤] .

وعنه أيضاً رضي الله تعالىٰ عنه أنَّه قال : ويلٌ للذي لا يعلم مرَّة ، وويلٌ للذي يعلم ولا يعمل سبع مرَّات[٥] .

---

(١) الرغام : التراب ، وقولهم : رغم أنفه ؛ أي : لصق بالتراب ذلاً وهواناً .

(٢) أخرج البيهقي في « الشعب » (١٦٢٠) عن قتادة رحمه الله تعالىٰ قال : (إن في الحكمة مكتوباً : طوبىٰ لعالم ناطق ، وطوبىٰ لمستمع واع) .

(٣) ولله در القائل : [من البسيط]

اَلعلـمُ بلَّـغَ قـومـاً ذروةَ الشـرفِ	وصـاحـبُ العلـمِ محفـوظٌ مِـنَ الخَـرَفِ
يـا صـاحـبَ العلـمِ مهـلاً لا تُـدنِّسَـهُ	بـالمـوبقـاتِ فمـا للعلـمِ مِـنْ خلـفِ

(٤) أخرجه السمرقندي بإسناده في « تنبيه الغافلين » (ص٤٣٣) ، والخطيب في « اقتضاء العلم العمل » (١٦ ، ١٧) .

(٥) أخرجه أحمد في « الزهد » (٧٦٤) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٢١٢) ، والخطيب في « اقتضاء العلم العمل » (٦٧) .

وعن سيِّدنا عيسى ابن مريم علىٰ نبيِّنا وعليه الصلاة والسلام أنَّه قال : مَنْ عَلِمَ وعمل وعَلَّم . . فذلك الذي يُدعىٰ في ملكوت السماوات عظيماً[1] .

وعن عليِّ بن أبي طالب كرَّم الله وجهه أنَّه قال : إذا لم يعملِ العالمُ بعلمه . . ٱستنكفَ الجاهلُ أن يتعلَّمَ منه وإنْ جمع العلمَ كلَّه .

وقال سفيان بن عُيينة : مَنْ عمل بما علم . . فهو العالم ، ومَنْ ترك العمل بما علم . . فهو الجاهل[2] .

وذكر في الخبر : « أنَّ الملائكة يتعجبون مِنْ ثلاثة : مِنْ عالم فاسق يحدِّث الناس بما لا يعمل ، ومِنْ قبر الفاجر يُبنىٰ بالجَصِّ والآجرِّ ، ومِنَ النقش علىٰ قبر الفاجر » .

ويقال : أشدُّ الحسرات يوم القيامة ثلاثة : رجل له مملوك صالح يدخل الجنة ومولاه يدخل النار ، ورجل جمع مالاً حلالاً فمنع منه حقوق الله تعالىٰ ومات فأنفقه ورثته في الطاعة ، فينجون به والذي جمعه في النار ، ورجل عالم غير عامل ينجو الناس بعلمه وهو يصير إلى النار .

وروي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه سُئِل : أيُّ الناس أشرُّ ؟ فقال : « العالمُ إذا فسدَ »[3] .

وروي عن بِشْر بن الحارث : أنَّه كان يقول لأصحاب الحديث : أدُّوا زكاة هٰذه الأحاديث ، قالوا : كيف نُؤدِّي زكاتها ؟ قال : أن تعملوا مِنْ كلِّ مئتي حديثٍ بخمسةِ أحاديثَ[4] .

وروي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « مَنْ تعلَّم العلم لأربعٍ . . دخل النار : ليُباهي بِهِ العلماءَ ، أو يُماريَ بِهِ السفهاءَ ، أو يُقبلَ بِهِ وجوهَ الناسِ إليه ، أو يَأخذَ بِهِ الأموالَ مِنَ الأمراءِ »[5] .

---

(١) أخرجه أحمد في « الزهد » (٣٣٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١٦٦٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/٩٣) .

(٢) أخرجه بنحوه الخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي » (٣٨) .

(٣) أخرجه بنحوه الدارمي في « السنن » (٣٨٢) ، والطبراني في « مسند الشاميين » (٤٤٧) .

(٤) انظر « مقدمة علوم الحديث » (ص٤٢٩) .

(٥) أخرجه بنحوه ابن حبان (٧٧) ، والحاكم في « المستدرك » (١/٨٦) ، وأخرجه بلفظه موقوفاً علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الدارمي في « السنن » (٣٧٩) .

وقال الفضيل بن عياض : إذا كان العالم راغباً في الدنيا حريصاً عليها . . فإنَّ مجالسته تزيد الجاهل جهلاً والفاجر فجوراً ، وتقسي قلب المؤمن .

وعن أنس بن مالك رضي الله تعالىٰ عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العلماءُ أمناءُ الرسلِ علىٰ عباد الله تعالىٰ ما لم يخالطوا السلطانَ ، ولم يدخلوا في الدنيا ، فإذا دخلوا في الدنيا . . فقدْ خانوا الرسلَ ، فٱعتزلوهم وٱحذروهم علىٰ دينكم »[1]) اهـ[2]

قيل لإبراهيم بن عُيينة : أيُّ الناسِ أطولُ ندامةً ؟ قال : (أمَّا في الدنيا . . فصانعُ المعروف إلىٰ مَنْ يُنْكِرُهُ ، وأمَّا في الآخرة . . فعالمٌ مُفرِّطٌ) اهـ

فعلم مِنْ هٰذا : أنَّ جميع ما ذكر في فضل العلم واردٌ في شأن العلم النافع ، وهو الذي يعمل به صاحبه ، وغيرُهُ مذمومٌ .

فائدة

[في بيان جملة من الأخلاق ينبغي للعالم أن يتحلىٰ بها]

ينبغي للعالم أن يعرفَ نعمة الله عليه التي لا تحصىٰ ، وأن يتخلَّق بالمحاسن الشريفة التي ورد الشرع بها ؛ من الزهدِ في الدنيا ، وعدم المبالاة بها وبأهلها ، والسخاءِ والجودِ والكرمِ ، ومكارمِ الأخلاق ، وطلاقةِ الوجهِ مِنْ غير خروج إلىٰ حدِّ الخَلاعة ، والتواضعِ ، وٱجتنابِ الضحك والإكثار في المزاح ، وملازمةِ الوظائف الشرعية ؛ كالتنظيف بإزالة الأوساخ والشعور التي ورد الشرع بإزالتها ؛ كقصِّ الشارب ، وتقليم الأظافر ، وتسريحِ اللحية ، ونتفِ الإبْط ، وحلقِ العانة ، وإزالةِ الروائح الكريهة والملابس المكروهة ، وأن يطهِّرَ باطنه مِنَ الأنجاس المعنوية ؛ كالحسد والكِبْر ، والرِّياء والعُجْب ، وٱحتقار غيره وإن كان دونه ، وينبغي أن يترفَّقَ بمَنْ يقرأ عليه ، ويعظمه ، ويحسن إليه بحسب حاله ؛ فقد روى الترمذي وابن ماجه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « إنَّ الناس لكم تَبَعٌ ، وإنَّ

---

(١) أخرجه الديلمي في « الفردوس » (٤٢١٠) ، والقزويني في « التدوين » (٢/٤٤٥) ، والسمرقندي في « تنبيه الغافلين » (ص٤٣٣) ، وابن الجوزي في « الموضوعات » (١/١٩٢) ، وقد تعقبه السيوطي في « اللآلىء المصنوعة » (١/٢١٩) ، فعزاه للحسن بن سفيان في « مسنده » ، والعقيلي في « الضعفاء » ، وحسنه بشواهده ، وانظر « تنزيه الشريعة » (١/٢٦٧) .

(٢) « تنبيه الغافلين » (ص٤٣٣ـ٤٣٧) .

رجالاً يأتونكم مِنْ أقطارِ الأرض ليتفقَّهوا في الدينِ، فإذا أَتَوكم. . فٱستوصوا بهم خيراً »[1]، والخطاب في قوله : (يأتونكم) للعلماء مِنْ أصحابه ، والمراد منه العموم .

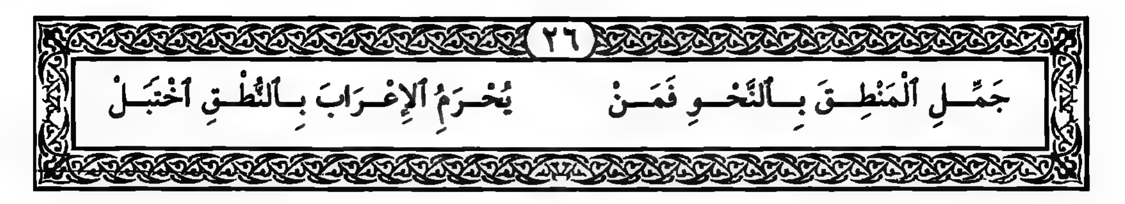
وينبغي أن يَبذُل لهمُ النصيحةَ ؛ بأن يكون محرِّضاً لهم على التعلم ومؤلِّفاً لقلوبهم ، وأن يذكِّرهم فضيلة العلم ؛ ليكون سبباً لنشاطهم ، وزيادةً في رغبتهم في الخير ، وأن يجعل المتعلِّمينَ كأولاده في الشفقة عليهم ، والاهتمام بمصالحهم ، والصبر على جفائهم وسوء أدبهم ، وأن يسامحهم في قلَّة أدبهم في بعض الأحيان ؛ فإنَّ الإنسان معرَّض للنقصان ، لا سيَّما إذا كان صغير السنِّ ، وهـٰذا بابٌ واسعٌ جداً ، وفيما ذكرناه كفاية لأولي الألباب[2] .

* * *

(١) « سنن الترمذي » (٢٦٥٠) ، و« سنن ابن ماجه » (٢٤٩) .

(٢) للاستزادة يمكن الرجوع إلىٰ كتاب « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



أي : زيِّن وحسِّنِ المنطقَ ـ أي : النطق والكلام ـ بالنحو ، فمَنْ يُحرمِ الإعراب ؛ أي : التبيين والإيضاح ؛ بمعرفة الفاعل والمفعول وغير ذلك . . آختبل في النطق ؛ أي : تحيَّر في كلامه ولم يدرِ الصواب مِنَ الخطأ .

و(مَنْ) في النظم : يحتمل أن تكون موصولة فما بعدها مرفوع ، أو شرطية فما بعدها مجزوم ، وحرِّك بالكسر لالتقاء الساكنين .

وعُلم مِنَ النظم : أنَّ النحوَ جمالُ الألسنة وكمال العلماء ، وبه تُعرف معاني الكتاب والسنَّةِ النبويَّة ، وبه يُخاطبُ اللهُ عبادَه في الجنَّة ، ولهـٰذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحبّ العرب لثلاث : لأنّي عربيٌّ ، والقرآنُ عربيٌّ ، ولسانُ أهلِ الجنَّةِ في الجنَّةِ عربيٌّ »[1] ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تعلَّموا العربيةَ وعلِّموها الناسَ ؛ فإنَّها لسانُ اللهِ الذي يخاطبُ به عبادَهُ يومَ القيامةِ »[2] اهـ

والنحو : هو علمٌ بأصول مستنبطةٍ مِنِ آستقراء كلام العرب يعرف بها أحوالُ أواخر الكلم إعراباً وبناءً .

وموضوعه : الكلمات العربية مِنْ حيثُ إنَّه يبحث فيها عنِ الإعراب والبناء .

وفائدته : معرفةُ صواب الكلام مِنْ خطئه .

وغايته : الاستعانة علىٰ فهم كلام الله ورسوله ، والاحتراز عنِ الخطإِ في الكلام .

وجاء النحو في اللغة لمعانٍ خمسةٍ :

---

(١) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٨٧/٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٣٦٤) ، وانظر « تنزيه الشريعة » (٣٠/٢) .

(٢) روي قسمه الأول موقوفاً علىٰ سيدنا عمر رضي الله عنه عند البيهقي في « السنن » (١٨/٢) ، والخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي » (١٠٧٤) .

أحدُها : القصد ؛ يقال : نحوت نحوك ؛ أي : قصدت قصدك .

ثانيها : المِثْل ؛ يقال : مررتُ برجلٍ نحوك ؛ أي : مِثْلكَ .

ثالثها : الجهة ؛ يقال : توجَّهتُ نحوَ البيتِ ؛ أي : جهتَه .

رابعها : المقدار ؛ يقال : له عندي نحوُ ألفٍ ؛ أي : مقدار ألف .

خامسها : القِسْم ؛ نحو : هـٰذا علىٰ أربعة أنحاء ؛ أي : أقسام ، وقد جمع ذلك بعضهم في قوله : [من الوافر]

نَحَوْنا نَحْوَ دارِكَ يا حبيبي ... وجدنا نحوَ ألفٍ مِنْ رقيبِ

وجدناهمْ عواةً نحوَ كلبٍ ... تمنَّوا منكَ نحواً مِنْ شريبِ

وسبب تسمية هـٰذا العلم بالنحو : ما قيل : إنَّ أبا الأسود الدِّيْلي ـ بكسر الدال المهملة وسكون المثناة التحتية ، كما ضبطه سيِّدي يوسف الحفني في « حواشي الأشموني » ـ قال : دخلت يوماً علىٰ أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، فرأيته مطرقاً مفكِّراً ، فقلت : فيم تفكِّرُ يا أمير المؤمنين ؟ قال : إنِّي سمعتُ بهـٰذا البلد لَحْناً ، فأردتُ أن أصنع كتاباً في أصل العربية ، فقلت له : إن فعلتَ هـٰذا يا أمير المؤمنين . . أحييتَنا ، وبقيتْ فينا هـٰذه اللغة ، ثمَّ أتيته بعد ثلاث ، فألقىٰ إليَّ صحيفةً فيها : بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، الكلام كله : اسم وفعل وحرف ، فالاسم : ما أنبأ عنِ المسمَّىٰ ، والفعل : ما أنبأ عن حركة المسمَّىٰ ، والحرف : ما أنبأ عن معنىً ليس باسمٍ ولا فعلٍ ، والفاعل مرفوع وما سواه فرع عليه ، والمفعول منصوب وما سواه فرع عليه ، والمضاف إليه مجرور وما سواه فرع عليه ، وقال : انْحُ لهم هـٰذا النحو يا أبا الأسود ، واعلم يا أبا الأسود أنَّ الأشياء ثلاثة : ظاهرٌ ، ومضمرٌ ، وشيءٌ ليس بظاهرٍ ولا مضمر ، وإنَّما تتفاضلُ العلماءُ في معرفة ما ليس بظاهر ولا مضمر ، قال أبو الأسود : فجمعتُ منه أشياءَ وعرضتُها عليه ، فكان من ذلك حروف النصب ، فذكرتُ منها : إنَّ وأنَّ وليت ولعلَّ وكأنَّ ، ولم أذكر لكن ، فقال لي : لِمَ تركتها ؟ فقلتُ : لم أحسبها منها ، فقال : بل هي منها ، فزدتُها . ذكره الإمام السيوطيُّ في « تاريخ الخلفاء »[1] .

---

(١) انظر « تاريخ الخلفاء » (ص٢١٤) ، والخبر أخرجه أبو القاسم الزجاجي في « الأمالي » (ص٢٣٨ـ ٢٣٩) .

ولله درُّ القائل : [من البسيط]

أَلنَّحْــوُ قَنْطَــرَةُ الآدابِ هَــلْ أَحَــدٌ ... يُجــاوِزُ البَحْــرَ إلاَّ بِــالقنــاطِيــرِ

لَوْ تَعْلَمُ الطيرُ ما في النحوِ مِنْ أَدَبِ ... حَنَّــتْ وَأَنَّــتْ إليــهِ بــالمنــاقيــرِ

إِنَّ الكــلامَ بــلا نحــوٍ يُمــاثِلُــهُ ... نَبْــحُ الكــلابِ وأصــواتُ الـزنــابيـرِ

وقال بعضهم : [من الرمل]

قَــدِّمِ النَّحــوَ علــى الفِقْــهِ فقــدْ ... يبلُــغُ النحــويُّ بــالنَّحــوِ الشَّــرَفْ

مــا تــرى النَّحــويَّ فــي مجلسِــهِ ... كَهِــلالٍ بــانَ مِــنْ تحــتِ الشَّغَــفْ

يُخــرِجُ الألفــاظَ مِــنْ فِيــهِ كَمَــا ... يُخرَجُ الجوهرُ مِنْ بطنِ الصَّدَفْ[1]

* * *

(١) ولإسحاق بن خلف البهراني ، كما ذكر المبرد في « الكامل » (٢/٥٣٦) ، وغيره : [من الكامل]

ألنحــوُ يصلــحُ مِــنْ لســانِ الألْكَــنِ ... والمــرءُ نكــرِمُــهُ إذا لــم يَلحَــنِ

والنحــوُ مثــلُ الملــحِ إنْ ألقيتَــهُ ... فــي كــلِّ ضــدٍّ مِــنْ طعــامِــكَ يَحْسُــنِ

وإذا طلبــتَ مِــنَ العلــومِ أجلَّهــا ... فــأَجَلُّهــا نفعــاً مقيــمُ الألســنِ

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :

٢٧

وَٱنْظِمِ ٱلشِّعْرَ وَلاَزِمْ مَذْهَبِي ... فَٱطِّرَاحُ ٱلرِّفْدِ فِي ٱلدُّنْيَا أَقَلْ

اِنظِم : بكسر أوّله وثالثه ، مِن باب ضرب .

والشِّعر ـ بكسر الشين المعجمة ـ منصوب على المفعولية ؛ وهو النظم الموزون ، وتعريفه ـ أي : النظم الموزون ـ : ما تركب تركيباً متعاضداً وكان مقفىً موزوناً مقصوداً به ذلك ، فما خلا مِنْ هٰذه القيود أو مِنْ بعضها . . فلا يسمىٰ شعراً ، ولا يسمىٰ قائله شاعراً ، ولهٰذا ما ورد في الكتاب العزيز والسنة النبوية موزوناً . . فليس بشعرٍ ؛ لعدم القصد والتقفية ، وكذلك ما يجري علىٰ ألسنة بعض الناس مِن غير قصدٍ ؛ لأنَّه ـ أي : الشعر ـ مأخوذٌ مِنْ شَعَرْتُ : إذا فَطِنْتُ وعلمتُ ، وسمي شاعراً ؛ لفطنته وعلمه به ، فإذا لم يقصده . . فكأنَّه لم يشعر به . اهـ « مصباح »

وقوله : (ولازمْ مذهبي) أي : وتعلَّق بطريقتي وقصدي في الشعر ؛ مِنْ كوني لا أنظِمُ إلا نظماً جائزاً ؛ كنظمي « البهجة » في الفقه ، وكهٰذه القصيدة ، وأشباههما .

والذي تلخَّصَ مِنْ كلام العلماء : أنَّ الشعر الجائز : هو الذي خلا عن هَجْوٍ ، وعنِ الكثرة في المدح ، وخلا عنِ الكذب ، وخلا عنِ التغزُّلِ بمعيَّنٍ ، وقد نقل ابنُ عبد البرِّ الإجماعَ علىٰ جوازه إذا كان كذلك[١] . ذكره العلامة العلقميُّ علىٰ « الجامع الصغير » .

وقوله : (فاطِّراحُ الرِّفْد) أي : فطرح الرفد وإلقاؤه ورميه في الدنيا . . أقل ، والرفد ـ بكسر الراء ـ : العطيَّة والإعانة ، كما يستفاد مِن « المصباح » .

والمعنىٰ : فإلقاء العطيَّة في الدنيا قليل ، والأكثر أخذها وقبولها ، ومِنْ جملة العطايا : نظم الشعر[٢] .

* * *

---

(١) انظر : « التمهيد » (٢٢/١٩٤) .

(٢) أي : أنظم الشعر ولازم مذهبي في نظمه نظماً فريداً مفيداً جائزاً ، يستدعي المدح ويرفع المذمة ، خالٍ عما يشينه ؛ من =

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



أي : فالشعر عُنوان ، بضم العين وكسرها ، وعِنوان كلِّ شيءٍ : ما يستدلُّ به عليه ؛ أي : فهو دليلٌ على الفضل الذي هو الزيادة في الشيء ، فمَنْ أهَّله الله تعالىٰ للنظم . ٱستدل به علىٰ فضيلته وعلمه .

ولله درُّ القائل : [من الخفيف]

لا جَزَى اللهُ دَمْعَ عينيَ خيراً فلقدْ باحَ ما خفاهُ لساني
كنتُ مِنْ قبلِ ذا كَطَيِّ كِتابٍ فاستدلُّوا عليَّ بالعُنوانِ[1]

وقوله : (وما أحسنَ الشعرَ إذا لم يبتذلْ) أي : إذا لم يُمتهن ؛ كالمبالغة في المدح بغير أصل ، وفي الذم كذلك ، قال في « المصباح » : (بذلت الشيء بذلاً : ٱمتهنته وٱنتقصته) اهـ

و(ما) : اسم تعجب في موضع رفع على الابتداء ، وهي نكرةٌ تامَّةٌ عند سيبويه ، وسوَّغ الابتداءَ بها : ما فيها مِنْ معنى التعجُّب .

= نحو فحش وخنا ، وإغراقٍ في مدحٍ وهجوٍ ، وتغزُّلٍ وتشبيب بمعين وغير ذلك مما يبعث على الإكرام والجزاء ، والنوال والإعطاء من نحوِ ممدوحٍ مثلاً ، فإنَّ مَن ينظم الشعر مترفِّعاً عن ذلك ، من غير باعثٍ ولا داعٍ إلىٰ نحو إكرام. . قليلٌ في هٰذه الدنيا ؛ فلتكن من هٰذا القليل ، ولا تكن ممَّن هجر الشعر لفقد دواعيه ، فكسد سوقه ، ونضب ماؤه ، فتمثَّل بقول ابن المعتز : [من الكامل]

قالوا : هجرتَ الشعرَ ؟ قلتُ : ضرورةً بابُ الدواعي والبواعثِ مُغلقُ
خلتِ الديارُ فلا كريمٌ يُرتجى منه النوالُ ولا مليحٌ يُعشَقُ
ومِنَ العجائبِ أنَّه لا يشترى ومعَ الكسادِ يُخانُ فيهِ ويُسرَقُ

(١) البيتان مما اشتهر للعباس بن الأحنف كما في « الأغاني » (٣٦٨/٨) وغيره .

و(أحسن) : فعلٌ ماض على الأصحِّ[1] ، وفيه ضمير مستتر يعود إلىٰ (ما) مرفوع على الفاعلية .

و(الشعر) : مفعول به لـ(أحسن) ، وجملة (أحسن الشعر) : في موضع رفع خبر (ما) التعجبية . اهـ

والمقرَّر عند الشعراء : أنَّه أرفع الفنون قدراً ، وأكملها فخراً ، وكفاه شرفاً ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ مِنَ الشعرِ لَحِكمةً »[2] .

ولله درُّ الملاح حيث قال في « تخميسه » :

كُـلُّ مَـنْ فِـي ٱلشِّعْـرِ حَقّـاً نَظَمَـا ... زَادَهُ بَيْـنَ ٱلْبَـرَايَـا عِظَمَـا

وَأَجَلَّتْـهُ جَمِيـعُ ٱلْعُظَمَـا ... فَهْـوَ عِنْـوَانٌ عَلَـى ٱلْفَضْـلِ وَمَـا

أَحْسَـنَ ٱلشِّعْـرَ إِذَا لَـمْ يُبْتَـذَلْ[3]

ولا يقدح فيه ما ورد في ذمِّه وذمِّ الشعراء ، قال تعالىٰ : ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ ؛ لأنَّ ذلك ورد في شعراء الجاهلية الذين كانوا يتفاخرون في مراسلاتهم ومحاوراتهم وقتالهم ؛ كامرىء القيس ، وطرفة بن العبد ، وعنترة العبسي ، وأشباههم مِنْ شعراء الجاهلية المشهورين ؛ بدليل ما وقع مِنَ الاستثناء في الآية بعدها[4] بقوله : ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ الآية ، والمراد بهم : شعراء الإسلام ؛ كحسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، ونحوهما .

---

(١) وهو قول البصريين ، وقال الكوفيون : إنه اسم ، وانظر « الإنصاف في مسائل الخلاف » (١٢٨/١) .

(٢) أخرجه البخاري (٦١٤٥) ، وابن حبان (٥٧٧٨) ، وابن ماجه (٣٧٥٥) .
ثم ليس لكل أحد أن يتصدىٰ للشعر ، بل من يصلح له ؛ ممن أعطاه الله ملكة شعرية ، وفصاحة بيانية ، وثروة لغوية ، ولهـٰذا قال ابن الوردي في « ديوانه » (ص٣٩٥) : [من الوافر]

إذا أحببـت نظـم الشعـر فـاختـر ... لنظمـك كـل سهـل ذي امتنـاع

ولا تكثـر مجـانسـةً ومكّـن ... قـوافيـه وكِلْـه إلـى الطبـاع

(٣) « تخميس الملاح » (ص٧) .

(٤) في الأصل : (في الآية نفسها) .

وأمَّا قول الإمام الشافعيِّ رضي الله تعالىٰ عنه : [من الوافر]

ولـــولا الشِّعْـــرُ بـــالعُلَمـــاءِ يُـــزْرِي لَكُنْـــتُ اليـــومَ أَشْعَـــرَ مِـــنْ لَبِيـــدِ[1]

فالجواب عنه : أنَّ أهلَ العصر الأوَّل خصوصاً الإمامَ الشافعيَّ رضي الله تعالىٰ عنه . . كانوا لا يشتغلون بالشعر ؛ لاشتغالهم بما هو أهمُّ منه ؛ كالاجتهاد ، وتقرير الأصول والفروع ، وتدوين الكتب ، ونحو ذلك ، ومِنْ عادة الناس أنَّهم يُقدِّمون الأهم فالمهم[2] ، وكانوا يرون أنَّ الاشتغال بالشعر بالنسبة إلىٰ ما هُم فيه ٱنتقاصٌ[3] .

وأمَّا قول القائل : [من الكامل]

لا تَحسبـــنَّ الشعـــرَ علمـــاً نـــافعـــاً مـــا الشعـــرُ إلاَّ محنـــةٌ وخبـــالُ

فـــالهَجْـــوُ قَـــذْفٌ والـــرِّثـــاءُ نِيـــاحـــةٌ والعَتْـــبُ ذلٌّ والمـــديـــحُ ســـؤالُ

فالجواب عنه : أنَّ الذي تقرَّر عند العلماء : أنَّ الشعر مِنَ العلوم الكاملة الجامعة النافعة ، والمثبِتُ مقدَّم على النافي ، ولا يقدح ذمُّ فردٍ مِنْ أفراد العالم ؛ فإنَّ ذلك نادر ، والنادر لا حكم له .

* * *

---

(1) البيت في « ديوان الإمام الشافعي » (ص٥٦) ، وأسنده البيهقي في « مناقب الشافعي » (٦٢/٢) .

(2) في الأصل : (فالأهم) .

(3) ولله درُّ ابن الوردي حيث قال في « ديوانه » (ص٣٨٤) : [من الوافر]

ومـــا أَنَـــا شـــاعـــرٌ حـــاشـــا علـــومـــي ولســـتُ أرى التَّكَسُّـــبَ بـــٱمتـــداحِـــي

فَلِـــي مِـــنْ نعمـــةِ الـــرحمٰـــنِ مـــالٌ يصـــونُ عـــن ٱحتيـــاجٍ وٱجتيـــاحِ

ولـــم أقصـــدْ بمـــدحـــك غيـــرَ ودٍّ أروضُ بـــهِ الـــزمـــانَ عـــنِ الجمـــاحِ

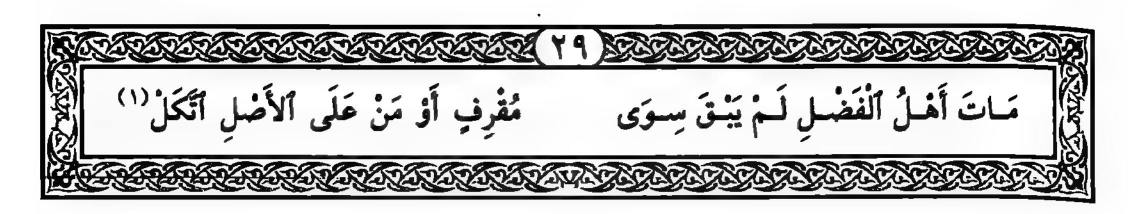
لِأُعْلِـــمَ أنَّ فـــي الـــدنيـــا وفيّـــاً فـــأسلـــو عـــن نُـــواحـــي فـــي النـــواحـــي

ولـــولا الشعـــرُ بـــالعلمـــاءِ يُـــزْري لأتعبـــتُ القـــرائـــحَ بـــٱقتـــراحـــي

أرىٰ فـــي العلـــمِ عنـــهُ ٱلـــفَ لاحٍ يُنـــادينـــي بِحَـــيٍّ علـــى الفـــلاحِ

وكنـــتُ أطـــا علـــى الشِّعْـــرَىٰ بِشِعْـــرِي وأُطْفِـــي الشُّهْـــبَ مِـــنْ شَـــرَرِ ٱقتـــداحـــي

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



٢٩

مَـاتَ أَهْـلُ ٱلْفَضْـلِ لَـمْ يَبْـقَ سِـوَى مُقْرِفٍ أَوْ مَنْ عَلَى ٱلأَصْلِ ٱتَّكَلْ [١]

أي : مات أهل الفضل والعلم والشرف ، ولم يبقَ بعدهم إلا مُقرف ، أي : لاعب أو رذيل ، وإلاَّ الذي يتَّكِلُ علىٰ فضل أصوله وشرفهم ، فـ(مقرف) في كلام الناظم : يحتمل أن يكون بـ(قافين) بينهما (راء) مهملة بمعنىٰ : لاعب ، قال في « المصباح » : (قَرِق الرجل قَرَقاً من باب تعب : لعب ، والاسم : القِرْق ، وزن حِمْل) اهـ ، ويحتمل أن يكون بـ(فاء) بدل (القاف) الأخيرة ، بمعنىٰ : رذيل ، وهو الأقرب ، بل هو المتعيَّن ، قال الشاعر : [من الرمل]

كَـمْ يَجُـودُ مُقْـرِفٌ نَـالَ ٱلْعُـلاَ وَكَـرِيـمٌ بُخْلُـهُ قَـدْ وَضَعَـهْ [٢]

ذكره في « الأشموني » ، قال في « حواشيه » : (قوله : « مقرف » أي : دنيء الأصل) [٣] .

فقدْ جرتْ عادةُ الله تعالىٰ في خلقه قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل : أن يموتَ الأمثلُ فالأمثل ، والأكمل فالأكمل ، حتَّىٰ لا يبقىٰ إلاَّ أراذلُ الناس وأسافلهم ، كما ورد في الحديث : « كُلُّكُم تَمُوتُونَ وإِنَّما يُعَجَّلُ بِخِيارِكُم » .

ومعنىٰ كلام الناظم رحمه الله تعالىٰ : أنَّه تموت الأشراف والأكابر حتَّىٰ لا يبقىٰ إلاَّ مقرفٌ في معاشرته ومصاحبته ووداده ومخالطته ، أو مَنْ يَعتمدُ علىٰ آبائِهِ وأجداده الماضين ؛ بأن يقول : يكفيني أنَّ أبي الشيخُ فلانُ بنُ فلانٍ العناني أو الرفاعي أو البكري ، أو أنا منسوبٌ إلى الحسن بن عليٍّ رضي الله تعالىٰ عنهما ، أو إلى الحسين بن عليٍّ رضي الله تعالىٰ عنهما ، أو

---

(١) ويروىٰ : (مات أهل الجود) .

(٢) البيت لأنس بن أبي أناس بن زنيم رضي الله عنه كما في « الأغاني » (٨/ ٤٠٢) ، و« خزانة الأدب » (٦/ ٤٧٣) .

(٣) « شرح الأشموني » بـ« حاشية الصبان » (٤/ ٨٢) .

إلى الوليِّ الفلانيِّ ، فيتَّكِلُ على أصوله الماضين ولم يدرِ أنَّ « مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ . . لمْ يُسرِعْ بِهِ نَسَبُهُ »[1] ، ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ .

وحاصله : أنَّه كلَّما قَرُب الزمان مِنَ الساعة . . ٱنقرض الأخيار ، ولم يبقَ إلاَّ الأشرار ، وٱنقطع النفع مِنْ غالب المسلمين .

وما أحسن ما قيل : [من الكامل]

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقَى الَّذِينَ حَيَاتُهُمْ لاَ تَنْفَعُ[2]

ولله درّ الملاح حيث قال في « تخميسه » :

قَدْ مَضَى ٱلنَّاسُ فَفِي ٱلْقَلْبِ ٱلْجَوَىٰ وَغَدَا مَنْ كَانَ لِلْفَضْلِ حَوَىٰ

هَلْ تَرَى ٱلْيَوْمَ لِدَاءٍ مِنْ دَوَا مَاتَ أَهْلُ ٱلْفَضْلِ لَمْ يَبْقَ سِوَى

مُقْرِفٍ أَوْ مَنْ عَلَى ٱلأَصْلِ ٱتَّكَلْ[3]

* * *

(1) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) ، وأبو داوود (٣٦٤٣) ، والترمذي (٢٩٤٥) ، وابن ماجه (٢٢٥) .

(2) البيت يروى لعبد الله بن عروة بن الزبير كما في « ربيع الأبرار » (١/ ٥٩١) و(بقى) بالألف لغةٌ بلحارث بن كعب .

(3) تخميس الملاح (ص ٧)

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :

٣٠

أَنَـــا لاَ أَخْتَـــارُ تَقْبِيـــلَ يَـــدِ قَطْعُهَــا أَجْمَــلُ مِــنْ تِلْــكَ ٱلْقُبَــلْ

أي : أنا لا أختار ولا أحبُّ تقبيل يدٍ مِنْ شخص موصوف بصفات قبيحة ؛ مِن كفر وفسق وسرقة وغيرها ، قطعُ تلك اليد أجمل وأحسن مِنْ تلك القُبَل ، بضم القاف وفتح الموحدة ، جمع : قبلة ، قال في « المصباح » : (القُبْلة : ٱسمٌ مِنْ قبَّلتُ الولدَ تقبيلاً ، والجمع : قُبَل ، مثل : غُرْفة وغُرَف) اهـ

فالناظم ـ رحمه الله تعالىٰ ـ ٱختار عدم تقبيل يد الشخص الموصوف بصفات قبيحة مطلقاً ولو كان له عنده حاجة ولو خاف الضرر منه والأذىٰ ، وهٰذا ممَّا يدلُّ علىٰ توكُّله علىٰ ربِّه ، وٱنقطاعه له تعالىٰ ، وترك المخلوقات جميعاً ، رضي الله تعالىٰ عنه .

وأما أيدي الصلحاء والعلماء والأمراء العادلين : فيستحبُّ تقبيل أيدي العلماء وأهل الفضل ، وٱلتماس دعواتهم الصالحة ، ونحو ذلك[1] ، ويستحبُّ القيام لهم أيضاً ؛ لأنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قام لسعد بن معاذ الأنصاريِّ لمَّا رآه مقبلاً وقال لأصحابه : « قوموا لسيِّدكم »[2] ، فقاموا له .

وأمَّا القيام للظلمة ونحوهم وتقبيل أيديهم والتواضع لهم ونحو ذلك . . فيُفَصَّلُ فيه ؛ فإن خاف علىٰ نفسه ضرراً أو إتلاف مال ونحوه . . فلا بأس به ، بل قد يجب إذا تحقَّق ما ذُكِر ، وإلا . . فلا يجوز .

---

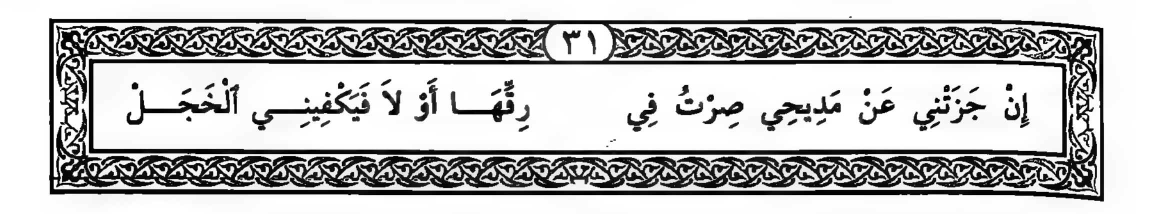
(١) للشيخ عبد الله محمد الصديق الغماري جزء سماه : « إعلام النبيل بجواز التقبيل » حشد فيه الأحاديث الدالة علىٰ جواز التقبيل وفصل فيها ، فانظره ، وانظر « المجموع » (٤/٥١٥) .

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٤٣) ، ومسلم (١٧٦٨) ، وليس فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قام ، وإنما أمر الصحابة بالقيام ، مع أنه ورد قيام النبي صلى الله عليه وسلم لبعض الصحابة في غير حديث ؛ كحديث قيامه لعكرمة رضي الله عنه عند مالك في « الموطأ » (٢/٥٤٥) ، وقد جمع الإمام النووي رحمه الله تعالىٰ جزءاً في جواز القيام ، وسماه : « الترخيص بالقيام لذوي الفضل والمزية من أهل الإسلام » ، والخلاصة في الأمر : أنَّ القيام لأهل الفضل علىٰ سبيل الإكرام والبِرِّ مستحب ، وعلىٰ سبيل التعظيم مكروه ، وانظر « فتح الباري » (١١/٤٩) .

وأمّا ما ٱرتكبه أمراء زماننا مِنَ البلاء الأعظم والداهية الكبرىٰ مِنْ تولية اليهود والنصارىٰ أمورَ المسلمين في قبض أموالهم ، وٱحتكار أرزاقهم ومعايشهم ، وٱحتياج الحال إلىٰ تعظيمهم ومراعاتهم وتقبيل أيديهم والقيام لهم . . فينبغي أن يجريَ فيه التفصيل المتقدِّم ، هـٰذا ما ٱختاره النوويُّ تبعاً لغيره مِنَ المحقِّقين ، وهو اللائق خصوصاً بزماننا هـٰذا ، نسأله سبحانه وتعالى التسليم لقضائه وقدره .

* * *

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



٣١

إِنْ جَزَتْنِي عَنْ مَدِيحِي صِرْتُ فِي ... رِقِّهَـا أَوْ لاَ فَيَكْفِينِـي ٱلْخَجَـلْ

هـٰذا البيت بيان للسبب الحامل له رحمه الله تعالىٰ علىٰ عدم التقبيل ، فهو جواب عن سؤال ، وفي الأمثال السائرة : (يدٌ لم تَنفع أحقُّ أن تُقطع) .

ومعنى البيت : إن جزتني عن مديحي ؛ أي : إن قضت لي حاجتي التي أنا طالبها ، أو أعطتني شيئاً مِنَ الدنيا في مقابلة مديحي ؛ أي : مدحي لها الذي منه تقبيلي لها . . صرت في رِقِّها ، أو لا ؛ أي : وإن لم تجزني فضلاً عن طردها لي . . فيكفيني الخجل مِنَ الناس ومِنَ الله أيضاً ؛ لأنِّي قبَّلتُ يدَ ذلك الشخص الفاسق لأجل قضاء حاجتي منه ولم يقضها لي .

و(**الخجل**) بفتحتين : الحياء .

وإنَّما كان تقبيل اليد مدحاً ؛ لأنَّ المدح : هو الثناء على الشخص ، ولا فرق فيه بين أن يكون ذكراً باللسان ، أو عملاً بالأركان ، أو محبة بالجَنان ؛ ولا شكَّ أنَّ التقبيل عمل الفم .

فعُلِمَ مِنْ كلام الناظم رحمه الله تعالىٰ : أنَّ السؤال قبيحٌ ؛ لأنَّ المسؤول إن أعطى السائل . . صار في رِقِّهِ ، وإن لم يعطه . . كانت المصيبة أعظم ، وهـٰذا مصداق قوله صلى الله عليه وسلم : « إِذَا سَأَلْتَ . . فَٱسْأَلِ ٱللهَ »[1] .

قال طاووسٌ لعطاءٍ : (إيَّاك أن تطلب حوائجك ممَّن يُغلق بابه دونك ، وعليك بمَن بابُهُ مفتوحٌ إلىٰ يوم القيامة ؛ أمر أن تسألَهُ ، ووعدك أن يجيبَكَ) .

وقال الفضيل بن عياض : (أحبُّ الناس إلى الناس . . مَنِ ٱستغنىٰ عنِ الناس ، وأبغضُ الناس إلى الناس . . مَنِ ٱحتاج إلى الناس وسألهم ، وأحبُّ الناس إلى الله عزَّ وجلَّ . . مَنْ سأله وٱستغنىٰ به عن غيره ، وأبغضُ الناس إليه تعالىٰ . . مَنِ ٱستغنىٰ عنه وسأل غيره) .

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦) ، وأحمد (١/ ٢٩٣) .

وقال ابن السماك : (إنَّ في طلب الرجل الحاجةَ مِنْ أخيه فتنةً ؛ إن هو أعطاه . . حَمِدَ غير الذي أعطاه ، وإن منعه . . ذمَّ غير الذي منعه)[1] لأنَّه لا معطي ولا مانع في الحقيقة إلاَّ الله .

وكان بعضهم يقع سوطه فلا يسأل أحداً أن يناوله إيَّاه[2] ؛ لأنَّ السؤال فيه ذلٌّ وٱفتقار .

وكان بعضهم يقول : مَنِ ٱحتجتَ إليه . . هِنْتَ عليه .

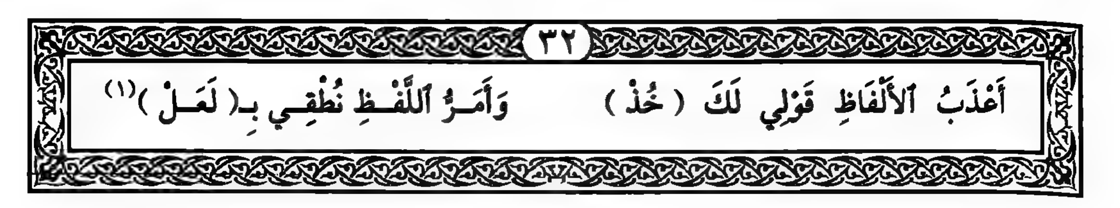
وقال عامر بن قيس : (قرأت آيات مِنْ كتاب الله تعالىٰ ، فٱستغنيتُ بها عن الناس ؛ قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾ فلم أسأل غيره كَشْفَ ضُرِّي ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ﴾ فلم أرَ الفضل والخير إلاَّ منه ، وقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ فلم أطلبِ الرزق مِنْ غيره ، فأغناني عنِ الناس بهٰذه الآيات) .

* * *

(١) أخرجه الحاكم من قول سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في « معرفة علوم الحديث » (ص١٨٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٠٧) .

(٢) هو سيدنا ثوبان رضي الله عنه مولىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقد أخرج ابن ماجه (١٨٣٧) ، وأحمد (٥/٢٧٧) ، عن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من يتقبَّلُ لي بواحدةٍ وأتقبَّل له بالجنَّة ؟ » قال : قلت : أنا ، قال : « لا تسألِ الناسَ شيئاً » ، فكان ثوبانُ يقع سوطُهُ وهو راكبٌ ، فلا يقولُ لأحدٍ : ناوِلْنيهِ ، حتىٰ ينزلَ فيتناولَهُ .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



أي : أحلى الألفاظ التي أتلفَّظُ بها قولي لك : (خُذْ) ، وأمرُّ اللفظ الذي أتلَّفظُ به ـ أي : أكثرُهُ مرارةً ـ نطقي بـ(لعلَّ) ؛ أي : بقولي : لعلَّ فلاناً يُعطيني شيئاً .

قال بعضهم : لا شيء أحلىٰ مِنْ قولك : (خُذْ) ، خصوصاً إذا كان قصدُكَ وَجْهَ الله تعالىٰ ، ولا شيء أمرُّ مِنْ قول الإنسان لغيره : (أعطني) ، خصوصاً إذا كان المسؤول لئيماً .

وإنَّما كان السؤال مرّاً . . لما ينشأ عنه مِنْ ذل الوجه الذي هو أشرف الأعضاء .

وفي هـٰذا البيت إشارةٌ إلىٰ ما رويَ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « اليدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليدِ السُّفْلَىٰ »(٢) ، واليد العليا : هي المعطية ، واليد السفلىٰ : هي الآخذة .

وٱعلم : أنَّ السؤال مذموم إذا كان لآدميٍّ ، وأمَّا سؤال الله سبحانه وتعالىٰ . . فينبغي للإنسان ألاَّ يتركه في أمرٍ مِنَ الأمور ؛ لأنَّه سبحانه وتعالىٰ أمرنا به حيث قال : ﴿ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ اللهَ يَغْضَبُ إذَا تَرَكَ العبدُ سُؤالَهُ ، وإنَّ اللهَ يُحبُّ مِنْ عبادِهِ المُلِحِّينَ في الدُّعاءِ »(٣) .

ولله درُّ القائل : [من الكامل]

لاَ تَسْـأَلَـنَّ بُنَـيَّ آدَمَ حَـاجَـةً وَسَـلِ الَّـذِي أَبْـوَابُـهُ لاَ تُحْجَـبُ
أَللهُ يَغْضَـبُ إِنْ تَـرَكْـتَ سُـؤَالَـهُ وَبُنَـيُّ آدَمَ حِيـنَ يُسْـأَلُ يَغْضَـبُ

---

(١) ويروىٰ : (وأمر القول) .

(٢) أخرجه البخاري (١٤٢٧) ، ومسلم (١٠٣٣) ، ورواية مسلم بعده : « واليد العليا : المنفقة ، والسفلىٰ : السائلة » .

(٣) أخرج الجزء الأول منه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٤٩١) ، وابن ماجه (٣٨٢٧) ، وأحمد (٢/ ٤٧٧) ، وأخرج الجزء الثاني البيهقي في « الشعب » (١٠٧٣) ، والطبراني في « الدعاء » (٢٠) .

قال الحسن البصري : (لا يزال الرجل كريماً على الناس حتَّىٰ يطمع في دنياهم ، فإذا فعل ذلك . . ٱستخفوا به ، وكرهوا حديثه ، وأبغضوه) .

وقال أعرابيٌّ لأهل البصرة : مَنْ سيِّدُكم ؟ قالوا : الحسن ، قال : بِمَ سادكم ؟ قالوا : ٱحتاج الناسُ إلىٰ علمه ، وٱستغنىٰ هو عن دنياهم[1] .

وسأل كعبُ الأحبار ـ وهو تابعيٌّ ـ عبدَ الله بن سلام بحضرة عمرَ بنِ الخطاب رضي الله تعالىٰ عنهما : ما يُذهِبُ العلمَ مِنْ قلوب العلماء بعدما حفظوه وعقلوه ؟ فقال : يُذهِبُهُ الطمعُ وطلبُ الحاجات إلى الناس ، فقال : صدقتَ[2] .

وقال أبو الحسن الشاذليُّ : (دخل عليَّ بالمغرب بعض الأكابر فقال : ما أرىٰ لك كبيرَ عملٍ ، فبِمَ فُقْتَ الناسَ وعظَّموك ؟ فقلت : بخصلة واحدة ؛ وهي الإعراض عنهم وعن دنياهم) .

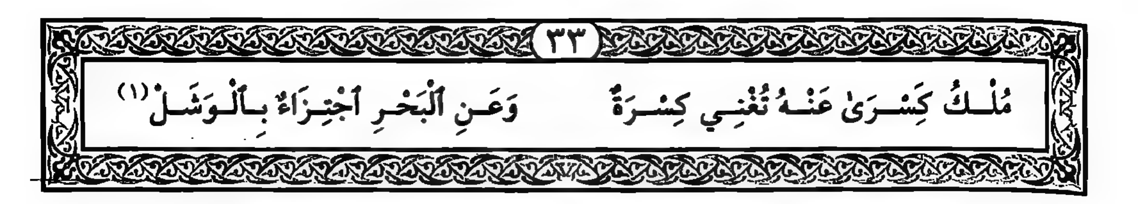
* * *

---

(١) ذكره وسالفَه الإمامُ المُناوي في « فيض القدير » (١/ ٤٨١) .

(٢) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٠/ ١٧١) .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



مُلْكُ كِسْرَىٰ عَنْهُ تُغْنِي كِسْرَةٌ   وَعَنِ ٱلْبَحْرِ ٱجْتِزَاءٌ بِٱلْوَشَلْ[1]

أي : ملك كسرى الواسع تُغني عنه كسرة مِنَ الخبز يأكلها الشخص ، ويكتفي بها ، ويستغني عن غيرها ، ويُغني عنِ البحر الكثير الماء ٱجتزاء ـ بالزاي المعجمة ـ أيِ : ٱكتفاء ، قال في « المصباح » : (ٱجتزأتُ بالشيء : ٱكتفيت به) .

و(الوشل) : ما تَرْشَحُهُ الأرض مِنَ الماء القليل ، فالظمآن يكتفي بشربةٍ منه عنِ البحر الكثير الماء .

و(كِسرىٰ) بكسر الكاف أفصح مِنْ فتحها : مَلِكُ الفُرْس .

و(الكِسرة) بكسر الكاف : القطعة مِنَ الشيء المكسور ، ومنه : الكِسرةُ مِنَ الخبز ، والجمع : كِسَر ، مثل : سِدْرة وسِدَر ، قاله في « المصباح » .

وفي هٰذا البيت إشارةٌ إلىٰ ما هو مطلوب ومحبوب ؛ مِنَ الزهد ، والقناعة ، وعدم السؤال للغير ، والرضا بما هو مقسوم مِنَ الرزق ؛ فإنَّ مِنَ المعلوم : أنَّ القناعة كنزٌ لا يفنىٰ ، ومَنْ قَنِعَ . . ٱستغنىٰ ، ومَنْ طَمِعَ . . ذلَّ في الدنيا والآخرة .

ولله درُّ القائل : [من المتقارب]

وَجَدْتُ ٱلْقَنَاعَةَ ثَوْبَ ٱلْغِنَىٰ   فَصِرْتُ بِأَذْيَالِهَا أَمْتَسِكْ
فَأَلْبَسَنِي جَاهُهَا حُلَّةً   يَمُرُّ ٱلزَّمَانُ وَلَمْ تُنْتَهَكْ
فَصِرْتُ غَنِيّاً بِلاَ دِرْهَمٍ   أَمُرُّ عَلَى ٱلنَّاسِ كَأَنِّي مَلِكْ

وٱعلم : أنَّ الزهد هو أصل المحبة فيما بين العبد وربِّه ، وفيما بينه وبين الناس ؛ فقد رويَ : أنَّ رجلاً قال للنبيِّ صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ؛ دُلَّني علىٰ عملٍ إذا عملتُه

---

(١) ويروىٰ : (ارتشاف بالوشل) .

أحبَّني الله وأحبَّني الناس ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أَزْهَدْ في الدُّنْيَا . . يُحِبَّكَ اللهُ ، وَازْهَدْ فيما في أَيدي النَّاسِ . . يُحِبَّكَ النَّاسُ »[1] .

وقد زهد فيها صلى الله عليه وسلم ، وأعرض عنها إلىٰ أن مات عليه أفضل الصلاة والسلام ودرعُهُ مرهونٌ عند يهوديٍّ يقال له : أبو الشحم[2] ؛ ولذلك قالت عائشة رضي الله تعالىٰ عنها : (ولقد ماتَ رَسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن في بيتي شيءٌ يأكلُهُ ذُو كَبِدٍ)[3] ، مع أنَّه قد عرض عليه صلى الله عليه وسلم أن تُجعلَ لهُ بطحاء مكَّةَ ذهباً ، فأبىٰ وقال : « لا يا ربِّ ؛ [ولكن] أَجُوعُ يوماً وأَشْبَعُ يوماً »[4] .

ودخل عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه يوماً علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو علىٰ حصيرٍ ، وقد أثَّرَ في جنبيه ، فبكىٰ عمرُ رضي الله تعالىٰ عنه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما يبكيك ؟ » فقال : ذكرتُ كسرىٰ وقيصر عدوَّيِ الله في الخزِّ والديباج ، وأنتَ رسولُ الله وخِيرتُهُ مِنْ خلقه علىٰ هـٰذا ؟ فقال له صلى الله عليه وسلم : « أَفي شكٌّ أنتَ يا بنَ الخطاب ، أَمَا تَرضَىٰ أَنْ تكونَ لهُمُ الدُّنْيَا ولَنَا الآخِرَةُ ؟ » قال : بلىٰ ، قال : « فَهُوَ كَذَلِكَ » اهـ[5]

* * *

(١) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٤/٣١٣) ، وابن ماجه (٤١٠٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٤٣) .

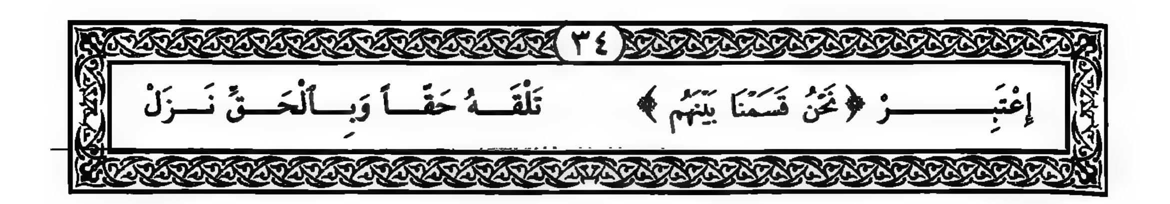
(٢) أخرجه البخاري (٢٩١٦) ، ومسلم (١٦٠٣) ، والتصريح باسم اليهودي هو في رواية الشافعي في « الأم » (١٦٠٧) .

(٣) أخرجه البخاري (٣٠٩٧) ، ومسلم (٢٩٧٣) .

(٤) أخرجه الترمذي بإثر حديث رقم (٢٣٤٧) ، والبيهقي في « الشعب » (١٣٩٤) ، وأحمد (٥/٢٥٤) ، والطبراني في « الكبير » (٨/٢٠٧) .

(٥) أخرجه البخاري (٤٩١٣) ، ومسلم (١٤٧٩) .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



أي : تأمّل وتذكَّر واتَّعظ بقوله تعالىٰ : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ يعني : جعلنا هٰذا غنياً وهٰذا فقيراً ، وهٰذا مالكاً وهٰذا مملوكاً ، وهٰذا مسلماً وهٰذا كافراً ، وهٰذا مصطفىً بالنبوَّة والرسالة ، إلىٰ غير ذلك .

وقوله : (تلْقَهُ) أي : تجده (حقّاً) أي : موافقاً للواقع ، والضمير للمذكور ؛ وهو : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ ، (وبالحقِّ نزل) أي : ونزل ملتبساً بالحقِّ ؛ أي : بالصدق .

فعلمنا مِنْ هٰذه الآية : أنَّ القسمة سابقةٌ مِنَ الله عزَّ وجلَّ ، لا محوَ فيها ولا تغيير ولا تبديل ولا نقص ولا زيادة ، وهو معنىٰ قوله صلى الله عليه وسلم : « رُفِعَتِ الأَقلامُ وجَفَّتِ الصُّحُفُ »[1] ، فما قسمه الله لمخلوق مِن رزق وأجلٍ وغيرهما . . لا بد أن يستوفيَه كاملاً ، لكنَّه سبحانه وتعالىٰ باين بين خلقه في الأرزاق والآجال ، والفقر والغنىٰ ، والقبض والبسط ، والخفض والرفع ، ولا يَرِدُ ما يقتضيه قوله تعالىٰ : ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ الآية ، مِنَ المَحْوِ والإثبات ؛ لأنَّه بالنسبة إلى اللوح المحفوظ فقط ، وأمَّا ما في الأزل . . فلا محو فيه ولا إثبات ، فلا تناقض بين الآيات والأحاديث .

* * *

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦) ، وأحمد (١/ ٢٩٣) .

قالَ الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :

٣٥

لَيْسَ مَا يَحْوِي ٱلْفَتَىٰ مِنْ عَزْمِهِ ... لاَ وَلاَ مَا فَاتَ يَوْماً بِٱلْكَسَلْ

أي : ليس الذي يحويه الفتىٰ ويملكه ويستولي عليه مِنْ عزمه وٱجتهاده ، بل هو مِنْ تقدير الله له ذلك ، وليس الذي فاته يوماً بسبب الكسل وعدم ٱجتهاده في تحصيله ، بل هو مِنْ تقدير الله أيضاً ، فهٰذا البيت بيانٌ وإيضاحٌ للبيت الذي قبله .

فعُلِمَ مِنْ هٰذا البيت : أنَّ ما لم يقسمه الله تعالىٰ لعبده لا يناله بالقوَّة والعزم ولوِ ٱجتهد غاية الاجتهاد ، وأنَّ ما قسمه الله تعالىٰ له لا يفوته ولو تكاسل عنه أو لم يطلبه أصلاً ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ ٱلرِّزْقَ لَيَطْلُبُ العَبْدَ أكثَرَ ممَّا يطلبُهُ أَجَلُهُ » ذكره في « الجامع الصغير »[1] ، ولكنَّ المستحبَّ للعبد السعيُ والطلبُ ، كما قال تعالىٰ : ﴿ فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ ﴾ .

ولله درُّ القائل : [من البسيط]

مَنْ رَامَ أَنْ يَأْخُذَ ٱلأَشْيَا بِقُوَّتِهِ ... يَفُوتُهُ ٱلْقَصْدُ تَحْقِيقاً مَعَ ٱلتَّعَبِ

وَٱقْنَعْ بِرِزْقِكَ إِنَّ ٱلرِّزْقَ مُنْقَسِمٌ ... يَأْتِي إِلَيْكَ مِنَ ٱلرَّزَّاقِ بِٱلسَّبَبِ

وقال آخر : [من البسيط]

يَا طَالِبَ ٱلرِّزْقِ فِي ٱلدُّنْيَا بِقُوَّتِهِ ... تَدُورُ مِنْ بَلَدٍ فِيهَا إِلَىٰ بَلَدِ

أَتْعَبْتَ نَفْسَكَ فِيمَا لَسْتَ تُدْرِكُهُ ... وَضَاعَ عُمْرُكَ فِي هَمٍّ وَفِي نَكَدِ

لَوْ طِرْتَ بَيْنَ ٱلسَّمَا وَٱلأَرْضِ مُجْتَهِداً ... فِي شَرْبَةِ ٱلْمَاءِ غَيْرَ ٱلرِّزْقِ لَمْ تَجِدِ

أَقْصِرْ عَنَاكَ فَإِنَّ ٱلرِّزْقَ مُنْقَسِمٌ ... يَأْتِي إِلَيْكَ وَلَوْ فِي جَبْهَةِ ٱلأَسَدِ

---

(١) « الجامع الصغير » (١٩٩٨) ، والحديث أخرجه ابن حبان (٣٢٣٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/٨٦) ، وابن أبي عاصم في « السنة » (٢٧١) .

وقال آخر : [من البسيط]

أَلـرِّزْقُ يَـأْتِـي وَإِنْ لَـمْ يَسْـعَ صَـاحِبُـهُ حَتْمـاً وَلَكِـنْ شَقَـاءُ ٱلْمَـرْءِ مَكْتُـوبُ
وَفِـي ٱلْقَنَـاعَـةِ كَنْـزٌ لاَ نَفَـادَ لَـهُ وَكُـلُّ مَـا يَمْلِـكُ ٱلإِنْسَـانُ مَسْلُـوبُ

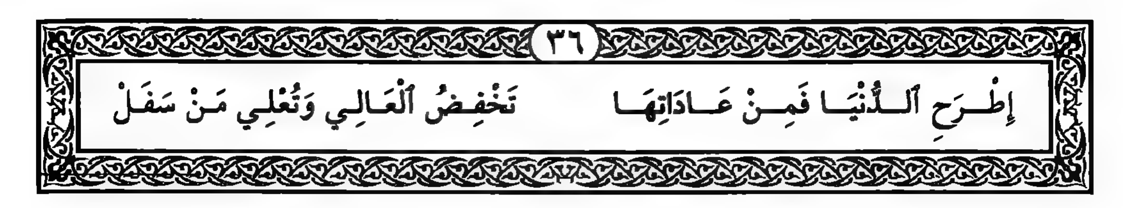
وقال آخر : [من البسيط]

لاَ تَعْجَلَـنَّ فَلَيْـسَ ٱلـرِّزْقُ بِـٱلْعَجَـلِ أَلرِّزْقُ فِي ٱللَّوْحِ مَكْتُوبٌ مَعَ ٱلأَجَلِ
فَلَـوْ صَبَـرْنَـا لَكَـانَ ٱلـرِّزْقُ يَطْلُبُنَـا لَكِنَّـهُ خُلِـقَ ٱلإِنْسَـانُ مِـنْ عَجَـلِ

وذكر في الخبر : أنَّ مؤمناً وكافراً كانا في الزمن الأوَّل آنطلقا يصيدان السمك ، فجعل الكافر يذكر آلهته فيأتي له السمك فيقع في شبكته حتَّىٰ أخذ سمكاً كثيراً ، وجعل المؤمن يذكر الله تعالىٰ فلا يجيء له شيء ، ثُمَّ أصاب سمكةً عند الغروب ، فاضطربتْ فوقعتْ في الماء ، فرجع المؤمن وليس معه شيء ، ورجع الكافر وقدِ آمتلأت شبكته ، فتأسَّفَ ملَكُ المؤمن الموكَّلُ به ، فلمَّا صَعِد إلى السماء . . أراه الله تعالىٰ مسكن المؤمن في الجنَّة ، فقال : والله ؛ ما يضرُّه ما أصابه بعد أن يصير إلىٰ هـٰذا ، وأراه مسكن الكافر في النار ، فقال : والله ؛ ما يغني عنه ما أصاب مِنَ الدنيا بعد أن يصير إلىٰ هـٰذا .

* * *

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



أي : ٱتركِ الدنيا الخسيسة السفيهة ، ولخسَّتها كانت عادتها أن تخفض العالي ؛ أي : تهينه وتحقره ، وتُعلي ـ أي : ترفع ـ الذي سَفُلَ ، بفتح الفاء وضمها[1] ، والمناسب هنا : الفتح ، قال في « المصباح » : (سَفَلَ سُفولاً مِن باب قَعَدَ ، وسَفُلَ مِن باب قَرُبَ لغة : صار أسفلَ مِنْ غيره ، فهو سافل) اهـ

فالناظم رحمه الله تعالىٰ أمر بطرح الدنيا ، وعلَّلَ ذلك بقوله : (فمِنْ عاداتها. . .) إلخ ، وإسنادُ الخفض والرفع إليها إنَّما هو علىٰ سبيل المجاز مِن باب إسناد الشيء إلىٰ ظرفه ؛ لأنَّ الخافض والرافع في الحقيقة هو الله سبحانه وتعالىٰ ، غاية الأمر : أنَّه سبحانه وتعالىٰ عَلِمَ أنَّها دارٌ خسيسة ، فرفع فيها السَّفِلة والأخسَّة ، وخفض فيها الأشراف والفضلاء ؛ لأنَّها ليست دارَهم ؛ وإنَّما دارُهم الآخرة ، ويدلُّ علىٰ ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ. . مَا سَقَى الكافرَ منها شَرْبَةَ ماءٍ »[2] أي : لو كان للدنيا شرفٌ عند الله قَدرَ جناح بعوضة. . ما أنال الكافر أدنىٰ شيءٍ منها ؛ لأنَّ الكافر عدوُّ الله ، فيستحقُّ العذاب في العاجلة والآجلة ، ولكنَّ الله سبحانه وتعالىٰ أخَّرَ عذابَهُ ليومٍ لا ريب فيه ، ولم يحرمْهُ النعمةَ الدنيويَّة ؛ لخسَّتِها وحقارتها . اهـ

وٱعلم : أنَّ الدنيا دار غرور وٱمتحان ، ولهـٰذا قال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ الدُّنْيَا خَضِرةٌ حُلْوَةٌ ، وإنَّ ٱللهَ مُسْتَخْلِفُكُم فيها فناظرٌ كيفَ تعملونَ ، فٱتَّقُوا الدُّنْيَا ، وٱتَّقُوا النِّسَاءَ ؛ فإنَّ أوَّل فِتْنَةِ بني إسرائيلَ كَانَتْ في النِّسَاءِ »[3] .

---

(١) وكسرها من باب عَلِمَ ، كما في « القاموس » .

(٢) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٤/٣٠٦) ، والترمذي (٢٣٢٠) ، وابن ماجه (٤١١٠) .

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٤٢) ، وابن حبان (٣٢٢١) ، والترمذي (٢١٩١) .

وروي : إنَّ أسعدَ الناس في الدنيا أرغبُهُم عنها .

وهي الغاشَّةُ لمَنِ ٱنتصحها ، والمغوية لِمَنْ أطاعها ، والخاسرُ مَنِ ٱنقاد لها ، والفائزُ مَنْ أعرض عنها ، طوبىٰ لعبدٍ ٱتَّقىٰ فيها ربَّه ، وقدَّمَ توبته مِنْ قبل أن ينتقلَ منها إلى الآخرة ، فيصبح في بطنٍ موحشةٍ مظلمةٍ ، لا يستطيع أن يزيدَ في حسنةٍ ، ولا يَنْقُصَ مِنْ سيئةٍ ، ثُمَّ يُنشَر فيُحْشَر إمَّا إلىٰ جنَّةٍ يدوم نعيمها ، أو نارٍ لا ينفكُّ عذابُها .

وفي صحف إبرهيم الخليل عليه الصلاة والسلام : يقول الله عز وجل : (يا دنيا ؛ ما أهونكِ على الأبرار الذين تزيَّنْتِ لهم ، إنِّي قد قذفتُ في قلوبهم بغضَكِ والصدَّ عنكِ ، ما خلقتُ خلقاً أهونَ عليَّ منكِ ، إنِّي قضيتُ عليكِ يومَ خلقتكِ : ألاَّ تدومي لأحدٍ ، ولا يدوم لك أحدٌ)[1] .

ولله درُّ القائل : [من الرمل]

إنَّ للهِ عِبَـــــادَاً فُطَنَـــــا طَلَّقُــوا ٱلــدُّنْيَـا وَخَـافُـوا ٱلْفِتَنَـا
نَظَـــرُوا فِيهَـــا فَلَمَّـــا عَلِمُـــوا أَنَّهَـــا لَيْسَـــتْ لِحَـــيٍّ وَطَنَـــا
جَعَلُـــوهَـــا لُجَّـــةً وَٱتَّخَـــذُوا صَـالِـحَ ٱلأَعْمَـالِ فِيهَـا سُفُنَـا[2]

وقد قيل لزاهدٍ : أيُّ خلق الله أصغر ؟ فقال : الدنيا ؛ لأنَّها لا تعدل عند الله جناح بعوضة ، ومِنْ هوانها عند الله تعالىٰ : أنَّه خلقها ولم ينظر إليها ، ولا يعصىٰ إلاَّ فيها ، ولا يُنالُ ما عنده إلاَّ بتركها ، وإذا أردتَ أن تزهدَ فيها . . فٱنظر هي عند مَنْ ، وفي يدِ مَنْ .

وقال عليٌّ كرَّم الله وجهه : (حلالُها حساب ، وحرامُها عقاب ، مَنْ طلبها . . فاتته ، ومَنْ نظر إليها . . أعمته ، ومَنِ ٱستغنىٰ فيها . . فُتِن ، ومَنِ ٱفتقرَ فيها . . حزن)[3] .

وقال الإمام مالك رضي الله تعالىٰ عنه : (الدنيا تُخرِجُ حلاوةَ الإيمان مِنَ القلب) .

وقال حاتم الأصم : (الدنيا مثل ظلك ؛ إن تركته . . تراجع ، وإن طلبته . . تباعد) .

---

(١) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/١٥٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦/٢٤١) .
(٢) الأبيات للإمام الشافعي رحمه الله تعالىٰ في « ديوانه » (ص١٣١) .
(٣) أخرجه مختصراً البيهقي في « الشعب » (١٠١٣٨) .

وقال بعض الحكماء : أكرموا مَنْ له بيت في الأصل ، ومَنْ له مروءة ، ومَنْ له مكانة في العلم ، ولا يغرَّنكم سوء حالهم وٱنقلاب الزمان بهم ؛ فإنَّ الكاسر يجبُرُ كما يكسِر ، ويكسِرُ كما يجبُرُ ، وما أعطى الدهرُ شيئاً بيمينه إلاَّ وٱستلبه بشماله .

وذكر في الخبر عن عيسىٰ عليه الصلاة والسلام : أنَّه كان ذات يوم ماشياً إذ نظر إلى ٱمرأة عليها مِنْ كلِّ زينة ، فذهب ليغطي وجهه عنها ، فقالت : ٱكشف عن وجهك ؛ فلستُ بٱمرأة ، أنا الدنيا ، فقال لها : ألك زوج ؟ فقالت : لي أزواج كثيرة ، فقال لها : أكُلاًّ طلَّقَكِ أم كُلاًّ قتلتِ ؟ فقالت : بل كُلاًّ قتلتُ ، فقال لها : حزنتِ علىٰ أحدٍ منهم ؟ فقالت : هم يحزنون عليَّ ولا أحزن عليهم ، ويبكون عليَّ ولا أبكي عليهم ، واعجباً للمتأخرين كيف لا يعتبرون بالمتقدمين[1] ؟!

وذُكر عنِ ٱبن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما أنَّه قال : (يُؤتىٰ بالدنيا يوم القيامة علىٰ صورة عجوزٍ شمطاء زرقاء ، أنيابها بادية ، مشوّهة الخلقة ، لا يراها أحدٌ إلاَّ كرهها ، فتُشرفُ على الخلائق ، فيقال لهم : أتعرفون هٰذه ؟ فيقولون : نعوذ بالله مِنْ معرفة هٰذه ، فيقال لهم :

---

(١) وتقلبات الدنيا لا تخفىٰ علىٰ ذي عقل وبصر ، ولإبراهيم الحضرمي : [من الطويل]

لئن زهتِ الدنيا بحسن غضارها … وعزَّتْ ملاهي لهوها وٱزدهارها
فإنِّيَ عنها في البريَّة محذر … لكلِّ غريرٍ آمنٍ من عثارها
علىٰ أنَّني طلقتُها وخلعتُها … وأصدقتُها اللذاتِ بعدَ ٱختبارها
وذلك لمَّا أن رأيتُ سوى الذي … يراه الورىٰ من صغرها وٱحتقارها
ألم يكفني ما كان مِن فعلها بمَنْ … مضىٰ قبلنا مِن مكرها وٱغترارها
ولولا زخاريفُ الشياطين للورى … للاحَ لهم ما أكننتْ مِن عِوارها
ولكنَّما المغرورُ يصبو إذا بدتْ … تهرولُ في أحجالها وسوارها
وقد خَضبتْ بالعطر ثم تَدثَّرتْ … ومِن عفرةٍ يصبو الفتىٰ لاصفرارها
وكم سلبتْ مِن قشعم كان واثقاً … إليها سقته السمَّ تحت دثارها
هي الفخُّ والصياد بازٍ وحبلُها … غَضارتُها مع حسنها وٱخضرارها
وما أن أرىٰ في اللوم عنها بمقلة … سميداً سوىٰ معتوهها أو صغارها
ومثل الذي لم يلتفت لدعائها … مخافة أخراه ودار بوارها
وأظهر فيها للمهيمن نصحه … لفاسقها أو بَرِّها وخيارها
ولم يخشَ في الرحمٰن لومةَ لائمٍ … ولا خاف في الأرذال بطش شرارها
ولكنه لم يلتبس بخيانةٍ … ولا حَسَبٍ كالمؤثرين لدارها

هٰذه الدنيا التي تفاخرتم بها وتحاربتم عليها ، ثُمَّ يُؤمرُ بها إلى النار ، فتقول : يا ربِّ ؛ أين أتباعي وأصحابي وأحبائي ، فيلحقوا بها)[1] .

ومعنىٰ إلقائها في النار : لكي يراها أهلها ، ويرون هوانها على الله تعالىٰ .

قال في « تنبيه الغافلين » في الباب السابع والعشرين ما نصُّه : (روي عن الضحاك قال : لمَّا أهبط الله آدم وحواء إلى الأرض ووجدا ريح الدنيا وفقدا ريح الجنة . . غُشي عليهما أربعين صباحاً مِنْ نتن الدنيا .

وروي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « يا عجباً كلَّ العجب للمصدِّق بدار الخلود وهو يعمل لدار الغرور ! ! »[2] .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « الدُّنْيَا سِجْنُ المؤمِنِ ، والقبرُ حِصْنُهُ ، والجنَّةُ مَأْواهُ ، والدُّنْيَا جَنَّةُ الكافِرِ ، والقبرُ سِجْنُهُ ، والنارُ مَأْوَاهُ »[3] ، ومعنىٰ قوله : « الدنيا سجن المؤمن » : أنَّ المؤمن وإن كان في نعمة واسعة فهو بجنب ما أنعم الله به عليه في الجنَّة كأنَّه في السجن ؛ لأنَّ المؤمن إذا حضرته الوفاة . . عُرضت عليه الجنَّةُ ، فإذا نظر إلىٰ ما أعدَّهُ الله له مِنَ الكرامة . . عَرَف أنَّه كان في السجن ، وأمَّا الكافر إذا حضرته الوفاة . . عُرضت عليه النار ، فإذا نظر إلىٰ ما أعدَّهُ الله له مِنَ العقوبة . . عَرَف أنَّه كان في الجنَّة ، فمَنْ كان عاقلاً لا يكون مسروراً في السجن ، ولكنَّه يطلب الراحة ، فينبغي للعاقل أن ينظر إلى الدنيا ، ويتفكَّر فيما ضرب الله تعالىٰ للدنيا مِنَ الأمثال ؛ لأنَّ الله تعالىٰ ضرب للدنيا مثلاً ، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم ضرب لها مثلاً ، والحكماء ضربوا لها مثلاً ، والأشياء تصير واضحة بالأمثال ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

---

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (١٠١٨٩) .

(٢) أخرجه البيهقي في « الشعب » (١٠٠٥٦) ، والقضاعي في « مسنده » (٥٩٥) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٨/١٣٣) .

(٣) أخرجه بطوله البيهقي في « الزهد الكبير » (٤٥٢) ، والديلمي في « الفردوس » (٣١٠٧) ، ومختصراً بلفظ : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » مسلم (٢٩٥٦) ، وابن حبان (٦٨٧) .

ورُوي عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم : أنَّ رجلاً قَدِم عليه مِنْ أرض ، فسأله عن أرضهم ، فأخبره عن سَعة أرضهم وكثرة النعيم فيها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كيفَ تفعلونَ ؟ » قال : إنَّا نتَّخذ ألواناً مِنَ الطعام ونأكلها ، قال : « ثُمَّ تصيرُ إلىٰ ماذا ؟ » قال : إلىٰ ما تعلم يا رسول الله ـ يعني : تصير بولاً وغائطاً ـ فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « فكذلكَ مَثَلُ الدُّنْيا »[1] .

ورُوي عن يحيى بن معاذ الرازيِّ أنَّه قال : الدنيا مزرعة لربِّ العالمين ، والناس فيها زَرْعُهُ ، وملكُ الموت مِنْجَلُهُ ، والمقبُرة مِدْراسُهُ ، والقيامة تَذْرِيَتُه ، الجنَّة بيت أحبابه ، والنار بيت أعدائه ، فريقٌ في الجنَّة ، وفريق في السعير .

ورُوي عن لقمان الحكيم أنَّه قال لابنه : يا بُنَيَّ ؛ إنَّ الدنيا بحرٌ عميقٌ ، وقد غَرِقَ فيها ناسٌ كثيرٌ ، فاْجعل سفينتك فيها تقوى الله تعالىٰ ، والأعمالَ الصالحة بضاعتَك التي تحملُ فيها ، والحرصَ عليها ربحَك ، والأيامَ مَوجَها ، وكتابَ الله دليلَها ، وردَّ النفسِ عنِ الهوىٰ حبالَها ، والموتَ ساحلَها ، والقيامةَ أرضَ المتجر التي تخرج إليها ، واللهَ مالكَها[2]) اهـ[3]

واْختلف الناس في التفضيل بين الدنيا والآخرة : فذهب قوم إلىٰ أنَّ الدنيا أفضل مِنَ الآخرة ، واْحتجُّوا له بأمور :

منها : أنَّ الدنيا وسيلةٌ والآخرةَ مقصِدٌ ، وقد يوجد في الوسائل ما لا يوجد في المقاصد .

ومنها : أنَّ الدنيا مزرعةٌ للآخرة وطريقٌ موصلة إليها ، فلا ينتهي الإنسان إلىٰ دار الآخرة إلاَّ بعد سلوكه في دار الدنيا ، ومَنْ زرع زرعاً . . حصده ، ومَنْ عمل عملاً . . وجده ، قال تعالىٰ : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ .

---

(١) أخرجه أحمد (٣/٤٥٢) ، والطبراني في « الكبير » (٨/٢٩٩) .

(٢) أخرجه أحمد في « الزهد » (٥٣٢) ، وابن المبارك في « الزهد » (٥٣٧) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٢٦٩) و(٩٠٢) ، والطبراني في « الدعاء » (١٧٣٧) .

(٣) « تنبيه الغافلين » (٢٣٩ـ٢٤٣) .

ومنها : أنَّ الدنيا دارُ تكليفٍ وعملٍ ، والآخرةَ دارُ جزاءٍ وفضلٍ ، ولا خفاء أنَّ العمل أفضل مِنَ الجزاء ؛ لِمَا ورد : أنَّ أهل القبور يودُّون أن يرجعوا إلى الدنيا ليعملوا فيها خيراً ؛ لِمَا رأَوهُ مِنْ ثواب الأعمال .

ومنها : ما ورد مِنْ مدحها في الحديث الشريف : أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تَسُبُّوا الدُّنيَا ، فَنِعْمَتْ مَطِيَّةُ المُؤْمِنِ ؛ عَلَيها يَنَالُ الخَيرَ ، وبها يَنْجُو مِنَ الشَّرِّ »[1] ، « وإذا قالَ العبدُ : لَعَنَ اللهُ الدُّنْيَا . قالتِ الدُّنْيَا : لَعَنَ اللهُ أَعْصَانَا لِرَبِّهِ »[2] .

وذهب آخرون إلىٰ أنَّ الآخرة أفضل ، واحتجُّوا بأمور :

منها : أنَّ الدنيا وإن عَظُمَ أمرها وتناهىٰ فخرها بما يوجد فيها مِنَ الأعمال الصالحات . . فهي آيلةٌ إلى الفناء والزوال ، ومِنَ المعلوم أنَّ الدائم الباقي أفضل مِنَ الزائل الفاني .

ومنها : أنَّ فيها يؤول أمر المؤمنين إلى الخلود في الجِنَان ، والخيرات الحسان ، والخير العظيم ، والنعيم المقيم ، والنظر إلىٰ وجه الله الكريم ، وغير ذلك ممَّا ورد في الخبر ، ممَّا لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعتْ ، ولا خَطَرَ علىٰ قلب بشر .

وممَّا ورد مِنَ النظم في ذمِّ الدنيا قول القائل : [من الطويل]

سَأَلْتُ عَنِ ٱلدُّنْيَا ٱلدَّنِيَّةِ قِيلَ لِي ... هِيَ ٱلدَّارُ فِيهَا ٱلدَّائِرَاتُ تَدُورُ
فَإِنْ أَضْحَكَتْ أَبْكَتْ وَإِنْ أَحْسَنَتْ أَسَتْ ... وَإِنْ عَدَلَتْ يَوْماً فَسَوْفَ تَجُورُ

والقائل الآخر : [من الخفيف]

إِنَّمَا ٱلدُّنْيَا غُرُورٌ وَمِحْنَةْ ... فَٱلسَّفِيهُ ٱلْجَهُولُ مَنْ يَصْطَفِيهَا
مَا مَضَىٰ فَاتَ وَٱلْمُؤَمَّلُ غَيْبٌ ... وَلَكَ ٱلسَّاعَةُ ٱلَّتِي أَنْتَ فِيهَا[3]

---

(١) أخرجه الشاشي في « مسنده » (٣٨٣) ، والديلمي في « الفردوس » (٧٧٨٨) وابن عدي في « الكامل » (١/٢٠٩) .

(٢) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٤/٣١٢) ، والرامهرمزي في « أمثال الحديث » (٢٤) ، والعقيلي في « الضعفاء » (٣/٨٤٣) ، وابن الجوزي في « العلل المتناهية » (١٣٣٢) .

(٣) البيتان لأبي إسحاق إبراهيم بن عثمان الغزي ، أوردهما الأصفهاني في « خريدة القصر » (١/٤ـ٧٥) ، والتلمساني في « نفح الطيب » (١/١١٩) .

والقائل الآخر : [من الطويل]

أَرَىٰ طَالِبَ ٱلدُّنْيَا وَإِنْ طَالَ عُمْرُهُ ... وَنَالَ مِنَ ٱلدُّنْيَا سُرُوراً وَأَنْعُمَا
كَبَانٍ بَنَىٰ بُنْيَانَهُ فَأَقَامَهُ ... فَلَمَّا ٱسْتَوَىٰ مَا قَدْ بَنَاهُ تَهَدَّمَا[1]

والقائل الآخر : [من الوافر]

هِيَ ٱلدُّنْيَا تَقُولُ لِطَالِبِيهَا ... حَذَارِ حَذَارِ مِنْ بَطْشِي وَفَتْكِي
فَلاَ يَغْرُرْكُمُ مِنِّي ٱبْتِسَامٌ ... فَقَوْلِي مُضْحِكٌ وَٱلْفِعْلُ مُبْكِي[2]

ولله درُّ الملاح حيث قال في « تخميسه » :

إِنَّمَا ٱلأَيَّامُ فِي حَالاَتِهَا ... طَبْعُهَا جَلْبُ ٱلأَذَىٰ فِي ذَاتِهَا
تُتْبِعُ ٱلتَّنْغِيصَ فِي لَذَّاتِهَا ... إِطْرَحِ ٱلدُّنْيَا فَمِنْ عَادَاتِهَا

تَخْفِضُ ٱلْعَالِي وَتُعْلِي مَنْ سَفَلْ[3]

وكثير من الأسافل رفعتهم الدنيا :

فمنهم : زياد ابن سُمَيَّة[4] ، ويقال له : زياد بن أبي سفيان ، وزياد بن عبيد الثقفيُّ ؛ وسُميَّة كانت عند كسرىٰ ، فوهبها لأبي الخير ؛ ملك مِنْ ملوك اليمن ، فدخل بها الطائف فمرض ، فطببه الحارث بن كَلَدَة ، فنجع فيه طِبُّه ، فوهب له سمية ، فولدت نُفَيعاً ، ويكنىٰ : أبا بكرة رضي الله عنه ، ثمَّ كانت تحت عبيدٍ الثقفيِّ ، فولدت له زياداً ، ويقال : إنَّ أبا سفيان واقعها علىٰ كرهٍ منها في حالة سكره ، وكانت بغيّاً ، فحملت منه بزياد ، وقالت لعبيدٍ : إنَّه منك ، فكان عبيد يكنىٰ به .

---

(١) البيتان أوردهما السلفي في « معجم السفر » (١٥٨٦) مما أنشده أبو الفتح نصر بن إبراهيم النابلسي ولم يسم قائله .

(٢) البيتان لأبي الفرج عبد الواحد بن نصر المخزومي المعروف بالببغاء من قصيدة يرثي بها السلطان فخر الدولة علي بن الحسن بن بويه ، أوردها الثعالبي في « يتيمة الدهر » (٣/٤٥٨) .

(٣) « تخميس الملاح » (ص٨) .

(٤) انظر ترجمته في : « طبقات ابن سعد » (٧/٩٩) ، و« تاريخ الطبري » (٥/٢٨٨) ، و« تاريخ دمشق » (١٩/١٦٢) ، و« الكامل في التاريخ » (٣/٨٨) ، و« أسد الغابة » (٢/٢١٥) ، و« وفيات الأعيان » (٦/٣٥٦) ، و« تاريخ الإسلام » (٤/٢٠٧) ، و« سير أعلام النبلاء » (٣/٤٩٤) ، و« الوافي بالوفيات » (١٥/١٠) ، و« البداية والنهاية » (٨/٤٥٣) .

والسبب في إضافة أبي سفيان زياداً إلىٰ نفسه : ما ذكر أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه بعث زياداً في إصلاحِ فسادٍ وقع باليمن ، فلمَّا رجع . . خطب خُطبة لم يسمعِ الناس مثلها ، فقال عمرو بن العاصي : والله ؛ لو كان هٰذا الغلام قرشياً . . لساق العرب بعصاه ، فقال أبو سفيان : والله ؛ إنِّي لأَعرف مَنْ وضعه في رحم أمِّه ، فقال له علي رضي الله تعالىٰ عنه : ومَنْ هو يا أبا سفيان ؟ فأشار إلىٰ أنَّه هو ، وكانت فَلْتَةً مِنْ أبي سفيان ، فذاك الذي حمل معاوية علىٰ إلحاق زياد بأبي سفيان ، وذلك في سنة أربع وأربعين ، وشهد عنده مالك بن ربيعة ، والمنذر بن الزبير علىٰ إقرار أبي سفيان أنَّهُ ولده ، وكان أبو بكرة يقول : والله ؛ ما رأت سُمية أبا سفيان قطُّ .

وقال بعضهم لعامر بن شراحيل الشعبيِّ : هل تجوز الصلاة خلف ولد الزنا ؟ قال : نحن منذ ثلاثين سنة نصلي خلفه ونرجو مِنَ الله القبول والعفو .

وقال زيادٌ لرجل : يا بن الزانية ، قال : أتسبُّني بشيءٍ شَرُفْتَ به أنت وآباؤك ؟!

وقال بعضهم : كان زياد بن عبيد مِنْ موالي ثقيف ، ثُمَّ تعالت به الحال وظهرت قوَّته وحزامته حتَّىٰ وَلِيَ فارسَ لعليٍّ ، ثُمَّ ٱحتمل مالاً وهرب إلىٰ معاويةَ ، وٱنتهىٰ أمره إلىٰ أنِ ٱدَّعاه معاوية أخاً ؛ لمَا رأىٰ مِنْ نجابته ومِنْ إصابة رأيه ، وجمع له بين العراقين ولايةً ، وهو أوَّل مَنْ جُمعا له[1] .

والمراد بالعراقين : عراق العرب ، وعراق العجم .

فعراق العرب : فتح في زمن عمر بن الخطاب عَنوة ـ بفتح العين ، أي : قهراً ـ وقسمه عمر رضي الله تعالىٰ عنه بين الغانمين ، ثُمَّ طيَّبَ قلوبهم ، فبذلوه له ، ثُمَّ وَقَفَهُ ـ ما سوىٰ مساكنه وأبنيته ـ على المسلمين ، وآجره لأهله إجارة مؤبَّدة للمصلحة الكلية ، بخراجٍ معلوم يؤدُّونه كلَّ سنة ، فجَرِيبُ الشعير درهمان[2] ، والبُر أربعة ، والشجر وقصب السكر ستَّة ، والنخل ثمانية ، والعنب عشرة ، والزيتون ٱثنا عشر ، وجملة مساحة الجريب : ثلاثة آلاف

---

(١) انظر الخبر في « الاستيعاب » (١/٥٤٩) ، و« تاريخ دمشق » (١٩/ ١٧٣) .

(٢) الجريب : هو مساحة معروفة من الأرض ، تساوي مئة قصبة ، كل قصبة ستة أذرع في ستة أذرع بالهاشمية ، فيكون ستين ذراعاً في ستين ، والذراع الهاشمية : (٤٨, ٥٤) سم ، فتكون القصبة : (٨٤٨٢٠) سم٢ أي : (٤٨٢٠ ,٨)م٢ ، فيكون الجريب : (٨٤٨, ٢٠)م٢ تقريباً .

وست مئة ذراع ، والباعث له علىٰ وقفه : خوفُ اشتغال الغانمين بفلاحته عنِ الجهاد ، وحدُّه طولاً مِنْ أوَّل عبَّادان ـ بتشديد الموحدة ـ إلىٰ آخر حديثة المَوْصِل[1] ، وحدُّه عرضاً مِنْ أوَّل القادسية إلىٰ آخر حُلْوان ، بضم المهملة ، والصحيح : أنَّ البصرة وإن كانت داخلة في حدِّ العراق فليس لها حكمُهُ ؛ لأنَّها كانت سبخةً أحياها عثمان بن أبي العاصي وعُتْبة بن غزوان في زمن عمر رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين سنة سبعَ عشرةَ بعد فتح العراق ، والصحيح : أنَّ ما في العراق مِنَ الدور والمساكن يجوز بيعه لعدم دخوله في وقفه ، وخراج العراق يُصرف لمصالح المسلمين[2] .

ومِنْ مدائن عراق العرب : بغداد[3] ؛ وهي مدينة عظيمة بناها المنصور في الجانب الغربي على الدجلة ، وأنفق عليها أموالاً عظيمة ، يقال : إنَّه أنفق عليها أربعة آلاف ألف دينار ، وكانت في أيام البرامكة مدينة عظيمة ، يقال : إنَّ حمَّاماتها حُصرت في وقت مِنَ الأوقات فكانت ستين ألفاً ، وكان فيها مِنَ العلماء والوزراء والفضلاء والرؤساء والسادات ما لا يوصف ، قال الطبري : أقلُّ صفة بغداد أنَّه كان فيها ستون ألف حمَّام ، كلُّ حمام يحتاج على الأقلِّ إلىٰ ستة نفر : سواق ووقَّاد وزبال ومدولب وقائم وحارس ، وكلُّ واحد مِنْ هٰؤلاء في مثل ليلة العيد يحتاج إلىٰ رَطل صابون لنفسه ولأهله ولأولاده ، فهٰذه ثلاث مئة ألف رَطل وستون ألف رَطل صابون برسم فَعَلَة الحمَّامات لا غير ، فما ظنُّك بسائر الناس وما يحتاجون إليه مِنَ الأصناف في كلِّ يوم[4] ؟

ومِنْ مدائنه أيضاً : المدائن[5] ؛ وهي مدائن قديمة جاهلية ، وبها آثار هائلة ، وبها إيوان كسرى المضروب به المثل ، وإقليمها يعرف بأرض بابل .

---

(١) في الأصل : (مدينة) ، والتصويب من المصادر ، وحديثة الموصل : بليدة صغيرة كانت علىٰ دجلة بالجانب الشرقي قرب الزاب الأعلىٰ . « معجم البلدان » (٢/ ٢٣٠) .

(٢) انظر « روضة الطالبين » (١٠/ ٢٧٥) ، و« تحفة المحتاج » (٩/ ٢٦١) ، و« نهاية المحتاج » (٨/ ٧٧) ، و« مغني المحتاج » (٤/ ٣١٠) ، و« النجم الوهاج » (٩/ ٣٦١) ، طبع لأول مرة محققاً عن (دار المنهاج) .

(٣) « معجم البلدان » (١/ ٤٥٦) .

(٤) أخرج نحوه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١/ ١٣٠) ، وابن الجوزي في « المنتظم » (٥/ ١٣٩) .

(٥) « معجم البلدان » (٥/ ٧٤) .

وِمِنْ مدائنه : النيل[1] ؛ وهي مدينة حسنة ، وهي على الفرات بين بغداد والكوفة ، وسبب تسميتها بالنيل : أنَّ الحجاج بن يوسف حفر نهراً مِنَ الفرات وسمَّاه : النيل ، باسم نيل مصر ، وأجراه إليها ، وعليه مدنٌ عظيمةٌ وقرىً ومزارعُ .

وِمِنْ مدائنه : نِينَوَىٰ[2] ؛ يقال : إنَّها المدينة التي بُعِثَ إليها يونس بن مَتَّىٰ عليه الصلاة والسلام .

وِمِنْ مدائنه : الكوفة[3] ؛ وهي علىٰ شاطىء الفرات ، بها بناء حسن ، ونخل كثير ، وتمر طيِّب جداً .

وِمِنْ مدائنه : البصرة[4] ؛ وحدثت في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، يقال : إنَّه كان بها سبعة آلاف مسجد ، وشرقي البصرة مياه الأنهار ، وهي تزيد علىٰ عشرة آلاف نهر ، لكلِّ نهر اسم ينسب إلىٰ صاحبه الذي حفره ، والغالب علىٰ هـٰذه الأنهار الملوحة ، وحكىٰ بعض التجار : أنَّه اشترى التمر فيها خمس مئة رِطل بدينار ؛ وهو عشرة دراهم .

وِمِنْ مدائنه : واسط[5] ؛ وهي بين البصرةوالكوفةِ ، وهي أعمر بلاد العراق ، وعليها معمود ولاة بغداد .

وِمِنْ مدائنه : عبَّادان[6] ؛ وهي مدينة عامرة علىٰ شاطىء البحر في الجهة الغربية من الدجلة ، وفي قعر البحر الفارسي خشبات منصوبات بإحكام وهندسة ، وعليها ألواح مهندسة يجلس عليها حراس البحر ومعهم زورق ، شِقُّه الأيمن للعراق ، والأيسر لفارس .

وأمَّا عراق العجم : فهو إقليم عظيم ، ويسمىٰ : إقليم خراسان ، كما أنَّه يسمَّىٰ : عراق العجم ، وله نحو مِنْ خمس مئة مدينة قواعد خارجاً عن القرىٰ .

وِمِنْ مدائنه : همذان ، ونيسابور ، وقم ، وخراسان ، وأصبهان ، وجرجان ،

---

(١) « معجم البلدان » (٥/٣٣٤) .

(٢) « معجم البلدان » (٥/٣٣٩) .

(٣) « معجم البلدان » (٤/٤٩٠) .

(٤) « معجم البلدان » (١/٤٣٠) .

(٥) « معجم البلدان » (٥/٣٤٧) .

(٦) « معجم البلدان » (٤/٧٤) .

وأردبيل ، وطوس ، فسبحان خالق الخلق ومالكهم ، ومحصيهم ومدبِّرهم ، لا إلـٰه إلا هو لا شريك له في ملكه!

ومنهم : **الحَجَّاج بن يوسفَ الثقفيُّ**[1] ، وأوَّل أمره وكيفية وصوله إلىٰ عبد الملك بن مروان : أنَّه لمَّا ٱشتدت شوكة أهل العراق علىٰ عبد الملك بن مروان . . خطب الناس وقال : إنَّ نيران أهل العراق قد علا لهبها ، وكَثُرَ حطبها ، فجمرها حارٌّ ، وشهابها وارٍ ، فهل مِنْ رجل شديد ، ذي سلاح عتيد ، أبعثه لها ؟ فقام الحَجَّاج فقال : أنا يا أمير المؤمنين ، قال : ومَنْ أنت ؟ قال : الحَجَّاج بن يوسف بن الحكم بن عامر ، فقال له : ٱجلس ، ثُمَّ أعاد الكلام ، فلم يقم أحدٌ غير الحجاج ، فقال : كيف تصنع إن ولَّيتك ؟ قال : أخوضُ الغَمَرَات ، وأقتحمُ الهَلَكَات ، فمَنْ نازعني . . حاربتُهُ ، ومَنْ هرب منِّي . . طلبتُهُ ، ومَنْ لحقتُهُ . . قتلتُهُ ، وعلىٰ أمير المؤمنين أن يجرِّب ، فإن كنتُ للأوصال قطَّاعاً ، وللأرواح نزَّاعاً ، وللأموال جمَّاعاً ، وإلا . . فٱستبدل بي ، فقال عبد الملك : مَنْ تأدَّب . . وجد بغيتَهُ ، ٱكتبوا له كتاباً .

ولؤم الحَجَّاج مِنْ قبل رضاعه ؛ قيل : إنَّ أمَّ الحَجَّاج كانت عند الحارث بن كَلَدَة فطلَّقها ، وتزوَّجها يوسف ابن أبي عقيل الثقفيُّ ، فولدت له الحَجَّاج .

وقيل : إنَّ أمَّه الفارعة بنت مسعود الثقفيَّة ، وكانت قبل أن يتزوَّجها يوسف عند المغيرة بن شعبة ، فدخل عليها يوماً حين أقبل مِنْ صلاة الغداة وهي تتخلل فقال لها : يا فارعة ؛ لئن كان هـٰذا التخلل مِنْ أكل اليوم . . إنَّكِ لنهمة ، وإن كان مِنْ أكل البارحة . . إنك لقذرة ، ٱعتدي فأنت طالق ، فقالت : سَخِنَتْ عينكَ مِنْ مِطْلاق[2] ، ما هو مِنْ ذا ولا مِنْ ذاك ، ولكنِّي ٱستكتُ فتخلَّلتُ مِنْ سواكي ، فٱسترجع ، ثمَّ خرج ، فلقي يوسف بن الحكم بن أبي عقيل ، فقال : إنِّي قد نزلتُ اليوم عن خير نساء ثقيف ، وحدَّثه بالقصة ، فتزوَّجها يوسف ، فولدت له الحَجَّاج مشوَّهاً لا دبر له ، فثقب دبره ، وأبىٰ أن يقبل

---

(١) انظر ترجمته في : « مروج الذهب » (٣/٣٧٥) ، و« تاريخ دمشق » (١٢/١١٣) ، و« وفيات الأعيان » (٢/٢٩) ، و« تاريخ الإسلام » (٦/٣١٤) ، و« سير أعلام النبلاء » (٤/٣٤٣) ، و« الوافي بالوفيات » (١١/٣٠٧) ، و« مرآة الجنان » (١/١٩٢) ، و« البداية والنهاية » (٩/١٤٢) ، و« شذرات الذهب » (١/٣٧٧) .

(٢) سخنة العين : نقيض قرتها .

الثدي ، فأعياهم أمره ، فتصوَّر لهم الشيطان علىٰ صورة الحارث بن كَلَدَة ، وأشار عليهم أن يُذبح جدي أسود ويولغوه مِنْ دمه يومين ، وفي الثالث يذبح له تيس ويولغوه مِنْ دمه ، ويطلوا وجهه بما بقي منه ، فإنَّه يقبل الثدي ، ففعلوا ذلك ، فأقبل علىٰ ثدي أمِّه ، فأكسبه الرَّضاع الأوَّل لؤماً ، وأمَّا الرَّضاع الثاني . . فغيَّر الطِّباع ، فكان في كِبَرِه سَفَّاكاً للدماء ؛ فلمَّا بلغ أشدَّه . . صار هو وأخوه معلِّمَيْنِ بالطائف[1] ، وقد هجاه بعضهم بقوله : [من الطويل]

فَلَوْلاَ بَنُو مَرْوَانَ كَانَ ٱبْنُ يُوسُفٍ ... كَمَا كَانَ عَبْداً مِنْ عَبِيدِ إِيَادِ
زَمَانَ هُوَ ٱلْعَبْدُ ٱلْمُقِرُّ بِذُلِّهِ ... يُرَاوِحُ صِبْيَانَ ٱلْقُرَىٰ وَيُغَادِي[2]

وقال آخر يذكر تعليمه الصبيان : [من المتقارب]

أَيَنْسَىٰ كُلَيبٌ زَمَانَ ٱلْهُزَالْ ... وَتَعْلِيمَهُ صِبْيَةَ ٱلْكَوْثَرِ[3]

الكوثر : قرية في الطائف كان الحجاج معلِّماً بها ، وعلىٰ هـٰذا يكون ٱسمه كليباً ، وهو الأولىٰ به ، وقد تقدَّم منه الولوغ للدم في صغره ورضاعه كما تقرَّر .

وممَّا يؤيِّد ما ذُكر مِنْ لؤمه : ما كتب به إليه عبد الملك بن مروان لمَّا أراد قتل أنس بن مالك رضي الله تعالىٰ عنه : أمَّا بعد : فإنَّك طغتْ بك الأمور ، وعلوتَ فيها حتَّىٰ تعدَّيتَ طَورك ، وأيم الله يا بن المستفرمة بعَجَم الزبيب ؛ لأركضنَّ بك ركضة تدخل بها في جَعْسِ أمِّك ، فأذكر مكاسب آبائك بالطائف ؛ إذ كانوا ينقلون الحجارة علىٰ ظهورهم ، ويحفرون الآبار بأيديهم ، قد نسيتَ ما كنتَ عليه وآباؤك مِنَ الدناءة واللؤم ، فلعنك الله ، أخفشَ العينين ، أصكَّ الرجلين ، ممسوح الساعدين ، ولن يخفىٰ عليَّ نبؤك ، لكلِّ نبأ مستقر ، وسوف تعلمون[4] .

---

(١) انظر القصة في « مروج الذهب » (٣/٣٢٩) ، و« الوافي بالوفيات » (١١/٣٠٩) ، و« وفيات الأعيان » (٢/٢٩) ، و« مرآة الجنان » (١/١٩٣) .

(٢) البيتان لمالك بن الريب المازني كما في « ديوان الحماسة » (١/٢٧٩) ، و« الكامل » (٢/٦٣٠) ، و« عيون الأخبار » (١/٢٣٦) ، و« العقد الفريد » (٥/١٤) ، و« خزانة الأدب » (٢/٢١١) ، وقد نسب الأبيات في « معجم البلدان » (٢/٢٧٧) للبرج التميمي ، ووقع في الأصل : (من عبيد زياد) بدل : (إياد) ، والتصويب من المصادر .

(٣) البيت من غير نسبة في « الكامل » (٢/٦٣٠) ، و« ربيع الأبرار » (٣/٣٩٧) ، و« معجم البلدان » (٤/٤٨٧) .

(٤) انظر القصة في « تاريخ دمشق » (١٢/١٧١) ، و« البداية والنهاية » (٩/١٦١) ، و« البيان والتبيين » (١/٣٨٥) ، و« العقد الفريد » (٥/٣٥) ، وقال المعافر بن زكريا في « الجليس الصالح » : (وقوله : « يا بن المستفرمة بعَجَم =

ذكر أهل التاريخ : أنَّه لمَّا مات الحَجَّاج . أُحصيَ مَنْ قتله صبراً سوىٰ مَنْ قُتل في حروبه وسراياه ، فوجدوا مئة ألفٍ وعشرينَ ألفاً ، ومات وفي حبسه خمسونَ ألفَ رجلٍ وثلاثونَ ألفَ آمرأةٍ ، وكان يحبس الرجال والنساء في موضع واحد ، ولم يكن بحبسه سماء تقيهم الحرَّ والبرد ، وكان الحرَّاس يمنعونهم إذا آستظلوا مِنْ حرِّ الشمس وزمهرير البرد[1] .

وذكر أهل التاريخ أيضاً : أنَّه ركب يوم جمعةٍ يريد الجامع ، فسمع ضجة عظيمة ، فقال : ما هٰذا ؟ قالوا : أهلُ السجن يشكون ما هُم فيه ، فالتفت إلىٰ ناحيتهم وقال : آخسؤوا فيها ولا تكلمون ، فيقال : إنَّه مات في تلك الجمعة بواسط سنة خمس وتسعين ، وهو ابن أربع وخمسين سنة ، وكان آخر كلام سمع منه : اللهمَّ آغفر ؛ فإنَّ عبادك يظنُّونَ ألاَّ تفعل ، وكانت مدَّة إمارته على الناس عشرين سنة إلاَّ سبعة أيام .

* * *

=

الزبيب » كانت المرأة تستعمل عجم الزبيب ـ أي : حبه ـ لتضيق قبلها) ، والجَعْس : موقع العذرة ، ومراده : في آستها ، وأخفش العينين : الخفش : فساد في العين يضعف منه نورها ، وتصغر من غير وجع ، وأصك الرجلين : مضطربهما .

(١) انظر « مروج الذهب » (٣/ ٣٧٥) ، و« تاريخ دمشق » (١٢/ ١٨٤) ، و« الفرج بعد الشدة » (١/ ١٩١ـ١٩٢) .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :

٣٧

عِيشَـةُ ٱلـزَّاهِـدِ فِـي تَحْصِيلِهَـا عِيشَـةُ ٱلْجَـاهِـدِ بَـلْ هَـٰذَا أَذَلّ

أي : عيشة الشخص الزاهد في الدنيا وفي تحصيلها وجمعها . . كعيشة الشخص الجاهد ـ بالدال المهملة ـ أي : المجتهد المنهمك على الدنيا وجمعها ، في أنَّ كُلاً منهما لا يأكل ولا يلبس إلاَّ ما كتب الله له في أزله ، ثمَّ أَضْرَبَ الناظم عنِ التساوي بينهما فقال : بل هـٰذا ـ أي : الشخص الجاهد ـ أذلُّ عند الله وعند الناس مِنَ الزاهد فيها ؛ لِمَا يترتب علىٰ جمعها مِنَ التذلُّل لأهلها والتواضع لهم .

وذُكر عن يحيى بن معاذ أنَّه قال : (في اكتساب الدنيا ذلُّ النفوس ، وفي اكتساب الآخرة عزُّ النفوس ، فيا عجباً لمن يختار المذلَّة في طلب ما يفنىٰ ، ويترك العزَّ الذي يبقى!) .

وقال في « تنبيه الغافلين » : (روي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « أَنَا زَعِيمٌ لِثَلاَثَةٍ بِثَلاَثَةٍ : للمُكِبِّ على الدُّنْيَا ، والحَرِيصِ عليها ، والشحيحِ بها : بفَقْرٍ لا غنىً ، وشُغْلٍ لا فراغٍ ، وهَمٍّ لا فَرَحٍ »[١] .

وروي عن أبي عثمانَ النهديِّ رضي الله تعالىٰ عنه أنَّه قال : رأيتُ علىٰ عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه قميصاً فيه اثنتا عشرةَ رقعةً وهو على المنبر يخطب[٢] .

وروي عن أبي ذرٍّ أنَّه قال : إنِّي لأعرف بالناس مِنَ البيطار بالدوابِّ ؛ فأمَّا خيارهم . . فالزاهدون في الدنيا ، وأمَّا شرارهم . . فمَنْ أخذ مِنَ الدنيا فوق ما يكفيه .

وروىٰ حُميد الطويل عن مؤرق العجلي[٣] قال : قرأ النبيُّ صلى الله عليه وسلم ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۞ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ ، فقال : « يقولُ ٱبنُ آدمَ : مالي مالي ، وهلْ لكَ مِنْ مالِكَ إلاَّ

---

(١) أخرج بنحوه الديلمي في « الفردوس » (١٣٠) .

(٢) أخرج بنحوه ابن سعد في « الطبقات » (٣/٣٢٨) .

(٣) في الأصل : (معروف العجلي) ، والتصويب من « تنبيه الغافلين » .

ما أكلتَ فأفنيتَ ، أو لبستَ فأبليتَ ، أو تصدَّقتَ فأبقيتَ ؟ »[1] .

وروىٰ عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله تعالىٰ عنها : أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال لها : « يا عائشةُ ؛ إنْ أردتِ اللُّحُوقَ بي . . فلْيَكْفِكِ مِنَ الدُّنْيَا كَزَادِ الراكِبِ ، وإيَّاكِ ومجالسةَ الأغنياءِ ، ولا تَسْتَخْلِقي ثوباً حتَّىٰ ترقِّعيهِ »[2] .

ورويَ عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « اللهمَّ ؛ مَنْ أَحبَّني . . فارْزُقْهُ العفافَ والكفافَ ، ومَنْ أَبْغَضَني . . فأَكْثِرْ مَالَهُ وولَدَهُ »[3] .

وروي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « الفقرُ مشقَّةٌ في الدُّنْيَا مَسَرَّةٌ في الآخِرَةِ ، والغِنَىٰ مَسَرَّةٌ في الدُّنْيَا مشقَّةٌ في الآخِرَةِ »[4] .

وروي عنِ أبي الدرداء[5] أنَّه قال : ما أَنْصَفْنا إخوانَنا الأغنياء ؛ لأنَّهم يأكلون ونحن نأكل ، ويشربون ونحن نشرب ، ويلبسون ونحن نلبس ، ولهم فضول أموالهم ، ينظرون إليها ونحن ننظر إليها معهم ، وهم يحاسبون عليها ونحن منها برآء[6] .

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٥٨) ، وابن حبان (٧٠١) ، والترمذي (٢٣٤٢) ، والنسائي (٦/ ٢٣٨) .

(٢) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣١٢) ، والترمذي (١٧٨٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٧٧٠) .

(٣) عزاه العجلوني في « كشف الخفاء » (١/ ١٩٠) بلفظه لسعيد بن منصور في « سننه » ، وأخرج نحوه ابن ماجه (٤١٣٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٩٦١) ، والطبراني في « الكبير » (١٧/ ٣١) من حديث عمرو بن غيلان الثقفي رفعه : « اللهم ؛ من آمن بي وصدقني ، وعلم أن ما جئت به الحق من عندك . . فأقلَّ ماله وولده ، وحبب إليه لقاءك ، وعجل له القضاء ، ومن لم يؤمن بي ولم يصدقني ، ولم يعلم أن ما جئت به الحق . . فأكثر ماله وولده ، وأطل عمره » ، ولا يلتفت إلىٰ قول من رده بزعم أنه يتعارض مع حديث أنس عند البخاري (٦٣٣٤) : أنه دعا له بكثرة ماله وولده ، قال الحافظ في « الفتح » (١١/ ١٣٨) : (لا منافاة بينهما ؛ لاحتمال أن يكون مع دعائه له بذلك قرنه بألا يناله من قبل ذلك ضرر ؛ لأنَّ المعنىٰ في كراهية اجتماع كثرة المال والولد إنما هو لما يخشىٰ من ذلك من الفتنة بهما ، والفتنة لا يؤمن معها الهلكة) ، وقال الإمام المُناوي في « فيض القدير » (٢/ ١٢٩) : (ثم إن ذا لا يعارضه خبر البخاري : أنه دعا لأنس بتكثير ماله وولده ؛ لأن فضل التقلل من الدنيا والولد يختلف باختلاف الأشخاص ، كما يشير إليه الخبر : « إنَّ من عبادي مَنْ لا يصلحه إلا الغنىٰ . . . » الحديث ، فمن الناس من يخاف عليه الفتنة بها ، وعليه ورد هـٰذا الخبر ، ومنهم من لا يخاف عليه ، كحديث أنس ، وحديث : « نعم المال الصالح للرجل الصالح » ، فكان المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم يخاطب كلَّ إنسان بما يصلحه ويليق به) .

(٤) جاء عند الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣١٠) ، وأحمد (٥/ ٣٤٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٨٥٣) عن أبي مالك الأشعري قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « حلوة الدنيا مرة الآخرة ، ومرة الدنيا حلوة الآخرة » .

(٥) في الأصل : (عن الحسن) ، والتصويب من « تنبيه الغافلين » ، ومن المصادر .

(٦) أخرجه ابن المبارك في « الزهد » (٥٩٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/ ١٧٣ ، ١٧٤) .

وروي عن شقيق الزاهد أنَّه قال : ٱختار الفقراء ثلاثة أشياء ، واختار الأغنياء ثلاثة أشياء ؛ ٱختار الفقراء : راحة النفس ، وفراغ القلب ، وخفة الحساب ، وٱختار الأغنياء : تعب النفس ، وشُغْل القلب ، وشدَّة الحساب .

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةٌ ، وإنَّ فِتْنَةَ أُمَّتي هـٰذا المال »[1] .

وعنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « عُرِضَتْ عليَّ بَطْحاءُ مكَّةَ ذهباً ، قلت : يا ربِّ ؛ أشبعُ يوماً ، وأجوعُ يوماً ، فأحمدكَ إذا شَبِعْتُ ، وأتضرَّعُ إليكَ إذا جعْتُ »[2]) اهـ[3]

فائدة

[في ضرب مثال لغفلة أهل الدنيا]

قال في « الفتح » : (وٱعلم : أنَّ مثل أهل الدنيا في غفلتهم كمثل قومٍ ركبوا سفينة ، فٱنتهَوا إلىٰ جزيرة مُعْشِبة ، فخرجوا لقضاء الحاجة ، فحذَّرهمُ الملاح مِنَ التأخُّر فيها ، وأمرهم أن يقيموا بقدر حاجتهم ، وحذَّرهم مِنْ أن يقلع بالسفينة ويتركهم ، فبادر بعضهم فرجع سريعاً ، فصادف خير الأمكنة وأحسنها فٱستقرَّ فيه ، وٱنقسم الباقون أقساماً :

الأول : ٱستغرق في النظر إلىٰ أزهارها المونقة ، وأنهارها وثمارها الطيبة ، وجواهرها ومعادنها ، ثمَّ ٱستيقظ فبادر إلى السفينة ، فلقي مكاناً دون الأوَّل ، فنجا في الجملة .

القسم الثاني : كالأوَّل ، لكنَّه أكبَّ علىٰ تلك الجواهر والثمار والأزهار ، ولم تسمح نفسه بتركها ، فحمل منها ما قدر عليه ، فتشاغل بجمعه وحمله ، فوصل إلى السفينة ، فوجد مكاناً أضيق مِنَ الأوَّل ، ولم تسمح نفسه برمي ما ٱستصحبه ، فصار مُثْقَلاً ، ثمَّ لم يلبث أن ذبُلَتِ الأزهار ، ويبست تلك الثمار ، وهاجت الرياح ، فلم يجد بُدّاً مِنْ إلقاء ما ٱستصحبه حتَّىٰ نجا بحشاشة نفسه .

---

(1) أخرجه ابن حبان (٣٢٢٣) ، والترمذي (٢٣٣٦) ، وأحمد (٤/ ١٦٠) .

(2) سبق تخريجه (ص ١٩٥) .

(3) « تنبيه الغافلين » (ص٢٢٣ـ٢٣٦) .

القسم الثالث : غَفَلَ عن وصية الملاَّح ، ثم سمع النداء بالرحيل ، فمرَّ فوجد السفينة قد سارتْ ، فبقي بما ٱستصحبه في البرِّ حتىٰ هَلَكَ .

القسم الرابع : ٱشتدت به الغفلة عن سماع النداء ، وسارت السفينة ، فتقسَّم فِرَقاً ؛ فمنهم مَنِ ٱفترسته السباع ، ومنهم مَنْ تاه علىٰ وجهه حتَّىٰ هلك ، ومنهم مَنْ مات جوعاً ، ومنهم مَنْ نهشته الحيَّات ، فهـٰذا مثال أهل الدنيا في ٱشتغالهم بحظوظهم العاجلة ، وما أقبح مَنْ يزعم أنَّه عاقل ثمَّ يغترُّ بالأحجار مِنَ الذهب والفضة ، والأزهار والثمار ، وهو لا يصحبه شيء مِنْ ذلك بعد الموت) اهـ[1]

* * *

(1) « فتح الباري » (١١/ ٢٣٣) ، وهـٰذا المثال الذي نقله الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالىٰ هو ملخص كلام الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ في « الإحياء » (٣/ ٢١٧) ، ذكره عقب حديث مسلم (٢٨٥٨) عن المستورد بن شداد رفعه : « والله ؛ ما الدنيا في الآخرة إلاَّ مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم ، فلينظر بم يرجع ؟ » ، خلال بيانه صفة الدنيا بالأمثلة ، فانظره .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :

٣٨

كَـمْ جَهُـولٍ وَهْـوَ مُثْـرٍ مُكْثِـرٌ وَعَلِيـمٍ مَـاتَ مِنْهَـا بِـالْعِلَـلْ

هٰذا البيت والذي بعده مِنْ تعلُّقات قوله : (فمن عادتها * تخفض العالي وتعلي من سفل) أي : كم رأينا شخصاً جهولاً ـ أي : متَّصفاً بالجهل وعدم العلم ـ وهو مُثْرٍ ـ بضمِّ الميم وسكون المثلثة ـ أي : كثير المال ؛ فقوله : (مُكثِرٌ) عطفُ تفسيرٍ ، قال في « المصباح » : (الثروةُ : كثرةُ المال ، وأثرىٰ إثراءً : ٱستغنىٰ ، والاسم منه : الثَّراء ، بالفتح والمدِّ) .

وقوله : (وعليم) بالجرِّ ، معطوفٌ علىٰ (جهولٍ) أي : وكم رأينا شخصاً عليماً ؛ أي : متَّصفاً بكثرة العلم ، مات منها ـ مِنْ أجل هٰذه الدنيا ـ بالعلل ؛ لضيق العيش عليه ، والعِلَل : جمع : عِلَّة ، قال في « المصباح » : (العلَّةُ : المرضُ الشاغلُ ، والجمع : عِلَل ، مثل : سِدْرَة وسِدَر) اهـ

ولله درُّ القائل : [من الطويل]

عَتِبْتُ عَلَى ٱلدُّنْيَا لِرِفْعَةِ جَاهِلٍ وَتَأْخِيرِ ذِي فَضْلٍ، فَقَالَتْ : خُذِ ٱلْعُذْرَا
بَنُو ٱلْجَهْلِ أَبْنَائِي لِهَـٰذَا رَفَعْتُهُمْ وَأَهْلُ ٱلتُّقَىٰ أَبْنَاءُ ضَرَّتِيَ ٱلأُخْرَىٰ[1]

ولله درُّ سيِّدي عبد الرحمٰن الملاح حيث قال في « تخميسه » :

سَـائِرُ ٱلأَقْـوَالِ عَنْهَـا تَقْصُـرُ وَلَكَـمْ قَـدْ حَـارَ فِيهَـا مَعْشَـرُ
حِكْمَـةٌ قَـدْ حَيَّـرَتْ مَـنْ يُبْصِـرُ كَـمْ جَهُـولٍ وَهْـوَ مُثْـرٍ مُكْثِـرٌ
وَعَلِيـمٍ مَـاتَ مِنْهَـا بِـالْعِلَـلْ[2]

(١) نسبهما ابن فرحون في « الديباج المذهب » (٦٧/١) إلىٰ محيي الدين المعروف بحافي رأسه ، ولابن شيخان السالمي تخميس عليهما .
(٢) « تخميس الملاح » (ص٩) .

وللهِ درُّ إمامنا الشافعيِّ حيث قال : [من الكامل]

مِحَنُ ٱلزَّمَانِ كَثِيرَةٌ لاَ تَنْقَضِي ... وَسُرُورُهُ يَأْتِيكَ كَٱلأَعْيَادِ
مَلَكَ ٱلأَكَابِرَ فَٱسْتَرَقَّ رِقَابَهُمْ ... وَتَرَاهُ رِقّاً فِي يَدِ ٱلأَوْغَادِ[1]

وقال الآخر : [من الوافر]

رَأَيْتُ ٱلدَّهْرَ بِٱلأَشْرَافِ يَكْبُو ... وَيَرْفَعُ رَايَةَ ٱلْقَوْمِ ٱللِّئَامِ
كَأَنَّ الدَّهْرَ ذَا رَجُلٌ حَسُودٌ ... يُطَالِبُ حَقَّهُ عِنْدَ ٱلْكِرَامِ[2]

وقال آخر : [من الكامل]

يَا دَهْرُ صَافَيْتَ ٱللِّئَامَ وَلَمْ تَزَلْ ... أَبَداً لِأَبْنَاءِ ٱلْكِرَامِ مُعَانِدَا
وَعُرِفْتَ كَٱلْمِيزَانِ تَرْفَعُ نَاقِصاً ... أَبَداً وَتَخْفِضُ لاَ مَحَالَةَ زَائِدَا[3]

* * *

---

(١) البيتان في « ديوان الشافعي » (ص٥٦) .

(٢) البيتان ذكرهما ابن عبد البر في « التمهيد » (١٨/١٦١) ، وغيره ، ووقع عنده في البيت الثاني : (كأن الدهر موتورٌ حقودٌ) .

(٣) البيتان للسريِّ الرفاء في « ديوانه » (ص١٦٦) .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :

٣٩

كَـمْ شُجَـاعٍ لَـمْ يَنَـلْ مِنهَـا ٱلْمُنَىٰ ... وَجَبَـانٍ نَـالَ غَـايَـاتِ ٱلأَمَـلْ

أي : كم رأينا شخصاً شجاعاً ـ أي : قوي القلب ـ لم ينل ـ أي : لم يبلغ ـ منها المُنَىٰ ، بضم الميم ، جمع : منية ؛ كمُدْية ومُدَىٰ ، والمنية : ما تمنَّاه الإنسان ، وكم رأينا شخصاً جباناً ـ أي : ضعيف القلب ـ نال ؛ أي : بلغ غايات الأمل ، جمع : غاية ؛ وهي : آخر الشيء ، وأكثر ما يستعمل الأمل فيما يُستبعد حصُولُه ؛ قال كعب بن زهير رضي الله تعالىٰ عنه : [من البسيط]

أَرْجُـو وَآمُـلُ أَنْ تَـدْنُـو مَـوَدَّتُهَـا ... وَمَـا إِخَـالُ لَـدَيْنَـا مِنْـكِ تَنْـوِيـلُ[1]

بخلاف الطمع ؛ فإنَّه لا يكون إلا فيما قَرُب حصوله ، فإن عزمتَ علىٰ سفر إلىٰ بلد بعيد . . تقول : أَمِلْتُ الوصول ، ولا تقول : طَمِعتُ ، إلاَّ إن قربْتَ منها ، وأمَّا الرجاء : فهو بين الأمل والطمع ؛ لأنَّ الراجي قد يخاف ألاَّ يحصل مأموله ، فإن قوي الخوف . . ٱستعمل بمعنى الأمل ، وعليه بيت كعب بن زهير رضي الله تعالىٰ عنه ، وإلاَّ . . ٱستعمل بمعنى الطمع ، هـٰكذا يستفاد مِنَ « المصباح » .

فَائِدَة

[في تعريف الشجاع وذكر بعض من عرف بذلك]

الشجاع : هو الذي لا يهاب القتال إذا ٱلتقى الجمعان ، قال في « المصباح » : (شجع ـ بالضمِّ ـ شجاعة : قويَ قلبُهُ وٱستهان بالحروب ، فهو شجيع وشجاع ، وبنو عقيل تفتح الشين حملاً علىٰ نقيضه وهو جَبَان ، وبعضهم يكسرها للتخفيف ، ويجمع الشجاع علىٰ

(١) البيت من قصيدة كعب بن زهير رضي الله عنه المشهورة : (بانت سعاد) ، وهي عند ابن هشام في « السيرة » (٤/٥٠١) ، وأخرج حديثها الحاكم في « المستدرك » (٣/٥٧٩) ، وفيه البيت ، والبيهقي في « السنن » (١٠/٢٤٣) ، و« الدلائل » (٥/٢٠٧) ، والطبراني في « الكبير » (١٩/١٧٦) .

شِجْعة ؛ مثل : غُلاَم وغِلْمة ، وعلىٰ شُجَعَاء ؛ مثل : شريف وشُرَفاء) .

والجبان ـ بفتح الجيم ـ : هو ضعيف القلب الذي لا يصبر على القتال ، بل يولي هارباً .

وأوصى النبيُّ صلى الله عليه وسلم بالشجاعة وٱستعاذ مِنَ الجبن ؛ فقد روي : أنَّه صلى الله عليه وسلم قال لعليٍّ حين وصيته له : « كُنْ شُجَاعاً ؛ فَإِنَّ ٱللهَ تَعَالىٰ يُحِبُّ ٱلشُّجَاعَ »[1] .

وروي أنَّه صلى الله عليه وسلم قال في دعائه : « اللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الجُبْنِ والبُخْلِ » اهـ[2]

وممَّن عُرِفَ بالشجاعة العظمىٰ : رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ؛ قال أنس بن مالك رضي الله عنه : لقد فَزِعَ أهلُ المدينة ليلةً ، فأنطلق الناسُ قِبَلَ الصوتِ ، فتلقَّاهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم راجعاً ، قد سبقهم إلى الصوت وعرف الخبر علىٰ فرسٍ لأبي طلحة عُرْيٍ ، والسيفُ في عُنُقِهِ وهو يقول : « لَنْ تُرَاعُوا ، لَنْ تُرَاعُوا »[3] .

ومِنَ الشجعان أيضاً : أبو بكر الصديق رضي الله عنه ؛ فإنَّه يوم مات رسول الله صلى الله عليه وسلم قويَ قلبُهُ ، بخلاف غيره ؛ فإنَّ عمر رضي الله عنه كذَّب بموته ، وأمَّا عثمان رضي الله عنه . . فجعل لا يكلِّم أحداً ، وأمَّا عليٌّ رضي الله عنه . . فقعد في بيته ولم يبرح منه ، فدخل أبو بكر رضي الله تعالىٰ عنه وهو ثابتُ العقل مُصيبٌ في القول ، فأكبَّ عليه صلى الله عليه وسلم ، وكشف عن وجهه الكريم ، وقبَّل جبينه وبكىٰ ، ثمَّ خرج والناس قد تاهت عقولهم ، فصعِد المنبر وقال مِنْ جملة خطبته : (مَنْ كان يعبد محمَّداً . . فإنَّ محمَّداً قد مات ، ومن كان يعبد الله . . فإنَّ الله حيٌّ لا يموت ، ثمَّ تلا : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ قال عمر : (فوالله ؛ لكأنِّي لم أسمع بها قطُّ في كتاب الله)[4] .

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « قضاء الحوائج » (٤٤) ، والديلمي في « الفردوس » (٨٣٢٧) .

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٦٥) وما بعده ، ومسلم (٢٧٠٦) و(٢٧٢٢) .

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٠٨) و(٦٠٣٣) ، ومسلم (٢٣٠٧) .

(٤) أخرجه البخاري (٤٤٥٤) ، وابن حبان (٦٦٢٠) ، وابن ماجه (١٦٢٧) .

ومِنَ الشجعان أيضاً : عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه ؛ فكان موصوفاً بالشدَّة والشجاعة ، وكان يضع يده اليمنىٰ علىٰ أذنه اليسرىٰ ، ثمَّ يَثِبُ علىٰ فرسه[1] .

ومِنَ الشجعان : عليُّ بن أبي طالب كرم الله وجهه ؛ فكان شجاعاً بطلاً ، ذكر عنه : أنَّه قَتَلَ ليلة الهَرِيرِ[2] مِنْ حرب صِفِّينَ خمسَ مئةٍ وثلاثةً وعشرينَ رجلاً ، وكان إذا ضرب لا يثني .

ومِنَ الشجعان أيضاً : الزبير بن العوام رضي الله تعالىٰ عنه ، قالوا : لم يكن في عصر النبيِّ صلى الله عليه وسلم فارسٌ أشجع مِنَ الزبير ، ولا راجلٌ أشجعَ مِنْ عليٍّ . اهـ

* * *

(١) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٤/ ٢٢) .

(٢) ليلة الهرير : هي ليلة كانت فيها وقعة بين سيدنا علي وسيدنا معاوية رضي الله عنهما من أيام صِفِّين ، وصِفِّين : الموضع الذي كانت فيه المعركة ، وهو موضع بقرب الرَّقَّة علىٰ شاطىء الفرات من الجانب الغربي ، وسميت ليلة الهرير بذلك ؛ لكثرة ما كان الفرسان يُهِرُّون فيها كما تهرُّ السباع ، والهرير : صوت دون النباح .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :

٤٠

فَـاتْـرُكِ الْحِيلَـةَ فِيهَـا وَاتَّئِـدْ   إِنَّمَـا الْحِيلَـةُ فِـي تَـرْكِ الْحِيَـلْ

أي : فإذا علمتَ أنَّ الأمورَ كلَّها ؛ مِنْ إعطاءٍ ومَنْعٍ ، ونَفْعٍ وضَرٍّ ، وعِزٍّ وذُلٍّ ، وغير ذلك ، بيد الله سبحانه وتعالىٰ ، قدَّرها في سابق أزله . . فاتركِ الحيلة في الدنيا واتَّئِد[1] ؛ أي : ترفَّق في طلبها ولا تَعْجَل فيه .

قال في « المصباح » : (اتَّأَدَ في مَشْيِهِ اتِّئاداً : تَرَفَّقَ ولم يَعْجَل فيه) اهـ

وإنَّما كانتِ الحيلة في ترك الحيل ؛ لأنَّ الخير والشرَّ والرزق وغير ذلك قد ثبت في الأزل ، وصار لا يقبل التغيير ولا التبديل ، فالحيلة في جَلْب الخيرِ أو في دَفْع الشرِّ لا فائدةَ فيها ؛ لأنَّ الذي سبق مِنْ خيرٍ أو شرٍّ واقعٌ لا محالةَ ، فالتسليم وتركُ الحيلة أولىٰ ، قال الله تعالىٰ : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ رُوحَ القُدُس ـ وهو جبريل ـ نَفَثَ في رُوعِي ـ بضمِّ الراء المهملة ؛ أي : قلبي ـ : لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّىٰ تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا ، فاتَّقوا اللهَ وأَجمِلُوا في الطلبِ »[2] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « اَللَّهُمَّ ؛ لاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ ، وَلاَ مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ »[3] .

ولهٰذا قال الشاعر :   [من البسيط]

كَـمْ مِـنْ قَـوِيٍّ قَـوِيٍّ فِـي تَقَلُّبِـهِ   مُهَـذَّبِ الـرَّأْيِ عَنْـهُ الـرِّزْقُ مُنْحَـرِفُ

وَكَـمْ ضَعِيـفٍ ضَعِيـفٍ فِـي تَقَلُّبِـهِ   كَـأَنَّـهُ مِـنْ خَلِيـجِ الْبَحْـرِ يَغْتَـرِفُ

---

(١) الحِيلة : اسم من الاحتيال ، وهو الحذق في تدبير الأمور ، وتقلب الفكر حتىٰ يهتدي إلى المقصود ، زاد الراغب : في خفية .

(٢) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٤/٢) ، وعبد الرزاق في « المصنف » (٢٠١٠٠) ، والقضاعي في « مسنده » (١١٥١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٦/١٠) .

(٣) أخرجه البخاري (٨٤٤) ، ومسلم (٥٩٣) .

هَـٰـذَا دَلِيــلٌ عَلَــىٰ أَنَّ ٱلإِلَـٰـهَ لَــهُ ... فِي ٱلْخَلْقِ سِرٌّ خَفِيٌّ لَيْسَ يَنْكَشِفُ(1)

وقال آخر : [من البسيط]

كَـمْ عَـالِـمٍ عَـالِـمٍ ضَـاقَـتْ مَـذَاهِبُـهُ ... وَجَـاهِـلٍ جَـاهِـلٍ تَلْقَـاهُ مَـرْزُوقَـا
هَـٰـذَا ٱلَّـذِي تَـرَكَ ٱلأَوْهَـامَ حَـائِـرَةً ... وَصَيَّـرَ ٱلْعَـالِـمَ ٱلنِّحْرِيـرَ زِنْـدِيقَـا(2)

إنَّما صار زنديقاً : المنجِّمُ وأشباهُهُ فقط ؛ لعدم إسنادهم القِسمةَ إلى الحكيم المختار ، الذي يرزُقُ مَنْ يشاء بغير حساب ، وأمَّا أرباب البصائر . . فأجمَلُوا في الطلب ، ورضيتْ نفوسُهُم بالقِسْمة ، وأيقنوا بتصديق قوله تعالىٰ : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ .

وأمَّا مَنْ قَصُرَت درجتُهُ عن مقامهم مِنَ الموحدين ؛ كالشيخ الطغرائي . . فلم يزل مُولعاً بذمِّ دهره ، وعدم الرضا علىٰ أهل عصره ، مع سلامة التوحيد ، واعتقاده أنَّ الله تعالىٰ فعَّالٌ لِمَا يُريد(3) .

رَزَقَنَا الله سبحانه وتعالى التسليم لقضائه وقدره ، آمين .

* * *

---

(1) الأبيات أنشدها سفيان بن عيينة رحمه الله تعالىٰ فيما أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٢٧٦/٧) ، والفاكهي في « أخبار مكة » (١٤٧/٢) ، وابن حبان في « روضة العقلاء » (ص١٥٢) ، وهي بتمامها عند الغزالي في « منهاج العابدين » (ص١٦٥) ـ وهو أحد منشورات (دار المنهاج) ـ بزيادة :

فَـاحْمَـدْ إِلٰهـكَ فـي ضِيـقٍ وفـي سَعَـةٍ ... ولا تُعَـانِـدْ فمـا الأرزاقُ تختلـفُ

(2) البيتان في « الإيضاح في علوم البلاغة » (ص١٠١) ، ونسبهما في « معاهد التنصيص » لابن الراوندي الزنديق .

(3) الشيخ الطغرائي : هو العميد مؤيد الدين أبو إسماعيل الحسين بن علي بن محمد الأصبهاني ، المعروف بالطغرائي ، كان وزير السلطان مسعود بن محمد السلجوقي بالموصل ، أسر في حرب دارت بين السلطان مسعود وأخيه محمود ، فخافوا منه لفضله ، فاعتمدوا قتله ، فقتل سنة خمس عشرة وخمس مئة علىٰ خلاف ، فكان من جملة من قتله فضله ، ورماه بنَبْل الدهر نُبْله ، وله ديوان شعر جيد ، ومِنْ محاسنه : قصيدته المعروفة بـ« لامية العجم » ، التي شرحها الإمام الصفدي رحمه الله تعالىٰ بـ« غيث الأدب الذي انسجم في شرح لامية العجم » ، واختصره الإمام الدميري رحمه الله تعالىٰ ، وهو أحد منشورات (دار المنهاج) . وقد كان الطغرائي رحمه الله يصف فيها حاله ، ويشكو زمانه ، ومن ذلك قوله فيها : [من البسيط]

أُرِيـدُ بَسْطَـةَ كَـفٍّ أَسْتَعِيـنُ بِهَـا ... عَلَـىٰ قَضَـاءِ حُقُـوقٍ لِلْعُلَـىٰ قِبَلِـي
وَٱلـدَّهْـرُ يَعْكِـسُ آمَـالِـي وَيُقْنِعُنِـي ... مِـنَ ٱلْغَنِيمَـةِ بَعْـدَ ٱلْكَـدِّ بِـٱلْقَفَـلِ

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :

(٤١)

أَيُّ كَـفٍّ لَـمْ تُفِـدْ مِمَّـا تُفَـدْ فَـرَمَـاهُ ٱللهُ مِنْـهُ بِـٱلشَّلَـلْ

أي : أيُّ كفٌّ كانت لم تُفِد ـ بضم المثناة الفوقية وكسر الفاء ـ أي : لم تعط مما تُفَد ـ بضم أوله وفتح ثانيه ـ : أي من الشيء الذي أفاده الله لها ؛ أي أعطاه ، وقوله : (فرماه الله) أي : أصابه منه ـ أي : من عنده ـ بالشلل ؛ أي : بفساد عروقها وبطلان حركاتها ؛ هٰذا هو الشلل ، ولمَّا كانت الكفُّ يصحُّ تذكيرها وتأنيثها . . أنَّثها أوّلاً فقال : (أيُّ كفٌّ لم تُفِد مما تُفَد) ، وذكَّرها ثانياً بقوله : (فرماه الله) ، وفي نسخةٍ : (فرماها الله) وهي الأَولىٰ[1] ؛ قال في « المصباح » : (الكفُّ مِنَ الإنسان وغيره أنثىٰ ، قال ابن الأنباريّ : وزعم مَنْ لا يوثق به : أنَّ الكفَّ مذكَّرٌ ، وأمَّا قولهم : كفٌّ مُخَضَّب . . فعلىٰ معنىٰ : ساعدٌ مُخَضَّب[2] ، وجمعها : كُفوف وأكُفٌّ ، مثل : فَلْس وفُلُوس وأَفْلُس ، قال الأزهريُّ : الكفُّ الراحة مع الأصابع ، سُمِّيت بذلك ؛ لأنَّها تكفُّ الأذىٰ عنِ البدن) اهـ

وفي هٰذا البيت : الدعاء على الشخص البخيل بشلل يده ؛ لأنَّ الله تعالىٰ نهىٰ عن البخل بقوله : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ ، وأمر بالإحسان بقوله : ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ .

ويشبه هٰذا في المعنىٰ : ما وعد الله به مانعي الزكاة بقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ ، قال بعض أهل المعاني : إنَّما خصَّ هٰذه الأعضاء دون

---

(١) ويروىٰ :

أيُّ كـفٍّ لـم تَنَـلْ منهـا المُنَـىٰ فبـلاهـا اللهُ منـه بـالشلـلْ

(٢) أو علىٰ أنَّه أراد العضو .

غيرها بالذكر ؛ لأنَّ السائل إذا سأل البخيل . . لَوَىٰ عنه وجهَهُ ، فإن ألحَّ عليه . . ٱزْورَّ عنه بشِقِّ جنبهِ الذي يليه ، فإن ألحَّ عليه . . ولأَّهُ ظهرَهُ[1] .

وروى الخطيب أبو بكر أحمد بن عليِّ بن ثابت بإسناده عنِ ابن عباس أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « لمَّا خَلَقَ اللهُ جنَّةَ عدنٍ . . قالَ لها : تَزَيَّني فتزَيَّنتْ ، ثمَّ قال لها : أظهري أنهارَكِ فأظهرتْ عينَ السلسبيلِ وعينَ الكافورِ وعينَ التسنيمِ ، ونهرَ اللبنِ ونهرَ العسلِ ونهرَ الخمرِ ، ثمَّ قال لها : أظهري حُورَكِ وحِليَّكِ وحُلَلَكِ ، ثمَّ قال لها : تكلَّمي ، فقالت : طوبىٰ لِمَنْ دخلني ، فقال الله عزَّ وجلَّ : أنتِ حرامٌ علىٰ كلِّ بخيلٍ »[2] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « أَقْسَمَ اللهُ بعزَّتِهِ وعظمتِهِ وجلالِهِ : لا يدخلُ الجنَّةَ شحيحٌ ولا بخيلٌ »[3] .

والشحُّ : أن تكون النفسُ حريصةً على المنع ، والبخل هو نفس المنع .

وقال بعضهم : لو لم يكن في البخلاء إلاَّ سوء الظنِّ بربِّهم في الخلف . . لكان عظيماً ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ .

وكان أبو حنيفة رحمه الله تعالىٰ لا يرىٰ قبول شهادة البخيل ، ويقول : (بخله يحمله علىٰ أن يأخذ فوق حقِّهِ مخافةَ أن يُغْبَنَ ، فَمَنْ هـٰذه حالته . . لا يكون مأموناً)[4] .

وقال بِشْرٌ الحافي : (لا غِيبةَ لبخيلٍ ، ولَشرطيٌّ سَخِيٌّ أحبُّ إلى الله مِنْ عابدٍ بخيلٍ) .

وقالوا : البخيل يملأ بطنَهُ والجارُ جائع ، ويحفظ مالَهُ والعرضُ ضائع .

قال الشاعر : [من الكامل]

وَمِنَ ٱلْجَهَالَةِ بِٱلْمَكَارِمِ أَنْ تَرَىٰ ... جَاراً يَجُوعُ وَجَارُهُ شَبْعَانُ[5]

---

(1) ذكر نحوه الإمام الذهبي في « الكبائر » (ص٣٧) .

(2) أخرجه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٢١٣/١١) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه موقوفاً عليه ، وأخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً الطبراني في « الكبير » (١٤٨/١١) ، و« الأوسط » (٥٥١٤) ، وتمام في « فوائده » (٢٥٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٥٠/٥٢) .

(3) أخرجه تمام في « فوائده » (١٧٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٧٣/٥٧) .

(4) انظر « شرح فتح القدير » (٤٨٦/٦) ، و« الدر المختار » (٤٨١/٥) ، و« حاشية ابن عابدين » (١١٤/٧) .

(5) البيت لأبي العتاهية رحمه الله كما في « مكارم الأخلاق » لابن أبي الدنيا (٣٤٨) .

وقال إسحاق بن إبراهيمَ المَوْصليُّ : [من الطويل]

أَرَى ٱلنَّـاسَ خُـلاَّنَ ٱلْجَـوَادِ وَلاَ أَرَىٰ بَخِيـلاً لَـهُ فِـي ٱلْعَـالَمِيـنَ خَلِيـلُ
وَإِنِّـي رَأَيْـتُ ٱلْبُخْـلَ يُـزْرِي بِـأَهْلِـهِ فَأَكْرَمْتُ نَفْسِي أَنْ يُقَالَ : بَخِيلُ[1]

وقال الحسن البصري : (لم أرَ أشقىٰ بماله مِنَ البخيل ؛ لأنَّه في الدنيا مهتمٌّ بجمعه ، وفي الآخرة محاسبٌ علىٰ منعه ، غيرُ آمن في الدنيا مِنْ هَمِّهِ ، ولا ناج في الآخرة مِنْ إثمِهِ ، عيشُهُ في الدنيا عيشُ الفقراء ، وحسابُهُ في الآخرة حسابُ الأغنياء) .

وكان محمد بن يحيى بن خالد بخيلاً بالنسبة إلىٰ أبيه وأخويه جعفر والفضل ، فسئل محمد بن علي عنْ مائدته ، فقال : صِحَافُها منقورة مِنْ خشب الخشخاش ، وبين الرغيف والرغيف ضربة كرةٍ ، وبين اللون واللون فترةُ نبيٍّ ، قيل : ومَنْ يحضرها ؟ قال : خيرُ خلق الله وشرُّهم ، قيل : مَنْ هم ؟ قال : الملائكة والذباب ، قيل : أنت خاص به وثوبك مخرَّق ؟! فقال : والله ؛ لو مَلَكَ بيتاً مِنْ بغداد إلى النوبة مملوءً إبراً ، ثمَّ جاءه يعقوبُ النبيُّ ومعه الملائكةُ شفعاءَ ، والأنبياءُ كفلاءَ يسألونَهُ إعارةَ إبرة يَخِيطُ بها قميصَ يوسفَ الذي قُدَّ مِنْ دُبُرٍ . . ما فعلَ ، وقد نظم ذلك بعض الشعراء بقوله : [من الكامل]

لَـوْ أَنَّ دُورَكَ يَـا بْـنَ أَغْلَـبَ كُلَّهَـا إِبَـرٌ يَضِيـقُ بِهَـا رَحِيـبُ ٱلْمَنْـزِلِ
وَأَتَـاكَ يُـوسُـفُ يَسْتَعِيـرُكَ إِبْـرَةً مِنْهَـا لِقَـدِّ قَمِيصِـهِ لَـمْ تَفْعَـلِ

وقال الأصمعي : (قالتِ ٱمرأة مدنية لزوجها : ٱشترِ لي رُطباً ، فقال لها : وكيف يُباع الرطب ؟ فقالت : كلُّ كَيْلَجة بدرهم ، فقال : والله ؛ لو خرج الدجال ، وعاث في الأرض ، وأنت تتمخضين بعيسىٰ ، والناس ينتظرون الفرج علىٰ يديه ، ثمَّ لم تلديه حتَّىٰ تأكلي الرطب . . ما ٱشتريته لك كلَّ كَيْلَجة بدرهم) .

وكان جعفر بن سليمان بخيلاً على الطعام ، رفعت المائدة من بين يديه يوماً وعليها دجاجة صحيحة ، فأخذ منها بعضُ بنيه جناحاً ، فلمَّا أعيدت إليه بالغداة . . قال : مَن هٰذا

---

(١) البيتان في « الأغاني » (٥/ ٣٣٢) ، و« معجم الأدباء » (٢/ ٣٤٧) ، و« تاريخ بغداد » (١٤/ ١١) ، و« تاريخ دمشق » (٨/ ١٥٢) ، و« وفيات الأعيان » (١/ ٢٠٤) ، و« مرآة الجنان » (٢/ ١١٥) .

الذي تعاطىٰ فعقر ، فقيل له : ولدك الصغير ، فقطع أرزاق جميع بنيه من أجله ؛ فلما طال ذلك وأضرّ بهم الحال . . جاء أكبرهم وقال : يا أبانا ؛ أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟ فأعجبه ذلك ، وأمر بردِّ أرزاقهم إليهم .

وقال بعض الأكياس : دعاني كوفي إلىٰ منزله ، وقدم لي دجاجةً ، فأكلتُ مِنَ المَرَقَةِ ، وجهدتُ أن آكل مِنَ اللحم فما قدرت ، وبتُّ عنده ، فأعاده من الغد إلى القدر وطبخه وقدمه إليّ فأكلت مِنَ المَرَقِ ، وجهدتُ أن آكل مِنَ الدجاجة فما قَدَرتُ لشدَّته ، فبتُّ عنده الليلة الثانية ؛ فلمَّا كانَ مِنَ الغد . . قال للغلام : أطرحْ على اللحم مِنَ المَرَقِ ليصير قلية ، ففعل ، ثمَّ قدَّمه إليَّ ، فأكلتُ مِنَ المَرَقِ ، وجهدتُ أن آكل مِنَ اللحم فلم أقدِرْ لقوَّته ، فأخذتُ قطعةً مِنَ اللحم ، ووضعتُها إلىٰ جهة القِبلة ، وقمتُ لأصلي عليها ، فقال : ما هـٰذا الذي تصنع ؟ فقلت : أشهد أنَّه لحمُ وليٍّ مِنْ أولياء الله تعالىٰ ؛ فإنَّه قد أُدخِلَ النارَ ثلاث مرَّات ، فلم تفعل فيه شيئاً ، فلمَّا أردتُ الانصراف . . وإذا ببعض جيرانه يدُقُّ الباب ، فقال : أعرني ديك اللحم لضيفٍ لأطبخه له وأرُدَّه إليك إن شاء الله تعالىٰ ، فناوله إياه .

ومِنْ نوادر القطان : أنَّه جلس يأكل هو وزوجته طعاماً ، فقال لها : أكشفي رأسك ، ففعلتْ ، وقرأ هو (سورة الإخلاص) ، فسألته زوجته عن ذلك ، فقال : المرأة إذا كشفت رأسها . . هربتِ الملائكة ، وإذا قُرئت (سورة الإخلاص) . . هربتِ الشياطين ، وأنا أكره الزحمة على المائدة .

وقال الحسن بن علي رضي الله تعالىٰ عنه : (البخل جامع المساوىء والعيوب ، وقاطع المودَّاتِ مِنَ القلوب) .

نسأله سبحانه وتعالى التوفيق لما يحبُّ ويرضىٰ .

* * *

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :

٤٢

لاَ تَقُلْ أَصْلِي وَفَصْلِي أَبَداً   إِنَّمَا أَصْلُ ٱلْفَتَىٰ مَا قَدْ حَصَلْ

أي : لا تقل يكفيني شرفُ أصلي ؛ أي : والدي ، وفصلي ؛ أي : ولدي[١] ؛ أي : لا تتّكل علىٰ ما حَصَلَ لوالدك أو لولدك مِنَ الفضل والشرف ؛ لأنَّهما لا يُغنيان عنك مِنَ الله شيئاً ، بل حصِّل أنت شيئاً ينفعك عند الله سبحانه وتعالىٰ مِنَ الأعمال الصالحة ، فعليك بخاصَّة نفسك ، قال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ، وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ . . لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ »[٢] أي : مَنْ قصَّر به عمله السيء . . لم ينفعه شرف نسبه ، ولم ينجبر نقصُه به[٣] ، فلا يُلحِقُه نسبُهُ برُتَبِ أصحاب الأعمال الكاملة ؛ لأنَّ المسارعة إلى السعادة إنَّما هي بالأعمال لا بالأنساب ؛ لقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « أْتوني بِأَعْمَالِكُمْ وَلاَ تَأْتُونِي بِأَنْسَابِكُمْ »[٤] .

---

(١) الأصل : أساس الشيء ، وكل ما يستند وجود ذلك الشيء إليه ، ومنه سمي الأب وإن علا أصلاً ، والفصل : القطع ، والمراد هنا : الفرع ، وهو الولد وإن سفل ؛ لأنه ينفصل عن أصله ، وهو الأب .

(٢) تقدم تخريجه (ص١٨٧) .

(٣) إذ في تقصير الولد مع كمال الأصل منقصة ؛ لأن شرف الأصل وصلاحه يستلزم شرف الفرع وصلاحه ، ولذا قال الله تعالىٰ علىٰ لسان قوم السيدة مريم : ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ ، فإذا ما قصر . . لم ينجبر بأصله ونسبه ما حصل له مِن النقص بسبب تقصيره ، بل كان سوء عمله قد جر المنقصة إليه من وجهين : أحدهما : في التقصير نفسه ، والثاني : أن مثله ممن شرف نسبه ونبل أصله وصلح آباؤه لا ينبغي أن ينزل عن مراتبهم ، ففي نزوله وتقصيره زيادة منقصة .

(٤) أخرج بنحوه ابن أبي عاصم في « السنة » (٢١٩) ، والطبراني في « مسند الشاميين » (٩٢٩) .

فإن قلت : قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ يدُلُّ علىٰ أنَّ شرف النسب ينفع ؛ فإنَّ المفسرين فسروه بأنَّ ذرياتِ المؤمنينَ ـ صِغاراً كانوا أو كباراً ـ يُلحقون بآبائهم في المراتب مِنْ غير أن يَنْقُصَ مِنْ مراتب الآباء شيء ، وفي الحديث : « إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ ذُرِّيَّةَ المؤمِنِ فِي دَرجَتِهِ وَإِنْ كَانُوا دُونَهُ ؛ لِتَقَرَّ بِهِمْ عَيْنُهُ »[1] اهـ ، ويؤخذ منه : أنَّ الأب إذا كان دون ولده في الدرجة . . أنَّه يرفع في درجة ولده للعلَّة المذكورة ، فما وجه التوفيق بين هٰذا وبين حديث : « مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ . . لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ » ؟

فالجواب : أنَّ المذكور في الآية وحديثِ : « إنَّ الله يرفع ذرِّيَّةَ المؤمن . . . » . . حتَّىٰ تكون في درجته في الجنَّة ، والحديث المذكور ؛ وهو : « مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ . . . » . . محمولٌ على الصراط ، وفي لفظِ الإبطاء والإسراع إشارةٌ لذلك ، ويؤيِّدُهُ ما روي : أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « يَكُونُ رَجُلٌ هُوَ آخِرُ مَنْ يَجُوزُ عَلَى الصِّرَاطِ ، فَيَلْتَفِتُ فَلاَ يَرَىٰ وَرَاءَهُ أَحَداً ، فَيَقُولُ : يَا رَبِّ ؛ أَبْطَأْتَ بِي ، فَيُنَادِهِ : يَا عَبْدِي ؛ إِنِّي لَمْ أُبْطِىءْ بِكَ ، وَإِنَّمَا أَبْطَأَ بِكَ عَمَلُكَ »[2] اهـ

وقال في « غرر الخصائص الواضحة » ما نصُّه : (الشرف بالهمم العالية لا بالرمم البالية ، وقالوا : شرف الإنسان بفضله لا بأصله ، وجلالته بأدبه لا بنسبه ، فافتخر بالعلوم العالية لا بالعظام البالية ، وقالوا : مَنْ فاتَهُ حَسَبُ نفسه . . لم ينفعه حسب أبيه .

ولله درُّ القائل : [من الطويل]

وَمَا ٱلْحُسْنُ فِي وَجْهِ ٱلْفَتَىٰ شَرَفاً لَهُ ... إِذَا لَـمْ يَكُـنْ فِـي فِعْلِـهِ وَٱلْخَـلاَئِـقِ[3]

وقالوا : الشرف بالفضل والأدب ، لا بالأصل والنسب .

---

(١) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً عليه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٤٦٨) ، والبيهقي في « الاعتقاد » (١/ ١٦٦) .

(٢) هو قطعة من حديث الشفاعة الذي يرويه أبو الزهراء عن ابن مسعود موقوفاً عليه ، أخرجه بطوله الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٤٩٦) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٨/ ٦٧٥) ، والطبراني في « الكبير » (٩/ ٣٥٤) .

(٣) البيت للمتنبي في « ديوانه » (٢/ ٣٢٠) .

وما أحسن ما قال بعضهم : [من المنسرح]

كُـنِ ٱبْـنَ مَـنْ شِئْـتَ وَٱكْتَسِـبْ أَدَبـاً يُغْنِيـكَ مَحْمُـودُهُ عَـنِ ٱلنَّسَـبِ

إِنَّ ٱلْفَتَـىٰ مَـنْ يَقُـولُ هَـا أَنَـا ذَا لَيْـسَ ٱلْفَتَـىٰ مَـنْ يَقُـولُ كَـانَ أَبِـي[1]

وأنشد الحريري فقال : [من الطويل]

وَمَـا ٱلْفَخْـرُ بِـٱلْعَظْـمِ ٱلـرَّمِيـمِ وَإِنَّمَـا فَخَارُ ٱلَّذِي يَبْغِي ٱلْفَخَارَ بِنَفْسِهِ[2])[3]

* * *

---

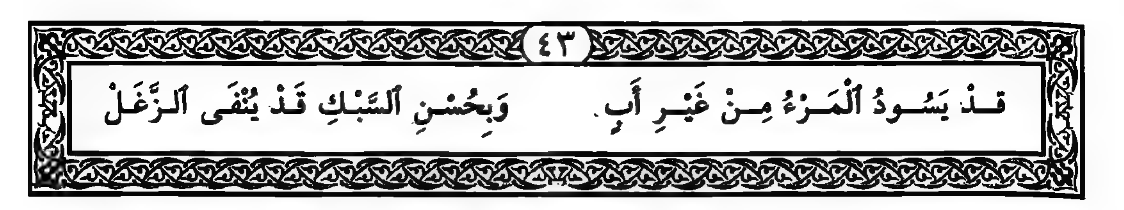
(١) البيتان منسوبان لسيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه كما في « ديوانه » (ص٤٩) ، وبينهما :

فليـس يُغنـي الحسيـبَ نسبتُـهُ بـلا لسـانٍ لـهُ ولا أدبِ

(٢) البيت في « مقامات الحريري » (ص٢٥٣) .

(٣) « غرر الخصائص » (ص٥ـ٦) و(ص٩٧) .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



أي : قد يشرُف المرء مِنْ غير أب ؛ أي : مِنْ غير شرف أب ، وبحسن السبك قد ينفى الزغل ، قال في « المصباح » : (سَبَكْتُ الذهب سبكاً ، مِنْ باب قتل : أذبتُهُ وخلصتُهُ مِنْ زَغَلِهِ ، والسبيكةُ : القطعة المستطيلة ، والجمع : سبائك) اهـ

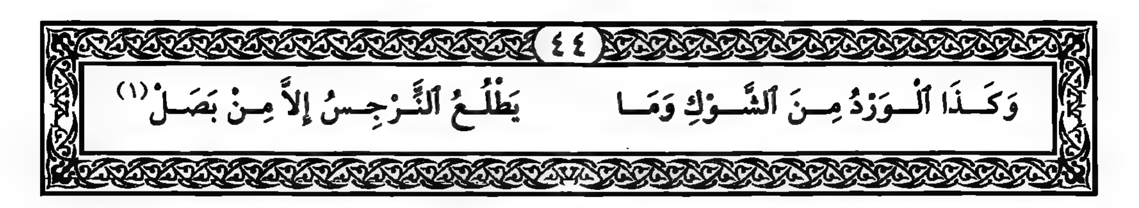
وقد أورد الناظم رحمه الله تعالىٰ في هٰذا البيت والبيت الذي بعده أمثلةً قياسيَّةً يتمُّمُ بها الحجَّة علىٰ ما ٱدَّعاه[1] ؛ مِنْ أنَّ السيادة والشرف قد يحصُلان للإنسان دون آبائه وأجداده كرامةً مِنَ الله تعالىٰ ، كما هو مشاهد ومعلوم بالضرورة ، فإنَّا نشاهدُ أشخاصاً كثيرينَ خصَّهُمُ الله تعالىٰ بالعلم والسيادة ومكارم الأخلاق ، ما لم يخصَّ به أحداً مِنْ آبائهم وأجدادهم ، ونشاهدُ أيضاً : أنَّ الفضَّةَ المغشوشة إذا صليت بالنار . . صَفَتْ مِنَ الغِشِّ ، وخَلَصتْ مِنَ الزَّغَلِ ، فقد سادت علىٰ أصلها .

* * *

---

(١) إذ القياس تشبيه ، وهو هنا فيما يسوقه علىٰ سبيل التشبيه الضمني ، الذي يشتمل علىٰ دليل يؤكد الدعوىٰ كي يقيس المتلقي شيئاً علىٰ آخر لجامع بينهما .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



أي : ومِنَ الأمثلة : الورد المعلوم ؛ فإنَّه معَ حسن نضارته وحمرة لونه وسلطنته على الأزهار . . يطلعُ مِنَ الشوك المؤذي طبعاً ، فمِنَ المعلوم ضرورةً : أنَّه قد ساد علىٰ أصله .

وعن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « لمَّا أُسريَ بي إلى السماء . . سَقَطَ عَلَى ٱلأَرْضِ مِنْ عَرَقِي ، فَنَبَتَ مِنْهُ ٱلْوَرْدُ ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَشَمَّ رَائِحَتِي . . فَلْيَشَمَّ ٱلْوَرْدَ » أخرجه ابن عدي في « كامله »[(٢)] .

وعن أنسٍ رضي الله تعالىٰ عنه مرفوعاً : « ٱلْوَرْدُ ٱلأَبْيَضُ خُلِقَ مِنْ عَرَقِي لَيْلَةَ ٱلْمِعْرَاجِ ، وَٱلْوَرْدُ ٱلأَحْمَرُ خُلِقَ مِنْ عَرَقِ جِبْرِيلَ ، وَٱلْوَرْدُ ٱلأَصْفَرُ خُلِقَ مِنْ عَرَقِ ٱلْبُرَاقِ » أخرجه ٱبن فارس في « كتاب الريحان »[(٣)] .

وروى ٱبن العديم في « تاريخه »[(٤)] بسنده إلىٰ عليِّ بن عبد الله الهاشميِّ قال : (دخلت الهند فرأيت في بعض قراها وردة كبيرة طيبة الرائحة سوداء مكتوباً عليها بخطٍّ أبيض : لا إلـٰه إلا الله محمد رسول الله ، أبو بكر الصديق ، عمر الفاروق ، فشككت في ذلك وقلت : إنَّه معمول ، فعمدتُ إلىٰ وردة أخرىٰ لم تَفَتَّحْ ففتحتُها ، فكان فيها مثل ذلك) .

وقوله : (يطلُع) هو بضمِّ اللام ، مِنْ باب (قعد) كما في « المصباح » .

---

(١) في رواية : (ينبت) بدل : (يطلع) .

(٢) « الكامل » (٢/٣٤٢) ، وأخرجه أيضاً ابن حبان في « المجروحين » (٢/٨١) ، وابن الجوزي في « الموضوعات » (٢/٢٥٦) .

(٣) أورد سند ابن فارس في « الريحان والراح » ابن الجوزي في « الموضوعات » (٢/٢٥٧) ، ساق الحديث بطرقه ورواياته ، وانظر «كشف الخفاء» (١/٢٥٨) .

(٤) في الأصل : (وروى ابن القيم) ، والصواب : ابن العديم في « تاريخه » المسمىٰ : « بغية الطلب في تاريخ حلب » (٥/٢٢٥٥) ، والله أعلم .

ومنها أيضاً : النَّرْجِس ، وهو بكسر النون والجيم على المشهور المختار ، ويجوز فتحها مع كسر الجيم أيضاً كما في « المصباح » ، وهو زهر ذكيُّ الرائحة ، ومعَ ذكاء رائحته وصفاء لونه ونضارته يطلُع مِنَ البصل ، وهو خبيثٌ طعماً ورائحةً ، فمعلومٌ ضرورةً أيضاً : أنَّه ساد عن غير أصل .

وممَّا جاء في النرجس : ما ورد عن عليٍّ بن أبي طالب كرَّم الله وجهه : (شُمُّوا النرجس ولو في اليوم مرَّة ، ولو في الشهر مرَّة ، ولو في الدهر مرَّة ؛ فإنَّ في القلب حبَّةً مِنَ الجنون والجذام والبرص لا يقطعها إلا شمُّ النرجس)[١] .

وقال بقراط : (كلُّ شيء يغذو الجسم ، والنرجس يغذو العقل) .

وقال الحسن بن سهل : (مَنْ أدمن شمَّ النرجس في الشتاء .. أمن مِنَ البرسام في الصيف)[٢] .

وقال بعض ظرفاء الأدباء : (النرجس نُزْهةُ الطَّرْف ، وظَرْفُ الظَّرْف ، وغِذاء الرُّوح ، ومادة الرَّوح) .

وقال كِسرىٰ : (إنِّي لأستحي أن أباضع ـ أي : أجامع ـ في مجلس فيه النرجس ؛ لأنَّه أشبه شيء بالعيون الناظرة)[٣] .

وفيه يقول الشاعر : [من الكامل]

وَإِذَا قَضَيْـتَ لَنَـا بِعَيْـنِ مُـرَاقِـبٍ ... فِي ٱلْحُبِّ فَلْتَكُ مِنْ عُيُونِ ٱلنَّرْجِسِ[٤]

---

(١) أخرجه الديلمي في « الفردوس » (٣٥٨٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٦/١٤) ، وابن الجوزي في « الموضوعات » (٢٥٦/٢) ، وانظر « تلخيص الموضوعات » (ص٢٦٩) .

(٢) أورده ابن خلكان في « وفيات الأعيان » (١٢٣/٢) .

(٣) ذكره الثعالبي في « لطائف اللطف » (ص٣٢) .

(٤) البيت لابن الدباغ المصري علي بن الحسين ، كما في « المثل السائر » (٣٠١/٢) ، و« خزانة الأدب » للحموي (٤٣٢/١) ، وقبله :

يَـا ربِّ إن قـدَّرتَـهُ لمُقَبِّـلٍ ... غيـري فلـلأقـداحِ أو لـلأكـؤسِ

وقال الشاعر : [من البسيط]

قَدْ أَكْثَرَ ٱلنَّاسُ فِي تَشْبِيهِهِمْ أَبَداً ... لِلنَّرْجِسِ ٱلْغَضِّ بِٱلأَجْفَانِ وَٱلْحَدَقِ
وَمَا أُشَبِّهُهُ بِٱلْعَيْنِ إِذْ نَظَرَتْ ... لَكِنْ أُشَبِّهُهُ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْوَرَقِ[1]

وذكر بعضهم : أنَّه نافعٌ مِنَ البلغم ومِنَ الصداع البارد ، ومِنْ سائر الأمراض الباردة مِنْ « حاشية سيدي أحمد السجاعي على القطر » .

وقال الجلال السيوطي : رئي أبو نُوَاس في النوم ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لي بأربعة أبيات قلتها في النرجس ؛ وهي : [من الوافر]

تَأَمَّلْ فِي رِيَاضِ ٱلأَرْضِ وَٱنْظُرْ ... إِلَىٰ آثَارِ مَا صَنَعَ ٱلْمَلِيكُ
عُيُونٌ مِنْ لُجَيْنٍ شَاخِصَاتٌ ... بِأَحْدَاقٍ هِيَ ٱلذَّهَبُ ٱلسَّبِيكُ
عَلَىٰ قُضُبِ ٱلزَّبَرْجَدِ شَاهِدَاتٌ ... بِأَنَّ ٱللهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكُ
وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدٌ رَسُولٌ ... إِلَى ٱلثَّقَلَيْنِ أَرْسَلَهُ ٱلْمَلِيكُ[2]

فائدة

[في بيان ما بقي من الأمثلة التي ساد فيها الشيء علىٰ أصله]

بقي مِنَ الأمثلة التي ساد فيها الشيء علىٰ أصله شيئان لم يذكرهما الناظم :

أحدهما : العسل ؛ فإنَّه معَ صفاء لونه وحلاوة طعمه وشفاء الناس به . . يخرج مِنْ بطون ذباب النَّحْل ، فمعلومٌ : أنَّه ساد عن غير أصل .

ثانيهما : الحرير بجميع أنواعه ؛ مِنْ إبريسم وديباج وغير ذلك ؛ فإنَّه معَ نعومته وغلاءِ ثمنه[3] ومنافعه العامة التي لم توجد في غيره . . يخرج مِنْ دودة ضعيفة دقيقة الجسم جدّاً ، فمعلوم : أنَّه ساد عن غير أصل .

---

(١) البيتان للشهاب التلعفري كما في « الوافي بالوافيات » (٣/ ٣٣٧) .

(٢) الأبيات عدا الأخير أخرجها ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٣/ ٤٦٥) ، وقد خمس عليها عمر الأنسي .

(٣) في الأصل : (وغلوٌ ثمنه) ، والصواب ما أثبت ، يقال : غَلاَ السعر وغيره يَغْلُو غَلاَءً : ٱرتفع سعره ، وغَلاَ في الدين والأمر يَغْلُو غُلُوّاً ، وغالىٰ في أمره مغالاةً : جاوز فيه الحدَّ وأفرط فيه .

ولله درُّ الملاح حيث قال في « تخميسه » :

إِنْ تَكُنْ مِمَّنْ بِأَصْلٍ كَرُمَا فَمِنَ ٱلنَّخْلِ شِفَاءٌ عُلِمَا
وَمِنَ ٱلدُّودِ حَرِيرٌ أُحْكِمَا وَكَذَا ٱلْوَرْدُ مِنَ ٱلشَّوْكِ وَمَا
يَطْلُعُ ٱلنَّرْجِسُ إِلاَّ مِنْ بَصَلْ[1]

* * *

(١) « تخميس الملاح » (ص١٠) ، وفيه : (ينبت) بدل : (يطلع) .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :

٤٥

مَـــعَ أَنَّــــي أَحْمَــــدُ اللهَ عَلَـــىٰ نَسَبِــي إِذْ بِــأَبِــي بَكْــرِ ٱتَّصَــلْ

أي : لا تتوهَّم أيُّها السامع أنَّ قولي لك : (**لاَ تَقُلْ أَصْلِي. . .**) ناشىءٌ عن عدم ٱتّصالِ نسبي بأصلٍ شريف ، بل هو مِنَ النصحية المأمور بها ، وإلاَّ . . فأنا أحمد الله سبحانه وتعالىٰ ؛ فإنَّ نسبي متَّصلٌ بأفضل الأولين والآخرين بعد النبيين والمرسلين ؛ وهو أبو بكر الصدِّيق رضي الله تعالىٰ عنه ، وتحدَّثتُ بذلك ؛ ٱمتثالاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ .

وإنَّما حَمِدَ الله تعالىٰ على المنعَمِ به ؛ أي : في مقابلته لا مطلقاً ؛ لأنَّ الأوَّل واجبٌ ، والثاني مندوبٌ[1] ، وٱتِّصال نسبه رضي الله تعالىٰ عنه بأبي بكر رضي الله تعالىٰ عنه صحيحٌ لا خلاف فيه .

وأمَّا أبو بكر رضي الله تعالىٰ عنه : فهو الإمام الأفضل والخليفة الأكمل عبد الله بن عثمان ـ المكنىٰ بأبي قحافة ـ ابن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرَّة ـ يلتقي مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم في مرَّة ـ ابن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

وأمُّه : أمُّ الخير سلمىٰ بنت صخر بن عامر بن كعب التيمي ، أسلم هو وأبوه وأمُّه ، وفي

---

(١) المراد من كلامه : أنَّ الحمد فيه بحث من جهة التقسيم ، ومن جهة الوجوب ؛ أما من جهة التقسيم. . فينقسم إلىٰ مطلق ومقيَّد ؛ فالمطلق : هو ما كان الباعث فيه نعمة واصلة لغير الحامد ، أو كان الباعث وصفاً كمالياً قائماً بالمحمود ؛ كالعلم مثلاً ، فالحمد علىٰ هـٰذا النحو يكون حمداً مطلقاً في غير مقابلة نعمة ، وأما المقيَّد : فما كان في مقابلة نعمة واصلة للحامد ، فيكون الحمد علىٰ هـٰذا النحو مقيَّداً علىٰ أنَّ الباعث له هو نعمة واصلة للحامد ، وأما الوجوب : فالمقيد واجب بخلاف المطلق ، ولا يتعين لفظ الحمد ، وإنما إن وقع بلفظ الحمد. . كفىٰ ، هـٰذا في حق الحمد اللغوي ، وأما العرفي. . فلا يتأدَّىٰ بمطلق القول ؛ إذ هو صرف الإنسان كلِّهُ وجميعَ أعضائه له ، فلا يخرج من عهدة الطلب بمجرد الذكر اللساني . وانظر « تفسير الفاتحة الكبير » لابن عجيبة (ص١٧٣) .

أولاده وأولادهم مَنْ عُدَّ مِنَ الصحابة ؛ منهم : عبد الله بن الزبير ، أمُّه أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله تعالىٰ عنه ، ولُقِّب بالصدِّيق ؛ لأنَّه أوَّل رجل آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم وصدَّق به ، ولُقِّب بعتيق أيضاً ؛ لعتقه مِنَ النار[١] ، وهو صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم بنصِّ القرآن[٢] ، فمَنْ أنكر صحبته.. كفر ، بخلاف غيره مِنْ بقية الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين ، وقد شبَّهه النبيُّ صلى الله عليه وسلم بميكائيل في الرأفة والرحمة ، وبإبراهيمَ الخليل في الوقار والعفو[٣] .

وفي الحديث : أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما طَلَعَتِ ٱلشَّمْسُ وَلاَ غَرَبَتْ عَلَىٰ أَحَدٍ بَعْدَ ٱلنَّبِيِّينَ وَٱلْمُرْسَلِينَ أَفْضَلَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ »[٤] .

ونزل جبريل عليه السلام على النبيِّ صلى الله عليه وسلم فقال : (يا رسول الله ؛ إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول لك : أنا راضٍ عن أبي بكر ، فهل هو راضٍ عني ؟)[٥] .

وأخرج أبو يعلىٰ عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَتَانِي جِبْرِيلُ آنِفاً ، فَقُلْتُ يَا جِبْرِيلُ ؛ حَدِّثْنِي بِفَضَائِلِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ ، فَقَالَ : لَوْ حَدَّثْتُكَ بِفَضَائِلِ عُمَرَ مَا لَبِثَ[٦] نُوحٌ فِي قَوْمِهِ.. مَا نَفِدَتْ فَضَائِلُ عُمَرَ ، وَإِنَّ عُمَرَ حَسَنَةٌ مِنْ حَسَنَاتِ أَبِي بَكْرٍ »[٧] .

---

(١) كما في حديث عائشة رضي الله عنها عند الحاكم في « المستدرك » (٢/٤١٥) ، والترمذي (٣٦٧٩) ، وأبي يعلىٰ (٤٨٩٩) في « مسنده » : أن أبا بكر دخل علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أنت عتيق الله من النار » .

(٢) وهو قوله تعالىٰ في (سورة التوبة) : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ الآية .

(٣) والحديث عند اللالكائي في « السنة » (٢٥١٣) ، وأبي نعيم في « الحلية » (٤/٣٠٤) ، والطبراني في « الكبير » (٢٣/٣١٥) .

(٤) أخرجه اللالكائي في « السنة » (٢٤٣٣) ، وأحمد في « فضائل الصحابة » (١٣٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/٣٢٥) .

(٥) لفظ الحديث كما أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٠/٦١) وغيرُه : « كلما هبط جبريل علي قال : يا محمد ؛ الله يقرئك السلام ، ويقول لك : أقرىء أبا بكر السلام ، وقل له : أساخط فأرضيك ؟ » ، فقال : علىٰ من أسخط يا رسول الله ؟! أنا عنه راض ، فهل هو عني راضٍ ؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « هو عنك راضٍ » ، فقال أبو بكر : الحمد لله .

(٦) في الأصل : (منذ ما لبث) .

(٧) أخرجه اللالكائي في « السنة » (٢٤٣١) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (١٦٠٣) ، والروياني في « مسنده » (١٣٤٢) ،
=

وأخرج أبو يعلىٰ أيضاً عن أبي هريرة رضي الله تعالىٰ عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عُرِجَ بِي إِلَى ٱلسَّمَاءِ ، فَمَا مَرَرْتُ بِسَمَاءٍ إِلاَّ وَجَدْتُ فِيهَا ٱسْمِي ؛ مُحَمَّدٌ رَسُولُ ٱللهِ صلى الله عليه وسلم ، وَأَبُو بَكْرٍ ٱلصِّدِّيقُ خَلْفِي »[1] .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال : لمَّا نزلت ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ . . قال أبو بكر : يا رسول الله ؛ لو أمرتني أن أقتل نفسي . . لفعلت ، قال : « صَدَقْتَ »[2] .

وروى ٱبنُ عساكرَ : أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « خِصَالُ ٱلْخَيْرِ ثَلاثُ مِئَةٍ وَسِتُّونَ خَصْلَةً ، إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْراً . . جَعَلَ فِيهِ خَصْلَةً مِنْهَا يُدْخِلُهُ بِهَا ٱلْجَنَّةَ » ، فقالَ أبو بكر : يا رسول الله ؛ أَفِيَّ شَيْءٌ مِنْهَا ؟ قال : « نَعَمْ ، كُلُّهَا فِيكَ ، فَهَنِيئاً لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ »[3] .

وأخرج ٱبن عساكرَ عن عائشةَ مرفوعاً : « ٱلنَّاسُ كُلُّهُم يُحَاسَبُونَ إِلاَّ أَبَا بَكْرٍ »[4] .

وقال عمر بن الخطاب : (لو وُزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض . . لرجح بهم)[5] .

وقال : (ودِدتُ أنّي شعرةٌ في صدر أبي بكر)[6] .

وقال عليٌّ رضي الله تعالىٰ عنه : (خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر ، لا يجتمع حُبِّي وبغض أبي بكر وعمر في قلب مؤمن)[7] .

= وابن الجوزي في « الموضوعات » (١/ ٢٣٩) ، وانظر « تنزيه الشريعة » (١/ ٣٤٦) .

(١) أخرجه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٦٦٠٧) ، والطبراني في « الأوسط » (٢١١٣) ، وابن عدي في « الكامل » (٤/ ١٩٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٠/ ٢٠٣) ، وابن الجوزي في « الموضوعات » (١/ ٢٣٦) .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٥٥٦٦) .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٢٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٠/ ١٠٤) .

(٤) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٠/ ١٥٢) ، وأبو الشيخ في « طبقات المحدثين بأصبهان » (٢٩٦) .

(٥) أخرجه إسحاق بن راهويه في « مسنده » (٣/ ٦٧١) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٥) ، وأحمد في « فضائل الصحابة » (٦٥٣) .

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في « كتاب المتمنين » (٨٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٠/ ٣٤٣) .

(٧) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٣٩٣٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٠/ ٣٥٦) .

وقال عليٌّ أيضاً : (لا يُفضِّلُني أحدٌ علىٰ أبي بكر . . إلاَّ جلدتُهُ جلدَ المفتري)[1] .

وقال أبو بكر بن عياش : (سألني الرشيد وقال لي : يا أبا بكر ؛ كيف ٱستخلف الناس أبا بكر الصديق ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ سكت الله ، وسكت رسوله ، وسكت المؤمنون ، فقال : والله ؛ ما زدتني إلاَّ عمىً ، قلت : يا أمير المؤمنين ؛ مرض النبيُّ صلى الله عليه وسلم ثمانية أيَّام ، فدخل بلال عليه فقال : يا رسول الله ؛ مَنْ يصلِّي بالناس ؟ قال : « مُرُوا أَبَا بَكْرٍ يُصَلِّي بِٱلنَّاسِ » ، فصلَّىٰ أبو بكر بالناس ثمانية أيَّام والوحي ينزل ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم لسكوت الله ، وسكت المؤمنون لسكوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعجبته فقال : بارك الله فيك)[2] .

وعن أبي هريرة رضي الله تعالىٰ عنه قال : (لمَّا قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ٱرتجَّتْ مكَّةُ ، فسمع أبو قحافةَ ذلك ، فقال : ما هٰذا ؟ قالوا : قُبِضَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، قال : أمر جليل ، فمَنْ قام بالإمامة بعده ؟ قالوا : ٱبنُكَ ، فقال : هل رضيتْ بذلك بنو عبد مناف وبنو المغيرة ؟ قالوا : نعم ، قال : اللهمَّ ؛ لا واضع لِمَا رفعت ، ولا رافع لِمَا وضعت)[3] .

وقال مصعب بن الزبير : (كانت لأبي بكر في الإسلام المواقف الرفيعة : منها قصَّة ليلة الإسراء وثباته وجوابه للكفار في ذلك ، وهجرته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وترك عياله وأطفاله وملازمته له في الغار ، ثمَّ كلامه يوم بدر ويوم الحُدَيْبِيَةِ حينَ ٱشتبه علىٰ غيره الأمر في تأخُّره عن دخول مكَّة ، ثمَّ بكاؤه حين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ عَبْداً خَيَّرَهُ ٱللهُ بَيْنَ ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ »[4] ، ثمَّ ثباته في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخطبته الناس وتسكينهم ، ثمَّ قيامه في قضية البيعة بمصلحة المسلمين ، ثمَّ ٱهتمامه وثباته

---

(١) أخرجه أحمد في « فضائل الصحابة » (٤٩) و(٣٨٧) ، والبيهقي في « الاعتقاد » (٣٥٨) ، والخطيب في « الكفاية » (ص٣٧٦) .

(٢) أخرج القصة ابن عدي في « الكامل » (٤/٢٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٠/٢٩٨) ، وحديث أن بلالاً رضي الله عنه جاءه فقال : « مروا أبا بكر يصلي بالناس » أخرجه البخاري (٧١٣) ، ومسلم (٤١٨/٩٥) .

(٣) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٣/٢٤٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٠/٤٥٩) .

(٤) أخرجه البخاري (٣٩٠٤) ، ومسلم (٢٣٨٢) .

في بعث جيش أسامة بن زيد إلى الشام ، ثم قيامه في قتال أهل الردَّة[1] ، وكم للصدِّيق رضي الله تعالىٰ عنه مِنْ مواقف ومآثر ومناقب وفضائل لا تحصىٰ) .

وعن عائشة رضي الله تعالىٰ عنها : أنَّ رجلاً قال لها : صفي لنا أبا بكر ، فقالت : (رجل أبيض نحيف ، خفيف العارضين)[2] .

وعن عائشة أيضاً قالت : (كان أوَّل بدء مرض أبي بكر أنَّه اغتسل يوم الإثنين لسبع خلون مِنْ جمادى الآخرة وكان يوماً بارداً ، فحُمَّ خمسة عشر يوماً لا يخرج إلىٰ صلاة ، وتوفي ليلة الثلاثاء لثمانٍ بقينَ مِنْ جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة وله ثلاث وستون سنةً ، مثلُ عُمُرِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم)[3] .

وعن عائشة رضي الله تعالىٰ عنها قالت : (تمثَّلْتُ بهٰذا البيت وأبو بكر في النزع : [من الطويل]

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى ٱلْغَمَامُ بِوَجْهِهِ ... ثِمَالُ ٱلْيَتَامَىٰ عِصْمَةٌ لِلأَرَامِلِ

فقال أبو بكر : ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم)[4] .

وكفِّن رضي الله عنه في ثوبين قديمين بأمره وقال : (إنَّ الحيَّ أحوجُ إلى الجديد مِنَ الميت)[5] ، وأوصىٰ أن تُغسِّلَهُ امرأتُهُ أسماء بنت عُميس ، ويُعينها عبد الرحمٰن بن أبي بكر[6] ، ونزل في حفرته عمر وطلحة وعثمان وعبد الرحمٰن بن أبي بكر ، ودُفن ليلاً

---

(١) ثم تجهيزه الجيوش إلى الشام لفتوحه وإمداده بالأمداد ، ثم ختم ذلك بمهمٍّ من أحسن مناقبه وأجلِّ فضائله ؛ وهو استخلافه على المسلمين عمر رضي الله عنه وتفرسه فيه ووصيته له .

(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١/ ٥٦) ، وابن سعد في « الطبقات » (٣/ ١٨٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٠/ ٢٨) .

(٣) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٦٣) ، وابن سعد في « الطبقات » (٣/ ٢٠٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٠/ ٤٠٩) .

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٧) ، والبزار في « مسنده » (٥٨) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٦/ ١٨١) و(٧/ ٤٧٧) ، وابن سعد في « الطبقات » (٣/ ١٩٧) ، والبيت لأبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم من قصيدته الفخمة التي قالها في النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي أربعة وتسعون بيتاً ، أوردها ابن هشام بتمامها في « السيرة النبوية » (٣/ ٢٠٢) . وثمال اليتامىٰ : غياثهم وملجؤهم والقائم بأمرهم .

(٥) أخرجه البخاري (١٣٨٧) ، وأحمد (٦/ ٤٥ و١٣٢) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٤٤٥١) .

(٦) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٦٣) ، والبيهقي (٣/ ٣٩٧) .

بجنب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجُعل رأسه عند كتفيه صلى الله عليه وسلم[1] .

ومات والده أبو قحافة بعده بستَّة أشهر وأيام في المحرَّم سنةَ أربعَ عشرةَ وهو ابن سبعٍ وتسعينَ سنةً[2] ، رضي الله تعالىٰ عن هـٰذا الولد ووالده ، ونفعنا ببركة هـٰذا البيت في الدارين آمين .

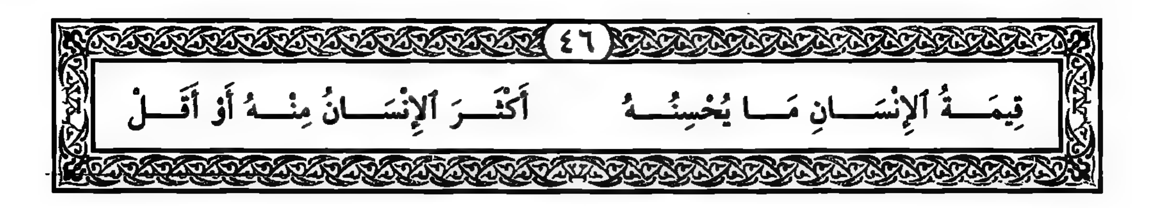
* * *

---

(١) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٠/ ٤٥٣) .

(٢) ذكره ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٠/ ٤٦١) .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



(٤٦)

قِيمَــةُ ٱلإِنْسَــانِ مَــا يُحْسِنُــهُ أَكْثَــرَ ٱلإِنْسَــانُ مِنْــهُ أَوْ أَقَــلْ

هـٰذا البيت مأخوذ مِنْ قول الإمام عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه : (لكلِّ شيءٍ قيمةٌ ، وقيمةُ المرءِ ما يُحْسِنُهُ) اهـ[1]

والقيمة كما في « المصباح » : (الثمن الذي يقاوم المتاع ؛ أي : يقوم مَقامه ، والجمع : قِيَم ؛ مثل سِدْرَة وسِدَر) ، ولكن المراد مِنَ النظم : أنَّ رِفعة الإنسان وشرفَهُ علىٰ قدر ما يحسنه ؛ أي : يعرفه ويتقنه مِنَ العلوم والصنائع ؛ إن قليلاً . . فقليل ، وإن كثيراً . . فكثير ، كما قال الناظم : (أكثر الإنسان منه أو أقل) ، وأظهر في مقام الإضمار ؛ لضرورة النظم[2] .

ودلَّ قوله تعالىٰ : ﴿ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ﴾ علىٰ أنَّ للكلب المُعَلَّم فضيلةً علىٰ غيره مِنْ سائر الكلاب ؛ فالإنسان إذا كان له علمٌ . . فأولىٰ أن يكون له فضلٌ علىٰ غيره .

وما أحسن ما قيل : [من البسيط]

فَـاْفْخَـرْ بِعِلْـمٍ وَلاَ تَجْهَـلْ بِـهِ أَبَـداً فَـالنَّـاسُ مَـوْتَـىٰ وَأَهْـلُ الْعِلْـمِ أَحْيَـاءُ
وَقِيمَـةُ ٱلْمَـرْءِ مَـا قَـدْ كَـانَ يُحْسِنُـهُ وَٱلْجَـاهِلُـونَ لِأَهْـلِ الْعِلْـمِ أَعْـدَاءُ[3]

(١) أخرجه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٥/ ٢٣٨) ، وهو عند ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٦٠٨) .

(٢) أي : أظهر الفاعل وهو الإنسان ؛ لأنَّ الأولىٰ أن يضمر فيقول : (قيمة الإنسان ما يحسنه أكثر منه أو أقل) ؛ إذ مبنىٰ لغة العرب على الاختصار وعدم التطويل والتكرار ، ولكن إنَّما ذكر الفاعل هنا لضرورة الشعر .

(٣) البيتان ممَّا ينسب إلى الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وهي في « ديوانه » (ص١٨) ، ونسبها الجرجاني في « أسرار البلاغة » (ص٢٦٤) إلىٰ محمد بن الربيع الموصلي ، ونسبها الخطيب في « تاريخ بغداد » (٥/ ١٥٧) إلىٰ أبي عبد الرحمـٰن مؤذن المأمون ، وتمام الأبيات كما في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٣٥) ، و« الفقيه والمتفقه » (٢/ ١٥٠) :

=

وهـٰذا بالنظر للحوادث ، وأمَّا بالنظر للمولىٰ سبحانه وتعالىٰ . . فإن رفعة كلِّ إنسان عنده علىٰ قدر الأعمال الصالحات ؛ كما قال تعالىٰ : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

فإن قيل : قد ورد : أنَّه صلى الله عليه وسلم قال : « لَنْ يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ » ، قيل : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « وَلاَ أَنَا ، إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ ٱللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ »[1] .

فالجواب عنه : أنَّ نفس الدخول لا يكون بالأعمال ، وإنَّما هو بفضل الله ورحمته ، وأمَّا غير الدخول ؛ كالغرف والقصور والحور والولدان وغير ذلك ممَّا أعده الله تعالىٰ مِنَ الخيرات لعباده المؤمنين في الجنَّة . . فهو علىٰ قدر الأعمال الصالحات ، أكثرَ الإنسان منها أو أقلَّ .

* * *

=

ٱلنَّـاسُ فـي جهـة التمثيـل أكفـاءُ	أبـوهـمُ آدمٌ والأمُّ حـواءُ
نفـسٌ كنفـسٍ وأرواحٌ مشـاكلـةٌ	وأعظُـمٌ خُلقـت فيهـم وأعضـاءُ
فـإن يكـن لهـمُ مِـنْ أصلهـم شـرفٌ	يفـاخـرون بـه فـالطيـنُ والمـاءُ
مـا الفضـلُ إلاَّ لأهـل العلـمِ إنَّهـم	علـى الهـدىٰ لمـن ٱستهـدىٰ أدلَّاءُ
وقـدرُ كـلِّ ٱمـرىءٍ مـا كـانَ يُحسنُـهُ	وللـرجـالِ علـى الأفعـالِ أسمـاءُ
وضـدُّ كـلِّ ٱمـرىءٍ مـا كـان يجهلُـهُ	والجـاهلـونَ لأهـلِ العلـم أعـداءُ
ففـز بعلـمٍ ولا تطلـبْ بـه بـدلاً	فـالنـاسُ مـوتـىٰ وأهـلُ العلـم أحيـاءُ

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٣) ، ومسلم (٢٨١٦) .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :

(٤٧)

أُكْتُـمِ ٱلأَمْـرَيْـنِ فَقْـراً وَغِنَـىً … وَٱكْسِبِ ٱلْفَلْسَ وَحَاسِبْ مَنْ بَطَلْ

أُكتُم ـ بضمِّ الهمزة والمثناة الفوقية ـ : فعلُ أمرٍ ، وحرِّكَ بالكسر لالتقاء الساكنين ، **والأمرين** : مفعول به منصوب ، وعلامة نصبه الياء ؛ لأنَّه مثنًّىٰ ، **وفقراً وغنىً** : بدل مِنَ (الأمرين) ، **واكسِب** ـ بكسر السين المهملة ـ أي : أكتسب **الفَلْس** ـ بفتح الفاء وسكون اللام ـ وأربحه ولا تستقِلَّه ، **وحاسب مَن بطل** : أي : الذي بَطُلَ ؛ أي : شَجُعَ ، ولا تفُتْ له مالَكَ خوفاً منه[1] قال في « المصباح » : (رجلٌ بَطَلٌ ؛ أي : شُجاع ، والجمع : أبطال ؛ مثل : سَبَب وأسباب) اهـ

فيستحبُّ للفقير أن يكتُمَ فقره عنِ الناس ، بمعنىٰ : أنَّه لا يظهر الفقر والمسكنة علىٰ جهة التضجُّر ؛ فإنَّ الفقر شعار عباد الله الصالحين .

(روىٰ زيد بن أسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : بعث الفقراء رسولاً إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ؛ إنِّي رسول الفقراء إليك ، فقال : « مَرْحَباً بِكَ وبِمَنْ جِئْتَ مِنْ عِندِهِمْ ، جِئْتَ مِنْ عِنْدِ قَوْمٍ أَحَبَّهُمُ ٱللهُ » ، فقال : يا رسول الله ؛ إنَّ الأغنياء قد ذهبوا بالخير كلِّه ؛ هم يحجُّون ونحن لا نقدر عليه ، ويتصدَّقون ونحن لا نقدر عليها ، ويعتقون ونحن لا نقدر عليه ، فإذا مرضوا . . بعثوا بفضل أموالهم ذخراً ، فقال صلى الله عليه وسلم : « بَلِّغْ عَنِّي ٱلْفُقَرَاءَ : أَنَّ لِمَنْ صَبَرَ مِنْكُم وَٱحْتَسَبَ ثَلَاثَ خِصَالٍ ، لَيْسَ لِلأَغْنِيَاءِ مِنْهَا شَيءٌ :

أمَّا الخصلةُ الأُولىٰ : فَإِنَّ في الجنَّةِ غُرفَةً مِنْ ياقوتَةٍ حَمراءَ ، ينظُرُ إليها أهلُ الجنَّةِ كما ينظرُ أهلُ الأرضِ إلى النُّجُومِ ، لاَ يدخُلُها إلاَّ نبيٌّ فقيرٌ ، أو شهيدٌ ، أو مؤمنٌ فقير .

---

(١) لعل مراد الإمام ابن الوردي رحمه الله تعالىٰ من قوله : (بطل) غير ما ذكره الشارح : أنَّه من البطولة ؛ فالفعل منه بَطُلَ ، يقال : بَطُلَ الرجلُ : إذا شَجُعَ ، وإنَّما مراده : أنَّه مِنَ البطالة ؛ يقال : بَطَلَ الأجيرُ يَبْطُلُ بَطالة وبِطالة : إذا تعطَّل وترك العمل ، فكأنه قال : عليك بالكسب ولو قليلاً ، ولا تلتفت إلى أهل البطالة وعُدْ باللوم عليهم .

والثانيةُ : يدخُلُ الفُقراءُ الجنَّةَ قبلَ الأغنياءِ بنِصْفِ يومٍ ، وهوَ مقدارُ خمس مئةِ عامٍ ، يتمتَّعونَ فِيها كيفَ شَاؤُوا ، ويدخُلُ سليمانُ بنُ داوودَ عليهِ السَّلامُ بعدَ دخولِ الأنبياءِ عليهمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ الجنَّةَ بأربعينَ سنةً ، وذلكَ بسببِ ما أَعطاهُ اللهُ تعالىٰ في الدُّنْيَا .

والثالثةُ : إذا قالَ الفقيرُ : سُبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلٰهَ إلاَّ اللهُ ، واللهُ أكبرُ مخلصاً ، ويقولُ الغنيُّ مثلَ ذلكَ مخلصاً . . لَمْ يَلْحَقِ الغنيُّ الفقيرَ وإنْ أنفقَ الغنيُّ مَعَهَا عشرةَ آلافِ درهمٍ ، وكذلكَ أعمالُ البرِّ كُلُّها ، فرجَع إليهمُ الرسول وأخبرهم بذلك ، فقالوا : رضينا يا ربِّ ، رضينا يا ربِّ[1] .

ورويَ : أنَّ الملائكة تقول : يا ربِّ ؛ عبدُك الكافر تبسط له الدنيا وتزوي عنه البلاء ؟! فيقول الله تعالىٰ للملائكة : اكشفوا لهم عن عقابه ، فإذا رأَوه . . قالوا : يا ربِّ ؛ لا ينفعه ما أصابه مِنَ الدنيا ، ويقولون : يا ربِّ ؛ عبدك المؤمن تزوي عنه الدنيا وتعرِّضه للبلاء ؟! فيقول الله للملائكة : اكشفوا لهم عن ثوابه ، فإذا رأَوه . . قالوا : يا ربِّ ؛ لا يضرُّه ما أصابه مِنَ البلاء .

وروى الحسن عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « أَكْثِرُوا معرفَةَ الفُقَرَاءِ وَٱتَّخِذُوا عِنْدَهُمُ الأَيَادِيَ ؛ فَإِنَّ لَهُمْ دَوْلَةً » ، قالوا : يا رسول الله ؛ وما دولتهم ؟ قال : « إِذَا كَانَ يومُ القيامَةِ . . قيل لهمُ : ٱنظُرُوا مَنْ أطعمَكُمْ كِسْرَةً ، وَمَنْ سَقَاكُمْ شَرْبَةً ، وَمَنْ كَسَاكُمْ ثَوباً ، فَخُذُوا بِيَدِهِ ، ثُمَّ ٱمْضُوا بِهِ إِلى ٱلجنَّةِ »[2] .

وعنِ الضحاك قال : مَنْ دخل السوق فرأىٰ شيئاً يشتهيه فصبر واحتسب . . كان خيراً له مِنْ مئة ألف دينار ينفقها كلَّها في سبيل الله) اهـ مِنْ « تنبيه الغافلين »[3] .

ويستحبُّ للفقير أيضاً : أن يكون صابراً ؛ للأحاديث السابقة ، ولئلاَّ يشمَتَ به أعداؤه ، وأن يتعفَّف عن سؤال الناس ما أمكن ؛ فقد مدح اللهُ تعالى الفقراء الموصوفين بذلك ، قال تعالىٰ : ﴿ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ ﴾ أي : بحالهم ﴿ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ ﴾ .

---

(١) رواه السمرقندي في « تنبيه الغافلين » (ص ٢٢٨) .

(٢) أخرجه السمرقندي في « تنبيه الغافلين » (٢٣١) ، والنرسي في « قضاء الحوائج » (٣٩) وردَّه ، وانظر « نقد المنقول » (ص١٣٢) .

(٣) « تنبيه الغافلين » (ص٢٢٨ـ ٢٣٢) .

وكان أبو ذرٍّ رضي الله تعالىٰ عنه إذا سقط سوطه مِنْ يده . . يَكرَهُ أن يقول لأحدٍ : ناولنيه .

وٱعلم : أنَّ الفقر علىٰ قسمين : خاصٌّ وعامّ ؛ فالعامُّ : هو ٱحتياج الخلق كلِّهم إلى الله تعالىٰ ، قال الله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ أي : أنتمُ المحتاجون إلى الله والله غنيٌّ عنكم ، وأمَّا الفقر الخاصُّ . . فهو المأمور بكتمه .

ويستحبُّ للغنيِّ أيضاً : أن يكتم غناه ؛ لِمَا ينشأ عنه مِنَ التفاخر والتعاظم والخُيلاء الذي هو مِنْ شأن ذوي الأموال ، ولِمَا يلحقه أيضاً بسبب الإظهار مِنَ الحسد وتسليط الظلمة واللصوص عليه . اهـ ؛ ولذلك رويَ عن معاويةَ بن أبي سفيانَ رضي الله تعالىٰ عنهما أنَّه قال لجلسائه : ما العافية فيكم ؟ فقال كلُّ واحدٍ منهم شيئاً ، فقال معاوية : (العافية للرجل في أربعة أشياء : بيت يأويه ، وعيش يكفيه ، وزوجة تُرضيه ، ونحن لا نعرفه فنؤذيه) يعني : لا يعرفه السلطان .

وروي عن سفيان الثوري أنَّه قال : (نعمتان إن رَزقهما الله تعالىٰ لك . . فٱحمد الله تعالىٰ عليهما وٱشكره : ٱجتنابُك باب السلطان ، وٱجتنابُك باب الطبيب) اهـ

وٱختلف العلماء رضي الله تعالىٰ عنهم في الفقر والغنىٰ أيُّهما أفضل ؟

فالأكثرون علىٰ أنَّ الفقر أفضل مِنَ الغنىٰ إذا كان مقروناً بالرضا ، ولذلك ٱختاره صلى الله عليه وسلم حين عُرضت عليه مفاتيح خزائن الأرض ، فقال : « يَا جِبرِيلُ ؛ أُرِيدُ أَنْ أَجُوعَ يَوماً وَأَشْبَعَ يَوماً ، فَإِذَا جِعتُ تَضَرَّعتُ إِلَى اللهِ سبحانَهُ وتَعَالىٰ ، وَإِذَا شَبِعتُ . . حَمِدتُهُ وشَكَرتُهُ »[1] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ ؛ أَحْيِنِي مِسْكِيناً ، وَأَمِتْنِي مِسْكِيناً ، وَٱحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ ٱلْمَسَاكِينِ »[2] ، قال بعض العارفين : لو سأل الله تعالىٰ أن يحشر المساكين في زمرته . . لكان لهم الفخر العظيم ، فكيف وقد سأله أن يحشره في زمرتهم ؟!

---

(١) سبق تخريجه (ص ١٩٥) .

(٢) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٤/٣٢٢) ، والترمذي (٢٣٥٢) ، وابن ماجه (٤١٢٦) ، والبيهقي في « السنن » (٧/١٢) .

وذهب آخرون إلىٰ أنَّ الغنىٰ أفضل مِنَ الفقر ، وٱحتجُّوا بقوله صلى الله عليه وسلم : « ٱلْيَدُ ٱلْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ ٱلْيَدِ ٱلسُّفْلَىٰ »[1] .

وٱختُلفَ أيضاً هل الفقير الصابر أفضل أم الغنيُّ الشاكر ؟

فقيل : الفقير الصابر أفضل ؛ لخُلُوِّ يده مِنَ الدنيا الملهية عنِ الله عزَّ وجلَّ ، ولِمَا يلحقه مِنَ المشقَّة الشديدة التي يوشك أن يكون الفقر بسببها كفراً .

وقيل : الغنيُّ الشاكر أفضل ؛ لِمَا فيه مِنَ السَّعَة والاعتراف بنعمة الله عليه ، والبِرِّ والمواساة والإحسان إلى الفقراء والمساكين . اهـ

قال في « الجامع الصغير » : عنه صلى الله عليه وسلم : « ٱطَّلَعْتُ فِي ٱلْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا ٱلْفُقَرَاءَ ، وَٱطَّلَعْتُ فِي ٱلنَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا ٱلنِّسَاءَ »[2] .

قال في « الفتح » : (ليس قوله : « ٱطَّلَعْتُ فِي ٱلْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا ٱلْفُقَرَاءَ » يوجبُ فضل الفقير على الغنيِّ ، وإنَّما معناه : أنَّ الفقراء في الجنَّة أكثر مِنَ الأغنياء ، وليس الفقر أدخلهم الجنَّة ، وإنَّما دخلوا بصلاحهم مع الفقر ؛ فإنَّ الفقير إذا لم يكن صالحاً . . لا يفضل على الغنيِّ ، لكن ظاهر الحديث : التحريضُ علىٰ ترك التوسع مِنَ الدنيا ، كما أنَّ فيه تحريض النساء على المحافظة علىٰ أمر الدين ؛ لئلاَّ يدخلن النار)[3] .

فإن قلت : هـٰذا الحديث ينافيه حديث أبي يعلىٰ عن أبي هريرة رضي الله تعالىٰ عنه في صفة أدنىٰ أهل الجنَّة : « فَيَدْخُلُ ٱلرَّجُلُ عَلَى ٱثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِمَّا يُنْشِىءُ ٱللهُ ، وَزَوْجَتَيْنِ مِنْ وَلَدِ آدَمَ »[4] ؛ فإن مقتضىٰ هـٰذا الحديث : أنَّ النساء في الجنَّة أكثر مِنَ الرجال .

ويجاب : بأنَّ كون النساء أكثر أهل النار في أوَّل الأمر قبل خروج العصاة منهنَّ مِنَ النار بالشفاعة[5] .

---

(١) سبق تخريجه (ص ١٩٢) .

(٢) « الجامع الصغير » (١١١٧) ، والحديث أخرجه البخاري (٣٢٤١) ، ومسلم (٢٧٣٧) .

(٣) « فتح الباري » (١١/٢٧٩) .

(٤) هو قطعة من حديث الصور الذي أخرجه إسحاق بن راهويه في « مسنده » (١٠) ، والطبراني في « الطوال » (٣٦) ، وأبو الشيخ في « العظمة » (٣٨٦) ، وعزاه السيوطي في « الدر المنثور » (٧/٢٥٦) ، وابن حجر في « الفتح » (١١/٣٦٨) إلىٰ أبي يعلىٰ في « الكبير » .

(٥) قال الحافظ في « الفتح » (٦/٣٢٥) : (ويجاب : بأنه لا يلزم من أكثريتهن في النار نفي أكثريتهن في الجنة) .

ويجاب أيضاً : بأنَّ المراد مِنْ قوله صلى الله عليه وسلم : تحريضُ النساء على المحافظة علىٰ أمر الدين ؛ لئلاً يدخلن النار كما تقدم .

وأجاب شيخ الإسلام زكريا الأنصاريُّ : بأنَّ المراد بكونهنَّ أكثر أهل النار : نساء الدنيا ، ويكونهنَّ أكثر أهل الجنَّة : نساء الآخرة ، فلا تنافي . اهـ مِنَ « العلقمي على الجامع الصغير »

لكن جواب شيخ الإسلام لا يتأتَّىٰ مع قوله صلى الله عليه وسلم : « وَزَوْجَتَيْنِ مِنْ وَلَدِ آدَمَ » .

وفي قول الناظم رحمه الله تعالىٰ : (واكْسِبِ الْفَلْسَ وحَاسِب مَنْ بطَل) إشارةٌ إلىٰ ما في المسألة مِنَ الخلاف بين العلماء ؛ وهو هل الاكتساب أفضل أو التوكُّل أفضل ؟

فذهب جماعة إلىٰ أنَّ الاكتساب أفضل ، وإليه يشير كلام الناظم رحمه الله تعالىٰ ، واستدلوا بقوله تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا ﴾ الآية .

وذهب آخرون إلىٰ أنَّ التوكُّل أفضل ، واستدلوا بقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ ، وبقوله صلى الله عليه وسلم : « لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ . لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ؛ تَغْدُو خِمَاصاً ، وَتَرُوحُ بِطَاناً »[1] .

وذهب آخرون إلى الجمع بينهما ، وهو الأفضل ، وقالوا : إنَّ السعي لا ينافي التوكُّل ، واستدلوا بما ورد في قصَّة الأعرابيِّ الذي أراد دخول المسجد على النبيِّ صلى الله عليه وسلم وناقته بيده فقال : يا رسول الله ؛ أُرسل ناقتي متوكِّلاً على الله عزَّ وجلَّ ، أم أعقلُها ؟ فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « اَعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ »[2] .

ويجاب عن قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ بأنَّ معنى التوكُّل : اعتقاد ما دلَّت عليه هـٰذه الآية : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ ، وليس المراد به : ترك السبب مع الاعتماد علىٰ ما يأتي مِنَ المخلوقين ؛ لأنَّ ذلك يجرُّ إلىٰ ضدِّ ما يراد مِنَ التوكُّل .

---

(١) أخرجه ابن حبان (٧٣٠) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣١٨) ، والترمذي (٢٣٤٤) .

(٢) أخرجه ابن حبان (٧٣١) ، والحاكم في « المستدرك » (٣/ ٦٢٣) .

وعن الحديث المذكور : بأنَّه صلى الله عليه وسلم ذكر الغدوَّ والرَّواح في طلب الرزق فقال : « تَغْدُو خِماصاً ، وتَرُوحُ بِطَاناً » ، ولا شكَّ أنَّهما سببان في الرزق ، فطريقة أهل البصائر السعي والطلب مع الإجمال فيه والتوكُّل على الله تعالىٰ ؛ لأنَّ بالهزِّ يسقط الثمر ، كما قيل : [من الطويل]

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ ٱللهَ أَوْحَـىٰ لِمَـرْيَـمٍ ... وَهُزِّي إِلَيْكِ ٱلْجِذْعَ يَسَّاقَطِ ٱلرُّطَبْ
وَلَوْ شَاءَ أَدْنَى ٱلْجِذْعَ مِنْ غَيْرِ هَزِّهِ ... إِلَيْهَـا وَلَكِـنْ كُـلُّ شَـيْءٍ لَـهُ سَبَـبْ[1]

قال في « تنبيه الغافلين » في الباب الحادي والتسعين ما نصُّه : (عن أبي هريرة رضي الله تعالىٰ عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « مَنْ طَلَبَ ٱلدُّنْيَا حَلالاً ٱسْتِعْفَافاً عَنِ ٱلْمَسْأَلَةِ ، وَسَعْياً عَلَى ٱلْعِيَالِ وَٱلأَهْلِ ، وَتَعَطُّفاً عَلَىٰ جَارِهِ . . بَعَثَهُ ٱللهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَوَجْهُهُ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ ٱلْبَدْرِ ، وَمَنْ طَلَبَ ٱلدُّنْيَا حَلاَلاً مُكَاثِراً مُفَاخِراً مُرَائِياً . . لَقِيَ ٱللهَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ »[2] .

وروي : أنَّ داوود عليه الصلاة والسلام كان يخرج متنكراً فيسأل عن سيرته مَنْ يراه مِنْ أهل مملكته ، فتعرَّض له جبريل عليه السلام علىٰ صورة آدميٍّ ، فقال له داوود : يا فتىٰ ؛ ما تقول في داوود ؟ فقال له : نِعْمَ العبدُ غيرَ أنَّ فيه خصلة ، قال داوود : وما هي ؟ قال : يأكل مِنْ بيت مال المسلمين ، وما في العباد أحبُّ إلى الله تعالىٰ مِنْ عبدٍ يأكل مِنْ كسب يده ، فعاد إلىٰ محرابه باكياً متضرِّعاً يقول : يا رب ؛ علِّمني صنعةً تُغنيني بها عن بيت مال المسلمين ، فعلَّمه الله تعالىٰ صنعة الدروع ، وألان له الحديد ، حتىٰ كان الحديد في يده بمنزلة العجين ، وكان إذا فرغ مِنْ قضاء حوائج أهله . . يعمل درعاً ، فيبيعه ويعيش هو وعياله بثمنها ، فذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ﴾[3] .

وروىٰ هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة رضي الله تعالىٰ عنها ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « كانَ سليمانُ بنُ داوودَ عليهما السلامُ يخطُبُ الناسَ على المنبرِ ، وَإِنَّ

---

(١) البيتان عند الثعالبي في « ثمار القلوب في المضاف والمنسوب » (١/٣٠٦) .

(٢) أخرجه إسحاق بن راهويه في « مسنده » (٣٥٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٨٨٩) وما بعده ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٥/٢٥٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/١١٠) .

(٣) أخرجه السمرقندي في « تنبيه الغافلين » (ص٤٥٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٧/٩١) .

في يَدِهِ الخُوصَ يعملُ بهِ القُفَّةَ ، فإذا فرَغَ . . ناولَهُ إنساناً فقالَ : اذهبْ بِهِ فَبِعْهُ »[1] .

وروىٰ أبو هريرة رضي الله تعالىٰ عنه ، عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم : أنَّ زكَرِيَّا عليهِ السلامُ كانَ نَجَّاراً[2] .

وعن عمر رضي الله تعالىٰ عنه قال : يا معشر الفقراء ؛ ارفعوا رؤوسكم واتَّجروا ، ولا تكونوا عيالاً على الناس .

وعنِ ابن المبارك أنَّه قال : مَنْ ترك السوق . . ساء خلقه ، وذهبت مروءته .

وعن جابرٍ : أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ غَرَسَ غَرْساً أَوْ زَرَعَ زَرْعاً فَأَكَلَ مِنْهُ إِنْسَانٌ أَوْ دَابَّةٌ أَوْ طَيْرٌ أَوْ سَبُعٌ . . فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ »[3] .

وعن أنس بن مالك : أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « لَوْ قَامَتِ ٱلْقِيَامَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ نَوَاةٌ . . فَإِنِ ٱسْتَطَاعَ أَلاَّ يَقُومَ حَتَّىٰ يَغْرِسَهَا . . فَلْيَفْعَلْ »[4] .

وعن جعفر بن محمد ، عن أبيه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج إلى السوق ويشتري حوائج أهله ، وسُئل عن ذلك فقال : « أَخْبَرَنِي جِبرِيلُ عليهِ السلامُ أَنَّ مَنْ سَعَىٰ عَلَىٰ عِيَالِهِ لِيَكُفَّهُمْ عَنِ النَّاسِ . . فَهُوَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ »[5] .

وقيل لبعض الحكماء : ما خير المكاسب ؟ قال : خير مكاسب الدنيا . . طلب الحلال لزوال الحاجة ، والأخذ منه للقوَّة على العبادة ، وتقديم فضله لزاد يوم القيامة ، وأمَّا خير مكاسب الآخرة . . فعلمٌ معمولٌ به نشرتَهُ ، وعملٌ صالحٌ قدمتَهُ ، وسنةٌ حسنةٌ أحييتَها ، قيل : وما شرُّ المكاسب ؟ قال : أمَّا شرُّ مكاسب الدنيا . . فحرامٌ جمعتَهُ ، وفي المعاصي

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٧/ ٤٦٤) ، وأحمد في « الزهد » (٣٨٢) ، وهناد في « الزهد » (٥٦١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٧/ ٩٢) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٧٩) ، وابن حبان (٥١٤٢) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/ ٥٩٠) .

(٣) أخرجه البخاري (٦٠١٢) من حديث أنس رضي الله عنه ، ومسلم (١٥٥٢) ، وأحمد (٣/ ٣٩١) من حديث جابر رضي الله عنه .

(٤) أخرجه البخاري في « الأدب المفرد » (٤٧٩) ، والضياء في « المختارة » (٢٧١٢) ، وأحمد (٣/ ١٨٣ و١٩١) .

(٥) أخرج البيهقي في « السنن » (٩/ ٢٥) ، والطبراني في « الأوسط » (٤٢٢٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١٩٦) ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً وفيه : « ومن سعىٰ علىٰ عياله . . ففي سبيل الله » .

أنفقتَهُ ، ولمَنْ لا يطيعُ ربَّهُ خلَّفتَهُ ، وأمَّا شرُّ مكاسب الآخرة . . فحقٌّ أنكرتَهُ حسداً ، ومعصيةٌ قدمتَهَا إصراراً ، وسنةٌ سيئةٌ أحييتَهَا عدواناً .

وعن النضر بن يحيىٰ قال : بلغنا عن بعض أهل العلم أنَّه قال : لا يقوم الدين والدنيا إلا بأربعة : بالعلماء ، والأمراء ، وأهل القرآن ، وأهل الكسب .

وبعض الزهاد فسَّر هـٰذا الكلام فقال : أمَّا الأمراء . . فهُمُ الرعاة يرعون الخلق ، وأمَّا العلماء . . فهم ورثة الأنبياء ، وهم يَدُلُّون الخلق إلى الآخرة ، والناس يقتدون بهم ، وأمَّا أهل القرآن . . فهم جند الله على الأرض لقمع الكفار ، يقولون : دين الله الإسلام ، وأمَّا أهل الكسب . . فهم أمناء الله تعالىٰ لمصلحة الخلق ، ثمَّ قال : إذا صارت الرعاة ذئاباً . . فمَنْ يرعى الغنم ؟ والعلماء إذا تركوا العلم واشتغلوا بالدنيا . . فبمَنْ يقتدي الخلق ؟ والقرّاء إذا ركنوا للفخر والخيلاء وخرجوا للطمع . . فمَنْ يظفر بالعدوِّ ؟ وأهل الكسب إذا خانوا الناس . . فكيف تأمن بهم الناسُ ؟

واعلم : أنَّ للكسب آفات كالكذب والأيمان الكاذبة وغير ذلك .

قال قتادة : وكان يقال : عجبت للتاجر كيف يتخلَّص وهو يحلف بالنهار ويحسب بالليل ؟

وقال بعض الحكماء : إذا لم يكن في التاجر ثلاث خصال . . افتقر في الدارين جميعاً :

أوَّلها : أن يكون لسانه نقيّاً عن ثلاثة : الكذب ، واللغو ، والحلف .

وثانيها : أن يكون صافياً مِنْ ثلاثة : الغشِّ ، والخيانة ، والحسد .

وثالثها : أن يكون محافظاً لثلاث : الجمعة ، والجماعات ، وطلب العلم في بعض الساعات .

وعن عليِّ بن أبي طالب رضي الله تعالىٰ عنه قال : التاجر إذا لم يكن فقيهاً . . ارتطم في الربا ، ثمَّ ارتطم ، ثمَّ ارتطم ـ يعني : غرق فيه ـ فإذا لم يعرف الحلال مِنَ الحرام . . لم يأمن أن يقع في الربا[1] .

---

(١) أخرجه الخطيب في « الفقيه والمتفقه » (١٦٤) .

وقال سفيان الثوري : لا تنظروا إلىٰ زِيِّ أهل السوق ، فإنَّ تحت ثيابهم ذئاباً .

وعنِ ٱبن شُبْرُمة قال : العجب ممَّن يحتمي مِنَ الحلال مخافة الداء ، فكيف لا يحتمي مِنَ الحرام مخافة النار ؟

وعن جابر بن عبد الله : أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أَيُّها النَّاسُ ؛ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَنْ يَمُوتَ حَتَّىٰ يَسْتَكْمِلَ رِزْقَهُ ، فَلاَ تَسْتَبْطِئوا الرِّزْقَ ، وَٱتَّقُوا اللهَ ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ ، وَخُذُوا مَا حَلَّ ، وَذَرُوا مَا حَرُمَ »[1] .

وقال الحكيم : الناس في الكسب علىٰ خمس مراتب :

منهم من يرى الرزق مِنَ الكسب . . فهٰذا كافر .

ومنهم مَنْ يرى الرزق مِنَ الله تعالىٰ ومِنَ الكسب . . فهو مشرك .

ومنهم مَنْ يرى الرزق مِنَ الله ، ولا يدري أيعطيه أم لا . . فهو منافقٌ شاكٌّ .

ومنهم مَنْ يرى الرزق مِنَ الله تعالىٰ ، ويعصي الله تعالىٰ لأجل الكسب ، ولا يؤدي حقه كما أمر الله تعالىٰ . . فهو مؤمن مسيء .

ومنهم مَنْ يرى الرزق مِنَ الله تعالىٰ ، ويرى الكسب سبباً ، ويخرج حقَّه ، ولا يعصي الله لأجل الكسب . . فهو مؤمن مخلص ، وروي عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « مَنِ ٱكْتَسَبَ مَالاً مِنْ مَأْثَمٍ ، فَتَصَدَّقَ بِهِ ، أَو وَصَلَ بِهِ رَحِمَهُ ، أو أَنْفَقَهُ في سَبِيلِ ٱللهِ . . جَمَعَ ٱللهُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَأَلْقَاهُ فِي ٱلنَّارِ »[2] .

وعن عمران بن حصين رضي الله تعالىٰ عنه أنَّه قال : لا يُقبل حجٌّ ولا عمرة ولا جهاد ولا صدقة ولا عتاق ولا نفقة مِنْ رباً ولا رشوة ولا خيانة ولا غلول ولا سرقة) اهـ[3]

* * *

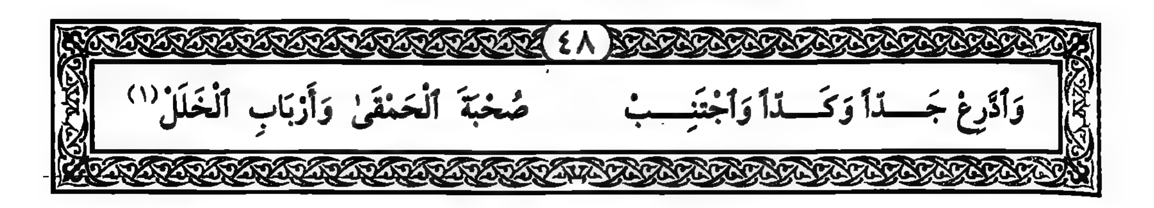
---

(١) أخرجه ابن حبان (٣٢٣٩) ، والحاكم في « المستدرك » (٣٢٥/٤) ، وابن ماجه (٢١٤٤) .

(٢) أخرجه أبو داوود في « المراسيل » (١٣١) .

(٣) « تنبيه الغافلين » (٤٥٠ـ٤٥٨) .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



هٰذا مِنْ تمام ما تقدم مِنَ الأمر بالاجتهاد في الكسب ، والجَدُّ ـ بفتح الجيم ـ : الاجتهاد ، قال في « المصباح » : (الجَدُّ في الأمر : الاجتهاد ، وهو مصدر جَدَّ يَجُدُّ ، مِنْ بابي ضرب وقتل ، والاسم الجِدُّ بالكسر ، ومنه يقال : فلان محسن جِداً ؛ أي : نهاية ، ولا يقال : محسن جَداً بالفتح) .

وقوله : (وكدّاً) معطوف علىٰ (جداً) ، وهو بفتح الكاف : التعب ؛ أي : وٱجعلِ الاجتهاد والتعب في اكتسابِ الرزق كالدرع المشتمل علىٰ جميعك ، بمعنىٰ : أن تجتهد وتتعب برجليك ويديك وسائر جسدك في طلب الرزق ؛ لأنَّه أمر محمود ، قال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ مِنَ الذُّنُوبِ ذُنُوباً لاَ يُكَفِّرُها الصَّلاَةُ وَلاَ الصِّيَامُ وَلاَ الحَجُّ وَلاَ العُمْرَةُ ، ويُكَفِّرُها الهُمُومُ في طَلَبِ المَعِيشَةِ » رواه ابن عساكر عن أبي هريرة[2] .

وقد يكون التكسُّب واجباً ؛ كقادر على الكسب يحتاج عياله للنفقة ، فمَنْ ترك ذلك.. كان عاصياً ، قاله في « فتح الباري »[3] .

(وعن ثوبان رضي الله تعالىٰ عنه : أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « أَفْضَلُ الدَّنَانِيرِ دِينَارٌ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ عَلَىٰ عِيَالِهِ ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَىٰ دَابَّتِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَىٰ أَصْحَابِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ »[4] .

---

(١) ويروىٰ : (وأرباب البَخَل) .

(٢) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (١٠٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/٣٣٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٤/ ٢٠٠) ، وانظر « مجمع الزوائد » (٤/ ٦٧) .

(٣) انظر « فتح الباري » (١١/ ٤١٠) .

(٤) أخرجه مسلم (٩٩٤) ، والترمذي (١٩٦٦) ، وابن ماجه (٢٧٦٠) ، وأحمد (٥/ ٢٧٧) .

وكان ثابت البنانيُّ عند أنس بن مالك ، فذكر أنَّه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنَّ اللهَ تَعَالىٰ قَدْ ضَمِنَ دَيْنَ العَبْدِ إِذَا ٱسْتَدَانَ فِي ثَلاَثٍ : أَحَدُها : مِنْ أَجْلِ النِّكَاحِ مَخَافَةَ الفُجُورِ ، ثُمَّ لَمْ يَقْدِرْ عَلَىٰ قَضَائِهِ حَتَّىٰ مَاتَ ؛ فَقدْ ضَمِنَ اللهُ تَعَالىٰ دَينَهُ أَنْ يَقْضِيَهُ عَنْهُ يَومَ القِيَامَةِ ، والثَّاني : دَيْنُهُ لإِعانَةِ المُسْلِمينَ لِيَخْرُجُوا إِلى الغَزْوِ ، والثَّالِثُ : إِذَا ٱسْتَدَانَ لِتَكْفِينِ ميتٍ ؛ فَإِنَّ الله تَعَالىٰ يُرْضِي خُصَمَاءَهُ يَومَ القِيَامَةِ »[1] ، فدخل ثابت البناني على الحسن البصري ، فذكر له ما سمع مِنْ أنس ، فقال الحسن : قد كَبِرَ أنس وضَعُفَ ، ونسي الأفضل مِنْ ذلك ، بل ضمن الله تعالىٰ مع هـٰؤلاء دين رجل ٱستدان لينفق علىٰ عياله ، وٱجتهد في قضائه ، فلم يبلغ حتَّىٰ مات . . لم تكن بينه وبين خصمائه خصومة يوم القيامة .

وعن أنس بن مالك رضي الله تعالىٰ عنه أنَّه قال : قلت : يا رسول الله ؛ الجلوس مع العيال أفضل ، أم الجلوس في المساجد ؟ قال : « جُلُوسُ سَاعَةٍ عِنْدَ العِيَالِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ ٱلاعتِكَافِ في مَسْجِدِي هَـٰذَا » ، قال : قلت : يا رسول الله ؛ النفقة على العيال أحبُّ إليك ، أم النفقة في سبيل الله أحبُّ ؟ قال : « دِرْهَمٌ يُنْفِقُهُ الشَّخْصُ عَلَىٰ عِيَالِهِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ تَعَالىٰ مِنْ دِينَارٍ يُنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ ٱللهِ »[2]) قاله في « تنبيه الغافلين »[3] .

وقوله : (وٱجتنب صحبةَ الحمقىٰ) جمع : أحمق ؛ وهو : مَنْ ليس له مَلَكَةٌ يملك بها نفسه عند الغضب ، أو هو فاسد العقل .

ويحتمل أن يكون مراده بـ(الحمقىٰ) : المرأة الحمقاء ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لاَ تَتَزَوَّجُوا الحَمْقَاءَ ؛ فَإِنَّ صُحْبَتَهَا بَلاءٌ ، وفي وَلَدِهَا ضَيَاعٌ ، وَلاَ تَسْتَرْضِعُوا الحَمْقَاءَ ؛ فَإِنَّ لَبَنَهَا يُغَيِّرُ »[4] .

---

(١) أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ابن ماجه (٢٤٣٥) ، والبزار كما في « مجمع الزوائد » (٤/١٣٦) .

(٢) أخرجه السمرقندي في « تنبيه الغافلين » (ص٤٤٢) .

(٣) « تنبيه الغافلين » (ص ٣٤٠ـ٣٤٢) .

(٤) أخرج الجزء الأول منه الديلمي في « الفردوس » (٧٣٣٣) ، وأخرج الجزء الثاني البيهقي في « السنن » (٧/٤٦٤) ، وأبو داوود في « المراسيل » (٢٠٧) من حديث السهمي مرسلاً ، والطبراني في « الأوسط » (٦٥) ، وفي « الصغير » (١/٥٢) ، وانظر « تنزيه الشريعة » (٢/٢١٣) .

وقال عمر رضي الله تعالىٰ عنه : (لم يقم جنين في بطن حمقاء تسعة أشهر إلاَّ خرج مائقاً)[١] .

قال بعضهم : حدُّ الحمق : أنَّه قلَّةُ الإصابة ، ووضعُ الشيء في غير الموضع الذي وضع له .

وقيل لبعضهم : ما حدُّ الحمق ؟ فقال : لا حدَّ له كالعقل اهـ[٢]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الأَحْمَقُ أَبْغَضُ الخَلْقِ إِلى ٱللهِ ؛ إِذْ حَرَمَهُ أَعَزَّ الأَشْيَاءِ عَلَيهِ » .

وقيل : أوحى الله عزَّ وجلَّ إلىٰ موسىٰ عليه السلام : أتدري لم رَزقتُ الأحمق ؟ قال : لا يا ربِّ ، قال : ليعلم العاقل أنَّ طلب الرزق ليس بالاجتهاد[٣] .

وقالوا : الحمق داء دواؤه الموت .

قال الشاعر : [من البسيط]

لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ يُسْتَطَبُّ بِهِ ... إلاَّ ٱلْحَمَاقَةَ أَعْيَتْ مَنْ يُدَاوِيهَا[٤]

وروي : أنَّ عيسىٰ عليه الصلاة السلام أُتيَ بأحمقَ ليداويه ، فقال : (أعياني دواء الأحمق ، ولم يعيني مُداواة الأكمه والأبرص)[٥] .

وقال الأصمعي : (قلت لغلام مِنْ أبناء العرب : أيسرُّك أن يكون لك مئة ألف درهم

---

(١) المائق : هو الأحمق ، لكنه سريع البكاء ، قليل الحزم والثبات .

(٢) القائل هو إبراهيم بن سيار النظام كما في « أخبار الحمقىٰ والمغفلين » (ص٢٥) ، ونسبه ابن عبد البر لابن شبرمة في « بهجة المجالس » (٢/٥٣٧) .

(٣) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦١/١٥٤) ، وأورده ابن عبد البر في « بهجة المجالس » (٢/٥٣٤) .

(٤) البيت من غير نسبة في « العقد الفريد » (٢/٣٠٤) ، و« أساس البلاغة » مادة (طبب) ، و« ربيع الأبرار » (٢/٦١) ، ولمحمد الغزي كما في « سلك الدرر » (٤/٥٧) تضمين له :

إذا نصحت قليل العقل نلت بذا ... عداوة منه لا تخفىٰ مساويها
فالحمق داء قبيح لا دواء له ... قد قال فيه من الأشعار راويها
لكل داء دواء يستطب به ... إلا الحماقة أعيت من يداويها

(٥) أورده الزمخشري في « ربيع الأبرار » (٢/٦١) ، والمُناوي في « فيض القدير » (١/٥٣١) .

وأنَّك أحمق ؟ قال : لا والله ، قلت ، ولم ؟ قال : أخاف أن يجني عليَّ حمقي جناية تُذهب مالي ويبقىٰ حمقي)[1] .

وقال سعيد بن عمَّار : (مكتوب في التوارة : مَنْ صنع لأحمق معروفاً . . فهو خطيئة مكتوبة عليه) .

وقيل : إذا قيل لك : إنَّ فقيراً ٱستغنىٰ أو غنياً ٱفتقر أو حياً مات أو ميتاً عاش . . فصدق ، وإذا بلغك أنَّ أحمق ٱستفاد عقلاً . . فلا تصدق[2] .

وقالوا : الأحمق تتمنَّىٰ أمُّه أنَّها ثكلته ، وتتمنَّىٰ زوجتُهُ أنَّه عدمته ، ويتمنَّىٰ جارُهُ منه الوحدة ، ويودُّ جليسُه منه الوحشة[3] .

وقال الأحنف بن قيس : (إنِّي لأجالس الأحمق الساعة فأجد ذلك في عقلي)[4] .

وقال لقمان لابنه : (لا تعاشر الأحمق وإن كان ذا جمال ؛ فإنَّه كالسيف ، حسنٌ منظرُه ، قبيحٌ أثرُه)[5] .

وقال سالم بن قتيبة : (لا تطلبْ حاجتك مِنْ أحمق ؛ فإنَّه يريد أن ينفعَك فيضرُّك ، سكوته خير مِنْ نُطْقِه ، وبُعْدُه خير مِنْ قُرْبِه ، وموته خير مِن حياته) .

وقال الحسن بن عليٍّ رضي الله تعالىٰ عنهما : (هجران الأحمق قربة إلى الله تعالىٰ) .

وقالت الحكماء : العاقل يضلُّ عقله عند مجاورة الأحمق .

وقالوا : مثل الأحمق مثل الثوب الخلق ؛ إن رفأته مِنْ موضع تخرّق من موضع آخر .

ولله درُّ القائل : [من الرمل]

إِتَّقِ ٱلأَحْمَقَ لاَ تَصْحَبَهُ ... إِنَّمَا ٱلأَحْمَقُ كَٱلثَّوْبِ ٱلْخَلَقْ
كُلَّمَا رَقَّعْتَ مِنْهُ جَانِباً ... حَرَّكَتْهُ ٱلرِّيحُ وَهْناً فَٱنْخَرَقْ

---

(1) في « فيض القدير » (١/٥٣١) : أن المسؤول هو الفرزدق .
(2) القول في « أخبار الحمقىٰ » (ص٢٣) معزواً لأبي إسحاق .
(3) أورده الذهبي في « السير » (٤/٥٥٢) من قول وهب ، والمناوي في « فيض القدير » (١/٥٣١) .
(4) أورده المبرد في « الكامل » (ص٦٨٥) .
(5) « محاضرات الأدباء » (١/٢٧) .

وَإِذَا عَـاتَبْتَـهُ كَـيْ يَـرْعَـوِي ... زَادَ جَهْـلاً وَتَمَـادَىٰ فِـي ٱلْحَمَـقْ[1]

وممَّن عرف بالحمق : المعلمون ، قال الجاحظ : (قسم الله الحمق مئة جزء ، فجعل منه تسعة وتسعين جزءاً في المعلمين ، والجزء الآخر في سائر الناس)[2] .

وقال الشاعر : [من الطويل]

كَفَـى ٱلْمَـرْءَ نَقْصـاً أَنْ يُقَـالَ بِـأَنَّـهُ ... مُعَلِّـمُ صِبْيَـانٍ وَإِنْ كَـانَ فَـاضِـلاَ[3]

وكان الجاحظ كثيراً ما ينشد : [من الطويل]

وَكَيْفَ يُرَجَّى ٱلْعَقْلُ وَٱلرَّأْيُ عِنْدَ مَنْ ... يَرُوحُ عَلَىٰ أُنْثَىٰ وَيَغْدُو عَلَىٰ طِفْلِ[4]

ومنهمُ : النساء ؛ ولذلك قالوا : لا تدع أمَّ صبيك تضربه ؛ فهو أعقل منها وإن كانت أسن منه[5] .

ويقال : عقل مئة صبيٍّ بعقل معلِّم ، وعقل مئة معلم بعقل خصيٍّ ، وعقل مئة خصيٍّ بعقلِ ٱمرأة[6] .

ومنهم : الخصيان ، قال الجاحظ : (في الخصيِّ خصال متضادَّة ، منها : أنَّه لم يخرج مِنْ ظهره مؤمن ولم يخرج مِنْ ظهر مؤمن ، ومنها : أنَّه ما خلا قطُّ مع رجل إلاَّ وحدَّثته نفسه

---

(١) الأبيات لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص١٧٠) .

(٢) نقله عنه الوطواط في « غرر الخصائص » (ص٨١) ، لكن قال الجاحظ في « البيان والتبيين » (١/ ٢٥٠) : (والمعلمون عندي علىٰ ضربين : منهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد العامة إلىٰ تعليم أولاد الخاصة ، ومنهم رجال ارتفعوا عن تعليم الخاصة إلىٰ تعليم أولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة ، فكيف تستطيع أن تزعم أن مثل عليِّ بن حمزة الكسائي ، ومحمد بن المستنير الذي يقال له : قُطْرُب ، وأشباه هـٰؤلاء يقال لهم : حمقىٰ ؟! ولا يجوز هـٰذا القول علىٰ هـٰؤلاء ولا على الطبقة التي دونهم ؛ فإن ذهبوا إلىٰ معلمي كتاتيب القرىٰ . . فإنَّ لكلِّ قوم حاشيةً وسَفِلة ، فما هم في ذلك إلا كغيرهم ، وكيف تقول ذلك في هـٰؤلاء وفيهم الفقهاء والشعراء والخطباء ؛ مثل : الكميت بن زيد ، وعبد الحميد الكاتب ، وقيس بن سعد ، وعطاء بن أبي رباح ، ومثل : عبد الكريم أبي أمية ، وحسين المعلم ، وأبي سعيد المعلم ؟!) .

(٣) البيت من غير نسبة في « محاضرات الأدباء » (١/ ٧٥) ، و« غرر الخصائص » (ص٨١) .

(٤) البيت نسبه الجاحظ في « البيان والتبيين » (١/ ٢٤٨) إلىٰ صقلاب المعلم .

(٥) « البيان والتبيين » (١/ ٢٤٨) .

(٦) « غرر الخصائص » (ص٨٢) .

أنَّه ٱمرأة ، ولا خلا مع ٱمرأة إلاَّ وحدَّثته نفسه أنَّه رجل) قاله في « غرر الخصائص » .

وقوله : (وأرباب الخَلَل) أي : وٱجتنب صحبة أهل الخلل ـ بفتحتين ـ أي : العيب ؛ كالزاني والفاسق والسارق والدَّيُّوث ، وما أشبههم ممَّن يعاير بمعاشرتهم ، ويحصُل النقص بمصاحبتهم ؛ لنقصهم في الدنيا والآخرة عند الله .

وإنَّما نهى الناظم رحمه الله تعالىٰ عن صحبتهم ؛ لأنَّ الطبائع تسرق بالمعاشرة ، أَلاَ ترىٰ أنَّ الإنسان بمعاشرته العلماءَ وأهلَ الكمالات يصير كاملاً ، وبمعاشرته الفسقةَ وأهلَ الرذائل يصير ناقصاً ، كما قيل : [من المتقارب]

بُنَـيَّ ٱجْتَنِـبْ كُـلَّ ذِي بِـدْعَـةٍ ... وَلاَ تَصْحَبَـنْ مَـنْ بِهَـا يُـوصَـفُ
فَيَسْـرِقُ طَبْعُـكَ مِـنْ طَبْعِـهِ ... وَأَنْـتَ بِـذَلِـكَ لاَ تَعْـرِفُ

وقال آخر : [من الطويل]

عَنِ ٱلْمَرْءِ لاَ تَسَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ ... فَكُـلُّ قَـرِيـنٍ بِـٱلْمُقَـارِنِ يَقْتَـدِي
فَعَاشِرْ أُولِي ٱلتَّقْوَىٰ تَنَلْ مِنْ تُقَاهُمُ ... وَلاَ تَصْحَبِ ٱلأَرْدَىٰ فَتَرْدَىٰ مَعَ ٱلرَّدِي[(١)]

وقال آخر : [من الطويل]

عَلَيْـكَ بِـأَرْبَـابِ ٱلصُّـدُورِ فَمَـنْ غَـدَا ... مُضَـافـاً لِأَرْبَـابِ ٱلصُّـدُورِ تَصَـدَّرَا
وَإِيَّـاكَ أَنْ تَـرْضَـىٰ بِصُحْبَـةِ نَـاقِـصٍ ... فَتَنْحَـطَّ قَـدْراً مِـنْ عُـلاَكَ وَتُحْقَـرَا[(٢)]

---

(١) البيتان لعدي بن زيد ، وهما في « العقد الفريد » (٢/ ٢٨١) ، و« بهجة المجالس » (٢/ ٧٠٥) .

(٢) البيتان لأمين الدين المحلي كما في « الوافي بالوفيات » (٤/ ١٨٨) ، و« مغني اللبيب » (٢/ ٦٦٩) ، و« خزانة الأدب » (٥/ ١٠٤) ، وبعدهما قوله :

فـرفـعُ « أبـو مَـن » ثـمَّ خفـض « مـزمَّـلِ » ... يُبيِّـنُ قـولـي مغـريـاً ومُحـذراً

ويشير بهـٰذا إلىٰ أن مما يكتسبه الاسم بالإضافة : التصدُّر ، فوجب الرفع في نحو : « علمت : أبو مَنْ زيدٌ ؟ » ، ويشير بقوله : (ثم خفض « مزمَّل ») إلىٰ قول امرىء القيس : [من الطويل]

كـأن أبـانـاً فـي عـرانيـنِ وبلِـهِ ... كبيـرُ أنـاسٍ فـي بجـادٍ مـزمَّـلِ

فـ(مزمل) صفة لـ(كبير) ، فكان حقه الرفع ، ولكنه خفض لمجاورته المخفوض ، وقد شرح هـٰذه الأبيات الثلاثة ـ كما في « حلية البشر » (٣/ ١٥٦٤) ـ الشيخ منصور بن مصطفى السرميني (ت١٢١٠) في كتاب سماه : « كشف اللثام والستور عن مخدرات أرباب الصدور » .

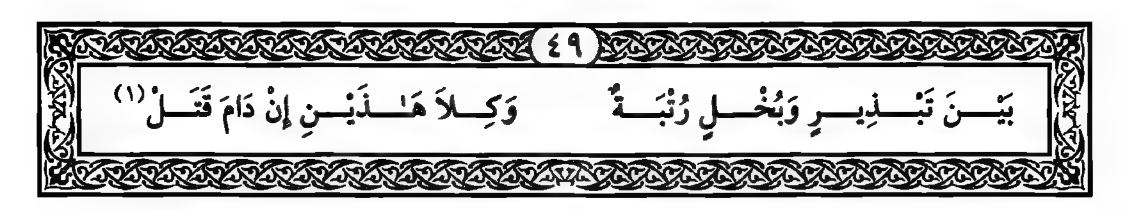
وقال آخر -: [من الكامل]

مَـنْ عَـاشَـرَ ٱلأَشْـرَافَ صَـارَ مُشَـرَّفـاً ... وَمُعَـاشِـرُ ٱلأَنْـذَالِ غَيْـرُ مُشَـرَّفِ
أَوَمَـا تَـرَى ٱلْجِلْـدَ ٱلْحَقِيـرَ مُقَبَّـلاً ... بِـالثَّغْرِ لَمَّا صَـارَ جِلْدَ ٱلْمُصْحَفِ[1]

* * *

(١) البيتان في « السحر الحلال » (ص٨٢) ، ووقع في الأصل : (أما تنظر) بدل : (أوما ترىٰ) .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



أي : لا تداوم على الإعطاء حتَّىٰ يبلغ إلى التبذير ؛ الذي هو : إنفاق المال في غير حقه ، ولا على الإمساك حتَّىٰ يبلغ إلى البخل ؛ الذي هو : منع السائل ممَّا يفضل عنِ الحاجة ، بل كن وسطاً بين التبذير والبخل ؛ لأنَّ الواحد منهما إن دام عليه الشخص قتله وأهلكه .

قال الله تعالىٰ لنبيه عليه أفضل الصلاة والسلام : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ أي : لا تمسكْ عنِ الإنفاق حتَّىٰ تضيِّق علىٰ نفسك وأهلك فلا تصلُ رحمك ، ولا تتوسَّعْ في الإنفاق توسعاً زائداً حتَّىٰ لا تُبقي في يدك شيئاً ، بل توسَّط بين ذلك ؛ كما قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ أي : حالاً وسطاً .

فعُلِم ممَّا تقدَّم : النصُّ علىٰ قبح البخل وعلىٰ قبح التبذير .

أمَّا البخل : فقبحه لا يحتاج إلى النصِّ عليه ؛ فقد ورد في ذمِّه مِنَ الآيات والأحاديث والآثار ما لا يحصىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ .

وقال عليه الصلاة والسلام : « أَقْسَمَ ٱللهُ بِعِزَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ وَجَلاَلِهِ : لاَ يَدْخُلُ ٱلْجَنَّةَ شَحِيحٌ وَلاَ بَخِيلٌ »[(٢)] .

وقال عليُّ بن أبي طالب رضي الله تعالىٰ عنه : (البخيل يتعجَّل الفقر لنفسه ، يعيش في

---

(١) ويروىٰ : (إن زاد) .

(٢) سبق تخريجه (ص٢٢٤) .

الدنيا عيش الفقراء ، ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء)[1] .

وأمَّا التبذير : فقد ورد في ذمِّه آيات وأحاديث وآثار كثيرة ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ .

وقال عليه الصلاة والسلام : « آفَةُ ٱلْجُودِ السَّرَفُ »[2] .

وقال معاوية رضي الله عنه : (ما رأيت سرفاً قطُّ إلاَّ وإلىٰ جانبه حقٌّ مضيَّع)[3] .

وقال بعضهم : السخاء خلق مستحسن ما لم ينته إلىٰ سرف وتبذير ، فإنَّ مَنْ بذل جميع ما يملكه لمن لا يستحقُّه . . لم يسمَّ سخياً ، وإنَّما يسمَّىٰ مبذِّراً مضيِّعاً .

ورأىٰ أبو ذرٍّ الغفاريُّ معاويةَ يوماً وقد أنفق مالاً كثيراً ، فقال له : (إن كان هـٰذا مِنْ بيت المال . . فأنت خائن والله لا يهدي كيد الخائنين ، وإن كان مِنْ مالك . . فأنت مسرف والله لا يحب المسرفين) .

وقالوا : ما وقع تبذير في كثير إلاَّ هدمه ودمَّره ، ولا دخل تدبير في قليل إلاَّ كثَّره .

وقال أبو بكر الصدِّيق رضي الله تعالىٰ عنه : (إنِّي لأبغضُ أهل بيت ينفقون رزق الأيام الكثيرة في يوم واحد) .

وقال معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالىٰ عنهما لولده يزيد : (إنَّك إن أعطيتَ مالك في غير الحقِّ . . يوشك أن يجيء الحقُّ وليس معك ما تعطي فيه)[4] .

وقالوا : التدبير يثمر وينمي القليل ، والتبذير يمحق ويدمِّر الكثير .

وكان عبد الله بن جعفر مِنَ الأجواد الذين يغمرون بجودهم طوائف العباد ، وانتهىٰ به الإفلاس إلىٰ أن سأله رجل فقال له : إنَّ حالي متغيِّرة بحوادث الزمان ، ولكن أعطيك

---

(١) ذكره الزمخشري في « ربيع الأبرار » (٨/٤) ، وجاء عند المعافىٰ في « الجليس الصالح » (٥٠٩/١) بإسناده إلىٰ أعرابي ، وقد مرَّ نحوه من قول الحسن عند المصنف (ص ٢٢٥) .

(٢) هو جزء من حديث طويل أخرجه القضاعي في « مسنده » (٧٥) ، وانظر « المقاصد الحسنة » (ص٥) .

(٣) « عيون الأخبار » (٣٣٢/١) ، و« محاضرات الأدباء » (٥٧٩/١) .

(٤) انظر الأقوال السالفة في « محاضرات الأدباء » (٥٧٩/١) .

ما أمكنني ، فأعطاه رداء كان عليه ، ثمَّ دخل منزله فقال : اللهمَّ ؛ أسترني بالموت ، فما لبث بعد دعوته إلاَّ أيَّاماً قلائلَ حتَّىٰ مرض ومات .

ولله درُّ القائل : [من الكامل]

وَلَقَدْ قَدِمْتَ عَلَىٰ رِجَالٍ طَالَمَا ... قَدِمَ ٱلرِّجَالُ عَلَيْهِمُ فَتَمَوَّلُوا
أَخْنَى ٱلزَّمَانُ عَلَيْهِمُ فَكَأَنَّهُمْ ... كَانُوا بِأَرْضٍ أَجْدَبَتْ فَتَحَوَّلُوا

[فأجيب] :

أَلْجُودُ أَفْلَسَهُمْ وَغَيَّرَ حَالَهُمْ ... فَٱلْيَوْمَ إِنْ سُئِلُوا ٱلنَّوَالَ تَبَخَّلُوا[1]

وأعلم : أنَّ أصطناع المعروف إلى اللئيم مِنَ الإسراف والتبذير ؛ ولذلك قال بعضهم : أصل كل عداوة أصطناع المعروف إلى اللئام[2] .

وقال بعضهم : لا حسرة أعظم مِنْ نعمة أُسديت إلىٰ غير ذي حسب ولا مروءة .

وقال بعضهم : صانع المعروف في غير أهله كالمسرج في الشمس .

ولله در القائل : [من الطويل]

مَتَىٰ تُسْدِ مَعْرُوفاً إِلَىٰ غَيْرِ أَهْلِهِ ... رُزِئْتَ وَلَمْ تَظْفَرْ بِحَمْدٍ وَلاَ أَجْرِ[3]

تَنْبِيه
[في بيان أن صرف المال في وجوه الخير ليس تبذيراً]

قال الفقهاء : الأصحُّ : أنَّ صرف المال في الصدقات ووجوه الخيرات وفي المطاعم

---

(١) الأبيات في قصة ذكرها في « المستطرف » (١/ ٣٦٢) ، مفادها : أن أبا الشمقمق وفد إلىٰ مدينة سابور يريد محمد بن عبد السلام ، فلما دخلها . . توجه إلىٰ منزله ، فوجده في دار الخراج يطالب ، وهو قائم في الشمس وعلىٰ عنقه صخرة ، فلما رآه محمد . . قال البيتين ، فقال أبو الشمقمق :

ألجود أفلسهم وغير حالهم ... فاليوم إن سئلوا النوال تبخلوا

ويروىٰ : (فاليوم إن راموا السماحة يبخلوا) ، قال : فخلع محمد ثوبه وخاتمه ودفعهما إليه ، فكتب بذلك مستوفي الخراج إلى الخليفة ، فوقع إلىٰ عامله بإسقاط الخراج عن محمد بن عبد السلام تلك السنة ، وإسقاط ما عليه من البقايا ، وأمر له بمئة ألف درهم معونةً علىٰ مروءته .

(٢) القائل هو سفيان كما في « المحاسن والمساوىء » للبيهقي (ص١٢٥) .

(٣) البيت عزاه في « محاضرات الأدباء » (١/ ٦٨٥) لأبي بجيلة .

والملابس ليس بتبذير ولا إسراف ؛ لأنَّ له في الصدقات غرضاً ، وهو حصول الثواب ، ولأنَّ المال إنَّما يجمع للانتفاع به في المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك .

وقال مجاهد : (لو كان أبو قبيس ـ الجبل المشهور ـ لرجل ذهباً ، ثمَّ أنفقه في طاعة الله تعالىٰ . . لم يكن إسرافاً ، ولو أنفق رجل درهماً واحداً في معصية الله . . كان إسرافاً) اهـ[1]

وقيل للحسن بن سهل ـ وكان كثير العطاء ـ : لا خير في السرف ، فقال : لا سرف في الخير[2] .

ولله در القائل : [من الوافر]

ذَهَابُ ٱلْمَالِ فِي حَمْدٍ وَأَجْرٍ ذَهَابٌ لاَ يُقَالُ لَهُ : ذَهَابُ[3]

وحكي : أنَّ علي بن موسى الرضا ـ رضي الله تعالىٰ عنه وعن آبائه ـ فرَّق في يوم عرفةَ مالَهُ كلَّه ، فقال له الفضل بن سهل : ما هـٰذا المَغْرم ؟ قال : بل هو المغنم ، لا تَعُدَّنَّ ما ٱبتغيتَ به أجراً أو كرماً مغرماً ؛ فقد كان جدي رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدَّخر شيئاً لغدٍ ، ويعطي عطاء مَنْ لا يخاف الفقر[4] . قاله في « غرر الخصائص » .

* * *

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٧٩٦٢) .

(٢) « الصناعتين » (ص٣٧١) ، و« بهجة المجالس » (٢/ ٦١٤) ، و« المستطرف » (١/ ٣٤٥) .

(٣) البيت من غير نسبة في « البيان والتبيين » (١/ ٢٤٤) ، و« بهجة المجالس » (١/ ١٨٨) ، و« محاضرات الأدباء » (١/ ٦٨٤) ، و« ربيع الأبرار » (٤/ ٥٧٤) .

(٤) حديث : (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يدخر شيئاً لغد) أخرجه ابن حبان (٦٣٥٦) ، والضياء في « المختارة » (١٦٠١) ، والترمذي (٢٣٦٢) .
وحديث : (أنه كان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر) أخرجه مسلم (٢٣١٢) ، وابن خزيمة (٢٣٧١) ، وابن حبان (٦٣٧٤) .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :

٥٠

لاَ تَخُضْ فِي سَبِّ سَادَاتٍ مَضَوْا   إِنَّهُـمْ لَيْسُـوا بِـأَهْـلٍ لِلـزَّلَـلْ

أي : لا تُدخِلْ نفسك ولا تتكلَّم بسوء في حقِّ ساداتٍ مضَوا وماتوا ؛ لأنَّهم رضي الله تعالىٰ عنهم ليسوا بأهلٍ للزلل ولا للخطأ ولا للنقص ، بل هم مبرَّؤون منه ، فيحرم سبُّ مَنْ مضىٰ مِنْ سادات المسلمين ، والخوضُ في أعراضهم بما لا يليق بمقامهم ؛ وذلك كالصحابة والعلماء والصوفيَّة ، كما أنَّه يحرم سبُّ الأحياء ؛ فقد ورد : إنَّ الميت يتأذَّىٰ ممَّا يتأذَّىٰ منه الحيُّ .

فيحرم سبُّ الصحابة الخارجين علىٰ علي بن أبي طالب مثلاً ، كما في وقعة الجمل وصِفِّين والنهروان ؛ لأنَّهم رضي الله تعالىٰ عنهم خارجون بتأويل وإن كانوا مخطئين في نفس الأمر ؛ لأنَّهم كلَّهم مجتهدون ، والمصيب في اجتهاده له أجران ، والمخطىء فيه له أجر واحد ، فكلُّهم مثابون رضي الله تعالىٰ عنهم ، وقاتلهم ومقتولهم في الجنَّة ؛ فالمتكلِّم فيهم متكلِّم في دينه ؛ لأنَّهُم المبلغون لنا قواعده وأحكامه .

وكذلك يحرم التكلُّم في السادات الذين تكلَّموا في الطريق ، وأظهروا خوارق العادات ؛ كالسريِّ السقطيِّ وأبي القاسم الجنيد والحسين الحَلاَّج وأشباههم مِنَ المتقدمين ، وكالشيخ محيي الدين بن العربي وسيِّدي عمر بن الفارض وغيرهما مِنَ المتأخِّرين ، فهٰؤلاء السادات رضي الله تعالىٰ عنهم وإن كانوا قد تاهوا وتكلَّموا بأشياء خارقة ، فلا يجوز سبُّهم ولا الاعتراض عليهم بحالٍ مِنَ الأحوال ؛ لأنهم ملازمون لقواعد الشرع ، فلا يصدر منهم قول ولا فعل مخالف للشرع .

وما أحسن قول بعضهم : مَنْ لا يعرف مصطلحنا . . لا يجوز له الخوض في طريقتنا[1] ،

---

(١) وقريب منه قول الشيخ محيي الدين بن العربي : (نحن قوم تحرم المطالعة في كتبنا إلا لعارف باصطلاحنا) ، وخصوصاً بعد ما ثبت عليه وعلىٰ غيره من الدس في كتبهم ، وانظر « الفتاوى الحديثية » (ص٥٠) للإمام ابن حجر الهيتمي رحمه الله تعالىٰ .

فيجب علىٰ كلِّ مسلم أن يلزم الأجوبة الحسنة عن الأكابر المتقدمين مِنْ أنبياء وصحابة وتابعين ومجتهدين وعارفين(١) .

قال سيِّدي علي الخوَّاص : (الواجب علىٰ كلِّ مسلم الذبُّ عن أعراض الصحابة فضلاً عن الأنبياء والمرسلين ، وعن أعراض المسلمين فضلاً عنِ التابعين ؛ لأنَّ هـٰؤلاء هم حملةُ الدين ، فمَنْ نسبهم إلىٰ نقص . . فقد أراد أن يحوِّل حدود الدين ، وقد لعن الله مَنْ غيَّرَ حدود الأرض ، فكيف بمَنْ يغيِّرُ حدود دينه ؟!) اهـ

فممَّا أجابوا به عن سيِّدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه في قوله : (أمَّا الفساد . . فلا نريده إن شاء الله تعالىٰ ، وأمَّا العُلُوُّ . . ففي النفس شيء منه) حين سمع قارئاً يقرأ قوله تعالىٰ : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ : أنَّه رضي الله تعالىٰ عنه لم يقل ذلك إلاَّ هضماً لنفسه ، واتِّهاماً لها كما هو شأن الأكابر ، وإلاَّ . . فمثل هـٰذا الإمام لا يريد عُلُوّاً في الأرض بيقين .

ونظير ذلك قول الحسن البصري : (لو حلف حالف أن أعمال الحسن أعمال مَنْ لا يؤمن بيوم الحساب . . لقلت له : صدقتَ ، لا تكفِّر عن يمينك) .

وممَّا أجابوا به عنِ الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالىٰ في عدم حضوره الجماعة خمساً وعشرين سنة : أنه لو لم ير له عذراً يبيح له التخلُّف عن الحضور . . ما تخلَّف ، فالتسليم لمثل هـٰذا الإمام أسلم ، وحمله علىٰ محمِلٍ حسنٍ أغنم ، رضي الله تعالىٰ عنه(٢) .

---

(١) وقد عقد الإمام الشعراني رحمه الله تعالىٰ باباً في الجواب عن السادة الصوفية وحَمْلِه علىٰ أحسن الوجوه في كتابه « لطائف المنن والأخلاق » (١/١٢١) ، وكذا الإمام ابن عطاء الله السكندري عقد باباً في « لطائف المنن » (ص٢٠٢) .

(٢) ذكر ابن سعد في « الطبقات » (القسم المتمم ص٤٤٢) ، وابن خلكان في « وفيات الأعيان » (٤/١٣٦) من طريق الواقدي : (أنه ربما كُلِّم في ذلك ـ أي : عدم حضوره الجماعة ـ فكان يقول : ليس كل الناس يقدر أن يتكلم بعذره) ، وفي نسخة بهامش « الوفيات » بخط ابن خلكان : (وإنما كان تخلف عن المسجد ؛ لأنه سلس بوله ، فقال عند ذلك : لا يجوز أن أجلس في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم وأنا علىٰ غير طهارة ، فيكون ذلك استخفافاً) .
وفي « سير أعلام النبلاء » (٨/٦٦) : (عن مصعب قال : لم يشهد مالك الجماعة خمساً وعشرين سنة ، فقيل له : ما يمنعك ؟ قال : مخافة أن أرىٰ منكراً ، فأحتاج أن أغيِّره) ، قال الإمام الشعراني في « الطبقات » (١/٥٣) : (وإنما سومح في ذلك ؛ لأنه مجتهد ، ولو فعل ذلك غيره . . لا يقر علىٰ ذلك ، والله أعلم) ، ولا يخفىٰ أن الإمام مالكاً له سلف بذلك ؛ فقد ورد عن سيدنا سعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد رضي الله عنهما أنهما لزما بيوتهما بالعقيق ، فلم يكونا
=

وممَّا أجابوا به عن الإمام الشافعيِّ رحمه الله تعالىٰ في قوله : [من الوافر]

وَلَـوْلاَ ٱلشِّعْـرُ بِـالْعُلَمَـاءِ يُـزْرِي لَكُنْـتُ ٱلْيَـوْمَ أَشْعَـرَ مِـنْ لَبِيـدِ

وَلَـوْلاَ خَشْيَـةُ ٱلـرَّحْمَـٰنِ رَبِّـي لَقُلْـتُ : ٱلنَّـاسُ كُلُّهُـمُ عَبِيـدِي[1]

أنَّ المراد بما ذكره في البيت الأول : شكر النعمة ؛ فإنَّ مِنْ شكر النعمة إظهارَها والتحدُّثَ بها ، لا فخراً وٱستطالة ، حاشاه مِنْ مثل ذلك ، ويعني بـ(الناس) في البيت الثاني : أبناء الدنيا الذين يحبُّونها بحكم الطبع ، بقرينة قول بعض العارفين لبعض الملوك : أنت عبد عبدي ، فقال له : لِمَ ذلك ؟ فقال : لأنَّك عبد للدنيا ، والدنيا خادمة لي ، أو يقال : مراد الإمام بذكر ذلك : شكر النعمة أيضاً ، حيث إنَّ الله رزقه القناعة ، وأرضاه باليسير ، وحماه مِنْ سؤال أبناء الدنيا ، ونحو ذلك .

وممَّا أجابوا به عن أبي يزيد البسطاميِّ في قوله : (خضت بحراً وقفتِ الأنبياء بساحله) : أنَّ معنىٰ ذلك : أنَّ أبا يزيد يشكو ضعفه وعجزه عن اللحوق بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؛ وذلك لأنَّهم خاضوا بحر التوحيد ووقفوا بالجانب الآخر يدعون الناس إلى الخوض ؛ أي : فلو كنت كاملاً . . لوقفت حيث وقفوا ، قال صاحب « الحكم »[2] : (وهـٰذا التفسير هو اللائق بمقام أبي يزيد ؛ فإنَّ المشهور عنه التعظيم والقيام بكمال الأدب ، ومِنْ كلامه : جميع ما أخذ الأولياء بالنسبة لِمَا أخذ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . . كزِقٍّ مُلِىءَ عسلاً ثمَّ رشحت

= يأتيان المدينة لجمعة ولا غيرها حتىٰ ماتا بالعقيق ، فكان سعد ممن لزم بيته في الفتنة وأمر أهله ألا يخبروه بشيء من أخبار الناس حتىٰ تجتمع الأمة علىٰ إمام ، والخلاصة : أن صلاة الجماعة ـ واجبة أم مؤكدةً ـ لا تترك إلا لرخصة مبيحة لتركها ممَّا نصَّ عليه الفقهاء في أعذار الجمعة والجماعة ، وما جاء عن الإمام مالك وأمثاله ممن يوثق بدينه لا بد وأن يحمل علىٰ غرض شرعي ، وعذر مبيح ، وهـٰذا وإن ورد . . فهو نادر ، كما ذكر الإمام الغزالي في « الإحياء » (٢/ ٢٤٠) فقال : (وحضور الجماعة في سائر الصلوات أيضاً لا رخصة في تركه إلا لخوف ضرر ظاهر يقاوم ما يفوت من فضيلة الجماعة ويزيد عليه ، وذلك لا يتفق إلا نادراً) .

(١) البيتان في « ديوان الإمام الشافعي » (٥٦) ، وأسندهما البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ٦٢) .

(٢) هو الإمام ابن عطاء الله السكندري رحمه الله تعالىٰ ، وقوله هـٰذا ذكره في كتابه « لطائف المنن » (ص٢٠٣) تعقيباً علىٰ كلام الإمام أبي الحسن الشاذلي رحمه الله تعالىٰ في الجواب عن كلام أبي يزيد رحمه الله تعالىٰ ، وهو عين ما ذكره المصنف .

منه رشحات ، فما في بطن الزِّقِّ للأنبياء ، وتلك الرشحات للأولياء)[1] .

وقال الشيخ محيي الدين بن العربي : (قد طلب أبو يزيد البسطامي مِنَ الله تعالىٰ أن يدخله مقام نبيٍّ مِنَ الأنبياء ، فأعطاه الله تعالىٰ مقدار الشعرة البيضاء مِنَ الثور الأسود ، فكاد أن يحترق ، فسأل الله الحجاب من ذلك وقال : لا طاقة لأحد مِنْ أمثالنا بدخول مقام أحد مِنَ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام) .

وممَّا أجابوا به عن الجنيد في قوله : (أدركت سبعين عارفاً كانوا يعبدون الله علىٰ ظنٍّ ووَهَم حتَّىٰ أخي أبو يزيد ، ولو أدرك صبياً مِنْ صبياننا . . لأسلم علىٰ يديه) أنَّ معنىٰ ذلك : أنَّهم كانوا يقولون : ما بعد المقام الذي وصلناه مقام ، وذلك ظنٌّ ووَهَم ؛ فإنَّ فوق كلِّ مقام مقامات إلىٰ ما لا يتناهىٰ ، وليس مراده الظنَّ والوَهَمَ في معرفة الله ، ومعنىٰ : (لأسلم علىٰ يديه) أي : أنقاد له ؛ لأنَّ الإسلام هو الانقياد ، ومراد الجنيد بذلك : شكر النعمة[2] .

وممَّا أجابوا به عن الحلاج في قوله : (ما في الجُبَّة إلاَّ الله) وقد ضبطها بعضهم بالجيم والموحدة[3] : أنَّ مراده : ما في جسدي إلاَّ حبُّ الله ، وكم في الكتاب والسنة مِنْ كلامٍ يجب فيه التقدير ؛ كما في قوله تعالىٰ : ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي : أشربوا حبَّ العجل ، فافهم .

وممَّا أجابوا به عن حجة الإسلام الغزالي في قوله : (ليس في الإمكان أبدع ممَّا كان) : أنَّ مراده : ليس لنا إلاَّ رتبتان : قدم وحدوث ؛ فالحق سبحانه له رتبة القدم ، والحادث له

---

(١) انظر قوله في « الرسالة القشيرية » (ص٥٦٥) ، و« لطائف المنن » لابن عطاء (ص٢٠٣) .

(٢) ذكر نحوه الإمام ابن عطاء الله السكندري في « لطائف المنن » (ص٢٠٣) من كلام الإمام أبي الحسن الشاذلي رحمه الله تعالىٰ ، وفيه : (المراد : أنهم وصلوا إلىٰ مقامات توهَّموا أن ليس وراءها للموقنين مقام ، فقال الجنيد : لو أدرك صبياً من صبياننا . . لأسلم علىٰ يديه ؛ أي : ليبيِّن له أنَّ فوق ذلك المقام مقاماً ، وفوق ذلك مقام إلىٰ ما لا آخر له) .

(٣) وضبطها آخرون بالجيم والثاء المثلثة ، وعليهما فالمراد : الجسد ، وفي المطبوع أن القائل هو الشبلي لا الحلاج ، وقد نسبها للحلاج ابن خلكان في « وفيات الأعيان » (٢/ ١٤) ، والصفدي في « الوافي بالوفيات » (١٣/ ٧١) ، ونسبها للشبلي الشعراني في « لطائف المنن » (١/ ١٢٢) ، ثم قال : (ولعل مراده رضي الله عنه : ما ثم في جسدي فاعل إلا الله تبارك وتعالىٰ ، نظير قول بعضهم : ما في الكونين إلا الله تعالىٰ ، فليس مراده نفي الكونين ولا أن الله سبحانه وتعالىٰ يحل في خلقه ـ تعالى الله عن ذلك ـ لأنه أثبت وجودهما كما ترىٰ ، ولكن جعل الله تعالىٰ خالقاً لهم ولأفعالهم ، وقدِ اعتذر عن كلام الحلاج وغيره من مثل هٰذا وبيَّنَ المراد منه الإمام الغزالي في فصل من كتابه « مشكاة الأنوار » (ص٤٠) .

رتبة الحدوث ، فلو خلق سبحانه ما خلق إلىٰ ما لا يتناهىٰ عقلاً . . لا يرقىٰ عن رتبة الحدوث إلىٰ رتبة القدم أبداً[١] .

ومما أجابوا به عن سيدي إبراهيم الدسوقي في قوله في آخر التائية :

وبي قامتِ الأشياءُ في كُلِّ أُمَّةٍ	بمختلفِ الآراء والكلّ أمّتي
نَعَمْ نَشْأَتِي في الحُبِّ مِنْ قبلِ آدمٍ	وسِرِّيَ في الأكوانِ مِنْ قبلِ نشأتي
أنا كنتُ في رُؤيا الذبيحِ فِدَاءَهُ	بلطفِ عناياتي وعين حقيقتي
أنا كنتُ معْ إدريس لمَّا ارتقى العُلاَ	وأسكنُ في الفردوس أنعم بقعةٍ
أنا كنت معْ عيسىٰ وفي المهدِ ناطقاً	وأُعطيَ داوودٌ حلاوةَ نغمتي

أن ذلك وقع منه رضي الله عنه علىٰ لسان النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن الولي تارة يتكلم في حال غيبته عن نفسه علىٰ لسان النبي صلى الله عليه وسلم ، وتارة يتكلم علىٰ لسان الألوهية[٢] .

وممَّا أجابوا به عن سيِّدي عمرَ بن الفارض رحمه الله تعالىٰ في قوله في التائية :

وَأَلْسِنَةُ الأَكْوَانِ إِنْ كُنْتَ وَاعِياً	شُهُودٌ بِتَوْحِيدِي بِحَالِ فَصِيحَةِ

---

(١) هٰذا ما أجاب به الشيخ محيي الدين بن العربي كما في « لطائف المنن والأخلاق » (١/١٢٣) ، وقال الإمام الشعراني رحمه الله في جوابه أيضاً : (ولعل مراده رضي الله تعالىٰ عنه : أن جميع الممكنات أبرزها الله تعالىٰ علىٰ صورة ما كانت في علمه تعالى القديم ، وعلمه القديم لا يقبل الزيادة ، وفي القرآن العظيم ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ﴾ ، فلو صحَّ أن في الإمكان أبدع مما كان ولم يسبق به علمه تعالىٰ . . للزم عليه تقدم جهلٍ ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً) ، وفي « الفتاوى الحديثية » (ص٥٤) للإمام ابن حجر الهيتمي ما نصه : (وحاصل الجواب عن كلام الغزالي : أن إرادة الله سبحانه وتعالىٰ لمّا تعلقت بإيجاد هٰذا العالم وأوجده وقضىٰ ببقاء بعضه إلىٰ غاية ، وبقاء بعضه الآخر لا إلىٰ غاية ، وهو الجنة والنار . . كان ذلك مانعاً من تعلق القدرة الإلٰهية بإعدام جميع هٰذا العالم ؛ لأن القدرة لا تتعلق إلا بالممكن ، وإعدام ذلك غير ممكن ، لا لذاته ، بل لما تعلق به مما ذكرناه ، ولما كان إعدامه محالاً لما قلناه . . كان إيجاده الأول علىٰ غاية الحكمة والإتقان ، وكان أبدع ما يمكن أن يوجد ؛ لأنه لا يوجد غيره لما تقرر) .

(٢) وقد ساق الإمام الشعراني رحمه الله تعالىٰ في « الطبقات الكبرىٰ » (١/١٨٢) بعضاً من تائيته فيها هٰذه الأبيات ، ثم قال : (وجميع ما فيه استطالة من هٰذه الأبيات إنما هو بلسان الأرواح ، ولا يعرفه إلا من شهد صدور الأرواح من أين جاءت ، وإلىٰ أين تذهب ، وكونها كالعضو الواحد من المؤمن إذا اشتكىٰ فيه ألماً . . تداعىٰ له سائر الجسد ، وذلك خاص بالكامل المحمدي لا يعرفه غيره) ، وجاء البيت الأخير عنده :

أنا كنتُ مع عيسىٰ على المهد ناطقاً	وأعطيتُ داووداً حلاوة نغمتي

وتائيته بطولها في كتابه « الجوهرة » .

وَإِنْ عَبَدُوا غَيْرِي وَإِنْ كَانَ قَصْدُهُمْ سِوَايَ وَإِنْ لَمْ يُضْمِرُوا عَقْدَ نِيَّةِ[1]

أنَّ ذلك وقع منه علىٰ لسان الألوهية ، وأراد بقوله : (شهودٌ بتوحيدي) : التوحيد الحالي ، المُدخِل للمؤمن والكافر في حكم العبادة بالحال ، وقوله : (بحالٍ فصيحة) أخرج التوحيد المقالي ، ولم يتعرَّض له ولا لأهله ؛ لأنَّه مخصوص بالمؤمنين دون الكافرين ، وليس هو المقصود الأعظم في الآية المقتبس منها البيت وهي قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ ؛ فـ(شيء) نكرة في سياق النفي تعمُّ كلَّ شيءٍ ؛ مِنْ موحِّد وجاحد وحيوان وجماد ، فكأنَّ الحقَّ تعالىٰ يقول : كلُّ شيءٍ يوحِّدني ويعبدني بباطنه وإنِ اختلف أمر ناطقيته ، فالقول بأنَّ كلَّ جاحد في الظاهر موحِّدٌ في الباطن جائزٌ بين قومٍ يفقهون كلام الله ومواضع إشاراته ، لا الذين لا يحيطون بشيء مِنْ أسراره ، وأشار في الآية إلى التوحيد الحالي بقوله : ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ ، ولكن هٰذا التوحيد الحالي لا ينفع الكافر ، بدليل حديث القبضتين[2] ، وحديث الفراغ[3] ، وحديث جفوف

---

(١) البيتان في « ديوان الإمام ابن الفارض » (ص١١٣ـ١١٥) ، ورواية البيت الثاني فيه :

فما قصدوا غيري وإن كان قصدهم سواي وإن لم يظهروا عقد نية

وهما من تائيته الكبرى التي بلغت (٧٦٠) بيتاً ، ومطلعها :

سقتني حميا الحبِّ راحةُ مقلتي وكأسي محيا مَن عنِ الحسن جلَّتِ

وقد اعتنىٰ بشرحها جماعة من الأعيان .

(٢) حديث القبضتين : هو ما أخرجه الإمام أحمد (١٧٦/٤) : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله قبض بيمينه قبضة وأخرىٰ باليد الأخرىٰ ، وقال : هٰذه لهٰذه ، وهٰذه لهٰذه ، ولا أبالي » قال الصحابي : فلا أدري في أي القبضتين أنا .

(٣) حديث الفراغ : هو ما أخرجه الترمذي (٢١٤١) ، وابن أبي عاصم في « السنة » (٣٥٧) ، وأحمد (١٦٧/٢) ، وغيرهم ، عن عبد الله بن عمرو قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده كتابان ، فقال : « أتدرون ما هٰذان الكتابان ؟ » قال : قلنا : لا ، إلاَّ أن تخبرنا يا رسول الله ، قال للذي في يده اليمنىٰ : « هٰذا كتاب من رب العالمين تبارك وتعالىٰ ، بأسماء أهل الجنة ، وأسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أُجمل علىٰ آخرهم ـ أي : أحصوا وجمعوا ـ لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً » ، ثم قال للذي في يساره : « هٰذا كتاب أهل النار ، بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أجمل علىٰ آخرهم ، لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً » ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلأي شيء إذن نعمل ، إن كان هٰذا أمراً قد فرغ منه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سددوا وقاربوا ؛ فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أي عمل ، وإن صاحب النار ليختم له بعمل أهل النار وإن عمل أي عمل » ، ثم قال بيده فقبضها ، ثم قال : « فرغ ربكم عز وجل من العباد » ثم قال باليمنىٰ ، فنبذ بها ، فقال : « فريق في الجنة » ، ونبذ باليسرىٰ ، فقال : « فريق في السعير » .

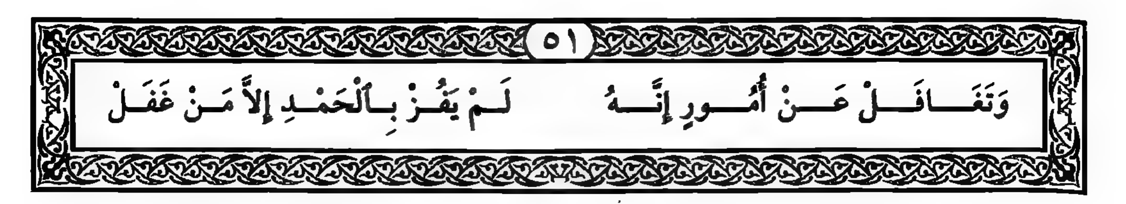
الأقلام[1] ، فلو كان ينفعهم.. ما دخل أحدٌ منهم النار ، فأفهم ، قاله في « تحفة الأكياس »[2] .

* * *

(١) حديث جفوف الأقلام : هو ما أخرجه الترمذي (٣١١١) ، وابن أبي عاصم في « السنة » (١٦٩) ، والبزار في « مسنده » (١٦٨) ، وغيرهم ، عن عمر رضي الله عنه قال : لما نزلت هاذه الآية ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ . . سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا نبي الله ؛ فعلىٰ ما نعمل ؟ علىٰ شيء قد فُرغ منه ، أو علىٰ شيء لم يُفرغ منه ؟ قال : « بل علىٰ شيء قد فرغ منه وجفت به الأقلام يا عمر ، ولكن كل ميسر لما خلق له » ، ونحوه من الأحاديث الكثيرة التي تبين أمر القدر ، وما كتب في اللوح المحفوظ من الغيب بسابق علم الله سبحانه وتعالىٰ .

(٢) وهو كتاب « تحفة الأكياس في حسن الظن بالناس » للشيخ علي المصري رحمه الله تعالىٰ .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



أي : أظهر مِنْ نفسك التغافلَ عن أمورٍ غير محمودة وقعت مِنَ الناس ؛ لأنَّه لم يفز ـ أي : لم يظفر بالحمد ؛ أي : الثناء عليه مِنَ الله تعالىٰ ومِنَ الناس ـ إلاَّ مَنْ غفل ؛ أي : مَنْ ترك أمور الناس ، ولم ينظر إلىٰ عيوبهم[١] .

قال بعض الحكماء لولده : يا بنيَّ ؛ لا تطَّلع علىٰ عورات الناس وعيوبهم ، طوبىٰ لمَنْ شغله عيبه عن عيوب الناس .

وما أحسن ما قاله بعضهم : [من الرمل]

إِنْ تَجِدْ عَيْبَاً فَسُدَّ ٱلْخَلَلاَ ... جَلَّ مَنْ لاَ عَيْبَ فِيهِ وَعَلاَ[٢]

فالأولى التغافل عن أمور الناس وأحوالهم وأقوالهم ؛ لأنَّ « مِنْ حُسْنِ إِسْلاَمِ ٱلْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنِيهِ » ، كما في الحديث[٣] ، ولأنَّه يحتمل أن يكون الفاعل للأمر غير المحمود وليّاً مستتراً بهٰذا الأمر .

قال بعضهم : لكلِّ وليٍّ سِترٌ :

فمنهم مَنْ يكون سِتره بالمزاحمة على الدنيا ، وبطلب الرياسة ، وبالملابس الفاخرة .

---

(١) ولله درُّ أبي تمام إذ يقول في « ديوانه » (١/١٠٨) : [من الكامل]

ليس الغبي بسيد في قومه ... لكن سيد قومه المتغابي

(٢) البيت للحريري من أرجوزته المشهورة في النحو « ملحة الإعراب » التي جاءت في ثلاث مئة وأربعة وسبعين بيتاً ، وربما كانت أول أرجوزة متكاملة في النحو ، ولها شروح كثيرة ، وقد ضمن الأشطار الأولىٰ من أبياتها ابن الوردي رحمه الله تعالىٰ في « ديوانه » (ص٢٧١) في قصيدة سماها : « تحفة الأحباب من ملحة الإعراب » ، ومنها قوله : [من الرجز]

وخلِّ عني يا عذولُ العذلا ... وإن تجد عيباً فسدَّ الخللا

فقد رثىٰ لي وألان القولا ... والحمدُ لله علىٰ ما أولىٰ

فَديتُ لونَ خدِّه مِن خدٍّ ... كان حريريّاً فصار وردي

(٣) أخرجه ابن حبان (٢٢٩) ، والترمذي (٢٣١٧) ، وابن ماجه (٣٩٧٦) .

ومنهم مَنْ يكون سِتره بالاشتغال بالعلم الظاهر ، والوقوف علىٰ ظاهر النصوص حتَّىٰ لا يكاد أحد يخرجه عن آحاد طلبة العلم القاصرين .

ومنهم مَنْ يكون سِتره بسؤال الدنيا مِنْ أبنائها ، وطلب الوظائف مِنْ تدريس وإمامة وخطابة ، ونحو ذلك .

ومنهم مَنْ يكون سِتره بكثرة التردد إلى الملوك والأمراء والأغنياء .

ومنهم مَنْ يكون سِتره بالسطو والقهر علىٰ حسب ما يتجلىٰ عليه الحقُّ سبحانه وتعالىٰ .

ومنهم مَنْ يكون سِتره بالسخريات ، وصفعه لقفاه ، وحلقه للحيته .

ومنهم مَنْ يكون سِتره بالكلام القبيح الذي لا يطيق أحد سماعه .

ومنهم مَنْ يكون سِتره ببلع الحشيشة ونحوها ، وفي حال بلعها تقلب له أكلاً مباحاً .

ومنهم مَنْ يكون سِتره بمعاشرته للفسقة والأولاد المرد .

ومنهم مَنْ يكون ستره بجلوسه عند الملاهي ، وهٰكذا ، فإيَّاكم والمبادرةَ إلىٰ سوء الظنِّ ، فربَّما يكون مَنْ أسأتم به الظنَّ وليّاً وهو مستتر بشيءٍ مِنْ هٰذه الأستار ، فتشتدُّ عليكم العقوبة .

وقال شيخ الإسلام زكريَّا الأنصاريُّ : (إذا رأيتم أحداً مِنْ أرباب الأحوال يحسس بيده على النساء . . فإيَّاكم أن تسيئوا به الظنَّ) .

فقد حكي : أنَّ فقيراً مريضاً دخل على الشيخ عبد السلام القليبي ، فأمر جاريته أن تخدُمَه إلىٰ أن يبرأ ، فاستمرت تخدُمُه إلىٰ أن عوفي ، فراودها عن نفسها وجذبها علىٰ ذلك ، فأبت وذهبت إلى الشيخ فأعلمته ، فقال لها : اكتمي ذلك وأنت حرَّة ، فذهب إليه فلم يجده في الموضع الذي أنزله فيه ، فاتبعه خارج المنزل ، فرآه ماشياً على البحر ، فقال له : ما هٰذا وذاك ؟ فالتفت إليه وقال : لا ينبغي لنا أن تخدُمَنا الجارية ونرحلَ عنها بغير مكافأة علىٰ خدمتها بدون العتق[1] .

وقال سيِّدي عليٌّ المصري : (إذا رأيتم أحداً مِنَ العلماء في سَعة مِنَ الدنيا وملابسها

---

(١) انظر القصة في « طبقات الصوفية » (٢/ ٤٤٣) .

ومراكبها . . فإيَّاكم أن تعترضوا عليه ؛ فإنَّ العلماء كالملوك ؛ فكما ينفق الملك علىٰ جنده ، كذلك العالم ينفق علىٰ طلبته ، وكما أنَّ الجند يحفظون دين الإسلام مِنَ العدوِّ الظاهر ، فكذلك طلبة العلم يحفظونه مِنَ العدو الباطن ، فكمال الدين لا يتمُّ إلاَّ بالملوك والعلماء .

وحكي عن أشهب صاحب الإمام مالك : أنَّه كان في سَعة مِنَ الدنيا ، وكانت معيشته معيشة الملوك[1] .

وكانت بلاد جيزة مصر أقطاعاً للإمام الليث بن سعد ، وكان خراجها في كلِّ سنة مئة ألف دينار ، ولم تجب عليه زكاة قطُّ[2] .

وقد كان الفخر الرازي له ألف مملوك ، خلاف الجواري والخدم .

فالعلماء والأولياء علىٰ أقدام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وبعض الأنبياء كان له مال ؛ كالسيِّد إبراهيمَ والسيِّد يوسفَ والسيِّد سليمانَ والسيِّد أيوبَ عليهم الصلاة والسلام ، وبعضهم لا مال له ؛ كالسيِّد نوح والسيِّد عيسىٰ والسيِّد يحيىٰ ووالده علىٰ نبينا وعليهم أفضل الصلاة والسلام .

وقال : إذا رأيتم أحداً يرفع صوته بذكر الله تعالىٰ . . فاحملوه علىٰ أنَّه يفعل ذلك محبَّةً في الله ، وطلباً لأحدٍ يذكر الله بذكره ، وتنهيضاً لهمم الإخوان ، لا لعلَّةٍ أخرىٰ مِنْ حظوظ النفوس ؛ فإنَّ ذلك لا يجوز .

وقال : إذا سمعتم أحداً مِنَ الأولياء يقول : إنَّ الله أطلعني علىٰ ما لم يطلع عليه عزرائيل . . فلا تعترضوا عليه ؛ فقد وقع أنَّ عزرائيل نزل لقبض روح ولد الشيخ محمد الشربيني ، فقال له الشيخ : ارجع إلىٰ ربِّك ؛ فإنَّ الأمر قد نسخ ، بقي مِنْ أجَل ولدي ثلاثون عاماً ، فكان الأمر كما قال الشيخ ، وعوفي ولده مِنْ تلك الضعفة ، وعاش ثلاثين عاماً[3] .

وقال : إذا رأيتم أحداً مِنَ المشايخ تغيَّر علىٰ مَنْ زار مِنْ تلامذته أحداً مِنْ أقرانه . .

---

(١) ولا عجب ؛ فقد كان علىٰ خراج مصر ، وكان صاحب أموالٍ وحشم . « سير أعلام النبلاء » (٩/٥٠١) .

(٢) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٧/٣٢٢) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (١٣/١١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٠/٣٧٥) ، ووقع عندهم أنه كان يغل ثمانين ألف دينار في السنة .

(٣) انظر القصة في « طبقات الصوفية » (٣/٤٥٤) ، و« الطبقات الكبرىٰ » للشعراني (٢/١٣٥) ، و« جامع كرامات الأولياء » (١/٢٩٦) .

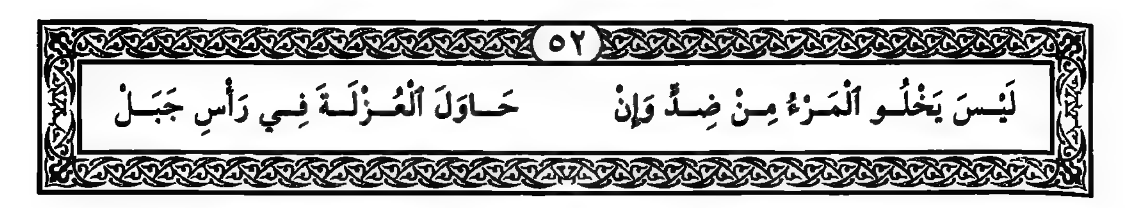
فأحملوه علىٰ أنَّه ما تغيَّر عليه إلاَّ لمصلحته ؛ كأن اَطَّلع عليه مِنْ طريق كشفه علىٰ أنَّ فتحه لا يكون علىٰ يد غيره ، فأظهر له التكدُّر ؛ ليلازمه إلىٰ وقت الفتح مصلحةً له ، لا لعلَّة أخرىٰ مِنْ حظوظ النفوس .

ومِنْ كلام الشيخ محيي الدين بن العربي : ما سامح شيخٌ مريدَه في الاجتماع بغيره . . إلاَّ حصل له تردُّد في أيِّ الشيخين أعلىٰ مِنَ الآخر حتَّىٰ يتتلمذ له ، وإذا حصل له ذلك . . رفضه قلب الاثنين ، فلم ينتفع بأحد منهما ، لأنَّ شرط الانتفاع بشيخ . . جزمُ التلميذ بأنَّه لا يخرج مِنْ دائرة شيخه حتَّىٰ يحصل له الكمال .

وقال : إذا رأيت أحداً مِنَ العلماء والصالحين يتردَّد كثيراً إلى الملوك والأمراء والقضاة والأغنياء ، ويسألهم الدنيا ، ويطلب منهم الوظائف ؛ مِنْ تدريس وخَطابة وإمامة ونحو ذلك . . فإيَّاك أن تعترض عليه ، كما يقع فيه القاصر في الفَهم والإدراك فيقول : لو كان هـٰذا ولياً أو عالماً عاملاً بعلمه . . ما تردَّد إلىٰ هـٰؤلاء الأمراء ، بل يجلس في بيته أو زاويته ، ويشتغل بعبادة ربِّه ، ورحم الله العلماء والأولياء الذين سلفوا ، ونحو ذلك مِنْ ألفاظ الجسور ، ولو اَستبرأ هـٰذا القائل لدينه . . لوقف وتبصَّر في أمر هـٰؤلاء الأولياء والعلماء قبل أن يقدم عليهم ؛ فربَّما كان تردُّدهم لكشف ضرر ، أو خلاص مظلوم مِنْ سجن ، أو قضاء حاجة لأحد مِنْ عباد الله الذين لا يستطيعون توصيل حوائجهم إلىٰ تلك الأمراء ، فيسألون في ذلك مَنْ يُعتقد فيه مِنَ الأولياء والعلماء ، فيجب عليهم الدخول علىٰ هـٰؤلاء الأمراء لمصالح العباد ، ويحرم عليهم الامتناع ، وربَّما كان طلب أحدهم الوظائف ليقوم فيها بالعدل ، ويتصرَّف في ذلك بالمعروف ، وكذلك لا نعترض عليه إذا رأيناه يأكل مِنْ أموال الظلمة ؛ لاحتمال أنَّه ما أكله إلاَّ عند الضرورة الشرعية ، بخلاف ما إذا رأيناه يجمع مال الظلمة ولا يعطي أحداً مِنَ المحتاجين شيئاً ، ويتوسَّع هو به في مأكله وملبسه ، فمثل هـٰذا ننكر عليه قياماً بواجب الشرع ، وشفقة علىٰ دينه مِنَ النقص ، وعلىٰ لحمه مِنَ النار ، ثمَّ بعد إنكارنا عليه نتوجَّه إلى الله تعالىٰ وندعو له بالمغفرة والعفو وإرضاء الخصوم الذين جمع ذلك الظالم المال منهم ، ثمَّ نشكر الله تعالى الذي عافانا مِن مثل ذلك) قاله في « تحفة الأكياس » .

* * *

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



أي : ليس يخلو الإنسان مِنْ ضد ـ أي : شخص مضاد ومخالف له ـ وإن حاول العزلة ـ أي : الاعتزال عن الناس ـ في رأس جبل ، بل وإن كان نبياً مرسلاً ، كما وقع للرسل عليهم الصلاة والسلام مع أممهم ممَّا هو منصوص في الكتاب العزيز ، خصوصاً نبيَّنا عليه أفضل الصلاة والسلام ؛ فإنَّ قريشاً خالفوه وعادَوْه حتَّىٰ خرج مِنْ بلدته مكَّة وهاجر إلى المدينة المنورة ، فلا بُدَّ لكلِّ مخلوق مِنْ ضدٍّ ينازعه ، والأولىٰ للواحد منَّا الصبر والتسلِّي بالماضين ، كما قال صلى الله عليه وسلم في قصَّةٍ مشهورة : « يَرْحَمُ ٱللهُ أَخِي مُوسَىٰ ؛ لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَـٰذَا فَصَبَرَ »[1] .

ولله درُّ البوصيريِّ حيث قال : [من الخفيف]

فَتَسَلَّوا بِمَنْ مَضَىٰ إِذْ ظُلِمْتُمْ فَٱلتَّسَلِّي لِلنَّفْسِ فِيهِ عَزَاءُ[2]

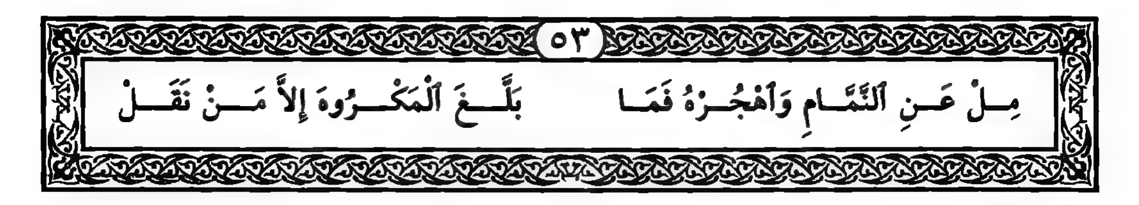
ولو لم يكن للإنسان عدوٌّ أصلاً غيرَ إبليسَ لعنه الله . . لكان كافياً ؛ لأنَّ مِنَ المعلوم أنَّه أعدى الأعداء لبني آدمَ .

* * *

(١) أخرجه البخاري (٣١٥٠) ، ومسلم (١٠٦٢) .

(٢) البيت في « ديوان البوصيري » (ص٦٢) من القصيدة الهمزية المشهورة التي مدح بها النبي صلى الله عليه وسلم ، وافتتح بها « ديوانه » ، فطارت بها الركبان وحازت قصب السبق في هـٰذا الميدان ، وتناولها بالشرح والتبيين والمعارضة والخمس والتخميس جمع من الأعيان ، ومن أجلِّ شروحها : « المنح المكية » للإمام الهمام ابن حجر الهيتمي رحمه الله تعالىٰ ، وهو أحد منشورات (دار المنهاج) .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



أي : اُتركِ النمَّام ودعْهُ ، فقوله : (وٱهجره) تفسيرٌ لِمَا قبله ، وعلَّل ذلك بقوله : (فما بلَّغ) أي : أوصل المكروه ـ أي : الشيء الذي تكرهه النفس ـ إلاَّ الذي نقله لك وأخبرك به[1] .

والنمام : كثير النَّمِّ ؛ وهو : السعي بالحديث ليوقع فِتنة أو وَحْشَة في القلوب[2] ، وهو حرام إجماعاً ما لم تَدْعُ الحاجة إليه ؛ كما إذا أخبركَ شخص أنَّ إنساناً يريد البطش بك أو بمالك أو بأهلك ، فهٰذا ونحوه ليس بحرام ، كما صرَّح به النووي رحمه الله تعالىٰ[3] .

والمذاهب متَّفقة علىٰ أنَّه كبيرة ؛ لحديث الصحيحين : « لاَ يَدْخُلُ ٱلْجَنَّةَ نَمَّامٌ »[4] أي : مع السابقين .

---

(١) ونحوه قول الزهيري : [من مجزوء الكامل]

يا مَن إليَّ قد وشىٰ … بنقلِ سوءٍ ولغا
مِنْ ذمَّتي سمعتُها … مِنَ الذي قد بلَّغا

وفي المثل : (مبلغ السوء كباغيه) ، و(المبلغ أحد الشاتمَين) ، ثم يجب علىٰ من حملت إليه النميمة من أحد ستةُ أمور كما قال الإمام الغزالي في « الإحياء » (٣/١٥٦) : أحدها : ألا يصدقه ؛ لأن النمام فاسق ، وهو مردود الشهادة ، قال الله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ ﴾ . الثاني : أن ينهاه عن ذلك وينصح له ويقبِّح عليه فعله ، قال تعالىٰ : ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ . الثالث : أن يبغضه في الله تعالىٰ ؛ فإنه بغيض عند الله تعالىٰ ، ويجب بغض من يبغضه الله تعالىٰ . الرابع : ألا يظن بأخيه الغائب السوء ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ . الخامس : ألا يحمله ما حكي له على التجسس والبحث للتحقق ؛ اتباعاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُواْ ﴾ . السادس : ألا يرضىٰ لنفسه ما نهى النمامَ عنه ، ولا يحكي نميمته فيقول : فلان قد حكىٰ لي كذا وكذا ، فيكون به نماماً ومغتاباً ، ويكون قد أتىٰ ما عنه نهىٰ .

(٢) وذهب الإمام الغزالي في « الإحياء » (٣/١٥٦) في حدها إلىٰ أعم من ذلك ، وأن حقيقة النميمة : إفشاء السر ، وهتك الستر ، وكشف ما يكره كشفه ، سواء كان عيباً ونقصاً في المنقول عنه أو لم يكن ، وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال ، وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالإيماء ، وسواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه أو كرهه ثالث .

(٣) انظر « شرح صحيح مسلم » (٢/١١٣) .

(٤) أخرجه البخاري (٦٠٥٦) ، ومسلم (١٠٥) ، ولفظ البخاري : « قتَّاتٌ » بدل : « نمام » .

وعن أبي هريرة رضي الله تعالىٰ عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هَلْ تَدْرُونَ مَنْ شِرَارُكُمْ ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « ذُو ٱلْوَجْهَيْنِ ٱلَّذِي يَأْتِي هَـٰذَا بِوَجْهٍ وَهَـٰذَا بِوَجْهٍ »[1] .

وعنِ الحسن رضي الله تعالىٰ عنه ، عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « شَرُّ ٱلنَّاسِ ذُو ٱلْوَجْهَيْنِ يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ وَهَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ ، وَمَنْ كَانَ ذَا لِسَانَيْنِ فِي ٱلدُّنْيَا . . يَجْعَلُ ٱللهُ لَهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ لِسَانَيْنِ مِنْ نَارٍ »[2] .

وروي عن حماد بن سلمةَ أنَّه قال : (باع رجل مِنْ رجل غلاماً ، فقال للمشتري : ليس فيه عيب إلاَّ أنَّه نمَّامٌ ، فٱستخفَّ المشتري بهـٰذا العيب ، وٱشتراه علىٰ ذلك العيب ، فمكث الغلام عنده أياماً ، ثمَّ قال لزوجة مولاه : إنَّ زوجك لا يحبُّك ، وهو يريد أن يتسرَّىٰ عليك ـ يعني : يريد أن يشتري جارية ـ أفتريدين أن يعطف عليك زوجك ؟ قالت : نعم ، قال لها : خذي هـٰذا الموسىٰ وٱحلقي شعرات مِنْ باطن لحيته إذا نام ، ثمَّ جاء الغلام إلى الزوج فقال : إنَّ ٱمرأتك تخادنت ـ أي : ٱتَّخذت خليلاً ـ وهي قاتلتُك ، أتريد أن يتبيَّن لك ذلك ؟ قال : نعم ، قال : فتناوم لها ، ففعل الرجل ، فجاءت المرأة بالموسىٰ لتحلق الشعرات ، فظنَّ الزوج أنَّها تريد قتله ، فأخذ منها الموسىٰ ، فقتلها به ، فجاء أولياؤها فقتلوه ، وجاء أولياء الرجل ، ووقع القتال بين الفريقين)[3] .

وقال يحيى بن أَكْثم : (النمام شرٌّ مِنَ الساحر ؛ لأنَّ النمام يعمل في ساعة ما لا يعمله الساحر في شهر) .

وقال الحسن البصري : (مَنْ نقل إليك حديثاً . . فٱعلم أنَّه ينقل إلىٰ غيرك حديثك)[4] .

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٩٥) ، ومسلم (٢٥٢٦) .

(٢) أخرج شطره الثاني من حديث الحسن عن أنس مرفوعاً أبو يعلىٰ في « مسنده » (٢٧٧١) ، والقضاعي في « مسنده » (٤٦٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/١٦٠) ، وابن عبد البر في « التمهيد » (١٨/٢٦٢) ، وأخرج شطره الثاني هناد في « الزهد » (١١٣٨) ، وتمام في « فوائده » (١١٢٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٤/١٥) . وما أجمل قول الشاعر كما في « الاستذكار » (٢٧/٣٦٨) : [من الرمل]

إنَّ شرَّ الناس مَن يشكرني ... حينَ يلقاني وإن غِبتُ شَتَمْ

(٣) ذكرها الذهبي رحمه الله تعالىٰ في « الكبائر » (ص١٧٥) .

(٤) « الكبائر » (ص١٧٤) ، وهو معنىٰ قولهم : (مَن نمَّ لك نمَّ عليك) .

وروي عن عمر بن عبد العزيز : أنَّه دخل عليه رجل ، فذكر عنده رجلاً ، فقال له عمر : إن شئت نظرنا في أمرك ؛ إن كنت كاذباً . . فأنت مِنْ أهل هـٰذه الآية : ﴿ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ ، وإن كنت صادقاً . . فأنت مِنْ أهل هـٰذه الآية : ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴾ ، وإن شئت . . عفونا عنك ، فقال : العفو يا أمير المؤمنين ، ولا أعود إلىٰ مثل ذلك[1] .

وروي عن كعب الأحبار أنَّه قال : (أصاب بني إسرائيل قحط ، فخرج بهم موسىٰ عليه الصلاة والسلام ثلاث مرَّات يستسقون ، فلم يسقوا ، فقال موسىٰ عليه الصلاة والسلام : إلـٰهي ؛ عبادك قد خرجوا ثلاث مرَّات فلم تستجب دعاءهم ؟! فأوحى الله تعالىٰ إليه : إنِّي لا أستجيب لك ولمن معك ، وفيكم رجل نمَّام قد أصرَّ على النميمة ، فقال موسىٰ عليه الصلاة والسلام : يا ربِّ ؛ مَنْ هو حتىٰ نخرجه مِنْ بيننا ، فقال الله تبارك وتعالىٰ : يا موسىٰ ؛ أنهاكم عنِ النميمة وأكون نمَّاماً ، قال : فوعظهم موسىٰ عليه السلام وقال : توبوا عنِ النميمة جميعاً ، فتابوا بأجمعهم ، فسقوا) اهـ

ولقبح النميمة عند الله سبحانه وتعالىٰ وصف الله الوليد بن المغيرة بعشرة أوصاف مذمومة ، وذكر منها النميمة ، فقال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۞ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴾ الآية .

قال ابن قتيبة : (لا نعلم أنَّ الله عزَّ وجلَّ وصف أحداً بالذمِّ مثل ما وصف الوليد بن المغيرة) .

ومراد الناظم رحمه الله تعالىٰ بالنمام : ما يشمل المغتاب أيضاً ؛ وذلك لأنَّ الغيبة والنميمة كالفقير والمسكين عند الفقهاء ، وكالظرف والجار والمجرور عند النحاة ، فمتى ٱجتمعا . . ٱفترقا ، ومتى ٱفترقا . . ٱجتمعا .

والغِيبة : ذكر الإنسان ولو بما فيه مما يكرهه ، سواء ذكرت ما فيه بلفظك أو بكتابتك أو بإشارة إليه بعينك أو يدك أو رأسك ؛ وضابطه : كلُّ ما أفهمتَ به غيرَك نقصانَ مسلمٍ . . فهو غِيبة ، والغِيبة بالقلب محرَّمة كهي باللسان ، وكما تحرم الغِيبة على المغتاب . . يحرم ٱستماعها وإقرارها ، وهي تأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب اليابس .

---

(١) انظر « الكبائر » (ص١٧٣) .

قال في « تنبيه الغافلين » ما نصُّه : (عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « أَتَدْرُونَ مَا ٱلْغِيبَةُ ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « إِذَا ذَكَرْتَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ » ، قيل : أرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : « إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ . . فَقَدِ ٱغْتَبْتَهُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ . . فَقَدْ بَهَتَّهُ »[1] أي : قلت فيه بُهتاناً .

وعن بعضهم أنَّه قال : لو قلت : إن فلاناً ثوبه طويل أو ثوبه قصير . . يكون غيبة ، فإذا كان ذلك في ثيابه . . ففي نفسه بالأولىٰ .

وعن ابن أبي نجيح[2] قال : بلغني أنَّ ٱمرأة قصيرة دخلت على النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فلمَّا خرجت . . قالت عائشة رضي الله تعالىٰ عنها : ما أقصرها! فقال لها النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « قَدِ ٱغْتَبْتِيهَا » ، قالت عائشة : ما قلت إلاَّ ما فيها ، فقال : « ذَكَرْتِ أَقْبَحَ مَا فِيهَا »[3] .

وعن أبي سعيد الخدريِّ : أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي مَرَرْتُ فِي ٱلسَّمَاءِ ٱلدُّنْيَا بِقَوْمٍ يُقْطَعُ ٱللَّحْمُ مِنْ جُنُوبِهِمْ ، ثُمَّ يَلْقَمُونَهُ فَيُقَالُ لَهُمْ : كُلُوا مَا كُنْتُمْ تَأْكُلُونَ مِنْ لُحُومِ إِخْوَانِكُمْ ، قُلْتُ : يَا جِبْرِيلُ ؛ مَنْ هَؤُلَاءِ ؟ قَالَ : ٱلْهَمَّازُونَ مِنْ أُمَّتِكَ ٱللَّمَّازُونَ »[4] يعني : المغتابين .

وعن جابر بن عبد الله قال : هاجت ريح منتنة علىٰ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٩) ، وأبو داوود (٤٨٧٤) ، والترمذي (١٩٣٤) .

(٢) في الأصل : (وعن أبي يحيىٰ) ، والتصويب من « تنبيه الغافلين » .

(٣) أخرجه عن ابن أبي نجيح مرسلاً السمرقندي في « تنبيه الغافلين » (ص١٦١) ، وبنحوه أحمد (١٣٦/٦) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت » (٢٠٦) من طريق أبي حذيفة سلمة بن صهيب عن عائشة رضي الله عنها ، وإسحاق بن راهويه في « مسنده » (١٦١٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٣٠٤) ، وهناد في « الزهد » (١١٩٠) ، عن طريق حسان بن المخارق عنها .

(٤) أخرجه مختصراً السمرقندي في « تنبيه الغافلين » (ص١٦١) ، وهو قطعة من حديث الإسراء الذي أخرجه الحارث في « مسنده » كما في « زوائد الهيثمي » (٢٧) ، والطبري في « تهذيب الآثار » (٧٢٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥١٢/٣) ، وبنحوه أخرجه أبو داوود (٤٨٧٨) . وما أجمل قول الصاحب بن عباد كما في « بهجة المجالس » (٣٩٨/١) : [من مجزوء الرمل]

احـذرِ الغيبـةَ فهـي الـ ... ـفسـقُ لا رخصـةَ فيـهِ
إنَّمـا المغتـابُ كـالآ ... كـلِ مِـنْ لحـمِ أخيـهِ

فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ نَاساً مِنَ ٱلْمُنَافِقِينَ قَدِ ٱغْتَابُوا أُنَاساً مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ؛ فَلِذَٰلِكَ هَاجَتْ هَـٰذِهِ ٱلرِّيحُ »[1] .

قال بعض الحكماء : إنَّ ريح الغيبة كان يظهر منتناً في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس يتتن في يومنا هـٰذا ؛ لأنَّ الغيبة قد كَثُرت في يومنا هـٰذا وٱمتلأتِ الأنوف منها ، فلم تؤثِّرِ الرائحة ، ويكون مثال هـٰذا : مثال رجل دخل دار الدباغين لا يقدر على القرار فيها مِنْ شدَّة الرائحة ، وأهل تلك الدار يأكلون فيها الطعام ويشربون فيها الشراب ولا تتبيَّن لهمُ الرائحة ؛ لأنَّه قدِ ٱمتلأت أنوفهم منها ، فكذلك رائحة الغيبة في يومنا هـٰذا .

وروي عنِ الحسن البصري : أنَّ رجلاً قال له : إن فلاناً قدِ ٱغتابك ، فبعث إليه طبقاً مِنْ رطب وقال له : إنِّي قد بلغني أنَّك قد أهديت إليَّ حسناتك ، فأردت أن أكافئك بها ، فٱعذرني ؛ فإنِّي لا أقدر أن أكافئك بها على التمام[2] .

وذكر : أنَّ أبا أمامة الباهليَّ قال : إنَّ العبد ليُعطىٰ كتابه يوم القيامة فيرىٰ فيه حسنات لم يكن عَمِلَها ، فيقول : يا ربِّ ؛ مِنْ أين لي هـٰذا ؟ فيقول له : هـٰذا بما ٱغتابك الناس وأنت لا تشعر[3] .

قال كعب الأحبار : « قرأت في بعض الكتب : أنَّ مَنْ مات تائباً مِنَ الغيبة . . كان آخر مَنْ يدخل الجنَّة ، ومَنْ مات مصرّاً عليها . . كان أوَّل مَنْ يدخل النار » .

وروي عن حاتم الزاهد أنَّه قال : « ثلاثة إذا كن في مجلس . . فالرحمة عنهم مصروفة : ذكر الدنيا ، والضحك ، والوقيعة في الناس » .

وذُكر عن إبراهيمَ بن أدهم أنَّه دُعي إلىٰ طعام ، فلمَّا جلس . . قالوا : إنَّ فلاناً لم يجيء ، فقال رجل منهم : إنَّه رجل ثقيل ، فقال إبراهيم : إنَّما فعل بي هـٰذا بطني حيث شهدت طعاماً ٱغتيب فيه المؤمن ، فخرج ولم يأكل ثلاثة أيَّام .

---

(١) أخرجه البخاري في « الأدب المفرد » (٧٣٢ و٧٣٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٣٠٦) ، وأحمد (٣/ ٣٥١) ، وعبد بن حميد في « مسنده » (١٠٢٨) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٢٣١٠) .

(٢) انظر « إحياء علوم الدين » (٣/ ١٥٤) .

(٣) أخرجه في « الفردوس » (٧٤٤) ، وابن أبي الدنيا في « الحلم » (١٢٢) مرفوعاً .

وذُكر عن وهيب[١] [ابن الورد] المكيِّ أنَّه قال : « لأن أَدَعَ الغِيبة أحبُّ إليَّ مِنْ أن تكون لي الدنيا بأسرها وما فيها منذ خُلقت إلىٰ أن تفنىٰ فأجعلها في سبيل الله ، ثمَّ تلا : ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ »[٢] .

وقال بعضهم : ثلاثة لا تكون غيبتهم غيبة : سلطان جائر ، وفاسق معلن ، وصاحب بدعة[٣] ؛ يعني : إذا ذُكر فعلهم ، وأمَّا إذا ذُكر شيء مِنْ أبدانهم بعيب.. فذلك غيبة كغيرهم ، وقد روي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « ٱذْكُرُوا ٱلْفَاجِرَ بِمَا فِيهِ ؛ كَيْ يَحْذَرَ ٱلنَّاسُ مِنْهُ »[٤]) اهـ[٥]

وقد ذكر العلماء أنَّه تباح في ستَّة مواضع نظمها العلاَّمة الجوهريُّ في قوله : [من الوافر]

لِسِتٍّ غِيبَةٌ جَوِّزْ وَخُذْهَا ... مُنَظَّمَةً كَأَمْثَالِ ٱلْجَوَاهِرْ
تَظَلَّمْ وَٱسْتَعِنْ وَٱسْتَفْتِ حَذِّرْ ... وَعَرِّفْ وَٱذْكُرَنْ فِسْقَ ٱلْمُجَاهِرْ[٦]

وسنذكرها مبيَّنةً علىٰ ترتيب النظم فنقول :

الأول : التظلُّم ؛ أي : فيجوز للمظلوم أن يتظلَّم للسلطان أو القاضي أو نحوهما ممَّن له قدرة علىٰ إنصافه ممَّن ظلمه ، فيقول : ظلمني فلان بكذا وكذا ، ولا يزيد على الحاجة .

والثاني : الاستعانة علىٰ تغيير المنكر ، فتقول لمن ترجو قدرته علىٰ إزالة المنكر : فلان

---

(١) في الأصل : (أبي وهيب) ، والتصويب من « تنبيه الغافلين » والمصادر .
(٢) أخرجه أبو الشيخ في « التوبيخ والتنبيه » (١٧٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/١٥٣) .
(٣) ذكره في « الإحياء » (٣/١٥٣) عن الحسن رحمه الله تعالىٰ .
(٤) أخرجه البيهقي في « السنن » (١٠/٢١٠) ، و« الشعب » (٩٢١٩) و(٩٢٢٠) ، والطبراني في « الكبير » (١٩/٤١٨) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت » (٢٢٠) ، وابن عدي في « الكامل » (٢/١٧٣) و(٥/١٣٤) ، وابن الجوزي في « العلل المتناهية » (٢/٧٧٩) ، وابن حبان في « المجروحين » (١/٢٦١) ، والعقيلي في « الضعفاء » (١/٢١٩) ، وانظر « تخريج الأحاديث والآثار » للإمام الزيلعي (٣/٣٣٨) .
(٥) « تنبيه الغافلين » (ص١٦١ـ١٦٧) .
(٦) أوردهما العلامة النفراوي في « الفواكه الدواني » (٢/٢٧٩) ، والعلامة الصاوي في « شرح جوهرة التوحيد » (ص٣١٦) ، ونحوهما قول ابن أبي شريف كما في « سبل السلام » (٤/١٩٤) : [من الكامل]

ألذمُّ ليس بغيبة في ستة ... متظلِّمٍ ومعرِّفٍ ومحذِّرِ
ولمظهرٍ فسقاً ومستفتٍ ومَنْ ... طلبَ الإعانة في إزالةِ منكرِ

يفعل المنكر كالزنا وشرب الخمر ، وتقصد بذلك أن يعينك علىٰ إزالة ذلك المنكر ، فإن لم تقصد ذلك . . كان حراماً .

والثالث : الاستفتاء ، فتقول للمفتي : ظلمني أبي أو أخي أو نحوهما ، فهل له ذلك أم لا ؟

والرابع : التحذير ؛ أي : تحذير المسلمين مِنَ الشرِّ ونصحيتهم مِنْ وجوه :

منها : جرح المجروحين من الرواة والشهود ، وذلك جائز بالإجماع ، بل هو واجب للحاجة .

ومنها : المشاورة في مصاهرة إنسان أو في مشاركته أو في إيداعه أو في معاملته أو نحو ذلك ، ويجب على المستشار ألاَّ يُخفي شيئاً مِنَ العيوب التي فيه ، بل يذكرها بنيَّة النصيحة .

ومنها : أن يكون الشخص في ولاية لا يقوم بها لعدم صلاحه لها ، أو لفسقه أو لتغفُّله[1] ، فيجب ذكر ذلك لمَنْ له عليه ولاية ؛ ليزيله ويولِّي مَنْ يصلح لها ، أو ليحثَّه على الاستقامة .

والخامس : التعريف ، فإذا كان الإنسان معروفاً بلقبٍ ؛ كالأعمش والأعرج والأعمىٰ والأحول والأصمِّ ونحوِهم . . جاز تعريفهم بذلك ، ويحرم ذكره علىٰ جهة التنقيص .

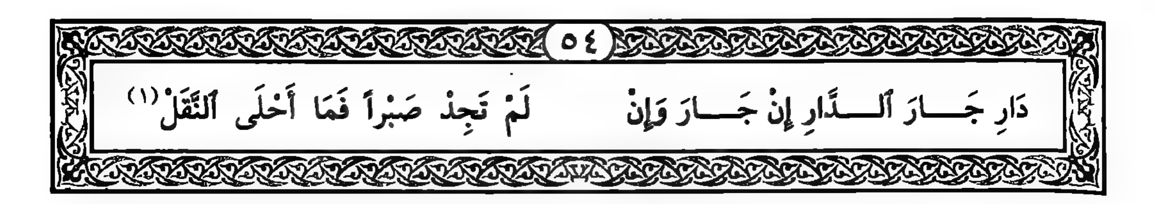
والسادس : أن يكون متجاهراً بالفسق ؛ كالمتجاهر بشرب الخمر وأخذ المكوس وأخذ أموال الناس ظلماً ، فهٰذه ستَّة مواضع تجوز فيها الغِيبة .

* * *

---

(١) التغفل والتغافل : تعمُّد الغفلة والسهو .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



أي : لاطِفْ جار الدار ، وليِّن كلامك معه إن جار عليك وظلمك ، وبالأولىٰ ما لو أحسن إليك ولم يؤذك ، وإن لم تجد صبراً منك علىٰ ظلمه وجوره عليك.. فما أحلى النقل ؛ أي : الانتقال والتحوُّل مِنْ هـٰذه الدار إلىٰ محلٍّ بعيد ، فإن أرض الله واسعة[2] .

قال العلماء : المداراة : الملاطفة ولين الكلام ؛ وهي مِنَ الخصال الحميدة ؛ لأنَّها تدلُّ على التواضع وحسن الخُلُق ، ولهـٰذا قال صلى الله عليه وسلم : « أَمَرَنِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ بِمُدَارَاةِ ٱلنَّاسِ كَمَا أَمَرَنِي بِإِقَامَةِ ٱلْفَرَائِضِ »[3] .

وقال بعض الحكماء : في المداراة سلامة الدين والدنيا .

وتخصيص الناظم رحمه الله تعالى الجار بالمداراة وإن كانت مطلوبة لكلِّ أحد ؛ لزيادة الوصية والاعتناء بالجار[4] ؛ لما ورد فيه مِنَ الآيات والأحاديث ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾ .

---

(١) في المطبوع : (دار جار السوء) .

(٢) ونحو هـٰذا قول ابن الوردي في « ديوانه » (ص٣١٠) : [من مجزوء الرجز]

إذا كـــرهـــت منـــزلا فـــدونـــك التحـــوُّلا
وإن جفـــاك صـــاحـــبٌ فكـــن بـــه مستبـــدلا
لا تحملـــنْ إهـــانـــةً مـــن صـــاحـــب وإن عـــلا
فمَـــنْ أتـــىٰ فمـــرحبـــاً ومَـــنْ تـــولَّـــىٰ فـــإلـــىٰ

(٣) أخرجه ابن عدي في « الكامل » (٢/ ١٥) ، والديلمي في « الفردوس » (٦٥٩) .

(٤) وإلا.. فمداراة الناس جملة مِنَ الخصال الحميدة ، قال الإمام البيهقي في « الشعب » (٨١١٧) : (قال سهل بن عبد الله التستري : فمن خالطهم ـ أي : الناس ـ داراهم ولم يمارهم ؛ فإنَّ مداراتهم صدقة ، ومداراة الوالد فريضة ، ومداراة ذوي الأرحام سنة ، ومداراة السلطان طاعة ، ومداراة أهل البدع مداهنة ، ومداراة الأحمق شرف ، والشرف التغافل ، والسلامة للجميع التفرُّد بالله عزَّ وجلَّ) .

قال ابن عباس : (الجار القريب : الذي بينك وبينه قرابة ، والجار الجُنُب : الذي لا قرابة بينك وبينه)[1] .

وقيل : [ذي] القربىٰ : المسلم ، والجنب : الذِّمِّي[2] .

(وعن عبد الله بن عمرو بن العاصي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سَبْعَةٌ لاَ يَنْظُرُ ٱللهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ، وَلاَ يُزَكِّيهِمْ ، وَيَقُولُ لَهُمُ ٱدْخُلُوا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّاخِلِينَ ـ الأول ـ : ٱلْفَاعِلُ وَٱلْمَفْعُولُ بِهِ ـ يعني : اللائط والملوط به ، الثاني ـ : ٱلنَّاكِحُ يَدَهُ ـ الثالث ـ : نَاكِحُ ٱلْبَهِيمَةِ ـ الرابع ـ : نَاكِحُ ٱلْمَرْأَةِ فِي دُبُرِهَا ـ الخامس ـ : مُجَامِعُ ٱلْمَرْأَةِ وَبِنْتِهَا ـ السادس ـ : ٱلزَّانِي بِحَلِيلَةِ جَارِهِ ـ السابع ـ : ٱلْمُؤْذِي جَارَهُ »[3] .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالىٰ عنه أنَّه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لاَ يُسْلِمُ عَبْدٌ حَتَّىٰ يَسْلَمَ ٱلنَّاسُ مِنْ يَدِهِ وَلِسَانِهِ ، وَلاَ يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّىٰ يَأْمَنَ جَارُهُ بَوَائِقَهُ » ، فقلنا : يا رسول الله ؛ وما بوائقُه ؟ قال : « غَشْمُهُ وَظُلْمُهُ »[4] .

وعن سعيد بن المسيَّب أنَّه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حُرْمَةُ ٱلْجَارِ عَلَى ٱلْجَارِ كَحُرْمَةِ أُمِّهِ عَلَيْهِ »[5] .

وعنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ . فَلْيَقُلْ خَيْراً أَوْ لِيَصْمُتْ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ . فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ . فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ »[6] .

---

(١) أخرجه الطبري في « تفسيره » (٩٤٣٨) و(٩٤٤٨) ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٥٢٩٦) و(٥٢٩٩) والبيهقي في « الشعب » (٩٠٧٩) .

(٢) أخرجه الطبري في « تفسيره » (٩٤٤٧) و(٩٤٥٧) ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٥٢٩٨) و(٥٣٠١) من قول نوف الشامي .

(٣) سبق تخريجه (ص٦٥) .

(٤) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٥١٣٦) ، والبغوي في « شرح السنة » (٣٠٣٠) ، وأحمد (١/ ٣٨٧) ، والسمرقندي في « تنبيه الغافلين » (ص١٤٠) ، ووقع عند الجميع سوى السمرقندي : (غَشْمُهُ) ، والغَشْمُ : الظلم ، وعليه : فالعطف هو عطف تفسير ، ووقع عند السمرقندي : (غشه) ، والرسم في الأصل يحتملهما .

(٥) أخرجه السمرقندي في « تنبيه الغافلين » (ص١٤٠) ، وبنحوه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٣٢٣) .

(٦) أخرجه البخاري (٦٤٧٥) ، ومسلم (٤٧) .

وعنِ الحسن البصريِّ أنَّه قال : قيل : يا رسول الله ؛ ما حقُّ الجار على الجار ؟ قال : « تِسْعَةُ أَشْيَاءَ : إِنِ ٱسْتَقْرَضَكَ . . أَقْرَضْتَهُ ، وَإِنْ دَعَاكَ . . أَجَبْتَهُ ، وَإِنْ مَرِضَ . . عُدْتَهُ ، وَإِنِ ٱسْتَعَانَ بِكَ . . أَعَنْتَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ . . عَزَّيْتَهُ ، وَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ . . هَنَّأْتَهُ ، وَإِنْ مَاتَ . . شَهِدْتَهُ ، وَإِنْ غَابَ . . حَفِظْتَهُ[1] ـ [يعني] : منزله وعياله ـ وَلاَ تُؤْذِهِ [بِقُتَارِ قِدْرِكَ ـ أي : ريحه ـ إِلاَّ أَنْ تُهْدِيَ إِلَيْهِ مِنْهُ] »[2] .

وعن أبي هريرة رضي الله تعالىٰ عنه ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِٱلْجَارِ حَتَّىٰ ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ »[3] .

وعن جابر الأنصاريِّ ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « ٱلْجِيرَانُ ثَلاَثَةٌ ، فَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ ثَلاَثَةُ حُقُوقٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ حَقَّانِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ ، فَأَمَّا ٱلَّذِي لَهُ ثَلاَثَةُ حُقُوقٍ . . فَجَارُكَ ٱلْقَرِيبُ ٱلْمُسْلِمُ ، وَأَمَّا ٱلَّذِي لَهُ حَقَّانِ . . فَجَارُكَ ٱلْمُسْلِمُ أَيْضاً ، وَأَمَّا ٱلَّذِي لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ . . فَهُوَ جَارُكَ ٱلذِّمِّيُّ »[4] ، فينبغي أن يعرف الجار حقَّ الجار وإن كان ذمياً .

ويقال : مَنْ مات وله جيران ثلاثة وهم راضون عنه . . غفر له .

وروي عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم : أنَّه جاءه رجل يشكو إليه جاره ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كُفَّ أَذَاكَ عَنْهُ ، وَٱصْبِرْ عَلَىٰ أَذَاهُ ، وَكَفَىٰ بِٱلْمَوْتِ مُفَرِّقاً »[5] .

---

(١) وقع في الأصل : (عزه) و(اشهده) و(احفظ) ، والتصويب من المصادر .

(٢) أخرجه السمرقندي في « تنبيه الغافلين » (ص١٤١) من حديث الحسن مرسلاً ، وأخرجه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما البيهقي في « الشعب » (٩١١٣) ، والطبراني في « مسند الشاميين » (٢٤٣٠) ، وابن عدي في « الكامل » (٥/١٧١) .

(٣) أخرجه ابن حبان (٥١٢) وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وهو عند البخاري (٦٠١٤) ، ومسلم (٢٦٢٤) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٤) أخرجه الطبراني في « مسند الشاميين » (٢٤٥٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٤٥٨) .

وحقوق الجار القريب المسلم : حق القرابة ، وحق الإسلام ، وحق الجوار ، وحقا الجار المسلم : حق الإسلام ، وحق الجوار ، وحق الجار الذمي : حق الجوار فقط .

(٥) أخرجه الحسين المروزي في « البر والصلة » (٢٢٢) ، وابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٣٢٨) عن أبي عبد الرحمٰن الحُبُلي مرسلاً .

وقال الحسن البصريُّ رحمه الله تعالىٰ : ليس حسنُ الجوار كفَّ الأذىٰ عنِ الجار ، ولكن حسن الجوار : الصبر علىٰ أذى الجار[1] .

وروي عن ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما أنَّه قال : ثلاثة خصال مستحسنة كانت في الجاهلية ، والمسلمون أولىٰ بها :

أولها : لو نزل بهم ضيف . . ٱجتهدوا في برِّه .

الثاني : لو كانت لأحدهمُ ٱمرأة كبيرة عنده . . لا يطلِّقها ، ويمسكها مخافة أن تضيع .

الثالث : إذا لحق بجارهم دين أو أصابته شدَّة . . ٱجتهدوا حتَّىٰ يقضوا عنه دينه ، وأخرجوه مِنْ تلك الشدَّة .

وروىٰ أنس بن مالك رضي الله تعالىٰ عنه ، عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « إِنَّ ٱلْجَارَ لَيَتَعَلَّقُ بِجَارِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَيَقُولُ : يَا رَبِّ ؛ وَسَّعْتَ عَلَىٰ أَخِي هَـٰذَا وَقَتَّرْتَ عَلَيَّ ، أُمْسِي جَائِعاً وَهُوَ يُمْسِي شَبْعَانَ ، فَاسْأَلْهُ يَا رَبِّ لِمَ أَغْلَقَ بَابَهُ دُونِي وَحَرَمَنِي مِمَّا قَدْ وَسَّعْتَ بِهِ عَلَيْهِ »[2] .

وعن سفيانَ الثوريِّ أنَّه قال : مِنَ الجفاء أن يشبع الرجل وجاره جوعان لا يطعمه شيئاً مِنْ طعامه .

وقال بعضهم[3] : تمام حسن الجوار في أربعة أشياء :

الأول : أن يواسيه بما عنده .

الثاني : ألاَّ يطمع فيما عند جاره .

الثالث : أن يمنع أذاه عنه .

الرابع : أن يصبر علىٰ أذاه ، والله أعلم) قاله في « تنبيه الغافلين »[4] .

---

(١) ذكره في « جامع العلوم والحكم » (ص١٢٩) وأخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٥/ ٣٨١) من قول الشعبي رحمه الله تعالىٰ .

(٢) أخرجه ابن عدي في « الكامل » (٢/ ٢٢) من حديث جابر رضي الله عنه ، وله شاهد من حديث ابن عمر رضي الله عنه عند المروزي في « البر والصلة » (٢٥١) سيأتي بعد قليل .

(٣) هو الفقيه السمرقندي رحمه الله تعالىٰ .

(٤) « تنبيه الغافلين » (ص١٤٠ـ١٤٤) .

وعنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « إِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ يُحِبُّ ٱلرَّجُلَ لَهُ ٱلْجَارُ ٱلسُّوءُ يُؤْذِيهِ فَيَصْبِرُ عَلَىٰ أَذَاهُ وَيَحْتَسِبُهُ حَتَّىٰ يَكْفِيَهُ ٱللهُ بِحَيَاةٍ أَوْ مَوْتٍ » رواه ابن عساكر عن أبي هريرة[1] .

وقد كان لمالك بن دينار جار يهوديٌّ ، فحوَّل اليهوديُّ مُستحمَّه إلىٰ جدار البيت الذي فيه مالك ، وكان الجدار متهدماً ، فكانت تدخل منه النجاسة ومالك ينظف البيت كلَّ يوم ولم يقل شيئاً ، وأقام علىٰ ذلك مدَّة وهو صابر على الأذىٰ ، فضاق صدر اليهوديِّ مِنْ كثرة صبره علىٰ هـٰذه المشقَّة ، فقال له : يا مالك ؛ آذيتك كثيراً وأنت صابر ولم تخبرني ، فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِٱلْجَارِ حَتَّىٰ ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ »[2] ، فندم اليهوديُّ وأسلم وحَسُنَ إسلامه .

وعنِ ٱبن عمرَ ، عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « كَمْ جَارٍ يَتَعَلَّقُ بِجَارِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يَقُولُ : يَا رَبِّ ؛ أَغْلَقَ بَابَهُ دُونِي ، فَمَنَعَنِي مَعْرُوفَهُ »[3] .

وعن أبي شُرَيح عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « وَٱللهِ لاَ يُؤْمِنُ ، وَٱللهِ لاَ يُؤْمِنُ ، وَٱللهِ لاَ يُؤْمِنُ » ، قال : لقد خاب وخسر ، مَنْ هو يا رسول الله ؟ قال : « مَنْ لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ »[4] أي : غوائله وشروره .

ثمَّ الجار يقع على الساكن مع غيره ، وعلى الملاصق وهو المراد مِنْ كلام الناظم ، وعلىٰ أربعين داراً مِنْ كلِّ جانب ؛ فقد سئل الحسن البصريُّ عن الجار فقال : أربعون داراً أمامه ، وأربعون خلفه ، وأربعون عن يمينه ، وأربعون عن يساره .

---

(١) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٨٨) ، والبيهقي في « السنن » (٩/ ١٦٠) ، وأحمد (٥/ ١٥١ و١٧٦) ، والطبراني في « الكبير » (٢/ ١٥٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٨/ ٢٩٢) من حديث أبي ذر رضي الله عنه .

(٢) سبق تخريجه (ص ٢٨٥) .

(٣) أخرجه الحسين المروزي في « البر والصلة » (٢٥١) ، وأخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٣/ ١٠٨) من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٤) أخرجه البخاري (٦٠١٦) ، وأحمد (٤/ ٣١) عن أبي شريح وأبي هريرة ، وأخرجه عن أبي شريح البيهقي في « الشعب » (٩٠٨٧) ، والطبراني في « الكبير » (٢٢/ ١٨٧) .

تَتِـمَّة

[في معنىً لطيف مستفاد من حديثِ الأمر بإكرام الجار]

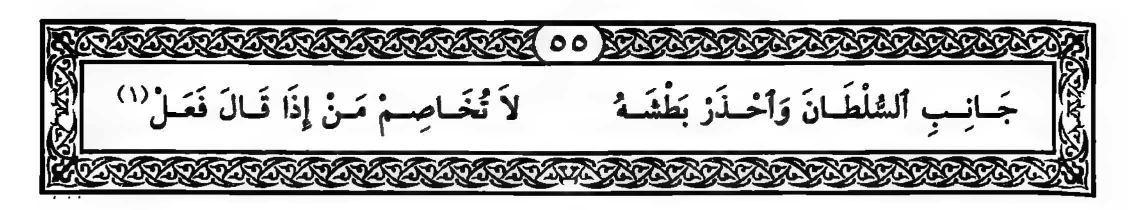
في قوله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ . . فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ » معنىً لطيف ، وهو أنَّه إذا أمر بإكرام الجار مع الحائل بين الإنسان وبينه ، فينبغي أن يراعي حقَّ الحافظَين اللذَين ليس بينه وبينهما جدار ولا حائل[1] ، فلا يؤذيهما بإيقاع المخالفات ؛ فقد ورد : أنَّهما يُسرَّان بوقوع الحسنات ، ويحزنان بوقوع السيئات ، فينبغي إكرامهما ورعاية حقِّهما بالإكثار مِنَ الطاعات وتجنُّب المحرَّمات ، فهما أولىٰ بالإكرام مِنْ جميع الجيران . اهـ

* * *

---

(١) وهما : الملكان الموكلان بتسجيل الحسنات والسيئات ، قال تعالىٰ : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ ، وهـٰذا مشرب عال من المؤلف ، يتذوق من خلاله معنىٰ قوله : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ ، فنسأل الله تعالى التوفيق لحسن الرعاية والمراقبة في السر والعلن .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



أي : أترك السلطان وتباعد عنه ، ولا تذهب إليه إلاَّ بقدر الحاجة والضرورة ما لم يترتَّب علىٰ ذهابك إليه خيرٌ ؛ مِنْ شفاعة أو وعظ له أو نحو ذلك .

وقوله : (وٱحذر بطشه) أي : أخذه بقوَّة وعنف ، (ولا تخاصم مَن) أي : الذي (إذا قال) قولاً (فعل) فعلاً علىٰ طبقه ، ولا يردُّه عنه رادٌّ ؛ أي : لا تظهر له المخاصمة والعناد ؛ لأنَّ ذلك يؤدِّي إلى البطش بمالك أو بك .

والمراد بـ(السلطان) : مَنْ له سلاطة وقوَّة وشوكة ، فيشمل غير ولاة الأمور ممَّن له شوكة .

ففي هٰذا البيت تصريح بٱجتناب السلطان وعدم الاجتماع عليه ، وتصريح أيضاً بعدم مخاصمته ومعاندته وعصيانه ، وإذا قُدِّر للإنسان الاجتماع به . . فيجب عليه أن يكون معه علىٰ أحسن الأحوال وأكملها ؛ في نهيه وأمره ومعاشرته وحفظ سرِّه وعدم إذاعة ما يراه منه في جميع الأحول والأقوال .

قال بعض الحكماء لولده : يا بُنَيَّ ؛ مَنْ كثر كلامه . . كثر ندمه ، وإيَّاك والركونَ إلى السلطان ؛ فإنَّ الركون إليه هلاك وسجن وضِيق ليس منه فِكاك ، وإذا ٱستدعاك لنفسه . . فكن منه علىٰ حذر ، ولا تأمن مكره وغدره ، فبئس الغادر إذا غدر ، وكلمه مِنْ حيث يريد ولا تكلِّمه مِنْ حيث لا يريد ، وٱرفُق به كما ترفُق بالطفل الصغير ، ولا تدخل بينه وبين أحد مِنْ أولاده وعشيرته وأهل بيته ، وإن حدَّثته حديثاً . . فأسنده إلىٰ غيرك مِنَ الأنام ، وهٰذه وصيَّتي فاحفظها وٱعمل بها .

---

(١) في المطبوع : (لا تُعاند) بدل : (لا تخاصم) .

وقال آخرُ لولده : إذا خدمت السلطان أو غيره ممَّن له ولاية أو قوَّة أو شوكة . . فلا تَنِمَّ إليه ؛ فإنَّه لا يزيده ذلك إلا نفوراً منك مخافةَ أن تَنِمَّ به كما نممتَ إليه ، وكن أقرب الناس منه عند فرحه ، وأبعدهم منه عند غضبه ، ولا تعارضه فيما يريد أن يفعله ، ولا تُهِنْ أصحابه ولا مَنْ يلوذ به مِنْ طائفته وذرِّيَّته ومحبِّيه ، وعاملهم بأحسن الأخلاق وأكملها كما تعامله بذلك . اهـ

وقال في « تنبيه الغافلين » في الباب الثامن والسبعين ما نصُّه : (عن أنس بن مالك رضي الله تعالىٰ عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ٱلْعُلَمَاءُ أُمَنَاءُ ٱلرُّسُلِ مَا لَمْ يُخَالِطُوا ٱلسُّلْطَانَ وَمَا لَمْ يَدْخُلُوا فِي ٱلدُّنْيَا ، فَإِذَا خَالَطُوا وَدَخَلُوا . . فَقَدْ خَانُوا ٱلرُّسُلَ ، فَٱعْتَزِلُوهُمْ وَٱحْذَرُوهُمْ »[1] .

وعن الحسن [ابن مسلم ، عن عبيد بن عمير] : أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « مَا ٱزْدَادَ رَجُلٌ مِنَ ٱلسُّلْطَانِ قُرْباً إِلاَّ ٱزْدَادَ مِنَ ٱللهِ بُعْداً ، وَلاَ كَثُرَتْ أَتْبَاعُهُ إِلاَّ كَثُرَتْ شَيَاطِينُهُ ، وَلاَ كَثُرَ مَالُهُ إِلاَّ ٱشْتَدَّ حِسَابُهُ »[2] .

وقال حذيفة : إيَّاكم ومواقفَ الفتن ، قيل : وما مواقف الفتن ؟ قال : أبواب الأمراء[3] .

وعنِ ٱبن مسعود رضي الله تعالىٰ عنه قال : إنَّ الرجل ليدخلُ علىٰ ذي سلطان ومعه دينه ، فيخرج مِنْ عنده وما معه دينه ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : يرضيه بما يسخط الله[4] .

وقال بعض المتقدِّمين : إذا رأيت عالماً يختلف إلى الأغنياء . . فٱعلم أنَّه مُرَاءٍ ، وإذا رأيت عالماً يختلف إلى الأمراء . . فٱعلم أنَّه لصٌّ[5] .

---

(١) أخرجه الرافعي في « التدوين » (٢/٤٤٥) ، والحاكم ومن طريقه ابن الجوزي في « الموضوعات » (١/١٩٢) ، وتعقبه السيوطي في « اللآلىء » (١/٢١٩) بأن له طرقاً فقال : (وله شواهد بمعناه كثيرة صحيحة وحسنة ، ويحكم له علىٰ مقتضىٰ صناعة الحديث بالحسن ، والله أعلم) .

(٢) أخرجه هناد في « الزهد » (٥٩٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/٢٧٤) ، وأخرج شطره الأول من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أبو داوود (٢٨٦٠) ، والبيهقي في « السنن » (١٠/١٠١) .

(٣) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٨٩٦٥) ، وعبد الرزاق في « المصنف » (٢٠٦٤٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/٢٧٧) ، وابن عبد البر في « التمهيد » (١٣/٥٧) .

(٤) أخرجه هناد في « الزهد » (١١٥٢) ، وابن سعد في « الطبقات » (٦/٢٠٨) .

(٥) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٨٩٧٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/٣٨٧) من قول سفيان الثوري رحمه الله تعالىٰ .

وعن مكحول رضي الله تعالىٰ عنه قال : مَنْ تعلَّم القرآن وتفقَّه في الدين ثمَّ أتىٰ باب السلطان تملُّقاً إليه وطمعاً بما في يده . . خاض في جهنَّم بعدد خطاه .

وعن ميمون بن مهران قال : إنَّ في صحبة السلطان خطرين : إنْ أطعته . . خاطرت بدينك ، وإن عصيته . . خاطرت بنفسك ، والسلامةُ ألاَّ يعرفك .

وعن الفضيل بن عياض قال : لو أنَّ رجلاً لا يخالط هـٰؤلاء ـ يعني : السلاطين ـ ولا يزيد على الفرائض . . فهو أفضل مِنْ رجل يخالط السلطان ويصوم النهار ويقوم الليل ويحجُّ ويجاهد .

ويقال : ما أقبح العالم أن يقال : أين هو ؟ فيقال : عند الأمير .

وعن الضحاك بن مزاحم قال : إنِّي لأتقلَّب الليل كلَّه علىٰ فراشي ألتمس كلمة أُرضي بها سلطاني ولا أسخط بها خالقي ، فلا أقدر عليها .

وقال ابن عباس : « أجتنبوا أبواب الملوك ؛ فإنَّكم لا تصيبون مِنْ دنياهم شيئاً إلاَّ أصابوا مِنْ آخرتكم ما هو أفضل منه »[1]) اهـ[2]

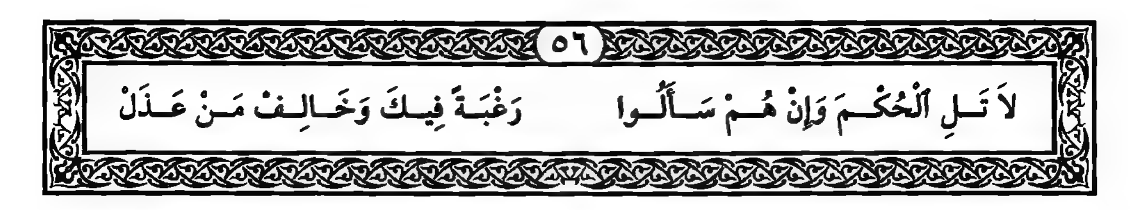
وما تقدم عن هـٰؤلاء الأكابر بالنسبة إلىٰ ملوك زمانهم ، فكيف بنا وبزماننا وبملوكه ؟! فنسأل الله سبحانه وتعالىٰ أن يختم لنا بالسعادة ، آمين .

* * *

(١) أخرجه بنحوه البيهقي في « الشعب » (٨٩٦٣) ، والبخاري في « التاريخ الكبير » (٤/ ٧٠) من قول أبي ذر رضي الله عنه .

(٢) « تنبيه الغافلين » (ص٥٢٤ـ٥٢٨) .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



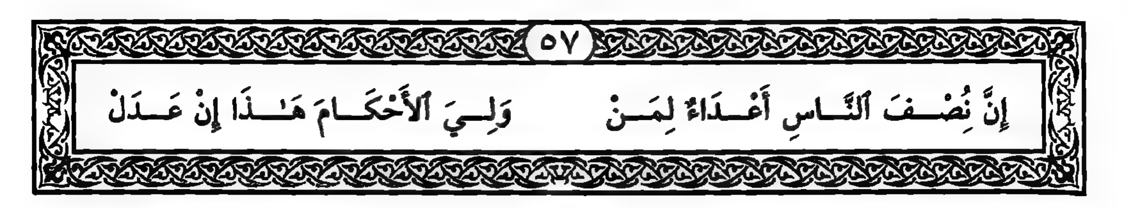
هٰذا البيت والستَّة أبيات التي بعده متعلِّقة بالحكم والولاية على الرعية والقضاء بين الناس .

أي : لا تكن والياً وإن سألك الناس ذلك لرغبتهم فيك وإرادتهم لك ، بلِ ٱتركِ الولاية وخالف مَنْ عذلك ولامك علىٰ تركها ؛ ففي كلام الناظم رحمه الله تعالى النهي عن تولية الأحكام ؛ لأنَّه يحتمل ألاَّ يعدل في أحكامه فيصير إلى النار ؛ كما روي عن شقيق بن سلمةَ : أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه ٱستعمل بِشر بن عاصم الثقفيَّ علىٰ صدقات هوازن ، فتخلَّف ، فلقيه عمر ، فقال له : ما خلَّفَكَ ؛ أما ترىٰ لنا عليك سمعاً وطاعة ؟ قال : بلىٰ ، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ وَلِيَ أَحَداً مِنَ ٱلنَّاسِ . . أُتِيَ بِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ حَتَّىٰ يُوقَفَ بِهِ عَلَىٰ جِسْرِ جَهَنَّمَ ، فَإِنْ كَانَ مُحْسِناً . . نَجَا ، وَإِنْ كَانَ مُسِيئاً . . ٱنْخَرَقَ بِهِ ٱلْجِسْرُ ، فَيَهْوِي فِيهَا سَبْعِينَ خَرِيفاً » ، فخرج عمر باكياً كئيباً حزيناً ، فلقيه أبو ذرٍّ ، فقال : ما لي أراك حزيناً ؟ قال : وما يمنعني مِنَ البكاء وقد سمعت بشر بن عاصم يقول : قال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ وَلِيَ أَحَداً مِنَ ٱلنَّاسِ . . أُتِيَ بِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ حَتَّىٰ يُوقَفَ بِهِ عَلَىٰ جِسْرِ جَهَنَّمَ ، فَإِنْ كَانَ مُحْسِناً . . نَجَا ، وَإِنْ كَانَ مُسِيئاً . . ٱنْخَرَقَ بِهِ ٱلْجِسْرُ ، فَيَهْوِي فِيهَا سَبْعِينَ خَرِيفاً » ، [قال أبو ذرٍّ : وما سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : لا ، قال : أشهد أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، فذكره وزاد] : « وَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ »[1] .

* * *

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٢/٣٩) ، وابن أبي عاصم في « الآحاد والمثاني » (١٥٩١) .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



٥٧ إِنَّ نِصْـفَ ٱلنَّـاسِ أَعْـدَاءٌ لِمَـنْ وَلِـيَ ٱلأَحْكَـامَ هَـٰذَا إِنْ عَـدَلْ

هٰذا البيت تعليل لِمَا قبله ؛ أي : لا تَلِ الأحكام ؛ لأنَّ نصف الناس أعداء لمن تولَّى الأحكام وعدل فيها ، فإن لم يعدل فيها . . عاداه الناس كلُّهم وعاداه خالقه ، فخسر الدنيا والآخرة .

والنِّصف ـ كما في « المصباح » ـ بكسر النون وضمها ، والكسر أفصح ، ويقال فيه : نَصِيف كرغيف ؛ وهو : أحد جُزأيِ الشيء . اهـ

وٱعلم : أنَّ العدل في الأحكام قوام الدين والدنيا ، وسبب إصلاح المخلوقين ، وهو مأخوذ مِنَ الاعتدال ؛ وهو الاستواء ، وحقيقة العدل : وضع الأمور في موضعها ، فلا توضع الشدَّة في مكان اللِّين ، ولا اللِّين في مكان الشدَّة ، ولا السيف مكان السوط ، ولا السوط مكان السيف .

وأمَّا الإنصاف . . فهو ٱستيفاء الحقوق بالأيدي العادلة ، وهو والعدل توأمان نتيجتهما عُلُوُّ الهِمَّة .

وقد قيل : مَنْ عدل في سلطانه . . ٱستغنىٰ عن أعوانه .

ويقال : عدل السلطان أنفع للرعية من خصب الزمان .

ويقال : الملكُ يبقىٰ على الكفر والعدل ، ولا يبقىٰ على الجور والإيمان .

وقد أشار بعض الشعراء إلىٰ ذلك بقوله : [من البسيط]

عَلَيْـكَ بِـٱلْعَـدْلِ إِنْ وَلِيـتَ مَمْلَكَـةً وَٱحْذَرْ مِنَ ٱلْجَوْرِ فِيهَا غَايَةَ ٱلْحَذَرِ

فَٱلْمُلْكُ يَبْقَىٰ عَلَىٰ عَدْلِ ٱلْكَفُورِ وَلاَ يَبْقَىٰ مَعَ ٱلْجَوْرِ فِي بَدْوٍ وَلاَ حَضَرِ (١)

---

(١) البيتان من غير نسبة في « غرر الخصائص » (ص٣٣) .

وقال عمرو بن العاصي : (مالك عادل خير من مطر وابل)[1] .

ويقال : إذا عدل السلطان في رعيته ثُمَّ جار علىٰ واحد . . لم يَفِ عدله بجوره .

وكان كسرىٰ إذا جلس للحكم بين الناس أمر رجلين من رؤساء دولته فوقف واحد عن يمينه وواحد عن شماله ، فكان إذا زاغ حركاه بقضيب معهما وقالا له والرعية يسمعون : أيها الملك ؛ أنت مخلوق لا خالق ، وعبد لا مولىٰ ، وليس بينك وبين الله قرابة ، أنصف الخلق وٱنظر لنفسك .

وكتب جعفر بن يحيىٰ إلىٰ بعض عماله : أَنْصِفْ مَنْ وَلِيت أمره ، وإلا . . أَنْصَفَهُ منك مَنْ وَلِي أمرك ؛ أي : وهو الله تعالىٰ .

وكتب أخوه الفضل : بئس الزاد إلى المعاد التعدي على العباد .

ولقد صدق القائل : [من مجزوء الكامل]

يَـــا أَيُّهَـــا ٱلْمَلِـــكُ ٱلَّـــذِي ... بِصَـــلاَحِـــهِ صَلُـــحَ ٱلْجَمِيـــعْ

أَنْـــتَ ٱلـــزَّمَـــانُ فَـــإِنْ عَـــدَلْـ ... ـتَ فَكُلُّـــهُ أَبَـــداً رَبِيـــعْ

وقال آخر : [من الوافر]

لِكُـــلِّ وِلاَيَـــةٍ لاَ بُـــدَّ عَـــزْلُ ... وَصَـــرْفُ ٱلـــدَّهْـــرِ عَقْـــدٌ ثُـــمَّ حَـــلُّ

وَأَحْسَـــنُ سِيـــرَةٍ تَبْقَـــىٰ لِـــوَالٍ ... عَلَـــى ٱلأَيَّـــامِ إِحْسَـــانٌ وَعَـــدْلُ[2]

* * *

(١) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٦/١٨٣) .

(٢) البيتان من غير نسبة في « غرر الخصائص » (ص٢٤) .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :

٥٨

فَهُوَ كَٱلْمَحْبُوسِ عَنْ لَذَّاتِهِ ... وَكِلاَ كَفَّيْهِ فِي ٱلْحَشْرِ تُغَلْ

أي : فالحاكم كالشخص المحبوس عن لذَّاته ؛ كما هو مشاهد مِنْ كونه لا يمشي إلاَّ بمركوب يركبه وبجماعة تمشي خلفه وغير ذلك ، فإن لم يجد ذلك . . لم تسمح نفسه بخروجه إلى المحلِّ الذي يريده ، فصار محبوساً عن شهوته ، وهـٰذا الأمر حادث ، وإلاَّ . . فكان أبو بكر الصدِّيق رضي الله تعالىٰ عنه مَلِكاً في زيٍّ مسكين[1] .

وٱشترىٰ علي كرم الله وجهه تمراً بدرهم ، فحمله في ردائه ، فسأله بعض أصحابه أن يحمله عنه ، فقال : أبو العيال أحقُّ بحمله[2] .

ولمَّا ولي عليُّ بن عيسى الوزارة ـ وذلك سنة ثلاث مئة ـ رأى الناس يمشون حوله كما كانوا يمشون حول الوزراء قبله ، فٱلتفتَ إليهم وقال : إنَّا لا نرضىٰ لعبيدنا أن يفعلوا هـٰذا معنا ، فكيف نكلِّفُه قوماً أحراراً لا إحسان لنا عليهم ؟! ومنعهم مِنَ المشي في رِكابه[3] .

ويقال : إنَّ أوَّل مَنْ مشت معه الرجال وهو راكب : الأشعث بن قيس ، كان يركب في واحد ويرجع في ألف . اهـ

وقوله : (وكلا كفَّيه في الحشر تُغَل) بالغين المعجمة ؛ أي : تجمع إلىٰ عُنُقه بطوق مِنْ حديد .

---

(١) ورحم الله أبا العتاهية حيث قال في هـٰذا المعنىٰ في « ديوانه » (ص٢٥٩) : [من البسيط]

ومِنْ علامة تضييعي لآخرتي ... أن صرتُ تُعجبني الدنيا وتُرضيني
يا مَنْ تشرَّف بالدنيا وطينتها ... ليس التشرُّفُ رفعَ الطين بالطينِ
إذا أردتَ شريفَ الناس كلِّهم ... فٱنظرْ إلىٰ مَلِكٍ في زيِّ مسكينِ
ذاكَ الذي عظُمتْ في النَّاس حُرمَتُهُ ... وذاكَ يصلحُ للدنيا وللدِّينِ

(٢) أخرجه البخاري في « الأدب المفرد » (٥٥١) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٠٢) .

(٣) انظر « غرر الخصائص » (ص٢٦) .

قال في « المصباح » : (كِلاَ ـ بالكسر والقصر ـ : اسمٌ لفظه مفرد ، ومعناه مثنىٰ ، وتلزم إضافته إلىٰ مثنىٰ ، فيقال : قام كلا الرجلين ، ورأيت كليهما ، وإذا عاد عليه ضمير.. فالأفصح الإفراد ؛ نحو : كلاهما قام ، قال الله تعالىٰ : ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا ﴾ ، والمعنىٰ : كلٌّ واحدة منهما آتت أكلها ، وتجوز التثنية ، فيقال : قاما) اهـ

وكلام الناظم رحمه الله تعالىٰ محمول علىٰ غير العادل ؛ ففي « الجامع الصغير » أنَّه صلى الله عليه وسلم قال : « غَيْرَ ٱلدَّجَّالِ أَخْوَفَنِي عَلَىٰ أُمَّتِي مِنَ ٱلدَّجَّالِ ؛ ٱلأَئِمَّةُ ٱلْمُضِلُّونَ »(1) .

وفيه أيضاً : قال صلى الله عليه وسلم : « فِي جَهَنَّمَ وَادٍ ، وَفِي ٱلْوَادِي بِئْرٌ يُقَالُ لَهَا : هَبْهَبُ ، حَقٌّ عَلَى ٱللهِ تَعَالَىٰ أَنْ يُسْكِنَهَا كُلَّ جَبَّارٍ »(2) .

وفيه أيضاً : قال صلى الله عليه وسلم : « ٱلْفَلَقُ سِجْنٌ فِي جَهَنَّمَ يُحْبَسُ فِيهِ ٱلْجَبَّارُونَ وَٱلْمُتَكَبِّرُونَ ، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَتَتَعَوَّذُ [بِاللهِ] مِنْهُ »(3) .

وفيه أيضاً : قال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ أَحَبَّ ٱلنَّاسِ إِلَى ٱللهِ تَعَالَىٰ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَجْلِساً : إِمَامٌ عَادِلٌ ، وَأَبْغَضَ ٱلنَّاسِ إِلَى ٱللهِ تَعَالَىٰ وَأَبْعَدَهُمْ مِنْهُ : إِمَامٌ جَائِرٌ »(4) .

وفيه أيضاً : قال صلى الله عليه وسلم : « إِنْ شِئْتُمْ أُنَبِّئُكُمْ عَنِ ٱلإِمَارَةِ وَمَا هِيَ ؟ أَوَّلُهَا : مَلاَمَةٌ ، وَثَانِيهَا : نَدَامَةٌ ، وَثَالِثُهَا : عَذَابٌ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ إِلاَّ مَنْ عَدَلَ »(5) .

وفيه أيضاً : قال صلى الله عليه وسلم : « أَيُّمَا رَاعٍ ٱسْتَرْعَىٰ رَعِيَّةً فَلَمْ يَحُطْهَا بِٱلأَمَانَةِ

---

(1) « الجامع الصغير » (٥٧٨٢) ، والحديث أخرجه أحمد (٥/ ١٤٥) .

(2) « الجامع الصغير » (٥٩٥١) ، والحديث أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٥٩٦) ، والدارمي في « السنن » (٢٨٥٨) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٨/ ٩٨) ، والهبهب : السريع ، وهبهب السراب : إذا ترقرق .

(3) « الجامع الصغير » (٥٩٩٢) ، والحديث أخرجه الديلمي في « الفردوس » (٤٦٢٧) ، وعزاه السيوطي في « الجامع » لابن مردويه في « تفسيره » .

(4) « الجامع الصغير » (٢١٧٤) ، والحديث أخرجه الترمذي (١٣٢٩) ، والبغوي (٢٤٧٢) ، وأحمد (٣/ ٢٢) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (١٠٠٣) .

(5) « الجامع الصغير » (٢٦٦٦) ، والحديث أخرجه البزار في « مسنده » (٢٧٥٧) ، والطبراني في « الكبير » (١٨/ ٧١) ، و« الأوسط » (٦٧٤٣) ، و« مسند الشاميين » (١١٩٥) ، وابن أبي عاصم في « الآحاد والمثاني » (١٢٨٤) .

وَٱلنَّصِيحَةِ . . ضَاقَتْ عَلَيْهِ رَحْمَةُ ٱللهِ ٱلَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ »[1] .

وقال في « غرر الخصائص » ما نصُّه : (ينبغي للملك أن يعمل بخصال ثلاث : تأخير عقوبة المسيء ، وتعجيل ثواب المحسن ، والعمل بالأناة فيما يَحْدُثُ له ؛ لأنَّ في تأخير العقوبة إمكان العفو ، وفي تعجيل ثواب المحسن المسارعة بالطاعة ، وفي الأناة اتِّضاح الرأي والصواب .

وقال أنوشروان : « الناس ثلاث طبقات ، فنسوسهم بثلاث سياسات : طبقة همُ الأبرار نسوسهم باللِّين والعطف ، وطبقة همُ الأشرار نسوسهم بالغِلْظة والعنف ، وطبقة همُ العامة نسوسهم بالشدَّة واللِّين ؛ كيلا تحرجهمُ الشدَّة ولا يبطرهمُ اللِّين » .

ولله درُّ القائل : [من الطويل]

إِذَا كُنْتُمُ لِلنَّاسِ أَهْلَ سِيَاسَةٍ فَسُوسُوا كِرَامَ ٱلنَّاسِ بِٱلرِّفْقِ وَٱلْبَذْلِ
وَسُوسُوا لِئَامَ ٱلنَّاسِ بِٱلذُّلِّ يَصْلُحُوا عَلَى ٱلذُّلِّ إِنَّ ٱلذُّلَّ أَوْفَقُ لِلنَّذْلِ[2]

وقال بعضهم : لا سلطان إلاَّ برجال ، ولا رجال إلاَّ بمال ، ولا مال إلاَّ بعمارة ، ولا عمارة إلاَّ بعدل[3] .

وقال معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالىٰ عنهما : « لو أنَّ بيني وبين الناس شعرة . . لَمَا انقطعت ، قيل له : وكيف ذلك ؟ قال : إن جذبوها . . أرخيتها ، وإن أرخوها . . جذبتها »[4] .

وقال بعضهم : إذا كان عند الملك للمحسن مِنَ الحقِّ ما يقنعه ، وللمسيء مِنْ أليم العذاب ما يقمعه . . بذل المحسن النصح رغبة ، وانقاد المسيء إلى الحقِّ رهبة[5] .

وقال بعض الملوك : اعلم أنَّ الملك والدين أخوان توأمان ، لا قِوَام لأحدهما إلاَّ

---

(1) « الجامع الصغير » (٣٠٠٧) ، والحديث أخرجه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٠/ ١٢٦) .

(2) البيتان لعبد الله بن طاهر كما في « الغرر » (ص٦٨) ، وهما عند الراغب في « محاضرات الأدباء » (١/ ٢١١) .

(3) هو من كلام أردشير أحد ملوك الفرس ، كما في « الغرر » ، و« ثمار القلوب » (١/ ١٧٨) ، و« بهجة المجالس » (١/ ٣٣٤) ، و« ربيع الأبرار » (٣/ ٦٠٠) .

(4) أخرجه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص٧٢) .

(5) أورده في « الصناعتين » (١/ ٢١٤) ، و« محاضرات الأدباء » (١/ ٣٠١) ، و« صبح الأعشىٰ » (٢/ ٣٠١) .

بالآخر ؛ لأنَّ الدين هو أُسُّ الملك وعماده ، والملك قائم سيف الدين ونجاده ، ولا بُدَّ للملك مِنْ أُسٍّ ، ولا بُدَّ للدين مِنْ حارسٍ ، فإنَّ مَنْ لا حارس له ضائع ، ومَنْ لا أُسَّ له مهدوم[1] .

ويقال : شيئان إن صلُح أحدهما . . صلُح الآخر : السلطان ، والرعية .

كان الرشيد في بعض غزواته فألح عليه الثلج ليلة ، فقال بعض أصحابه : يا أمير المؤمنين ؛ أما ترىٰ ما نحن فيه مِنَ الجهد والتعب والرعية قارة نائمة ؟ فقال : اُسكت ؛ فللرعيَّة المنام ، وعلينا القيام ، ولا بُدَّ للراعي مِنْ حراسة الرعيَّة ، وتحمُّل الأذيَّة) اهـ[2]

وقال الشاعر في ذمِّ بعض ولاة بني مروان : [من الطويل]

إِذَا مَا قَضَيْتُمْ لَيْلَكُمْ بِمَنَامِكُمْ ... وَأَفْنَيْتُمُ أَيَّامَكُمْ بِمُدَامِ

فَمَنْ ذَا ٱلَّذِي يَغْشَاكُمُ فِي مُلِمَّةٍ ... وَمَنْ ذَا ٱلَّذِي يَلْقَاكُمُ بِسَلَامِ

رَضِيتُمْ مِنَ ٱلدُّنْيَا بِأَيْسَرِ بُلْغَةٍ ... بِلَثْمِ غُلَامٍ أَوْ بِشُرْبِ مُدَامِ

أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ ٱللِّسَانَ مُوَكَّلٌ ... بِمَدْحِ كِرَامٍ أَوْ بِذَمِّ لِئَامِ[3]

* * *

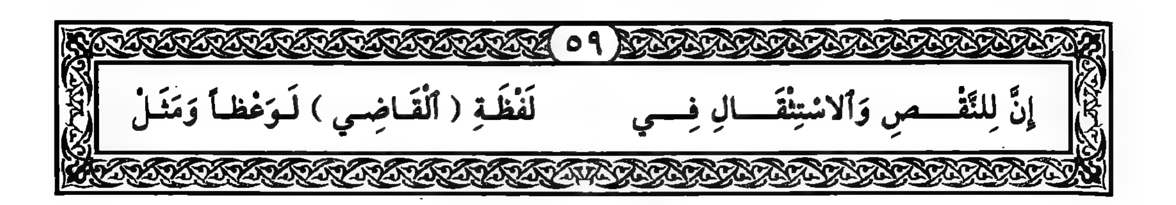
---

(1) هو من كلام أردشير ملك الفرس ، كما في « الغرر » (ص٦٩) ، و« عيون الأخبار » (١/١٣) ، و« العقد الفريد » (١/٤٧) ، ونسبه في « بهجة المجالس » (١/٣٣٢) ، لابن مقلح ، وفي « صبح الأعشىٰ » (١٠/١٣٤) لسيدنا علي رضي الله عنه .

(2) « غرر الخصائص » (ص٦٨ـ٦٩) .

(3) الأبيات من غير نسبة في « ربيع الأبرار » (٥/٢٤٧) ، و« غرر الخصائص » (ص٦٨) ، و« المستطرف » (١/٢٠٥) .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



٥٩ — إِنَّ لِلنَّقْصِ وَٱلِاسْتِثْقَالِ فِي ... لَفْظَةِ (ٱلْقَاضِي) لَوَعْظاً وَمَثَلْ

هٰذا البيت متعلِّق بالقاضي الذي هو أحد الحكَّام .

أي : إنَّ في النقص ـ بالصاد المهملة ـ وفي الاستثقال المتضمِّن لهما لفظ (القاضي) لوعظاً كافياً ، ومثلاً شافياً ، يزجران ويمنعان مَنْ له عقل عنِ الدخول في ولاية القضاء .

ووقف الناظم رحمه الله تعالىٰ بالسكونِ علىٰ (مثل) مع أنَّه منصوب . . تبعاً لربيعة الذين يقفون على المنصوب بالسكون(١) .

وبيان النقص في لفظة (القاضي) : أنَّه مِنَ الأسماء المنقوصة ؛ كالثاني والوالي ونحوهما ، فيقدَّر في إعرابه الرفع والخفض ، ويظهر فيه النصب ، فتقدَّر الضمَّة في الرفع ، والكسرة في الخفض ، والمانع مِنْ ظهور الضمَّة في الأوَّل والكسرة في الثاني : الثِّقَلُ .

---

(١) وأصل المسألة : أنه يجب في الوقف قلب النون الساكنة ألفاً في ثلاث مسائل : إحداها : (إذاً) على الصحيح ، ولا يختلف القراء في الوقف علىٰ نحو : ﴿ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾ أنَّه بالألف . الثانية : نون التوكيد الخفيفة الواقعة بعد الفتحة ؛ كقوله تعالىٰ : ﴿ لَنَسْفَعًا ﴾ ، و﴿ وَلَيَكُونًا ﴾ ، وقف الجميع عليهما بالألف ، قال الأعشىٰ : [من الطويل]

وإيَّاكَ والمَيْتَاتِ لا تقربنَّها ... ولا تعبدِ الشيطانَ واللهَ فاعبدا

وأصله : (فاعبدنْ) بنون التوكيد الخفيفة ، ثم وقف عليه بالألف المقلوبة عنها . الثالثة : تنوين الاسم المنصوب ؛ نحو : (رأيت زيداً) ، وقف عليه العرب بالألف ، إلاَّ ربيعة ؛ فإنهم وقفوا علىٰ نحو : (رأيت زيداً) بالحذف ، ومنه قول شاعرهم : [من الطويل]

ألاَ حَبَّذا غُنْمٌ وحُسْنُ حديثِها ... لقدْ تركتْ قلبي بها هائماً دَنِفْ

فقوله : (دنف) هو في موضع نصب حال أو نعت للاسم المنصوب (قلبي) ، والجمهور يقفون في مثله على الألف (دنفا) ، وجاء هنا علىٰ لغة ربيعة وهي الوقوف على السكون ، وعلىٰ هٰذه اللغة جاء قول الناظم رحمه الله : (مثل) فوقف عليه بالسكون ، ومذهب الجمهور الوقوف عليه بالألف (مثلا) عطفاً علىٰ (وعظاً) . انظر « شرح قطر الندىٰ » (ص٤٧٠) ، و« همع الهوامع » (٣/٤٢٧) .

قال ابن مالك رحمه الله تعالىٰ : [من الرجز]

وَٱلثَّانِ مَنْقُوصٌ وَنَصْبُهُ ظَهَرْ ... وَرَفْعُهُ يُنْوَىٰ كَذَا أَيْضاً يُجَرْ[1]

ولله درّ الملاح حيث قال في « تخميسه » :

وَإِذَا فُزْتَ بِقَاضٍ مُسْعِفِ ... عَادِلٍ فِي ٱلْحُكْمِ حَبْرٍ مُنْصِفِ

فَتَأَمَّلْ حِكْمَةَ ٱلسِّرِّ ٱلْخَفِي ... إِنَّ لِلنَّقْصِ وَٱلاسْتِثْقَالِ فِي

لَفْظَةِ (ٱلْقَاضِي) لَوَعْظاً وَمَثَلْ[2]

ففي كلام الناظم رحمه الله تعالى النهي عن تولِّي القضاء ، وهو محمول علىٰ مَنْ ليس فيه أهليَّة له ؛ لعجزه عن ذلك ، أو لجهله وعدم معرفته ، وإلاَّ . . فالقضاء في حقِّ الصالحين له فرضُ كفاية في كلِّ ناحيةٍ تحتاج إلىٰ قاضٍ ؛ كالجهاد والأمر بالمعروف والنهيِ عنِ المنكر ، وقد يكون فرضَ عين ؛ كما إذا لم يوجد في الناحية صالحٌ له إلاَّ شخصٌ واحد ، فيتعيَّنُ عليه .

وقد ورد في فضله مِنَ الكتاب والسنة ما يُرغِّبُ فيه ؛ كقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ ، وقوله تعالىٰ : ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ مَعَ ٱلْقَاضِي مَا لَمْ يَجُرْ ، فَإِنْ جَارَ . . تَبَرَّأَ ٱللهُ مِنْهُ ، وَأَلْزَمَهُ ٱلشَّيْطَانَ » رواه الحاكم والبيهقي[3] .

ولله درُّ القائل : [من الرجز]

نِعْمَ ٱلْوَظِيفَةُ ٱلْقَضَا لِأَهْلِهِ ... وَظِيفَةُ ٱلأَشْرَافِ وَٱلأَفَاضِلِ

فَٱحْفَظْ لَهَا حُقُوقَهَا وَٱعْمَلْ بِهَا ... وَلاَ تَكُنْ عَنْ حِفْظِهَا بِذَاهِلِ

وقال بعضهم : [من الرجز]

مَرْتَبَةُ ٱلرَّسُولِ طَهَ ٱلْمُصْطَفَىٰ ... أَكْرِمْ بِهَا بَيْنَ ٱلأَنَامِ مَرْتَبَهْ

---

(١) البيت من « الخلاصة » الألفية التي صنفها الإمام ابن مالك في علم النحو والصرف ، في باب المعرب والمبني .

(٢) « تخميس الملاح » (ص١٢) .

(٣) أخرجه ابن حبان (٥٠٦٢) ، والحاكم في « المستدرك » (٩٤/٣) ، والترمذي (١٣٣٠) ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (١٣٤/١٠) .

وأمَّا ما ورد مِنَ النهي عن ولايته . . فهو محمول علىٰ مَنْ ليس فيه أهليَّة للقضاء ؛ كقوله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ جُعِلَ عَلَى ٱلْقَضَاءِ . . فَكَأَنَّمَا ذُبِحَ بِغَيْرِ سِكِّينٍ »[(١)] .

وعن عائشة رضي الله تعالىٰ عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « يُجَاءُ بِٱلْقَاضِي ٱلْعَدْلِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فَيَلْقَىٰ مِنْ شِدَّةِ ٱلْعَذَابِ مَا يَوَدُّ أَنْ لَمْ يَكُنْ قَضَىٰ بَيْنَ ٱثْنَيْنِ قَطُّ »[(٢)] ، ولهـٰذا الحديث ٱمتنع منه أكابر العلماء كالإمام الأعظم ؛ فإنَّه أُدخل علىٰ أبي جعفر الدوانيقي[(٣)] ، فقال : يا أبا حنيفة ؛ أعنا علىٰ أمرنا ، فقال أبو حنيفة : يا أمير المؤمنين ؛ أنا لا أصلح لهـٰذا الأمر ، فقال له أبو جعفر : سبحان الله! أعنا علىٰ أمرنا ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن كنت صادقاً عندك . . فقد أخبرتك أنِّي لا أصلح لهـٰذا الأمر ، وإن كنت كاذباً . . فلا يحلُّ لك توليتي هـٰذا الأمر[(٤)] .

* * *

---

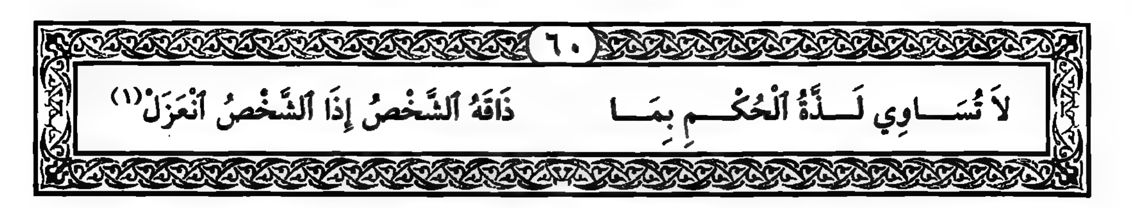
(١) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٩١) ، وأبو داوود (٣٥٧١) ، والترمذي (١٣٢٥) .

(٢) أخرجه ابن حبان (٥٠٥٥) ، والبيهقي في « السنن » (١٠/ ٩٦) ، وأحمد (٦/ ٧٥) .

(٣) هو الخليفة أبو جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي الهاشمي العباسي ، ثاني الخلفاء العباسيين ، ولقب بالدوانيقي أو أبي الدوانيق ؛ لتدنيقه ومحاسبته للصناع لمَّا أنشأ بغداد ، وقيل ـ فيما أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٢/ ٣٠٨) ـ : أنه كان يلزم المال ويدنقه ويقتر فيه قبل الخلافة ، وبقي في ذلك إلىٰ أن قلِّد الخلافة ، فصار الناس يُبخِّلونه ، فلقب بأبي الدوانيق .

(٤) خبر الإمام أبي حنيفة مع الخليفة المنصور أخرجه البيهقي في « السنن » (١٠/ ٩٨) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (١٣/ ٣٢٩) .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



٦٠

لاَ تُسَـاوِي لَـذَّةُ ٱلْحُكْـمِ بِمَـا ذَاقَهُ ٱلشَّخْصُ إِذَا ٱلشَّخْصُ ٱنْعَزَلْ[1]

أي : لا تقوم لذَّة الحكم مقام الذي يحصل للشخص وقت ٱنعزاله حين يقول له صاحب أمره : أنت معزول ، فجميع ما يحصل للحاكم في مدَّة ولايته مِنْ لذَّة الأمر والنهي والإعطاء والمنع وغير ذلك . . لا يساوي قولَ وليِّ أمره : أنت معزول ؛ لِمَا يلحقه بسبب ذلك مِنَ الشدَّة والمشقَّة والاضطراب وٱنحلال الأمر وغير ذلك .

وقد حكي : أنَّه كان ببغداد رجل قاضٍ ، وكان مِن أهل العلم ، وكانت عنده جارية جميلة ، فكان يطؤها حتَّىٰ إذا قارب الإنزال . . عَزَلَ عنها ، فتقول له : يا سيِّدي ؛ أذاقك الله مرارة العزل ، فٱتَّفق أنَّ الإمام عزله عن منصبه ، فصار متحيراً ذليلاً لا يلتذُّ بأكل ولا بشرب ولا بنوم ، ولا غير ذلك ممَّا كان يجده قبل العزل في زمن الولاية ، فالتمس دعاءها وتاب إلى الله سبحانه وتعالىٰ عن العزل عنها ، فٱستجاب الله سبحانه وتعالىٰ دعاءها وأعيد إليه منصبه . اهـ

وقال بعضهم : لا تشاور المعزول ؛ فإنَّ رأيه مفلول ، بالفاء[2] .

ولله درُّ الملاح حيث قال في « تخميسه » :

صَـحَّ فِـي ٱلْجَنَّـةِ قَـاضٍ عَلِمَـا لِلظَّـى ٱثْنَـانِ بِقَـوْلِ ٱلْعُلَمَـا
أَنْصِـفِ ٱلْخَصْمَيْـنِ يَـا مَـنْ حَكَمَـا لاَ تُسَـاوِي لَـذَّةُ ٱلْحُكْـمِ بِمَـا
ذَاقَــهُ ٱلشَّخْــصُ إِذَا ٱلشَّخْــصُ ٱنْعَــزَلْ[3]

وهٰذا مصداق قوله عليه الصلاة والسلام : « ٱلْقُضَاةُ ثَلاَثَةٌ : قَاضٍ فِي ٱلْجَنَّةِ ، وَقَاضِيَانِ

---

(١) ويروىٰ : (لا توازي) بدل : (لا تساوي) .
(٢) مفلول ؛ أي : ذاهب ذاهل مهزوم ؛ لاضطرابه بسبب عزله .
(٣) « تخميس الملاح » (ص١٢) ، وفيه : (لا توازي) بدل : (لا تساوي) .

فِي ٱلنَّارِ - فالأولُ - رَجُلٌ عَرَفَ ٱلْحَقَّ فَٱتَّبَعَهُ وَحَكَمَ بِهِ فَهُوَ فِي ٱلْجَنَّةِ ، وَ - ٱلثَّانِي - رَجُلٌ عَرَفَ ٱلْحَقَّ وَلَمْ يَحْكُمْ بِهِ فَهُوَ فِي ٱلنَّارِ ، وَ - ٱلثَّالِثُ - رَجُلٌ لَمْ يَعْرِفِ ٱلْحَقَّ وَحَكَمَ عَلَىٰ جَهْلٍ فَهُوَ فِي ٱلنَّارِ »[1] .

ولله درُّ القائل : [من الكامل]

إِنَّ ٱلْقُضَاةَ ثَلاَثَةٌ بِصَعِيدِنَا ... قَدْ حَقَّقُوا مَا جَاءَ فِي ٱلأَخْبَارِ

قَاضٍ بِإِسْنَا قَدْ ثَوَىٰ فِي جَنَّةٍ ... وَٱلْقَاضِيَانِ كِلاَهُمَا فِي ٱلنَّارِ[2]

وقال بعضهم في هجو القضاة الجائرين : [من الوافر]

قُضَاةُ زَمَانِنَا أَضْحَوْا لُصُوصَا ... عُمُوماً فِي ٱلْبَرِيَّةِ لاَ خُصُوصَا

فَحَسْبُكَ أَنَّهُمْ لَوْ صَافَحُونَا ... لَسَلُّوا مِنْ خَوَاتِمِنَا ٱلْفُصُوصَا

وقال آخر : [من الوافر]

وَلَمَّا أَنْ تَوَلَّيْتَ ٱلْقَضَايَا ... وَفَاضَ ٱلْجَوْرُ مِنْ كَفَّيْكَ فَيْضَا

ذُبِحْتَ بِغَيْرِ سِكِّينٍ وَإِنِّي ... لأَرْجُو ٱلذَّبْحَ بِٱلسِّكِّينِ أَيْضَا[3]

ويحكىٰ : أنَّ بعض الجهَّال مِنَ القضاة تقدم إليه رجل بخصم فقال : هـٰذا باعني ثوباً فوجدت فيه عيباً ، وسألته أن يقيلني فأبىٰ ، فٱلتفت إليه القاضي وقال له : أَقِلْهُ عافاك الله ؛ فإنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قِيلُوا ؛ فَإِنَّ ٱلشَّيَاطِينَ لاَ تَقِيلُ » . فانظر إلىٰ جهله[4] !!

---

(١) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٩٠) ، وأبو داوود (٣٥٧٣) ، والترمذي (١٣٢٢) .

(٢) البيتان من غير نسبة في « الوافي بالوفيات » (١٦/ ١٦٦) ، و« أعيان العصر » (٢/ ٥٢٧) ، وبعدهما :

هـٰذا بحسن صفاته وفعاله ... وهما بما ٱكتسبا من الأوزار

(٣) البيتان لمحمد بن مسعود الأصبهاني المعروف بالفخر النحوي ، كما في « الوافي بالوفيات » (٥/ ٢٣) ، و« النجوم الزاهرة » (٦/ ٧٩) ، و« الإزدهار فيما عقده الشعراء من الأحاديث والآثار » (ص٤١) .

(٤) جهله في فقه معاني اللغة وفهمها ؛ فالإقالة في البيع هي الرد ، وفي الحديث : « قيلوا » من القيلولة ؛ وهي نوم نصف النهار ، وأما الحديث . . فأخرجه الطبراني في « الأوسط » (٢٨) ، والخطيب في « الموضح » (٢/ ١٥٨) ، والرافعي في « التدوين » (٣/ ١٩٨) ، وأبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١/ ٢٣٦ و٤١٦) ، و(٢/ ٣٠) ، وأبو الشيخ في « طبقات المحدثين بأصبهان » (٤/ ١٧٦) ، وابن حبان في « المجروحين » (٢/ ١٥٨) .

وقيل لقاضي حمص : كيف تحكم على اللوطي ؟ قال : بنصف حكومة الزاني ، قيل له : ولِمَ ؟ قال : لأنَّ الحمار لا يحمل إلاَّ نصف ما يحمل البغل . وهـٰذا حكم لا معنىٰ له .

وٱدَّعتِ ٱمرأة علىٰ زوجها مهراً عند بعض القضاة ، فأنكر ، فأمر القاضي أن يجلد حدَّين ، قيل له : ولِمَ حكمت بهـٰذا ؟ قال : لأنَّهما زنيا إذ لم يكن بينهما مهر ، قيل : أفلا تحدُّ المرأة ؟ قال : بلىٰ ؛ لأنَّ النخلة إذا لم يحمل رأسها . . أحرق أصلها . وهـٰذا كلام لا معنىٰ له .

وتقدم جماعة إلىٰ قَرَاقُوش ـ وكان عاملاً لصلاح الدين علىٰ مصر ـ ومعهم قتيل وثور ورجل مكتوف ، فقالوا : أيُّها الأمير ؛ إن هـٰذا الثور مال علىٰ هـٰذا الرجل فقتله ، وهـٰذا مالكه وهو العاقلة ، ففكَّر ساعة ، ثمَّ أمر بالثور أن يشنق ويطلق صاحبه ، فقيل له : ما هـٰذا حكم الله ؟! فقال : لو جرىٰ هـٰذا في زمن فرعون . . ما فعل غير هـٰذا ؛ لأنَّه القاتل ، ولا يحلُّ لي أن أقتل غير القاتل ، وهـٰذه الحكاية ذكرها القاضي الأسعد في كتابه الذي سماه : « الفاشوش في أحكام قراقوش » ، ذكر فيه مِنْ هـٰذه الأحكام شيئاً كثيراً ، والعهدة عليه في ذلك ، وأظنُّ ـ والله أعلم ـ أنَّ كل ما فيه مختلق ؛ لأنَّ صلاح الدين بن أيوب مع تيقُّظه ودينه لا يولِّي إقليم مصر مَنْ يكون بهـٰذا العقل[1] .

وحكي : أنَّ عامل المنصور بن النعمان كتب إليه مِنَ البصرة : إنِّي أصبت سارقاً سرق نصاباً مِنْ حرزه فما أصنع فيه ؟ فكتب إليه المنصور : أن ٱقطع رجله ودعه يكدُّ بيده علىٰ عياله ، فأجابه العامل : إنَّ الناس ينكرون هـٰذا القول ، ويقولون : قال الله تعالىٰ في القرآن : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾ ، فكتب إليه : القرآن نزل مِنَ السماء ونحن في الأرض ، والشاهد يرىٰ ما لا يرى الغائب . فانظر إلىٰ جهله كيف أدَّاه .

---

(١) وهـٰذا ما قاله ابن خلكان في « وفيات الأعيان » (٤/ ٩٢) ، ونقله عنه ابن كثير في « البداية » (١٣/ ٣٨) ، وابن تغري بردي في « النجوم الزاهرة » (٦/ ١٧٨) ، قال ابن خلكان : (والناس ينسبون إليه أحكاماً عجيبة في ولايته ، حتىٰ إن الأسعد ابن مَمَّاتي له جزء لطيف سماه : « الفاشوش في أحكام قراقوش » ، وفيه أشياء يبعد وقوع مثلها منه ، والظاهر أنها موضوعة ؛ فإنَّ صلاح الدين كان معتمداً في أحوال المملكة عليه ، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته . . ما فوضها إليه) .

وكان نصر بن مقبل عاملاً للرشيد على الرقَّة ، فأُتي برجل وجد ينكح شاة ، فقال : أيها الأمير ؛ إنَّها ـ والله ـ ملك يميني ، وقد قال الله تعالىٰ : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ ، فأطلقه وأمر أن تضرب الشاة الحدَّ ، فإن ماتت . . تصلب ، فقيل له : أيُّها الأمير ؛ إنَّها بهيمة ، فقال : وإن كانت بهيمة ، فإنَّ الحدود لا تعطَّل ، وإن عطلتُها . . فبئس الوالي أنا ، فأنتهىٰ خبره إلى الرشيد ولم يكن رآه قبل ذلك ، فدعا به ، قال : فلمَّا مَثُلَ بين يديه قال : كيف بصرك بالحكم ؟ قال : يا أمير المؤمنين ؛ الناس والبهائم عندي فيه سواء ، ولو وجب حدٌّ علىٰ بهيمة وكانت أمِّي أو أختي . . لجلدتها ولم تأخذني في الله لومة لائم ، فعزله الرشيد وأمر ألاَّ يستعان به في عمل ، فلم يزل معطلاً إلىٰ أن مات[1] .

وكان الربيع بن عبد الله العامريُّ والياً على اليمامة ، فبلغه أنَّ كلباً قتل كلباً ، فأمر أن يقتل به ، فقال فيه بعض الشعراء : [من الطويل]

شَهِدْتُ بِأَنَّ ٱللهَ حَقٌ لِقَاؤُهُ ... وَأَنَّ رَبِيعَ ٱلْعَامِرِيَّ رَقِيعُ
أَقَادَ لَنَا كَلْباً بِكَلْبٍ وَلَمْ يَدَعْ ... دِمَاءَ كِلاَبِ ٱلْمُسْلِمِينَ تَضِيعُ[2]

ويحكىٰ : (أنَّ بعض القضاة العقلاء قدَّم قوم إليه غريماً لهم ، فادَّعوا عليه بمال فأقرَّ ، فأمره القاضي أن يدفع لكلِّ ذي حقٍّ حقَّه ، فقال : إنَّ لي رَبعاً وقد حان أستغلاله ، فإن رأوا أن يؤجِّلوني أياماً حتَّىٰ أستغلَّه وأؤدِّي إليهم حقوقهم ، فسألهم القاضي ، فقالوا : والله ؛ لا نعلم له شيئاً أصلاً ، فقال له القاضي : أذهب ؛ فقد فلَّسك غرماؤك .

وحكي : أنَّ رجلاً أراد أن يحجَّ ، فأودع عند رجل مالاً ، فلمَّا رجع . . طلبه منه ، فجحده ، فأتىٰ إياساً القاضي فأخبره ، فقال له : لا تُعْلم أحداً أنَّك أتيتني ، وأرجع إليَّ بعد يومين ، ثمَّ دعا القاضي إياسٌ المودَع عنده وقال له : قد أجتمع عندنا مالٌ لأيتام وأريد أن أُودِعَه عندك ليكون في حِرْزك ، فحصِّن بيتك وأنتخب أقواماً ثقاةً يحملونه معك ، فخرج الرجل وأصلح منزله ، ثمَّ دعا القاضي إياسٌ المودِع وقال له : أنطلق إلىٰ صاحبك وأطلب

---

(١) انظر « أخبار الحمقىٰ والمغفلين » (ص٩٧) .
(٢) البيتان من غير نسبة في « البيان والتبيين » (٢/٢٥٩) ، و« عيون الأخبار » (٢/٤٩) ، و« العقد الفريد » (٦/١٦٤) .

منه مالك وقل له : إن أنت لم تردَّ عليَّ مالي . . شكوتك للقاضي ، فذهب إليه وطلب ماله ، فردَّه عليه ، فأخبر الرجل القاضي إياساً بذلك ، فتعجَّب مِنْ ذلك وقال : ربَّما كانتِ الحيلة إلىٰ دَرْكِ المطلوب وسيلةً ، وترك القاضي إياسٌ وَعْدَ الرجل) . قاله في « غرر الخصائص »[1] .

* * *

---

(1) « غرر الخصائص » (ص٦٧) .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :

(٦١)

فَـالْـوِلاَيَـاتُ وَإِنْ طَـابَـتْ لِمَـنْ ... ذَاقَهَـا فَـالسُّـمُّ فِـي ذَاكَ الْعَسَـلْ

هـٰذا البيت تفريع على البيت الذي قبله ؛ أي : فالأحكام وإن كانت حُلْوةً كالعسل ؛ لِمَا ينشأ عنها مِنْ حلاوة الأمر والنهي والسطوة والعُلُوِّ والعظمة وغير ذلك ممَّا تتمنَّاه النفس . . فذلك العسل فيه سمٌّ قاتل لوقته ؛ لِمَا ينشأ عن المذكورات مِنَ الكِبْر والعُجْب والخُيَلاَء وٱحتقار المسلمين ، ولأنَّ الغالب في متولِّي الأحكام أن تكون آخرته تفريقَ شمله وتشتيتَ جمعه وموتَهُ غريباً كما هو مشاهد معلوم ، فقد ثبت أنَّ بني أميَّة تفرَّق أمرهم غاية التفرُّق ، وكذلك غيرهم .

ولمَّا تفرَّق الأمر عن مروان بن محمد آخر ملوك بني أميَّة وأيقن بزوال ملكه وغلبة بني العباس عليه . . قال لكاتبه عبد الحميد بن يحيىٰ : إنِّي قدِ ٱحتجت أن تكون مع عدوِّي فتظهر لهم الغدر بي ، فإنِ ٱستطعت أن تنفعني في حياتي ، وإلاَّ . . فلا تعجز في حفظ حرمتي بعد وفاتي ، فقال عبد الحميد : إنَّ الذي أمرتني به أنفع الأمرين لك وأضرُّهما بي ، وما عندي إلاَّ الوفاء لك حتَّىٰ يفتح الله أو أُقتل معك[1] ، فأمسك عنه ساعةً وأعاد عليه القولَ ثانيةً ، فقال : ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ ، فلم يزل معه حتَّىٰ قتل ، وذلك في آخر سنة ٱثنتين وثلاثين ومئة ، وله تسع وخمسون سنة ، وقتل ببُوصِير قرية مِنْ صعيد مصر ، وهو آخر ملوك بني أميَّة ، وكانت مدَّة دولتهم ثلاثاً وتسعين سنة وأحد عشر شهراً وأياماً ، وهرب عبد الحميد إلىٰ قرية تعرف بالأشمونين ، فٱختفىٰ فيها ، فدُلَّ عليه ، وحُمل إلىٰ أبي العباس السفَّاح بأمان ، فلم يحظ عنده .

---

(١) انظر « مروج الذهب » (٤/٩٠) ، و« عيون الأخبار » (١/٢٦) ، و« وفيات الأعيان » (٣/٢٢٩) ، و« الوافي بالوفيات » (١٨/٨٦) ، ثم أنشد عبد الحميد : [من الطويل]

أُسِـرُّ وفـاءً ثـم أُظهـر غـدرةً ... فمَـنْ لـي بعُـذر يـوسـعُ النـاس ظـاهـرُه

وانظر القصة بتمامها في « غرر الخصائص » (ص٢٢) .

وذكر بعضهم[1] : أنَّ جماعة مِنْ بني أميَّة دخلوا علىٰ أبي العباس السفَّاح وفيهم [أبو] الغمر بن هشام بن عبد الملك ، فألحَّ عليه أبو العباس بالنظر ؛ فلما رأىٰ [أبو] الغمر ذلك منه . . أنشد وقال : [من الخفيف]

عَبْدُ شَمْسَ أَبُوكَ وَهْوَ أَبُونَا ... لاَ نُنَادِيكَ مِنْ مَكَانٍ سَحِيقِ
وَٱلْقَرَابَاتُ بَيْنَنَا وَاشِجَاتٌ ... مُحْكَمَاتُ ٱلْعُرَىٰ بِعَقْدٍ وَثِيقِ[2]

فأعجبه ذلك منه ، وأجلسه معه على السرير ، وأقعد أصحابه حوله يميناً وشمالاً ، وتحدَّث معهم ، فشكروه علىٰ ذلك ، فبينما هم يتحدَّثون إذ دخل عليهم سُدَيف بن ميمون ، فأنشدَ السفَّاحَ القصيدة التي أوَّلها : [من الخفيف]

عَمَرَ ٱلدِّينَ فَٱسْتَنَارَ مَلِيَّا

حتَّىٰ أتمَّها ، فقال السفَّاح : يا بن هشام ؛ كيف ترىٰ شاعرنا ؟ فقال للسفَّاح : إنَّ شاعرنا لأشعر مِنْ شاعركم ، وأكثر بياناً ، وأفصح لساناً ، فقال السفَّاح : ما قال شاعركم ؟ فقال : [من البسيط]

لَوْ تَحْمِلُ ٱلْبُخْتُ وَٱلأَفْيَالُ مُثْقَلَةً ... أَحْلاَمَهُمْ تُرِكَتْ عَقْرَى ٱلأَبَاهِيرِ
لاَ يَعْبَثُونَ إِذَا لَجَّتْ مَحَافِلُهُمْ ... زَيْنُ ٱلْمَجَالِسِ فُرْسَانُ ٱلْمَنَابِيرِ[3]

فأحمرت عينا السفَّاح ، وهاجت به حميَّة كانت قد سكنت ، ثمَّ ضرب علىٰ فخذ [أبي] الغمر وقال : [من الكامل]

طَمِعَتْ أُمَيَّةُ أَنْ يُجَاوِزَ هَاشِمٌ ... عَنْهَا وَيَذْهَبَ زَيْدُهَا وَحُسَيْنُهَا

---

(١) هو أبو القاسم الإيادي كما في « غرر الخصائص » (ص٧٤) .

(٢) البيتان لأبي عدي العَبْلي عبد الله بن عمر الأموي ، من قصيدة قالها لهشام بن عبد الملك كما في « الأغاني » (١١/٣٠٥) ، لكن البيتان من قافية الدال ، فبدل : (سحيق) : (بعيد) ، وبدل : (وثيق) : (شديد) ، وهما في « الأغاني » (١١/٣٠٤) ، و« محاضرات الأدباء » (١/٤٦٧) ، و« ربيع الأبرار » (٤/٤٦٤) ، و« تاريخ دمشق » (٣١/٢١٠) ، و« الوافي بالوفيات » (١٧/٢٦٧) ، وعبد شمسَ : بفتح آخره ، ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث ، نص عليه أبو علي الفارسي في « التذكرة » ، كما نقله عنه في « تاج العروس » مادة « شمس » ، وغيره .

(٣) في الأصل : (عقر المباهير) ، والتصويبُ من « الغرر » ، والعقر : القطع ، والأباهير : القوائم ، ووقع في « الغرر » : (لا يعبثون إذا سجت جحافلهم) .

كَــــلاَّ وَرَبِّ مُحَمَّـــــدٍ وَمَلِيكِـــــهِ حَتَّىٰ يُبَـادَ كَفُـورُهَـا وَخَـؤُونُهَـا[1]

ثمَّ قال لهم : قوموا إلىٰ مقصورتكم ، ثمَّ دعا بثلاثة وسبعين رجلاً مِنْ أهل خراسان ، فأعطاهم الخشب وقال : أشدخوهم ، فشدخوهم عن آخرهم ، قال سُديف : والله ؛ ما خرجت مِنَ الأنبار حتَّىٰ رأيتهم معلَّقين بعراقيبهم قد نَهَشَتِ الكلاب رؤوسهم[2] .

ودخل إسماعيل ـ الملقب بسُديف المذكور ـ على السفَّاح وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك وقد أدناه وأعطاه يده فقبَّلها ، فلمَّا رأىٰ سُديف ذلك . . أقبل على السفَّاح فقال : [من الخفيف]

يَـا ٱبْـنَ عَـمِّ ٱلنَّبِـيِّ أَنْـتَ ضِيَـاءٌ إِسْتَبَنَّـا بِـكَ ٱلْيَقِيـنَ ٱلْجَلِيَّـا
يَـا وَصِـيَّ ٱلشَّهِيـدِ أَكْـرَمَـكَ ٱللـهُ فَقَـدْ كُنْـتَ لِلشَّهِيـدِ وَصِيَّـا
لاَ يَغُـرَّنْـكَ مَـا تَـرَىٰ مِـنْ خُضُـوعٍ إِنَّ تَحْـتَ ٱلضُّلُـوعِ دَاءً دَوِيَّـا
بَطَّنَ ٱلْبُغْضَ فِي ٱلْقَدِيمِ فَـأَضْحَىٰ ثَـابِتـاً فِـي قُلُـوبِهِـمْ مَطْـوِيَّـا
فَضَـعِ ٱلسَّيْـفَ وَٱرْفَـعِ ٱلصَّـوْتَ حَتَّـى لاَ تَـرَىٰ فَـوْقَ ظَهْـرِهَـا أُمَـوِيَّـا

فقام أبو العباس ودخل ، وإذا المنديل قد أُلقي في عنق سليمان ، ثم جُرَّ فذُبح[3] .

ودخل شبل بن عبد الله علىٰ عبد الله بن محمد بن علي[4] بن عبد الله بن عباس بعد

---

(١) البيتان لسديف إسماعيل بن ميمون ، وهما في « عيون الأخبار » (١/٢٠٨) ، و« العقد الفريد » (٤/٤٥٣) .

(٢) القصة بتمامها في « غرر الخصائص » (ص٧٤) ، وأصلها في « الأغاني » (٤/٣٤٤) ، و« الكامل » للمبرد (٣/١٣٦٦) ، و« العقد الفريد » (٤/٤٥٣) ، و« الكامل في التاريخ » (٥/٢٢) ، وأبو الغمر : هو سليمان بن هشام بن عبد الملك ، ووقع في الأصل : (الغمر) ، والتصويب من المصادر ، وسُديف : هو إسماعيل بن ميمون مولىٰ أبي العباس ، سمي سُديفاً للونه ، تشبيهاً بالسُّدفة ، وهي الظلمة ، كان شاعراً مفلقاً ، وأديباً بارعاً ، مطبوع الشعر حسنه ، ثم جعل يطعن بالمنصور فقتله ، انظر « الوافي بالوفيات » (١٥/١٢٥) ، وأبو العباس السفاح : هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس أول من ولي الخلافة من بني العباس ، وذلك سنة (١٣٢هـ) .

(٣) القصة مع الأبيات بتمامها في « غرر الخصائص » (ص٢٦٩) ، وعدا البيت الثاني في « الأغاني » (٤/٣٤٢) ، و« الحماسة البصرية » (١/٩٢) ، والبيتان الثالث والخامس في « عيون الأخبار » (١/٢٠٨) ، و« العقد الفريد » (٤/٤٥٥) ، و« محاضرات الأدباء » (١/٣٠٤) ، وقوله : (وصي الشهيد) يريد سيدنا الحسين بن علي رضي الله تعالىٰ عنهما .

(٤) في الأصل : (عبد الله بن علي) ، وهو عم أبي العباس السفاح ، والمثبت عبد الله بن محمد بن علي وهو أبو العباس السفاح موافق لـ« الغرر » (ص٢٧٨) ، و« الكامل » (٣/١٣٦٧) ، و« العقد الفريد » (٤/٤٥٤) .

ما ولي الخلافة ، ووليها وهو ٱبن أربع وعشرين سنة في ربيع الآخر سنة ثنتين وثلاثين ومئة وعنده مئتا رجل من بني أمية وهم جلوس معه على المائدة فقام إليه وأنشد : [من الخفيف]

أَصْبَحَ ٱلْمُلْكُ ثَابِتَ ٱلآسَاسِ ... بِٱلْبَهَالِيلِ مِنْ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ

طَلَبُوا وَتْرَ هَاشِمٍ فَشَفَوْهَا ... بَعْدَ مَيْلٍ مِنَ ٱلزَّمَانِ وَيَاسِ[1]

يَا كَرِيمَ ٱلْمُطَهَّرِينَ مِنَ ٱلرِّجْـ ... ـسِ وَيَا رَأْسَ كُلِّ طَوْدٍ وَرَاسِ

لاَ تُقِيلَنَّ عَبْدَ شَمْسٍ عِثَارًا ... وَٱقْطَعَنْ كُلَّ رَقْلَةٍ وَأَوَاسِي

ذُلُّهَا أَظْهَرَ ٱلتَّوَدُّدَ مِنْهَا ... وَبِهَا مِنْكُمُ كَحَزِّ ٱلْمَوَاسِي[2]

وَلَقَدْ غَاظَنِي وَغَاظَ سَوَائِي ... قُرْبُهُمْ مِنْ نَمَارِقٍ وَكَرَاسِي

أَنْزِلُوهَا بِحَيْثُ أَنْزَلَهَا ٱللَّـ ... ـهُ بِدَارِ ٱلْهَوَانِ وَٱلإِتْعَاسِ

وَٱذْكُرُوا مَصْرَعَ ٱلْحُسَيْنِ وَزَيْدٍ ... وَقَتِيلاً بِجَانِبِ ٱلْمِهْرَاسِ[3]

فأمر بهم عبد الله فشدخوا وبسطت البسط عليهم وجلس عليها ، ودعا بالطعام ، وإنَّه ليسمع أنينهم وعويلهم ، فلمَّا فرغ مِنْ طعامه . . قال : ما أكلت أكلة هي أهنأ ولا أمرأ ولا أطيب في نفسي مِنْ هـٰذه ، ثمَّ خرج في طلب بني أميَّة في أقطار الأرض ، إن وجد حياً . . قتله ، وإن وجد قبراً . . نبشه وأحرق مَنْ فيه ، حتَّىٰ أتىٰ دمشقَ ، فدخلها وقتل في جامعها يوم جمعة في شهر رمضان خمسين ألفاً مِنْ بني أمية ومواليهم كانوا قدِ ٱستجاروا بالجامع ، فلم يُجرهم .

ولمَّا وصل إلى الرُّصافة . . أَخرج هشاماً مِنْ قبره ، فضربه مئةً وعشرينَ سوطاً حتَّىٰ تناثر لحمه ، وقال : إنَّه ضرب أبي ستين سوطاً ظلماً .

---

(١) في الأصل : (وباس) ، وكذا في « العقد الفريد » (٤/ ٤٥٥) ، وغيره .

(٢) في الأصل : (كحدِّ المواسي) .

(٣) القصة مع الأبيات بتمامها في « غرر الخصائص » (ص٢٧٨) ، وهي عدا البيت الثالث في « الكامل » للمبرد (٣/ ١٣٦٧) ، و« الكامل في التاريخ » (٥/ ٢٢) ، وقائلها هو شبل بن عبد الله مولىٰ بني هاشم ، وقد نسبت إلىٰ سديف إسماعيل بن ميمون ، ذكرت منسوبة إليه عدا البيت الثاني في « الأغاني » (٤/ ٣٣٩) ، و« الحماسة البصرية » (١/ ٩١) ، والصواب : أنها لشبل بن عبد الله ، قالها لأبي العباس السفاح لا لعمه ، كما رجحه ابن رشيق في « العمدة » (١/ ٨٤) .

وقوله : (**وأذكروا مصرع الحسين**) أي : الحسين بن عليٍّ رضي الله تعالىٰ عنهما حين قتله اليزيد بن معاويةَ ، وقصَّته مشهورة .

وقوله : (**وزيد**) **حاصل قصَّته** : أنَّ الإمام زيداً رضي الله تعالىٰ عنه[1] ظهر في سنة أثنين وعشرين ومئة بالكوفة ، فأرسل هشام بن عبد الملك إلىٰ محاربته يوسفَ بنَ عمرَ الثقفيَّ ؛ فلمَّا قامتِ الحرب بينهم علىٰ ساقها . أنهزم أصحاب زيد ، وبقي في جماعة يسيرة ، فقاتل أشدَّ القتال ، ولم يزل يقاتل حتَّىٰ أصابه سهمٌ في جبهته ، فمات منه ليلاً ، فدفنه أصحابه ، ثمَّ دُلَّ يوسفُ علىٰ قبره ، فأخرجه وقطع رأسَه ، وأرسله إلىٰ دمشق ، فعُلِّق رأسه وصلبت جُثَّته عارية ، فتدلَّت سُرَّته حتَّىٰ سترت سوأتَهُ ، وقيل : إنَّ العنكبوت نسجت عليه حتَّىٰ سترت عورتَهُ ، وذلك في السنة التي ظهر فيها ، ولم يزل كذلك إلىٰ أيَّام الوليد ابن عبد الملك ، فأمر بحرقها ، فأحرقت ، ومات هشام سنةَ خمس وعشرين ومئة في ربيع الأوَّل وله مِنَ العمر ستٌّ وخمسون سنةً ، وكانت مدَّة خلافته تسع عشرة سنة وعشرة أشهر وأيَّاماً .

وقوله : (**وقتيلاً بجانب المهراس**) المراد به : حمزة بن عبد المطلب سيِّد الشهداء رضي الله تعالىٰ عنه ، وإنَّما نَسَب قتلَهُ لبني أمية ؛ لأنَّ أبا سفيان رضي الله عنه قاد الجيوش يوم أحد لقتال المسلمين ، **والمهراس** : ماء بأحد ، قاله في « غرر الخصائص »[2] .

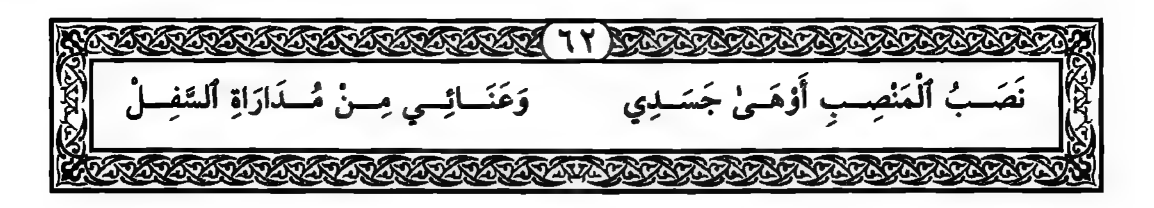
* * *

---

(١) هو الإمام زيد بن زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، كان وفد علىٰ هشام بن عبد الملك فوجد منه جفوة ، فكانت سبب خروجه وطلبه للخلافة ، فسار إلى الكوفة ، فقام إليه منها شيعة فخرجوا معه ، إلىٰ أن ظفر به يوسف بن عمر الثقفي . انظر « السير » (٥/٣٨٩) ، و« الوافي بالوفيات » (١٥/٣٣) .

(٢) « غرر الخصائص » (ص٢٧٨ـ ٢٧٩) ، وتتميماً للفائدة نذكر معاني المفردات في الأبيات التي مرت إضافة إلىٰ ما ذكره المصنف رحمه الله تعالىٰ فنقول : قوله : (الآساس) جمع : أُس ؛ وهو أصل البناء ، وقوله : (البهاليل) جمع : بهلول ؛ وهو الضَّحَّاك والسيد الجامع لكل خير ، وقوله : (ياس) أي : يأس ، وتروىٰ : (بأس) ، والرقلة : النخلة الطويلة ، والأواسي : ياؤه مشددة في الأصل ، وتخفيفها يجوز ، وإن لم يجز في الكلام . . لجاز في الشعر ؛ لأن القافية تقطعه ، وكل مثقل فتخفيفه في القوافي جائز ، والآسية : واحدة الأواسي ؛ وهي أصل البناء بمنزلة الأساس ، وقوله : (وغاظ سَوائي) أي : سواي ، وتقول : (سَواء) بالهمز إذا فتحت السين ، وإذا كسرتها . . قصرت فتقول : (سِوىٰ) . ويجوز سُواء وسُوىً بالضم .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



النَّصَب ـ بفتح النون والصاد المهملة ـ : التعب والإعياء ، **والمَنْصِب** ـ بفتح الميم وكسر الصاد ، وزان : مَسْجِد ـ : العُلُوُّ والرِّفعة .

وقوله : (**أوهىٰ جسدي**) أي : أضعفه ، فهو يتعدَّىٰ بالهمزة كما هنا .

وقوله : (**وعنائي**) بفتح العين والمد ؛ أي : تعبي وارتكابي ما يشقُّ عليَّ .

وقوله : (**مِن مداراة**) أي : ملاطفة وملاينة (**السفل**) أي : الأراذل[1] ، وهـٰذا التقرير كله مستفاد مِنَ « المصباح » .

وقوله : (**نصب**) مبتدأ ، وجملة : (**أوهىٰ جسدي**) خبره ، وقوله : (**وعنائي**) مبتدأ ، خبره الجار والمجرور بعده ، أو خبره محذوف لدلالة ما قبله عليه ؛ أي : أوهىٰ جسدي أيضاً ، وفي بعض النسخ : (**جلدي**) أي : تجلُّدي وتصبُّري .

تَتِمَّة

[في حد وضابط السفلة]

سئل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما عن السَّفِلة فقال : (هم الذين ليس لهم فعل موصوف ، ولا نسب معروف)[2] ، ولذلك قال بعضهم : شهادات الأفعال أصدق من شهادات الرجال[3] .

---

(١) لأن السافل ؛ وهو الخسيس ، جمعه : سُفَّل ، وسَفِلَة ، وسِفْلَة ، وسِفِلَة ، ويقال لأسفل السُّفَّل أيضاً : سَفِلَة ، وجمع السَّفِلة : سَفِل . اهـ « التاج » ، فيكون السَّفِل جمعٌ مفردُهُ : سَفِلَة .

(٢) « محاضرات الأدباء » (١/ ٣٧٥) ، و« غرر الخصائص » (ص٣٧) .

(٣) « غرر الخصائص » (ص٣٧) .

وقال الأصمعي : (السُّفَّل : هم الذين لا يبالون بما قالوا أو قيل فيهم)[١] .

وقال يحيى بن أكثم : (هم الذين لا يعيبهم ما صنعوا)[٢] .

وسمع الأحنف رجلاً يقول : لا أبالي مدحت أو ذممت ، فقال : يا هٰذا ؛ آسترحتَ مِنْ حيث تعب الكرامُ[٣] .

وقال بعضهم : هم الذين يكافئون على الفعل الحسن بالقبيح ، كما يحكىٰ : أنَّ رجلاً يقال له : هَمَّام بن مُرَّة أخذ شخصاً يقال له : ناشرة مِنْ أمِّه لمَّا مات أبوه وضاقت بتربيته ذرعاً ، فربَّاه هَمَّام وأحسن إليه ؛ فلمَّا بلغ ناشرة الحلم . . أتىٰ شيئاً قبيحاً ، فنهاه عنه ، فتركه حتَّىٰ نام وآغتاله ؛ أي : قتله ، فصار مثلاً في العرب ؛ تقول : (أَكْفَرُ مِنْ نَاشِرة)[٤] .

وحكي : أنَّه أغار مالك بن خيثمة الجعفي علىٰ بني القَيْن[٥] ، فآستاق منهم إبلاً ، فأطلقوا خلفه الأعنَّة ليطلقوها منه ، فلم يقدروا عليه ، ولا وصلوا إليه ، ثمَّ إنَّه تذكر يداً كانت لبعضهم عنده ، فخلَّىٰ ما كان في يده وولَّىٰ منصرفاً ، فنادَوه وقالوا : إنَّ أمامك مفازة ولا ماء معك وقد فعلت جميلاً فانزل ولك الذِّمام والحِبَاء[٦] ، فنزل ، فلمَّا آطمأنَّ وسكن . . أخذته سِنَة فنام ، فوثبوا عليه وقتلوه غدراً ، فهٰذا شأن الأسافل .

وقد ورد في الحديث : أنَّه صلى الله عليه وسلم قال : « إِذَا جَمَعَ ٱللهُ ٱلأَوَّلِينَ وَٱلآخِرِينَ . . رَفَعَ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءً ، وَقِيلَ : هَـٰذِهِ غَدْرَةُ فُلاَنٍ »[٧] .

وذكر : أنَّ عيسىٰ عليه الصلاة والسلام مرَّ بإنسان يطارد حيَّة وهي تقول : والله ؛ لئن لم

---

(١) « محاضرات الأدباء » (١/ ٣٧٥) ، و« غرر الخصائص » (ص٣٧) .

(٢) « محاضرات الأدباء » (١/ ٣٧٥) ، و« غرر الخصائص » (ص٣٧) .

(٣) « غرر الخصائص » (ص٣٧) .

(٤) انظر « الأغاني » (٥/ ٥٠) ، و« جمهرة الأمثال » (٢/ ١٧٦) ، و« مجمع الأمثال » (٣/ ٨٨) ، و« المستقصىٰ في أمثال العرب » (١/ ٢٩٦) ، وفي ناشرة هٰذا قال الشاعر : [من الطويل]

لقد عيَّل الأيتام طعنةُ ناشره أناشر لا زالت يمينك آشره

وآشرة : أي : مأشورة مقطوعة بالمنشار ، نتيجة لفعلك القبيح مقابل الإحسان إليك .

(٥) في « غرر الخصائص » (ص٣٨) ، و« نهاية الأرب » (٣/ ٣٦٧) : (خيثمة بن مالك الجعفي) .

(٦) الذمام : جمع : ذمة ؛ وهي العهد ، والحِباء : العطاء .

(٧) أخرجه مسلم (١٧٣٥) ، وأحمد (٢/ ٢٩) ، وبنحوه البخاري (٦١٧٧) .

تذهب عنِّي . . لأَنفُخنَّ عليك نفخةً أقطعك بها قطعاً ، فمضىٰ عيسىٰ وعاد ، فوجد الحيَّة في يد الرجل محبوسةً ، فقال لها : ويحك أين ما كنت تقولين ؟ قالت : يا روح الله ؛ إنَّه حلف لي وغدَر ، وإنَّ سُمَّ غدره أقتل له مِنْ سُمِّي[1] .

وقال عليٌّ كرَّم الله وجهه : (الوفاء بأهل الغدر غدر ، والغدر بأهل الغدر وفاء)[2] .

وقالوا : الغدر يصلح في كثير مِنَ المواطِن ، ولا غدر لغادر ولا خائن ، قاله في « غرر الخصائص »[3] .

* * *

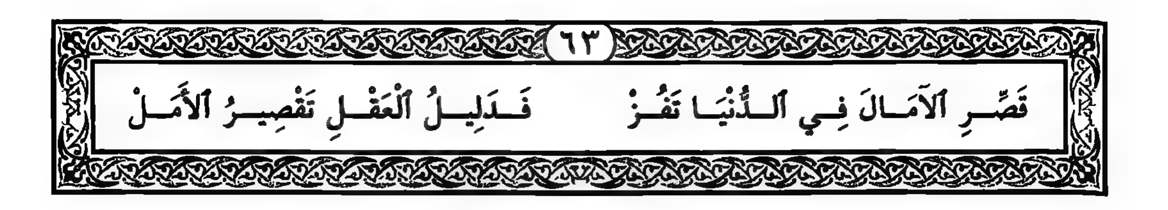
---

(١) « غرر الخصائص » (ص٣٩) ، و« نهاية الأرب » (٣/ ٣٦٥) .

(٢) « ربيع الأبرار » (٤/ ٢٧١) ، و« غرر الخصائص » (٣٩) .

(٣) « غرر الخصائص » (ص٣٩) .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



أي : قصر آمالك في طلب الدنيا ؛ فإنَّك إن فعلت ذلك . . فزتَ ـ أي : ظفرت بكل خير ـ وٱستدللنا علىٰ كمال عقلك ؛ لأنَّ تقصير الأمل دليل علىٰ كمال العقل[1] ، فسبيل العاقل تقصيرُ آماله في الدنيا ، والتقرُّبُ إلى الله سبحانه وتعالىٰ بصالح الأعمال ، ولهٰذا قال بعضهم : قِصَرُ الأمل سبب للزهد[2] ؛ لأنَّ مَنْ قَصُرَ أمله . . زهد .

ويتولَّد مِنْ طول الأمل : الكسل عنِ الطاعة ، والتسويف بالتوبة ، والرغبة في الدنيا ، والنسيان للآخرة ، والقسوة في القلب .

وقيل : مَنْ قَصُرَ أملُهُ . . قلَّ همُّهُ وتنوَّر قلبُه ؛ لأنَّه إذا ٱستحضر الموت . . ٱجتهد في الطاعة ، ورضي بالقليل[3] .

وقال ابن الجوزي : الأمل مذموم إلاَّ للعلماء ، فلولا أملهم . . لَمَا ألَّفوا ولا صنَّفوا[4] .

وفي الأمل سرٌّ لطيف ؛ لأنَّه لولا الأمل . . لَمَا تهنَّأ أحد بعيش ، ولا طابت نفسه أن يشرع في عمل مِنْ أعمال الدنيا[5] .

قال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّمَا ٱلأَمَلُ رَحْمَةٌ مِنَ ٱللهِ لِأُمَّتِي ، وَلَوْلاَ ٱلأَمَلُ . . مَا أَرْضَعَتْ

---

(١) قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالىٰ : لو أوصىٰ رجل بماله لأعقل الناس . . صرف للزهاد في الدنيا ؛ لأنهم أعقل الناس .

(٢) أخرج نحوه من قول سفيان رحمه الله تعالىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٦/٣٨٦) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (١٦٠) ، والأمل : هو رجاء ما تحبُّه النفس ؛ من طول عمر ، وصحة ، وزيادة غنىً ، ونحو ذلك .

(٣) « فتح الباري » (١١/٢٣٧) ، و« فيض القدير » (٤/٢٢٩) .

(٤) ذكره في « فتح الباري » (١١/٢٣٧) ، والسيوطي في « شرح ابن ماجه » (١/٣١٢) ، وقال : (لا حاجة لهٰذا الاستثناء ؛ لأن المذموم طول الأمل علىٰ سبيل الجزم ، وأما بطريق الظن . . فلا) .

(٥) « فتح الباري » (١١/٢٣٧) .

أُمٌّ وَلَدَهَا ، وَلاَ غَرَسَ غَارِسٌ شَجَراً » رواه الخطيب عن أنس رضي الله تعالىٰ عنه[١] .

والمذموم مِنَ الأمل : الاسترسال فيه ، وعدم الاستعداد لأمر الآخرة ، فمَنْ سلم مِنْ ذلك . . لم يُكلَّف بإزالته .

وورد في ذمِّ الاسترسال في الأمل حديث أنس رفعه : « أَرْبَعَةٌ مِنَ ٱلشَّقَاءِ : جُمُودُ ٱلْعَيْنِ، وَقَسْوَةُ ٱلْقَلْبِ، وَطُولُ ٱلأَمَلِ، وَٱلْحِرْصُ عَلَى ٱلدُّنْيَا» رواه البزار[٢] قاله في «فتح الباري»[٣] .

وقال في « تنبيه الغافلين » : (روي عن قتادة ، عن أنس ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « يَهْرَمُ ٱبْنُ آدَمَ وَتَشِبُّ مِنْهُ ٱثْنَتَانِ : ٱلْحِرْصُ ، وَٱلأَمَلُ »[٤] .

وروي عن عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنَّه قال : أخوف ما أخاف عليكم اثنان : طول الأمل ، واتِّباع الهوىٰ ؛ فإنَّ طول الأمل يُنسي الآخرة ، واتِّباع الهوىٰ يَصُدُّ عنِ الحقِّ[٥] .

وروي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « صَلاَحُ هَـٰذِهِ ٱلأُمَّةِ بِٱلزُّهْدِ وَٱلْيَقِينِ ، وَهَلاَكُ آخِرِهَا بِٱلْبُخْلِ وَطُولِ ٱلأَمَلِ »[٦]) اهـ[٧]

واعلم : أنَّ السبب في تقصير الأمل وعدم الاسترسال فيه هو تذكُّر الموت والقبر والثواب والعقاب وأهوال القيامة ، قال صلى الله عليه وسلم : « أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ ٱللَّذَّاتِ ؛ فَإِنَّهُ مَا ذُكِرَ فِي قَلِيلٍ إِلاَّ كَثَّرَهُ ، وَلاَ فِي كَثِيرٍ إِلاَّ قَلَّلَهُ »[٨] أي : ما ذكر في قليل مِنَ العمل الصالح إلاَّ كثَّر ثوابه ، ولا في كثير مِنَ الأمل إلاَّ قلَّله .

---

(١) أخرجه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٢/ ٥٠) .
(٢) أخرجه البزار في « مسنده » كما في « مجمع الزوائد » (١٠/ ٢٢٩) .
(٣) « فتح الباري » (١١/ ٢٣٧) .
(٤) أخرجه مسلم (١٠٤٧) ، وابن حبان (٣٢٢٩) ، والترمذي (٢٤٥٥) .
(٥) أخرجه البيهقي في « الشعب » (١٠١٣٠) ، و« الزهد الكبير » (٤٦٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٧٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٢/ ٤٩٤) .
(٦) أخرجه البيهقي في « الشعب » (١٠٠٤٦) ، والطبراني في « الأوسط » (٧٦٤٦) ، وأحمد في « الزهد » (٥٢) .
(٧) « تنبيه الغافلين » (ص٢٢٢ـ٢٢٧) .
(٨) أخرجه البيهقي في « الشعب » (١٠٠٧٤) ، والطبراني في « الأوسط » (٥٧٧٦) ، وأخرج شطره الأول فقط ابن حبان (٢٩٩٢) وما بعده ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٢١) ، والترمذي (٢٣٠٧) .

وعنِ ٱبن عمر رضي الله تعالىٰ عنهما قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم عاشر عشرة ، فقال رجل مِنَ الأنصار : يا رسول الله ؛ مَنْ أكيسُ الناس ؟ قال : « أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْراً وَأَحْسَنُهُمْ لَهُ ٱسْتِعْدَاداً ، أُوْلَئِكَ ٱلأَكْيَاسُ »[1] .

ويروىٰ : أنَّ ٱمرأة شكت إلىٰ عائشة رضي الله تعالىٰ عنها قساوة في قلبها ، فقالت لها : أكثري مِنْ ذكر الموت ، ففعلت ذلك ، فرقَّ قلبُها .

وقال عبد الله بن عتبة : عدت رجلاً مريضاً ، فلمَّا قعدت عنده . . قلت : كيف تجدك ؟ فأنشد يقول : [من الطويل]

خَرَجْتُ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَقَامَتْ قِيَامَتِي ... غَـدَاةَ أَقَـلَّ ٱلْحَـامِلُـونَ جَنَـازَتِـي
وَعَجَّـلَ أَهْلِـي حَفْـرَ قَبْـرِي وَصَيَّـرُوا ... خُـرُوجِـي وَتَعْجِيلِـي إِلَيْـهِ كَـرَامَتِـي
كَـأَنَّهُـمُ لَـمْ يَعْـرِفُـوا قَـطُّ صُـورَتِـي ... غَـدَاةَ أَتَـىٰ يَـوْمِـي عَلَـيَّ وَسَـاعَتِـي[2]

وقال ثابت البُنانيُّ رحمه الله تعالىٰ : (دخلت المقابر لأزور القبور ، وأعتبر بالموتىٰ ، وأتفكَّر في البعث والنشور ، وأعظ نفسي لعلها ترجع عنِ الغيِّ والغرور ، فوجدت أهل القبور صموتاً لا يتكلمون ، وفرادىٰ لا يتزاورون ، فأَيِسْتُ مِنْ مقالهم ، وٱعتبرت بأحوالهم ؛ فلمَّا أردت الخروج . . إذ أبصرتُ مَنْ يقول : يا ثابت ؛ لا يغرنَّك صموت أهلها ؛ فكم فيها مِنْ نَفْسٍ معذَّبةٍ أو منعَّمةٍ)[3] .

ويروىٰ : أنَّ بعض المتعبِّدين أتىٰ قبر صاحب له كان يألفُهُ ، فوقف عند رأسه وأنشد يقول : [من الكامل]

مَـا لِـي مَـرَرْتُ عَلَـى ٱلْقُبُـورِ مُسَلِّمـاً ... قَبْـرَ ٱلْحَبِيـبِ فَلَـمْ يَـرُدَّ جَـوَابِـي
أَحَبِيـبُ مَـا لَـكَ لاَ تُجِيـبُ مُنَـادِيـاً ... أَمَلَلْـتَ بَعْـدِي خُلَّـةَ ٱلأَصْحَـابِ[4]

---

(1) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٦٢٧) ، و« الزهد الكبير » (٤٥٦) ، والطبراني في « الكبير » (٣١٨/١٢) ، و« الأوسط » (٦٤٨٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣١٣/١) .

(2) الأبيات في « الروض الفائق » (ص٣٠) .

(3) انظر « إحياء علوم الدين » (٤٨٦/٤) ، و« الروض الفائق » (ص٣١) .

(4) وبعده :

لـو كـان ينطـق بـالجـواب لقـال لـي ... أكـل التـراب محـاسنـي وشبـابـي

قال : فهتف بي هاتف مِنْ جانب القبرِ يقول : [من الكامل]

قَالَ ٱلْحَبِيبُ وَكَيْفَ لِي بِجَوَابِكُمْ ... وَأَنَا رَهِينُ جَنَادِلٍ وَتُرَابِ
أَكَلَ ٱلتُّرَابُ مَحَاسِنِي فَنَسِيتُكُمْ ... وَحُجِبْتُ عَنْ أَهْلِي وَعَنْ أَصْحَابِي
وَتَمَزَّقَتْ تِلْكَ ٱلْجُلُودُ صَفَائِحاً ... يَا طَالَمَا لَبِسَتْ رَفِيعَ ثِيَابِ
وَتَسَاقَطَتْ تِلْكَ ٱلأَنَامِلُ مِنْ يَدِي ... مَا كَانَ أَحْسَنَهَا لِخَطِّ كِتَابِ
وَتَسَاقَطَتْ تِلْكَ ٱلثَّنَايَا لُؤْلُؤاً ... مَا كَانَ أَحْسَنَهَا لِرَدِّ جَوَابِ
وَتَسَاقَطَتْ تِلْكَ ٱلْعُيُونُ عَلَى ٱلثَّرَىٰ ... يَا طَالَمَا نَظَرَتْ بِهِمْ أَحْبَابِي(١)

وقيل : مرَّ داوود الطائيُّ بامرأة تبكي عند قبر وهي تنشد وتقول : [من المتقارب]

عَدِمْتُ ٱلْحَيَاةَ فَلاَ نِلْتُهَا ... إِذَا أَنْتَ فِي ٱلْقَبْرِ قَدْ أَوْسَدُوكَا
وَكَيْفَ أَلَذُّ بِطَعْمِ ٱلْكَرَىٰ ... وَهَا أَنْتَ فِي ٱلْقَبْرِ قَدْ أَفْرَدُوكَا

ثمَّ قالت : يا أبتاه ؛ بأيِّ خدٍّ بدأ الدود أوّلاً ، فخرَّ داوود مغشياً عليه مِنْ كلامها(٢) .

وقال مالك بن دينار : أتيتُ القبور علىٰ سبيل الزيارة والتذكار والتفكُّر في الموت والاعتبار ، فتمنَّيت مَنْ يخبرني عنهم خبراً ، أو يقصُّ لي مِنْ آثارهم أثراً ، فقلت شعراً : [من المتقارب]

أَتَيْتُ ٱلْقُبُورَ فَنَادَيْتُهَا ... فَأَيْنَ ٱلْمُعَظَّمُ وَٱلْمُحْتَقَرْ
وَأَيْنَ ٱلْمُدِلُّ بِسُلْطَانِهِ ... وَأَيْنَ ٱلْعَزِيزُ إِذَا مَا ٱفْتَخَرْ

قال : فنوديتُ مِنْ بين القبور : [من المتقارب]

تَفَانَوْا جَمِيعاً فَلاَ مُخْبِرٌ ... وَمَاتُوا جَمِيعاً وَأَضْحَوْا عِبَرْ
وَسَارُوا إِلَىٰ مَلِكٍ عَادِلٍ ... عَزِيزٍ مُطَاعٍ إِذَا مَا أَمَرْ

---

(١) الأبيات في « الروض الفائق » (ص٣٠) ، وبعد البيت الثاني :

فعليكمُ مني السلامُ تقطَّعتْ ... عنِّي وعنكم خُلَّةُ الأصحاب

ووقع في البيت الأخير : (وتساقطت فوق الخدود نواظري) ، وتنسب الأبيات لسيدنا علي رضي الله عنه في « ديوانه » (ص٥٢) .

(٢) البيتان من غير نسبة في « عيون الأخبار » (٢/٣٠٢) ، و« إحياء علوم الدين » (٤/٤٨٧) ، و« العاقبة في ذكر الموت » (ص١٩٩) ، و« الروض الفائق » (ص٣١) .

فَيَـا سَـائِلِـي عَـنْ أُنَـاسٍ مَضَـوْا أَمَـا لَـكَ فِيمَـنْ مَضَـىٰ مُعْتَبَـرْ

قال مالك : فرجعتُ أبكي بالدموع الغِزار ، وٱعتبرت بذلك أيَّ ٱعتبار[1] .

وقال الأصمعي : كنت كثير التفكُّر في القبور ، وأتسلَّىٰ بقراءة الكتابة التي عليها ، فرأيتُ قبوراً علىٰ صفٍّ ، وعليها لوحٌ مكتوب عليه هـٰذان البيتان : [من المتقارب]

أَلاَ قُـلْ لِمَـاشٍ عَلَـىٰ قَبْـرِنَـا غَفُـولٍ بِـأَشْيَـاءَ حَلَّـتْ بِنَـا
سَيَنْـدَمُ يَـوْمـاً لِتَفْـرِيطِـهِ كَمَـا قَـدْ نَـدِمْنَـا لِتَفْـرِيطِنَـا[2]

وما أحسن ما قال بعضهم : [من البسيط]

أَلْمَـوْتُ لاَ بُـدَّ مِنْـهُ فَـٱسْتَعِـدَّ لَـهُ إِنَّ ٱللَّبِيبَ بِـذِكْـرِ ٱلْمَـوْتِ مَشْغُـولُ
فَكَيْـفَ يَلْهُـو بِعَيْـشٍ أَوْ يَلَـذُّ بِـهِ مَـنِ ٱلتُّرَابُ عَلَـىٰ خَـدَّيْـهِ مَجْعُـولُ[3]

وهـٰذا قريبٌ مِنْ قول الناظم [الآتي] .

* * *

---

(1) القصة مع الأبيات في « عيون الأخبار » (٢/٣٠٢) ، و« إحياء علوم الدين » (٤/٤٨٧) ، و« العاقبة في ذكر الموت » (ص٢٠٠) ، قال ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (٢/٣٠٣) : بلغني أنه قرىء علىٰ قبر بالشام : [من البسيط]

بـاتـوا علـىٰ قُلَـلِ الأجبـال تحـرُسُهـم غُلْـبُ الـرجـال فلـم تنفعهـمُ القُلَـلُ
وٱسْتُـنـزلـوا بعـد عـزٍّ مـن معـاقلهـم فـأُسكنـوا حفـرةً يـا بئـس مـا نـزلـوا
نـاداهـمُ صـارخٌ مـن بعـد مـا دفنـوا أيـن الأسـرة والتيجـان والحُلَـلُ
أيـن الـوجـوه التـي كـانـت محجبـةً مـن دونهـا تُضـرب الأستـار والكِلَـلُ
فـأفصـح القبـر عنهـم حيـن سـاءلهـم تلـك الـوجـوه عليهـا الـدودُ تقتتـلُ
قـد طـال مـا أكلـوا دهـراً ومـا نَعِمـوا فـأصبحـوا بعـد طـول الأكـل قـد أُكِلُـوا

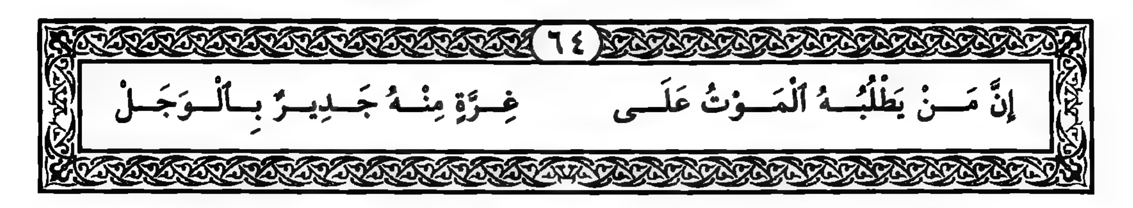
والقلل : جمع قلة ، قمةِ الجبل وأعلاه ، والكِلل : جمع كلة ، وهي الستر الرقيق .

(2) البيتان من غير نسبة في « الروض الفائق » (ص٣٣) ، وبعدهما :

فـويحـك كُـفَّ خِطـام الهـوى وقَـدِّمْ جميـلاً تَفُـزْ بـالمُنـى

(3) البيتان من غير نسبة في « بستان الواعظين » (ص١٤٤) .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



الغِرَّة ـ بكسر الغين المعجمة ـ : الغفلة ، وبضمِّها : تطلق علىٰ أوَّل الشهر وغيره ، وتطلق على الواجب في الجناية على الجنين[1] ، وتطلق على البياض الذي في الجبهة إذا كان فوق الدرهم ، ومنه الغُرَّة في الوضوء[2] ، أفاده في « المصباح » .

وفيه أيضاً : (وهو جديرٌ بكذا ؛ بمعنىٰ : خليق وحقيق) اهـ

وفيه أيضاً : (وَجِلَ وَجَلاً ، فهو وَجِلٌ ، والأنثىٰ وَجِلَةٌ ، مِنْ باب تعب : إذا خاف) اهـ

وهٰذا البيت كالتعليل للبيت الذي قبله ؛ أي : إنَّما أمرتك بتقصير الأمل في الدنيا ؛ لأنَّك منقول مِنْ هٰذه الدار قطعاً ، ولا تدري أين يكون الانتقال ، فاللائق بك الاستعداد للرحيل ، وعدم الركون إلى الدنيا .

قال بعضهم : مَنْ عَلِمَ أنَّ الموت نازل به ، وأيقن أنَّه في عسكر الموت . . استعد له بالأعمال الصالحة ما يدفع عنه بعض شِدَّته ؛ فإنَّه لا يدري متىٰ هو نازل به .

وقد بيَّن رسول الله صلى الله عليه وسلم شدَّة الموت لأمَّته ؛ لكي يستعدوا له ، ويصبروا علىٰ شدائد الدنيا التي هي أيسر وأخفُّ مِنْ معالجة الموت ، جعلنا الله وإيَّاكم ممَّن خافه وعمل له آمين .

وروي عن جابر بن عبد الله الأنصاريِّ : أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « تَحَدَّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ فِيهِمُ ٱلأَعَاجِيبُ » ، ثمَّ أَنشأَ يُحدِّث

---

(١) والغُرَّة : عبدٌ أو أمة ، كما فسرها النبي صلى الله عليه وسلم في جنين الهذلية عند البخاري (٥٧٦٠) ومسلم (١٦٨١) ، والغُرَّة في الأصل : أنفس الشيء ، ثم أطلقت على النسمة من الرقيق ، وسميت بذلك ؛ لأنها غُرَّة ما يملكه الإنسان ؛ أي : أفضلُه ، وغُرَّة كلِّ شيءٍ خِيارُهُ .

(٢) أخرج البخاري (١٣٦) ، ومسلم (٢٤٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنَّ أمتي يدعون يوم القيامة غُرّاً مُحجَّلين من آثار الوضوء ، فمن استطاع منكم أن يطيل غُرَّته . . فليفعل » .

فقال : « خَرَجَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَتَّىٰ أَتَوْا مَقْبُرَةً فَقَالُوا : لَوْ صَلَّيْنَا ثُمَّ دَعَوْنَا حَتَّىٰ يَخْرُجَ لَنَا بَعْضُ ٱلْمَوْتَىٰ فَيُخْبِرَنَا عَنِ ٱلْمَوْتِ ، فَصَلَّوْا ثُمَّ دَعَوْا رَبَّهُمْ ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَٰلِكَ إِذَا بِرَجُلٍ خَرَجَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْرِهِ بِرَأْسِهِ ، فَقَالَ : يَا هَؤُلَاءِ ؛ مَا أَرَدْتُمْ ؟ فَوَٱللهِ ؛ لَقَدْ مُتُّ مُنْذُ سَبْعِينَ سَنَةً ، وَإِنَّ مَرَارَةَ ٱلْمَوْتِ مَا ذَهَبَتْ مِنِّي إِلَى ٱلْآنَ ، وَكَانَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ أَثَرُ ٱلسُّجُودِ »[1] .

وعن الحسن : أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « شِدَّةُ ٱلْمَوْتِ وَكَرْبُهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِ أَشَدُّ مِنْ ثَلَاثِ مِئَةِ ضَرْبَةٍ بِٱلسَّيْفِ »[2] .

وروي عن عبد الله بن مسعود أنَّه قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ فقال : « إِذَا دَخَلَ ٱلنُّورُ فِي ٱلْقَلْبِ . انْفَسَحَ وَٱنْشَرَحَ » ، قيل : وهل لذلك مِنْ علامة ؟ قال : « نَعَمْ ؛ ٱلتَّجَافِي عَنْ دَارِ ٱلْغُرُورِ ، وَٱلْإِنَابَةُ إِلَىٰ دَارِ ٱلْخُلُودِ ، وَٱلِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ »[3] .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لكعب الأحبار : حدثني عن الموت ، فقال : كأنَّه غصن شوك أدخل في جوف رجل ، فأخذت كلُّ شوكة بعرق ، ثمَّ جذبها رجل شديد الجذب جذبة شديدة ، فقطع منها ما قطع ، وأبقىٰ ما أبقىٰ[4] .

وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « لَوْ عَلِمَتِ ٱلْبَهَائِمُ مَا تَعْلَمُونَ مِنَ ٱلْمَوْتِ . . مَا أَكَلْتُمْ مِنْهَا لَحْماً سَمِيناً أَبَداً »[5] .

وذكر : أنَّ عيسىٰ عليه السلام كان يحيي الموتىٰ بإذن الله ، فقال له بعض الكفرة : إنك تحيي جديدَ العهد بالموت ، ولعله لم يكن ميتاً ، فأحيِ لنا مَنْ مات في الزمن الأوَّل ، فقال لهم : ٱختاروا مَنْ شئتم ، فقالوا : أحيِ لنا سام بن نوح ، فجاء إلىٰ قبره ، وصلَّىٰ ركعتين ، ودعا الله تعالىٰ ، فأحيا الله تعالىٰ سام بن نوح فإذا برأسه ولحيته قدِ ٱبيضَّتا ، فقال له : ما هٰذا الشيب ؛ فإنَّ الشيب لم يكن في زمانك ؟ فقال : سمعت النداء ، فظننت أنَّها

---

(١) سبق تخريجه (ص١١٣) .

(٢) سبق تخريجه (ص١١٤) .

(٣) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٤/٣١١) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٦٨) ، و« الزهد الكبير » (٩٧٤) .

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٨/٣١٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/٣٦٥) .

(٥) سبق تخريجه (ص ١١٤) .

القيامة ، فشاب رأسي ولحيتي مِنَ الهيبة ، فقال له : منذ كم أنت ميت ؟ قال : منذ أربعة آلاف سنة ، فما ذهبت عنّي سكرات الموت[1]

وروي عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالىٰ عنه أنَّه قال : « ما مِنْ نَفْسٍ برَّةٍ ولا فاجرةٍ إلاَّ والموت خير لها ، فإن كان برّاً . . فقد قال الله تبارك وتعالىٰ : ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ ، وإن كان فاجراً . . فقد قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ »[2] .

وروي أيضاً عن [سعد] ابن مسعود[3] ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم : أنَّه سئل : أيُّ المؤمنين أفضل ؟ قال : « أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً » ، قيل : أيُّ المؤمنين أكيس ؟ قال : « أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْراً ، وأَحْسَنُهُمْ لَهُ ٱسْتِعْدَاداً »[4] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ٱلْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ ٱلْمَوْتِ ، وَٱلْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّىٰ عَلَى ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ ٱلْأَمَانِي »[5] يعني : المغفرة ، قاله في « تنبيه الغافلين »[6] .

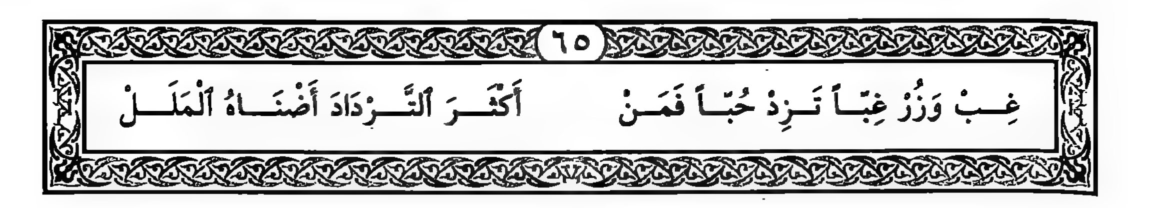
ولله درُّ الملاح حيث قال في « تخميسه » :

إِتَّقِ ٱللهَ وَقَصِّرْ أَمَلاَ ... وَٱرْضَ مِنْ رِزْقٍ بِمَهْمَا حَصَلاَ
لَيْسَ فِي ٱلدُّنْيَا خُلُودٌ لِلْمَلاَ ... إِنَّ مَنْ يَطْلُبُهُ ٱلْمَوْتُ عَلَىٰ
غِرَّةٍ مِنْهُ جَدِيرٌ بِٱلْوَجَلْ[7]

* * *

(١) سبق تخريجه (ص١١٤) .
(٢) سبق تخريجه (ص١١٥) .
(٣) في الأصل : (عبد الله بن مسعود) ، والتصويب من « الزهد » لابن المبارك (٢٧٢) ، و« تنبيه الغافلين » للسمرقندي (ص٤٥) .
(٤) أخرجه من حديث سعد بن مسعود رضي الله عنه ابن المبارك في « الزهد » (٢٧٢) ، وأبو بكر الشافعي في « الغيلانيات » كما في « الإصابة » (٢/٣٤) .
(٥) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (١/٥٧) و(٤/٢٥١) ، والترمذي (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) .
(٦) « تنبيه الغافلين » (ص٣٥ـ٤٥) .
(٧) « تخميس الملاح » (ص١٣) .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



٦٥

غِـبْ وَزُرْ غِبّـاً تَـزِدْ حُبّـاً فَمَـنْ أَكْثَـرَ ٱلتَّـرْدَادَ أَضْنَـاهُ ٱلْمَلَـلْ

أمر الناظم رحمه الله تعالىٰ بالغَيبة عنِ الناس ، فقوله : (غب) بكسر الغين المعجمة ؛ أي : اعتزل الناس ولا تخالطهم ، ثمَّ أمر بالزيارة لهم بقوله : (وزُرْ غِباً) بكسر الغين المعجمة ؛ أي : يوماً بعد يوم ، هـٰذا هو المراد بزيارة الغِبِّ ، ولكن المراد هنا : ألاَّ تغيب زمناً طويلاً بين الزيارتين ، ثمَّ علَّل الأمر بزيارة الغِبِّ بقوله : (فمَنْ أكثر التَّرْدَادَ) على الناس (أضناه الملل) أي : أمرضه مرضاً ملازماً ، والملل : السآمة والضجر .

وهـٰذا البيت مأخوذ مِنْ قوله صلى الله عليه وسلم : « زُرْ غِبّاً . . تَزْدَدْ حُبّاً »[1] ، وهـٰذا يختلف باختلاف الناس ؛ فبعضهم تُسنُّ زيارته كلَّ يوم ؛ بأن علمت أنَّك إذا غِبت عنه يوماً . . يشقُّ عليه ذلك ؛ وبعضهم يوماً بعد يوم ، وبعضهم بعد أسبوع ، إلىٰ غير ذلك .

فتستحبُّ زيارة الإخوان والعلماء والصلحاء علىٰ حسب ما يقتضيه الحال ؛ لأنَّ ذلك ممَّا يورث المحبَّة في القلوب مع حصول الثواب الجزيل ، ففي « الجامع الصغير » : (قال صلى الله عليه وسلم : « أَيُّ عَبْدٍ زَارَ أَخاً فِي ٱللهِ تَعَالَىٰ . . إِلاَّ نُودِيَ : أَنْ طِبْتَ وَطَابَتْ لَكَ ٱلْجَنَّةُ ») اهـ[2]

---

(١) أخرجه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٠/ ١٨٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٠٠٧) ، والبزار في « مسنده » (٣٩٦٣) .

وأنشد في معناه لعبد الملك بن جهور الوزير كما في « روضة العقلاء » (ص١١٦) ، و« بهجة المجالس » (١/ ٢٥٧) : [من الوافر]

وقـــد قـــال النبـــي وكـــان بـــرّاً إذا زرت الحبيـــب فـــزُرْهُ غِبّـــا

وأقلـــلْ زَوْرَ مَـــنْ تهـــواه تـــزددْ إلـــىٰ مَـــنْ زرتَـــهُ مِقـــةً وحُبّـــا

والمِقَةُ : المحبة وشدة الاشتياق .

(٢) « الجامع الصغير » (٣٠١٨) ، والحديث أخرجه الضياء في « المختارة » (٢٦٧٩) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٤١٤٠) ، والبزار كما في « مجمع الزوائد » (٨/ ١٧٦) .

وقال في « غرر الخصائص » ما نصُّه : (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ عَادَ مَرِيضاً أَوْ زَارَ أَخاً . نَادَىٰ مُنَادٍ : أَنْ طِبْتَ وَطَابَ مَمْشَاكَ وَتَبَوَّأْتَ مِنَ ٱلْجَنَّةِ مَنْزِلاً »[1] .

ولقد أحسن مَنْ قال : ٱمشِ ميلاً . . وعد مريضاً ، وٱمشِ ميلين . . وأصلح بين ٱثنين ، وٱمش ثلاثة أميال . . وزر أخاً في الله[2] .

وقال بعضهم : الإفراط في الزيارة مملٌّ ، والتفريط فيها مخلٌّ[3] .

وقالوا : ربَّما كان التقالي ـ أي : التباغض ـ في كثرة التلاقي .

وقالوا : قِلَّة الزيارة أمان مِنَ المَلاَل .

وقالوا : كثرة التعاهد سبب التباعد[4] .

ولقد أحسن بعضهم في قوله : [من الطويل]

عَلَيْـكَ بِـإِغْبَـابِ ٱلـزِّيَـارَةِ إِنَّهَـا ... إِذَا كَثُرَتْ صَارَتْ إِلَى ٱلْهَجْرِ مَسْلَكَا

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ ٱلْغَيْـثَ يُسْـأَمُ دَائِمـاً ... وَيُسْـأَلُ بِـٱلأَيْـدِي إِذَا هُـوَ أَمْسَكَـا[5]

ومما يكون سبباً للمحبَّة : عيادة المريض ؛ لخبر : « إِنَّ ٱلْمُسْلِمَ إِذَا عَادَ أَخَاهُ . . لَمْ يَزَلْ فِي حَدِيقَةِ ٱلْجَنَّةِ حَتَّىٰ يَرْجِعَ »، قيل: يا رسول الله؛ فما حديقة الجنَّة ؟ قال : « جَنَّاتُهَا »[6] .

وممَّا ينبغي لِلَّطيف الظريف في عيادة المريض : تخفيف السلام ، وتقليل الكلام ، وتعجيل القيام .

وحكي : أنَّ عمرو بن العلاء رضي الله تعالىٰ عنه مرض ، فعاده بعض الأصدقاء له ،

---

(١) أخرجه ابن حبان (٢٩٦١) ، والترمذي (٢٠٠٨) ، وابن ماجه (١٤٤٣) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الإخوان » (١٠١) عن مكحول مرسلاً ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٢٢٥) عن عطاء بن ميسرة ، وانظر « فيض القدير » (٢/ ١٩٥) .

(٣) « المستطرف » (١/ ٢٧٦) .

(٤) هو وسابقه في « محاضرات الأدباء » (٢/ ٣٩) .

(٥) البيتان لأبي بكر بن دريد كما في « جمهرة الأمثال » للعسكري (١/ ٥٠٥) ، وقد نسبهما أيضاً في « ديوان المعاني » (٢/ ٢٣٩) لمسلم بن الوليد ، ونسبهما المعافىٰ في « الجليس الصالح » (١/ ٥٢٢) للمبرد .

(٦) أخرجه مسلم (٢٥٦٨/ ٤٢) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٥٢١) ، والبيهقي في « السنن » (٣/ ٣٨٠) ، ووقع عندهم (مخرفة الجنة) بدل : (حديقة الجنة) ، و(جناها) بدل : (جناتها) .

فأبطأ عنده ، فقال : ما يبطئك ؟ قال : أريد أن أسامرك ، قال : أنت معافىً وأنا مبتلىً ، والعافية لا تدعك تسهر والبلاء لا يدعني أنام ، واللهَ أسأل أن يسوق لأهل العافية الشكرَ ، ولأهل البلاء الصبرَ .

وحكىٰ سلمة قال : دخلت على الفرّاء أعوده ، فأطلت وألحفت في السؤال ، فقال : ٱدْنُ ، فدنوت ، فأنشدني : [من البسيط]

حَقُّ ٱلْعِيَادَةِ يَوْمٌ بَعْدَ يَوْمَيْنِ وَلَحْظَةٌ مِثْلَ لَحْظِ ٱلْعَيْنِ بِٱلْعَيْنِ[1]

ويكفي في أدب العيادة ما يحكىٰ : أنَّ الفضل بن يحيى اعتلَّ ، فكان إسماعيل بن صبيح يعوده ، فلا يزيد على السلام عليه والدعاء له ، ثمَّ ينصرف ، فيسأل الحاجب عن حاله ومأكله ومشربه ونومه ، وكان غيره يطيل الجلوس ، فلمَّا برىء الفضل قال : ما عادني في علتي هـٰذه غير ابن صبيح[2] .

وينبغي لمن عاد المريض أن يبشره ولا يكون كبعض البلداء ؛ كما حكي : أنَّه دخل حمصي علىٰ عروة بن الزبير يعوده لمَّا قُطعت رجلُه لِأَكِلَةٍ أصابتها ، فقال له : أَقُطِعتْ رجلُك ؟ قال : نعم ، قال : جيد ، ثم قال له : أَوَجَعُكَ شديدٌ ؟ قال : نعم ، قال : جيد ، ثمَّ قال : لا تغتمَّ ؛ فإنَّك لو رأيت ثوابها . . لتمنيت أنَّ الله قد قطع رجليك ويديك وأعمىٰ بصرك ودقَّ صلبك ، فكان مصاب عروة بعائده أكثر مِنْ مصابه بما قُطِعَ مِنْ جسده .

---

(١) سلمة : هو أبو محمد سلمة بن عاصم النحوي الإمام المتوفىٰ بعد (٢٧٠هـ) ، والفراء : هو أبو زكريا يحيى بن زياد الكوفي النحوي الإمام المتوفىٰ سنة (٢٠٧هـ) ، والقصة أخرجها البيهقي في « الشعب » (٨٧٩٠) ، وبعد البيت :

لا تُبْرِمَنَّ مريضاً في مُسَاءلةٍ يكفيكَ مِن ذاك تَسْآلٌ بحرفينِ

والبيتان لجعفر بن محمد ابن حذار الكاتب كما في « التمهيد » (٢٤/ ٢٧٧) ، و« بهجة المجالس » (١/ ٢٦٣) ، ونسبهما في « النور السافر » (ص٥٣) إلىٰ محمد بن أحمد بن أحمد بافضل السعدي الحضرمي ، وعارضهما كما في « الصلة » لابن بشكوال (١/ ٥٨) أحمد بن يحيىٰ أبو عمر ابن سُميق فقال : [من المجتث]

إذا لقيت عليلا فاقعد لديه قليلا
ولا تطوِّل عليه وقل مقالاً جميلا
وقم بفضلك عنه تكن حكيماً نبيلا

(٢) « العقد الفريد » (٢/ ١٠٤) .

وأين هـٰذا الجِلْفُ مِنْ عيسى بن طلحة بن عبيد الله ؛ فإنَّه دخل علىٰ عروة هـٰذا يعوده لمَّا قُطعت رجلُه ، فقال : والله ؛ ما كنَّا نعدُّك للصراع ولا للسباق ، ولكن نعدُّك للخير ونوالك المنساق ، ولئن أعدمنا الله أقلَّك . . لقد أبقىٰ لنا أكثرَك ؛ سمعك وبصرك ولسانك وعقلك ويديك وإحدىٰ رجليك ، فقال : يا عيسىٰ ؛ ما عزَّاني أحدٌ بمثل ما عزَّيتني به[1] .

ودخل رجل علىٰ مريض يشكو مِنْ رأسه ، فقال لأهله : لا ضير ، إذا رأيتم المريض هـٰكذا . . فاْغسلوا أيديكم منه .

وعاد آخر مريضاً فقال : ما بك ؟ قال : وجع الركبة ، فقال : إنَّ جريراً ذكر بيتاً ذهب عنِّي صدره وبقي عَجُزُه ، وهو : (وَلَيْسَ لِدَاءِ ٱلرُّكْبَتَيْنِ دَوَاءُ)[2] ، فقال المريض : ليت عَجُزَك ذهب كما ذهب صدره .

وعاد آخر مريضاً فقال لأهله : آجركم الله ورحم ميِّتكم ، فقالوا : إنَّه لم يمت بعد ، فقال : يموت إن شاء الله تعالىٰ .

وعاد آخر مريضاً ، فلمَّا خرج مِنْ عنده . . قال لأهله : لا تفعلوا في هـٰذا كما فعلتم في فلان ؛ مات وما أعلمتموني .

وعاد آخر مريضاً ، فلمَّا خرج . . قال لأهله : آجركم الله وأحسن عزاءكم ، فقالوا : إنَّه لم يمت ، قال : عرفتُ ، ولكنِّي شيخ كبير ، فلا أستطيع النهوض في كلِّ وقت ، وأخاف أن يموت فأعجز عن المجيء لأعزيكم به .

وعاد آخر مريضاً فقال : ما تشتكي ؟ قال : وجع الخاصرة ، قال : والله ؛ كانت علَّةَ أبي فمات منها ، فعليك بالوصية يا أخي ، فدعا المريض ولده فقال : يا بنيَّ ؛ أوصيك بهـٰذا ؛ لا تدعه يدخل عليَّ بعد هـٰذا) اهـ[3]

* * *

---

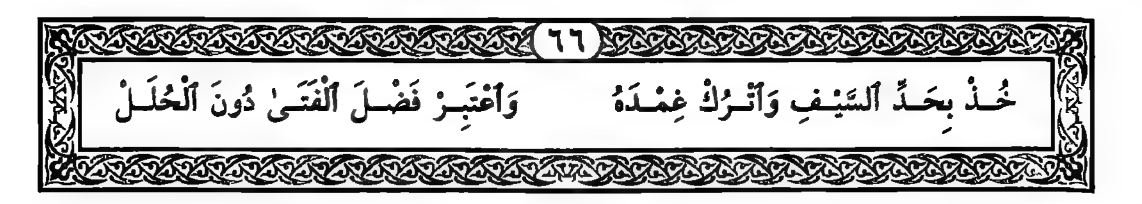
(١) أخرج القصة ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٠/ ٢٦٥) .

(٢) البيت في « ديوان جرير » (ص٣٩) ، وهو بتمامه :

تُحنَّى العظامُ الراجفاتُ مِنَ البِلىٰ ... وليس لداءِ الركبتين طبيبُ

(٣) « غرر الخصائص » (ص٣٠٥ـ٣٠٨) .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



أي : أضرب العدوَّ بحدِّ السيف ، وأترك ضربه بغِمده ـ بكسر الغين المعجمة ـ أي : بوعائه الذي يدخل فيه ؛ لأنَّ النصر مقرون بحدِّه دون غمده ، كما قال الشاعر : [من الرجز]

إِنْتَهِزِ ٱلْفُرْصَةَ كَيْ تَحْظَىٰ بِهَا فَٱلْعِلْمُ دُرٌّ نَافِعٌ فِي حَدِّهِ
وَخُذْ بِحَدِّ ٱلسَّيْفِ وَٱتْرُكْ غِمْدَهُ فَٱلنَّصْرُ مَقْرُونُ ٱلرَّجَا بِحَدِّهِ

وهٰذا محمول علىٰ ما إذا كان العدوُّ صائلاً علىٰ نفسك أو بضعك أو مالك فتردُّه بالأخفِّ ، فإذا لم يمكن ردُّه إلاَّ بالسيف . . فخذه بحدِّه دون غِمده ولا إثمَ عليك لا في الدنيا ولا في الآخرة .

ويحتمل أن يراد به الكافر الحربيُّ ، فيكون في كلامه ترغيب في الجهاد والغزو الذي هو فرض كفاية على المسلمين[1] ، فـ(عنِ ابن عباس رضي الله عنهما : أنَّ النبيَّ صلى الله عليه

(١) لم يذكر القناوي رحمه الله تعالىٰ معنى البيت الإجمالي ، وارتباط شطريه ، ولعل المعنى الذي أراده الناظم رحمه الله تعالىٰ والله أعلم : أن العبرة للباطن والمضمون لا للظاهر ، فليكن المقياس في تقييمك الأشخاص الفضل والعلم والخلق والدين واللسان والبيان ، وإن كان ذلك مع رثاثة الثياب ، ورداءة الحال ، وقبح الشكل ، فالمضمون أولىٰ بالاعتبار ؛ إذ المرء تحت طيِّ لسانِهِ ، لا تحت طيلسانه ، ولا يغرنك جمال المظهر وحسن الهيئة ، فغمد السيف وإن كان مرصعاً بالجواهر ومزيناً بالحلي ليس بنافع بشيء في الحروب والمعارك ، وإنما المعوَّل عليه هو السيف المهند داخله ، فكم من سيف قديم في حدِّه ثلمة وكسر قد وضع في غمد غاية في الجمال ، وكم من سيف بتَّار قد وضع في غمد يرثىٰ له الحال ، وكذلك الرجال ، وبيت الناظم مأخوذ من قول المعري في « ديوانه » (ص١٩٤) : [من الطويل]

وإنْ كان في لبس الفتىٰ شرف له فما السيف إلا غمده والحمائل

وقريب منه قول الحلواني أبي الحسن عبد الكريم بن فضال ، كما في « الذخيرة » (٧/ ٢٩٥) لابن بسام : [من الكامل]

هل بعد سِنِّ الأربعينَ تصابي ذهب الشبابُ ولاتَ حينَ شبابِ
هل ينفعنَّك بعد شيبك في الهوى توفير مكتسبٍ وحسن ثيابِ
هيهاتَ ما فخرُ المهند في الوغى بحُليِّ غِمْدٍ فوقَه وقِرابِ

وسلم بعث عبد الله بن رواحة في سرية ، فوافق ذلك يوم الجمعة ، فقال عبد الله : أصلِّي الجمعة مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم ثمَّ ألحق بأصحابي ، وقد غدا أصحابه ، فلمَّا صلَّىٰ . . رآه النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، فقال له : « يَا بْنَ رَوَاحَةَ ؛ مَا لَكَ لَمْ تَغْدُ مَعَ أَصْحَابِكَ ؟ » فقال : أحببت أن أصلِّي معك الجمعة ثمَّ ألحق بأصحابي ، فقال له : « لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي ٱلأَرْضِ جَمِيعاً . . مَا أَدْرَكْتَ فَضْلَ غَدْوَتِهِمْ »(1) .

وعنِ الحسن : أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « لَغَدْوَةٌ أَوْ رَوْحَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللهِ . . أَفْضَلُ مِنَ ٱلأَرْضِ وَمَا عَلَيْهَا ، وَلَمَوْقِفُ ٱلرَّجُلِ فِي ٱلصَّفِّ ٱلأَوَّلِ . . أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ سِتِّينَ سَنَةً »(2) .

وعن أبي هريرةَ رضي الله تعالىٰ عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لاَ يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ ٱللهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ فِي جَوْفِ عَبْدٍ أَبَداً »(3) .

وعنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « كُلُّ عَيْنٍ بَاكِيَةٌ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ إِلاَّ ثَلاَثَةً : عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ ٱللهِ ، وَعَيْنٌ غَضَّتْ عَنْ مَحَارِمِ ٱللهِ ، وَعَيْنٌ حَرَسَتْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ »(4) .

وروي عن بعض أصحاب النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « ٱلسُّيُوفُ مَفَاتِيحُ ٱلْجَنَّةِ ـ قال ـ : وَإِذَا ٱلْتَقَى ٱلصَّفَّانِ فِي سَبِيلِ ٱللهِ . . تَزَيَّنَتِ ٱلْحُورُ ٱلْعِينُ فَٱطَّلَعْنَ ، فَإِذَا أَقْبَلَ ٱلرَّجُلُ . . قُلْنَ ٱللَّهُمَّ ٱنْصُرْهُ ، ٱللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ ، ٱللَّهُمَّ أَعِنْهُ ، فَإِذَا أَدْبَرَ . . ٱحْتَجَبْنَ عَنْهُ وَقُلْنَ : ٱللَّهُمَّ ٱغْفِرْ لَهُ ؛ فَإِذَا قُتِلَ . . غَفَرَ ٱللهُ لَهُ بِكُلِّ قَطْرَةٍ تَخْرُجُ مِنْ دَمِهِ كُلَّ ذَنْبٍ هُوَ عَلَيْهِ ، وَتَنْزِلُ عَلَيْهِ ٱثْنَتَانِ مِنَ ٱلْحُورِ ٱلْعِينِ تَمْسَحَانِ ٱلْغُبَارَ عَنْهُ »(5) .

---

(1) أخرجه الترمذي (٥٢٧) ، والبيهقي في « السنن » (٣/١٨٧) ، وعبد بن حميد في « مسنده » (٦٥٦) ، وأحمد (١/٢٢٤) .

(2) أخرجه من مرسل الحسن رحمه الله السمرقندي في « تنبيه الغافلين » (٤٩٤) .

(3) أخرجه ابن حبان (٣٢٥١) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/٧٢) ، والترمذي (١٦٣٣) .

(4) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١٩/٤١٦) ، وبنحوه البيهقي في « السنن » (٩/١٤٩) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٤/٥٩٨) ، وأحمد (٤/١٣٣) .

(5) أخرجه من حديث يزيد بن شجرة رضي الله عنه موقوفاً الحاكم في « المستدرك » (٣/٤٩٤) ، وسعيد بن منصور (٢٥٦٧) ، وعبد الرزاق في « المصنف » (٩٥٣٨) ، وجاء مرفوعاً عند ابن أبي شيبة في « المصنف » (٤/٥٦٤) ، والطبراني في « الكبير » (٢٢/٢٤٧) .

وحكي : أنَّ رجلاً حبشياً جاء إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنِّي كما تراني ذميم الوجه ، منتن الريح ، غير زكيِّ الحسب ، فأين أنا إن قاتلت حتَّىٰ أقتل ؟ قال : « فِي ٱلْجَنَّةِ » ، فأسلم ثمَّ ٱلتحم القتال فٱقتتلوا ، فلمَّا تحاجز القوم . . قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « تَفَقَّدُوا إِخْوَانَكُمْ » ، ففعلوا ، فقالوا : يا رسول الله ؛ ذاك الحبشيُّ قتل في وادي كذا ، فقام النبيُّ صلى الله عليه وسلم معهم ، فلمَّا أشرف عليه . . قال : « ٱلْيَوْمَ حَسَّنَ ٱللهُ وَجْهَكَ ، وَطَيَّبَ رِيحَكَ ، وَزَكَّىٰ حَسَبَكَ » ، وأعرض عنه ، فقالوا : رأيناك أعرضت عنه ، فقال : « وَٱلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ؛ لَقَدْ رَأَيْتُ أَزْوَاجَهُ مِنَ ٱلْحُورِ ٱلْعِينِ ٱبْتَدَرْنَهُ حَتَّىٰ بَدَتْ خَلاَخِيلُهُنَّ »[١] .

وعنِ ٱبنِ مسعود عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم : أنَّه قال في قوله تعالىٰ : ﴿ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ : « أَرْوَاحُهُمْ فِي حَوَاصِلِ طُيُورٍ خُضْرٍ تَسْرَحُ فِي أَشْجَارِ ٱلْجَنَّةِ تَأْكُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَتْ ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَىٰ قَنَادِيلَ مُعَلَّقَةٍ تَحْتَ ٱلْعَرْشِ »[٢] .

وعن عوف بن مالك الأشجعي : مَنْ أراد أن يكون غازياً حقاً مجاهداً في سبيل الله بالسنة . . فليحافظ علىٰ خصال عشرة :

أوَّلها : ألاَّ يخرج إلاَّ برضا الوالدين .

وثانيها : أن يؤديَ أمانة الله التي في عُنُقه ؛ مِنَ الصلاة والزكاة والحجِّ والكفارات ، ثمَّ يؤدي أمانات الناس التي في عُنُقه ؛ مِنَ المظالم والغِيبة وقول الزور .

وثالثها : أن يدفع إلىٰ أهله ما يكفيهم قدر إقامته .

ورابعها : أن تكون نفقته مِنْ كسبٍ حلال ؛ فإنَّ الله تعالىٰ لا يقبل إلاَّ طيباً .

وخامسها : أن يسمع ويطيع أميره ولو كان عبداً حبشياً بعد ما كان أميراً عليه .

وسادسها : أن يؤدي حقَّ رفيقه ، ويتبسم في وجهه كلَّما لقيه ، ويمرِّضه إذا مرض ، ويقوم في حوائجه .

وسابعها : ألاَّ يؤذي في طريقه مسلماً ولا معاهداً .

وثامنها : ألاَّ يفرَّ مِنَ الزحف .

---

(١) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٩٣) ، وابن عدي في « الكامل » (٦/ ٢٠٩) .

(٢) أخرجه مسلم (١٨٨٧) ، والترمذي (٣٠١١) ، وابن ماجه (٢٨٠١) .

وتاسعها : ألاَّ يغُلَّ من الغنيمة شيئاً قبل القسمة ؛ فإنَّه تعالىٰ قال : ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ .

وعاشرها : أن يريد بالغزو نصرة المؤمنين) قاله في « تنبيه الغافلين »[1]

وقوله : (واْعتبر فضل الفتىٰ دون الحُلل) أي : خذِ العلم عمَّن يؤخذ عنه منْ أهله كائناً مَنْ كان ، سواء كان فقيراً أو غنياً ، مالكاً أو مملوكاً ، ولا تحتقر الفاضل إذا كان فقيراً ؛ لأنَّ شأن العلماء العاملين قلَّة الدنيا في أيديهم ، وكذلك إذا قام به فقر أخرويٌّ ، كتقصيره في الأعمال الصالحات ، واْرتكابه بعض المنهيات ؛ لأنَّ ضرر ذلك عليه لا علىٰ غيره ؛ كما قال تعالىٰ : ﴿مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ .

وقوله : (دون الحُلل) بضمِّ الحاء المهملة ، جمع : حُلَّة ، قال في « المصباح » : (والحُلَّة ـ بالضمِّ ـ لا تكون إلاَّ مِنْ ثوبين مِنْ جنس واحد ، والجمع : حُلَل ، مثل : غُرْفة وغُرَف) اهـ

أي : لا تنظر إلى الحُلل ؛ أي : الملابس الفاخرة علىٰ شخص جاهل ؛ لأنَّ هـٰذا اْفتخار دنيويٌّ لا طائل تحته .

قال في « غرر الخصائص » : (نظر معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالىٰ عنهما إلى ابن أوس العذري الخطيب واْزدراه ، فتبيَّنَ لابن أوس ذلك في وجهه ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إنَّ العباءة لا تكلِّمك ، وإنَّما يكلِّمك مَنْ فيها ، وكمال الرجل أدبه لا ثيابه ، ثمَّ أنشد : [من البسيط]

إنِّي وَإنْ كُنْتُ أَثْوَابِي مُلَفَّقَةٌ لَيْسَتْ بِخَزٍّ وَلاَ مِنْ نَسْجِ كَتَّانِ
فَإنَّ فِي ٱلْمَجْدِ هِمَّاتِي وَفِي لُغَتِي فَصَاحَةٌ وَلِسَانٌ غَيْرُ لَحَّانِ[2]

وأراد بعض الأعراب مخاطبة إنسان ، فاْزدراه الرجل لخسَّة حاله ، وأبىٰ أن يكلِّمه ، فقال : ما لكم يا عبيد الثياب وأشباه الكلاب حقَّرتموني لِأطماري ولم تسألوا عن مكنون

(١) « تنبيه الغافلين » (ص٤٩٤ـ٤٩٨ ، ٥٠٥) .
(٢) القصة من غير البيتين أخرجها المعافىٰ في « الجليس الصالح » (٣/ ٦٣) .

أخباري ؟ ثمَّ أنشد يقول : [من الكامل]

أَلْمَـرْءُ يُعْجِبُنِـي وَمَـا كَلَّمْتُـهُ ... وَيُقَـالُ لِـي : هَـٰذَا ٱللَّبِيـبُ ٱللَّهْـذَمُ

فَـإِذَا قَـدَحْـتُ زِنَـادَهُ وَوَرَيْتُـهُ ... بِـٱلنَّقْـدِ زَافَ كَمَـا يَـزِيـفُ ٱلـدِّرْهَـمُ

ودخل كُثيِّر بن عبد الرحمـٰن علىٰ عبد الملك بن مروان في أوَّل خلافته ، فٱقتحمته عينه ، فقال كثير : يا أمير المؤمنين ؛ كلٌّ عند نفسه واسع الفناء ، شامخ البناء ، عالي السناء ، ثمَّ أنشد وقال : [من الوافر]

تَـرَى ٱلـرَّجُـلَ ٱلنَّحِيـفَ فَتَـزْدَرِيـهِ ... وَفِـي أَثْـوَابِـهِ أَسَـدٌ هَصُـورُ

وَيُعْجِبُـكَ ٱلطَّـرِيـرُ فَتَبْتَلِيـهِ ... فَيُخْلِـفُ ظَنَّـكَ ٱلـرَّجُـلُ ٱلطَّـرِيـرُ

فَمَـا عُظْـمُ ٱلـرِّجَـالِ لَهُـمْ بِـزَيْـنٍ ... وَلَكِـنْ زَيْنُهُـمْ كَـرَمٌ وَخَيْـرُ

فتعجَّب منه عبد الملك وأمر له بصلة حسنة ، وكان كُثيِّرٌ هـٰذا قصيراً جداً ، لا يبلغ طوله ضروع الإبل لقصره ، وكان إذا دخل باب عبد الملك يقول له حين يراه : طأطىء رأسك ؛ لئلاً يصيبه السقفُ تهكماً به[1] .

قال عبد الملك بن عمير : « قدم علينا الأحنف بن قيس الكوفة أصلع الرأس ، متراكب الأسنان ، مائل الذقن ، ناتىء الجبهة ، جاحظ العينين ، خفيف العارضين ، ولكنَّه كان إذا تكلَّم . . جلا عن نفسه سائر العيوب »[2] .

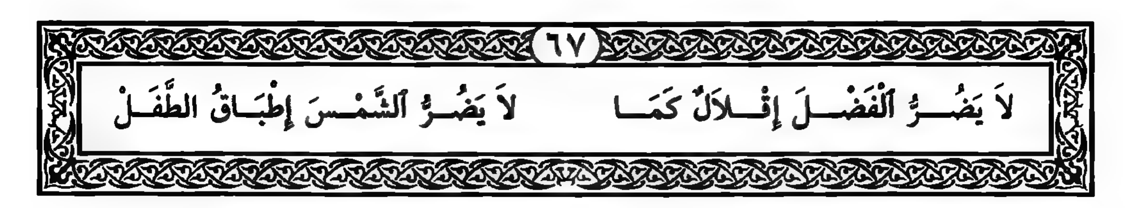
ونظر عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه إلى الأحنف وعنده الوفد والأحنف ملتفٌ بعباءة ، فترك عمر القوم وٱستنطقه ، فتكلَّم بكلامه البليغ المصيب ، فلم يزل عنده في علياء إلىٰ أن عقد له مِنَ الرياسة ما كان له ثابتاً إلىٰ أن فارق الدنيا) اهـ

* * *

(١) قصة كُثيِّر مع الأبيات أخرجها القالي في « أماليه » (١/ ٤٨) ، والمعافىٰ في « الجليس الصالح » (١/ ٥٨٤) ، والأبيات في « شرح ديوان حماسة أبي تمام » (٣/ ٨٩) ، و« معجم الشعراء » (ص١٠٢) منسوبة للعباس بن مرداس .
وكُثيِّر : هو ابن عبد الرحمـٰن الشاعر المشهور ، كُثيِّر عزة ، المتوفىٰ سنة (١٠٥هـ) ، وقوله : (فاقتحمته عينه) أي : نظرت إليه من غير رويَّة ولا إحجام ؛ ٱستصغاراً وٱستهزاء ، وقد كان من صفته صلى الله عليه وسلم أنه لا تقتحمه عين من قصر .

(٢) « البيان والتبيين » (١/ ٥٦) ، و« عيون الأخبار » (٤/ ٣٥) ، و« ربيع الأبرار » (٢/ ٢٥٤) .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



٦٧

لاَ يَضُـرُّ ٱلْفَضْـلَ إِقْـلاَلٌ كَمَـا ... لاَ يَضُـرُّ ٱلشَّمْـسَ إِطْبَـاقُ الطَّفَـلْ

هـٰذا البيت في قوّة التعليل لقوله : (وٱعتبر فضل الفتىٰ دون الحُلل) أي : لا يضرُّ أهل الفضل والعلم الإقلال والفقر ، كما أنَّ إطباقَ الطَّفَل وكثرتَه لا يضرُّ الشمس ، فقوله : (كما لا يضرُّ الشمس إطباق الطَّفَل) تنظير وتوضيح لِمَا ذكره مِنْ أنَّ الفقر والإقلال لا يضرُّ أهل العلم والفضل ؛ فإنَّه ما دامتِ الشمس موجودة . . فالنهار موجود ، والطَّفَل ـ بالطاء المهملة ـ : آخر النهار(١) .

وقد سمَّتِ العرب ساعات النهار بأسماء ؛ فأولها : البكور ؛ مِنْ طلوع الفجر إلى الشمس ، ثمَّ الشروق ، ثمَّ الرأد ، ثمَّ الضحىٰ ، ثمَّ المُتُوع(٢) ، ثمَّ الزوال ، [ثمَّ الهاجرة] ، ثمَّ الأصيل ، ثمَّ العصر ، ثمَّ الطَّفَل ، ثمَّ الغروب ، قاله في « شرح لامية الطغرائي »(٣) عند قوله : [من البسيط]

مَجْـدِي أَخِيـراً وَمَجْـدِي أَوَّلاً شَـرَعٌ ... وَٱلشَّمْسُ رَأْدَ ٱلضُّحَىٰ كَٱلشَّمْسِ فِي ٱلطَّفَلِ(٤)

وما أحسن قول الملاح في « تخميسه » :

إِنَّمَـا ٱلْمَـرْءُ بِعِلْـمٍ عُلِمَـا ... لَيْـسَ بِـٱلأَمْـوَالِ يَحْـوِي عِظَمَـا

وَكَـذَا ٱلْفَضْـلُ كَـرِزْقٍ قُسِمَـا ... لاَ يَضُـرُّ ٱلْفَضْـلَ إِقْـلاَلٌ كَمَـا

لاَ يَضُـرُّ ٱلشَّمْـسَ إِطْبَـاقُ ٱلطَّفَـلْ(٥)

* * *

(١) وهو بعد العصر إذا طفلت الشمس ؛ أي : أحمرَّت عند الغروب .

(٢) في الأصل : (ثم الظهر) ، والظهر : هو ساعة الزوال ، والتصويب من « غيث الأدب الذي انسجم » (١/ ٨٨) وغيره ، لأن المُتُوع : ارتفاع النهار قبل الزوال .

(٣) « غيث الأدب الذي انسجم » للصفدي (١/ ٨٨) .

(٤) قوله : (شَرَع) أي : سواء ، والمعنىٰ : مجدي أولاً وآخراً سواء لا تفاضل فيه ، كما أن الشمس استوت حالتاها أوّل النهار وآخره .

(٥) « تخميس الملاح » (ص١٣) .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :

٦٨

حُبُّـكَ ٱلأَوْطَـانَ عَجْـزٌ ظَـاهِـرٌ ... فَـٱغْتَـرِبْ تَلْـقَ عَـنِ ٱلأَهْـلِ بَـدَلْ

أي : تعلُّقك بالأوطان ـ جمع : وطن ؛ وهو : مكان الإنسان ومقرُّه ـ عجزٌ ظاهر لكلِّ أحد ، فٱغترب ؛ أي : سافر عن وطنك ودارك . . تلق ؛ أي : تجد بدلاً عن أهلك ، لأنَّ الله سبحانه وتعالىٰ لا يزال في عون عبده سواء كان مقيماً أو مسافراً .

ووقف الناظم علىٰ لفظ (بدل) بالسكون علىٰ لغة ربيعة ، وإلاَّ . . فهو مفعول (تلق)[1] .

وفي هٰذا البيت إشارة إلىٰ أنَّه تجب الرحلة أو تستحبُّ في طلب العلوم والفوائد ، فمَنْ لم يجد معلماً يعلِّمه في بلده ما يحتاج إليه مِنْ أمور دينه ومعاشه . . فليرحل وجوباً في الواجب ، وندباً في المندوب ؛ فقد رحل سيدنا موسىٰ عليه الصلاة والسلام للاستفادة مِنَ الخضر عليه الصلاة والسلام ، ورحل جابر بن عبد الله الأنصاري مسيرة شهر إلىٰ عبد الله بن أنيس في حديث واحد[2] ، ورحل عتبة بن الحارث مِنْ مكَّة إلى المدينة في مسألة واحدة .

وٱعلم : أنَّه يحصل للإنسان في غربته فوائد عظيمة ، كما قيل : [من الطويل]

تَغَرَّبْ عَنِ ٱلأَوْطَانِ فِي طَلَبِ ٱلْعُلاَ ... وَسَـافِرْ فَفِـي ٱلأَسْفَـارِ خَمْسُ فَـوَائِـدِ
إِزَالَــةُ هَــمٍّ وَٱكْتِسَــابُ مَعِيشَــةٍ ... وَعِلْـمٌ وَآدَابٌ وَصُحْبَـةُ مَـاجِـدِ[3]

---

(١) تقدم الكلام علىٰ مسألة الوقوف علىٰ تنوين الاسم المنصوب بالسكون وأنَّها لغة ربيعة (ص ٢٩٩) .

(٢) رحلة سيدنا جابر إلىٰ عبد الله بن أنيس رضي الله عنهما مع الحديث أخرجها البخاري في « صحيحه » تعليقاً ، كتاب العلم ، باب : الخروج في طلب العلم ، قبل الحديث رقم (٧٨) ، وموصولة في « الأدب المفرد » (٩٧٠) ، والحاكم في « المستدرك » (٤٣٧/٢) ، وأحمد (٤٩٥/٣) .

(٣) البيتان لابن وكيع التنيسي كما أخرج الثعالبي في « يتيمة الدهر » (٤٠/٥) ، وبعدهما :

فـإن قيـل فـي الأسفـار ذلٌّ وغـربـة ... وتشتيـت شمـلٍ وٱرتكـاب شـدائـدِ
فلَلمـوت خيـرٌ للفتـىٰ مـن مُقـامـه ... بـدار هـوانٍ بيـن ضـدٍّ وحـاسـدِ

=

فإن قيل : إنَّ حروف الغربة مجموعة مِنْ أسماءٍ دالَّة على الهلاك أو ما يؤول إليه ، فـ(الغين) مِنْ غرورٍ وغمٍّ وغلبة وغِرَّة ، و(الراء) مِنْ رَوع وردىٰ ؛ أي : هلاكٍ ، و(الباء) مِنْ بلوىٰ وبؤس وبوار ؛ وهو : الهلاك ، و(الهاء) مِنْ هوانٍ وهول وهمٍّ وهلاك .

أجيب : بأن محلَّ ذلك إذا كانتِ الغربة في غير طلب المعالي والفوائد ، وأمَّا إذا كانت لذلك . فهي أفضل مِنَ الإقامة في بلده ، وعلىٰ هـٰذا يحمل كلام الناظم رحمه الله تعالىٰ .

ولله درُّ القائل : [من الخفيف]

كَثْرَةُ ٱلْمُكْثِ فِي ٱلْمَنَازِلِ ذُلٌّ ... فَـٱلسَّعِيدُ ٱلشَّهِيدُ مَنْ يَتَغَرَّبْ

فَازَ عَبْدٌ رَقَى ٱلْعُلاَ وَكَفَاهُ ... بِـٱلتُّقَىٰ وَٱلْجَمِيلِ صَبٌّ تقَرَّبْ

وفي كلام الناظم رحمه الله تعالىٰ حثٌّ علىٰ طلب الرِّفعة ، وتصريح بأنَّها لا تحصل إلاَّ بالجِدِّ والاجتهاد ومفارقة مواطن الذلِّ والهوان ، فإنَّ الذلَّ في الإقامة ، والعِزَّ في الارتحال .

ولبعضهم : [من البسيط]

وَلاَ يُقِيمُ بِدَارِ ٱلذُّلِّ يَأْلَفُهَا ... إلاَّ ٱلأَذَلاَّنِ عَيْرُ ٱلْحَيِّ وَٱلْوَتِدُ

هَـٰذَا عَلَى ٱلْخَسْفِ مَرْبُوطٌ بِرُمَّتِهِ ... وَذَا يُشَجُّ فَلاَ يَرْثِي لَهُ أَحَدُ[1]

=

وتنسب للإمام الشافعي رحمه الله تعالىٰ ، كما ذكر الإمام اليافعي في « مرآة الجنان » (٢/٢٦) ، وهي في « ديوانه » (ص٥٥) ، وتنسب إلى الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وهي في « ديوانه » (ص٥٦) . وللإمام الشافعي رحمه الله في « ديوانه » (ص٣٣) : [من البسيط]

ما في المقام لذي عقل وذي أدبِ ... من راحةٍ فدع الأوطان وأغتربِ

سافر تجد عوضاً عمن تفارقه ... وأنصَب فإنَّ لذيذ العيش في النَّصَبِ

إني رأيت وقوف الماء يفسده ... إن ساح طاب وإن لم يجر لم يطبِ

والأسْدُ لولا فِراق الأرض ما أفترست ... والسهمُ لولا فِراق القوس لم يُصبِ

والشمس لو وقفت في الفلك دائمةً ... لملَّها الناس من عجم ومن عربِ

والتِّبْرُ كالتربِ مُلْقىً في أماكنه ... والعودُ في أرضه نوعٌ من الحطبِ

فإن تغرب هـٰذا عزَّ مطلبه ... وإن تغرَّب ذاك عزَّ كالذهبِ

(١) البيتان للمتلمس الضبعي في « ديوانه » (ص٢٠٨) .

وقوله : (عَيْر) بفتح العين المهملة : الحمار .

و(الوتِد) بكسر التاء : واحد الأوتاد .

و(الخسف) : بخاء معجمة وسين مهملة : القهر .

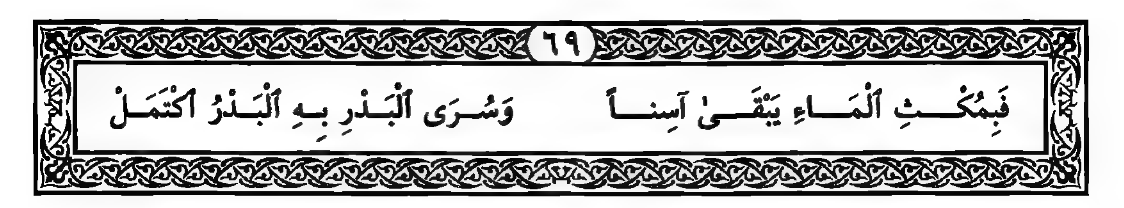
و(الرُّمَّة) : بضمِّ الراء : الحبل البالي .

(يرثي) بكسر المثلثة ؛ أي : يرق .اهـ[1]

* * *

(١) ويُشَجُّ : يُدَقُّ رأسه بالحجر .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



أشار الناظم رحمه الله تعالىٰ إلىٰ ذكر مثالين في غاية الحسن يوضِّح بهما ما ذكره مِنَ الأمر بالغربة ومفارقة الأوطان :

أحدهما : أنَّ الماء الصافي مِنَ الأكدار إذا ٱستمرَّ في محلٍّ واحد مِنْ غير وُرود ماء آخر عليه . . يصير آسناً ؛ أي : متغيِّراً منتناً .

قال في « المصباح » : (أَسَن الماء أسوناً ، مِنْ باب قعد : تغيَّر فلم يُشرب ، فهو آسن ، علىٰ وزن فاعل ، وأَسِنَ أَسَناً فهو أَسِنٌ ، مثل : تَعِب تَعَباً فهو تَعِبٌ لغةٌ) اهـ

ثانيهما : أنَّه لولا غربة القمر وٱنتقاله مِنْ منزلته . . لم يحصل له ذلك الكمال والشرف والنور .

والبدر : القمر ليلة كماله ، لكنَّ مراد الناظم الهلال .

ولله درُّ الحسين بن عليٍّ الطغرائيِّ حيث قال : [من البسيط]

إِنَّ ٱلْعُلاَ حَدَّثَتْنِي وَهْيَ صَادِقَةٌ فِيمَا تُحَدِّثُ أَنَّ ٱلْعِزَّ فِي ٱلنُّقَلِ
لَوْ أَنَّ فِي شَرَفِ ٱلْمَأْوَىٰ بُلُوغَ مُنًى لَمْ تَبْرَحِ ٱلشَّمْسُ يَوْماً دَارَةَ ٱلْحَمَلِ[1]

والمعنىٰ : أنَّ التجارب أفادتني علماً صادقاً أنَّ العزَّ في النُّقل ، ثمَّ أقام دليلاً علىٰ ذلك بقوله : (ولو أن في شرف المأوىٰ . . .) البيت ؛ أي : لو أنَّ في الإقامة بالمكان ـ ولو كان شريفاً ـ بلوغَ ما يتمنّاه الإنسان . . لم تزَلِ الشمس مقيمةً في أشرف بروجها .

ولبعضهم : [من البسيط]

قَالُوا نَرَاكَ كَثِيرَ ٱلسَّيْرِ مُجْتَهِداً فِي ٱلأَرْضِ تَنْزِلُهَا طَوْراً وَتَرْتَحِلُ

---

(١) « ديوان الطغرائي » (ص٣٠٦) .

فَقُلْتُ لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي ٱلسَّيْرِ فَائِدَةٌ ... مَا كَانَتِ ٱلسَّبْعُ فِي ٱلأَبْرَاجِ تَنْتَقِلُ[1]

ولآخر : [من الوافر]

أَقُولُ لِجَارَتِي وَٱلدَّمْعُ جَارِي ... وَلِي عَزْمُ ٱلرَّحِيلِ إِلَى ٱلدِّيَارِ

ذَرِينِي أَنْ أَسِيرَ وَلاَ تَنُوحِي ... فَإِنَّ ٱلشُّهْبَ أَشْرَفُهَا ٱلسَّوَارِي[2]

وللصفديِّ رحمه الله تعالىٰ : [من الكامل]

سَافِرْ تَجِدْ رُتَبَ ٱلْمَفَاخِرِ وَٱلْعُلاَ ... كَٱلدُّرِّ سَارَ فَصَارَ فِي ٱلتِّيجَانِ

وَكَذَا هِلاَلُ ٱلأُفْقِ لَوْ تَرَكَ ٱلسُّرَىٰ ... مَا فَارَقَتْهُ مَعَرَّةُ ٱلنُّقْصَانِ[3]

* * *

---

(١) البيتان رواهما الصفدي بسنده في « غيث الأدب الذي انسجم » (٢/١١٨) من قول حماد بن هبة الله بن حماد الحراني .

(٢) البيتان لأبي الفتوح السهروردي شهاب الدين يحيى بن حبش كما في « معجم الأدباء » (٧/٢٣٤) .

(٣) « غيث الأدب الذي انسجم » (٢/١١٩) ، والسرىٰ : المسير ليلاً .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :

٧٠

أَيُّهَا ٱلْعَائِبُ قَوْلِي عَابِثاً   إِنَّ طِيبَ ٱلْوَرْدِ مُؤْذٍ بِٱلْجُعَلْ

أشار الناظم رحمه الله تعالىٰ في هٰذا البيت والأبيات السبعة التي بعده إلىٰ دفع الأشخاص المعرضين عن نظمه ، العائبين له حسداً وبغضاً وعناداً ؛ أي : أيُّها العائب قولي ؛ لا تعبه ؛ لأنَّه لا طريق لك إلىٰ عيبه ، وإنَّما عبته أنت ؛ لأنَّ رائحتَه طيبةٌ جداً ؛ بمعنىٰ : أنَّها نافعة في الدين لمن سمعها سماع قبول وٱتِّعاظ ، فهي أذكىٰ مِنْ رائحة الورد ، وأنت ـ أيُّها العائب ـ بمنزلة الجُعَل ؛ في كونك إذا سمعت بالمواعظ . . أعرضت عنها وتأذَّيت مِنْ سماعها ، كما أنَّ الجُعَل إذا شمَّ رائحة الورد . . تأذَّىٰ كثيراً ، وربَّما هلك لوقته .

والجُعَل ـ بضمِّ الجيم وفتح العين المهملة ـ : الحِرباء ، قال في « المصباح » : (الجعل ـ وزان عمر ـ : الحرباء ، وجمعه : جُعْلان ، مثل : صُرَد وصُرْدان) اهـ

والحِرباء : بكسر الحاء وسكون الراء المهملتين بعدهما موحدة ، قال في « المصباح » أيضاً : (الحِرْباء : ممدود ، يقال : هي ذكر أمِّ حُبَيْن) اهـ ، وأمُّ حُبَيْنٍ ـ بالحاء المهملة بعدها باء موحدة بالتصغير ـ : ضرب مِنَ العِظاء ، منتنة الريح ، قيل : سمِّيت أم حُبَيْن ؛ لعِظَم بطنها ، أخذاً مِنَ الأحبن : وهو الذي به ٱستسقاء[1] .

قال الأزهريُّ : (أمُّ حُبَيْن : مِنْ حشرات الأرض تشبه الضب) اهـ

وقوله : (ضرب من العظاء) بكسر العين المهملة وبالظاء المشالة ممدوداً[2] ، قال في « المصباح » أيضاً : (العظاءة بالمدِّ : لغة أهل العالية ، علىٰ خلقة سامِّ أبرصَ ، وهو كبار الوزغ ، والعظاية لغة تميم ، وجمع الأولىٰ : عظاء ، والثانية : عظايات) اهـ

---

(١) الأحبن : الذي فيه الحَبَن ؛ وهو : داء في البطن يجتمع بسببه الماء الأصفر فيه فينتفخ ، ويسمى السَّقي .

(٢) والذي في « معجم البلدان » (٤/ ١٣٠) أنها بفتح العين .

قال شيخنا في « حاشيته على الهَمْزية » : (والحِرباء ـ بالمد ـ : حيوان علىٰ قدر القطاة أو قريب منها ، ومِنْ شأنها أنَّها تستقبل الشمس وتدور معها كيف دارت ، فهي تطلب الشمس أبداً ، فحين تبدو . . تنحرف بوجهها إليها ، حتَّىٰ إذا ٱستوتِ الشمس . . ٱرتفعت علىٰ أعلى الشجرة ونحوها ، فإذا صار قرص الشمس فوق رأسها بحيث لا تراها . . أصابها مثل الجنون إلىٰ أن تميل إلىٰ جهة الغرب ، فترجع بوجهها إليها مستقبلة لها ، ولا تنحرف عنها إلىٰ أن تغيب[1] ، فإذا غابت الشمس . . طلبت معاشها في الليل كلِّه إلى الصباح ، وهـٰذا الحيوان يشبه رأس العجل ، له أربعة أرجل كسام أبرص ، وسنام كسنام البعير ، ويتلوَّن بالألوان العجيبة المختلفة ، قال بعضهم : وهـٰذا الطائر الذي هو الحرباء[2] موجود في بلاد الشام كثيراً ، وذكر مَنْ رآها أنَّها إذا وقع عليها ثوب أبيض . . صار لونها أبيض ، أو أصفر . . صار لونها أصفر مثله ، وأنَّها إذا رأت ذبابة على الأرض وهي على الشجرة . . ٱلتقطتها بلسانها لطول لسانها) اهـ

قال الإمام القزويني في « عجائب المخلوقات » : (لمَّا كان الحِرباء خلقاً بطيء النهضة ، وكان لا بد له مِن القوت . . خلقه الله تعالىٰ علىٰ صورة عجيبة ، فخلق عينيه تدوران إلىٰ كلِّ جهة مِنَ الجهات ، حتَّىٰ يدرك صيده مِنْ غير حركة في بدنه ، ويبقىٰ كأنَّه جامد ليس مِنَ الحيوانات ، ثمَّ أُعطي مع السكون خاصية أخرىٰ ؛ وهي أنَّه يتشكَّل بلون الشجرة التي يكون عليها ، حتَّىٰ يكاد يختلط لونه بلونها ، ثمَّ إذا قَرُب منه ما يصطاده مِنْ ذباب وغيره . . أخرج لسانه ، ويخطفه بسرعة كلحوق البرق ، ثمَّ يعود إلىٰ حالته كأنَّه جزء مِنَ الشجرة ، وخلق الله

---

(١) وذلك استجلاباً للدفء ، فلشدة حرصها على استقبال الشمس ، كلما زالت عين الشمس عن غصن . . خلت يدها عنه وأمسكت بآخر حتىٰ غروب الشمس ثم تشبح وتمد وترتع في الأرض ، فلذا نعتت العرب وشبهت بها ، ومن أحسنهم تشبيهاً ذو الرُّمَّة ، ومن ذلك قوله في « ديوانه » (ص٢٧) : [من الطويل]

وقد جعل الحرباء يبيض لونه ... ويخضرُّ من لفح الهجير غباغبه
ويشبح بالكفين شبحاً كأنه ... أخو فجرة عالىٰ به الجذع صالبه

وانظر « حياة الحيوان » للدميري (٢/ ٢٦) .

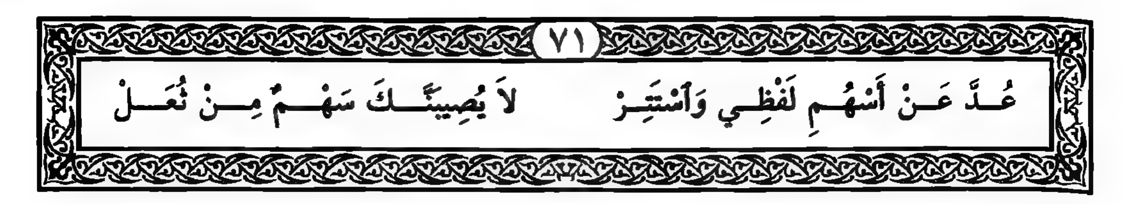
(٢) قوله : (وهـٰذا الطائر الذي هو الحرباء) كذا في النسخ ، فلعل المراد هو الطيران النسبي لبعض أنواعه ، وهو القفز من غصن إلىٰ آخر ، والله أعلم .

لسانه بخلاف المعتاد ؛ ليلحق به ما بَعُد عنه بثلاثة أشبار ونحوها ، وإذا رأىٰ ما يخاف منه . . تشكَّل بشكل يخاف منه كلٌّ ما يريده مِنَ الجوارح ويكرهه بسبب ذلك التلوُّن ، فتتلوَّن إلىٰ حمرة وخضرة وصفرة وما شاءت ، وهو ذكر ، والجمع : الحَرابي ، والأنثىٰ حرباءة) اهـ[1]

* * *

(١) نقله عنه بنصه الإمام الدميري في « حياة الحيوان » (٢/ ٢٧) .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



٧١

عُدَّ عَنْ أَسْهُمِ لَفْظِي وَٱسْتَتِرْ لاَ يُصِيبَنَّكَ سَهْمٌ مِنْ ثُعَلْ

عُدَّ ـ بضمِّ العين وسكون الدال ـ : أمر مِنَ العود ؛ أي : الرجوع ، وحُرِّك بالفتح ؛ لأجل النظم[1] ؛ أي : ٱرجع عن أسهم لفظي وٱستتر منها ؛ لأنَّها سهامٌ مصيبة لا تخطىء أبداً ؛ كسهام بني ثُعَل ـ بضمِّ المثلثة وفتح العين المهملة ـ : بطن مِنْ طيء ، مشهورون بجودة الرمي ، وقد أكثر الشعراء مِنْ نسبة الرمي إلىٰ بني ثُعَل .

قال الطغرائيُّ في « لاميته » : [من البسيط]

إِنِّي أُرِيدُ طُرُوقَ ٱلْحَيِّ مِنْ إِضَمٍ وَقَدْ حَمَاهُ رُمَاةٌ مِنْ بَنِي ثُعَلِ

ولبعضهم : [من الوافر]

وَحَيٌّ مِنْ كِنَانَةَ قَدْ رَمَوْنِي بِمَا حَوَتِ ٱلْكِنَانَةُ مِنْ سِهَامِ
إِذَا ٱنْتَضَلُوا وَمَا ثُعَلٌ أَبُوهُمْ رَمَوْكَ بِكُلِّ رَامِيَةٍ وَرَامِ[2]

كنانة الأولىٰ : القبيلة المشهورة ، والثانية : وعاء السهام ، وانتضلوا ـ بالضاد المعجمة ـ : ترامَوا .

ولابن الساعاتي رحمه الله تعالىٰ : [من الرمل]

فَاضِحُ ٱلظَّبْيِ إِذَا ٱلظَّبْيُ رَنَا مُخْجِلُ ٱلْبَدْرِ إِذَا ٱلْبَدْرُ كَمَلْ
فَارِسِيٌّ فَإِذَا خَافَ سَطَا نَظْرَةٍ لاَذَ بِطَرْفٍ مِنْ ثُعَلْ

وهٰذا البيت كالتأكيد للبيت الذي قبله ؛ لأنَّه لمَّا قال : (أيُّها العائب قولي عابثاً . . .)

---

(١) لعل الأولىٰ أن يكون (عَدِّ) بفتح العين وكسر الدال المشددة ، أمر من التعدية ، وهي المجاوزة .
(٢) البيتان لابن قلاقس في « ديوانه » (٥٣٥) .

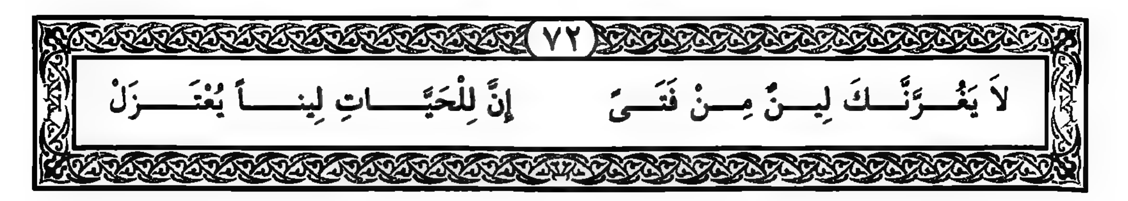
إلخ.. أمره في هٰذا البيت بالعود والرجوع عنِ التعييب لنظمه ؛ لأنَّه مِنْ قبيل الغيبة المحرمة ، وهي سهام معنويَّة مهلكة لصاحبها إهلاكاً أكثر مِنْ إهلاك سهام بني ثُعَل الحسيَّة ، وقد تقدَّم الكلام على التحذير عن الغيبة والنميمة عند قول الناظم : (**مِلْ عنِ النمام وآهجره. . .**) البيت[1] .

* * *

---

(١) انظر (ص ٢٧٦) .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



أي : لا يخدعنَّك لينٌ ؛ أي : سهولة مِنْ فتىً ؛ أي : شاب قوي ، والمراد به هنا أيُّ شخص كان ، فشمل الناظم رحمه الله تعالىٰ وشمل غيره ، ثمَّ علَّل ذلك بقوله : (إنَّ للحيَّات) جمع حيَّة (ليناً يُعتزل) أي : يتنحىٰ عنه ، ويتباعد منه ، فقد شبه الناظم رحمه الله تعالىٰ في هـٰذا البيت والبيتين اللذين بعده نفسه بأشياءَ ليِّنةٍ في نفسها ، قاتلة بطبعها ، فالناظم رحمه الله تعالىٰ وإن كان ليناً في ذاته هيناً ، فله سطوة تُخشىٰ ، وحركة تدُلُّ علىٰ قوَّة بأسه ، وحذَّر رحمه الله تعالىٰ مِنْ تلك السطوة فقال : لا تغترَّ بليني فتجترىء عليَّ بسبب ذلك ؛ فإنَّ ليني إذا أغضبتني يصير كلين الحيَّة ، ومِنَ المعلوم أنَّها وإن كانت ليِّنة في نفسها ، فلها سمٌّ قاتل في وقته وساعته . اهـ[1]

قال في « غرر الخصائص » ما نصُّه : (قال بعضهم : إن كان في مخالطة الناس خير . . فإنَّ تركهم أسلم .

وقال بعض الرهبان لرجل : إنِ ٱستطعت أن يكون بينك وبين الناس سور مِنْ حديد . . فٱفعل ، وإن كان في الجماعة الأنس . . فإنَّ في العزلة السلامة .

وقيل لبعضهم : ما تجد في الخلوة ؟ قال : الراحة مِنْ مداراة الناس ، والسلامة مِن شرِّهم[2] .

---

(١) ينبغي لشخصية المؤمن أن تشتمل علىٰ صفتين : التذلل وخفض الجناح في محله للمؤمنين ، والصرامة والقوة في محلها لأهل الشر والعابثين ، وبهما ٱمتدح الله عز وجل صحابة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ ، وقال : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ، فالشدة في محلها عين الرفق ، وما وضع الرفق في شيء إلا زانه ، ولا نزع من شيء إلا شانه ، ورحم الله القائل : [من الكامل]

فقســا ليــزدجــروا ومَــن يــك راحمــاً ... فليقــسُ أحيــانــاً علــىٰ مَــن يــرحــم

(٢) « محاضرات الأدباء » (٢/ ٢٨) .

ويقال : العزلة عنِ الناس تبقي الجلالة ، وتستر الفاقة ، وتدفع مؤنة المكافأة في الحقوق .

وقال بعض الزهاد : لو أنَّ الدنيا ملئت سباعاً وحيات . . ما خفتها ، ولو بقي واحد مِنَ الناس . . لخفته .

وقالوا : آستعذ مِنْ شرار الناس ، وكن مِنْ خيارهم علىٰ حذر .

وقال أبو الدرداء : « كان الناس ورقاً لا شوك فيه ، فصاروا شوكاً لا ورق فيه »[1] .

وقال سليمان : الناس أربعة أقسام : أُسود ، وذئاب ، وثعالب ، وضأن ؛ فالأسود : الملوك ، والذئاب : التجار ، والثعالب : القراء المخادعون ، والضأن : المؤمن ينهشه كلُّ مَنْ يراه .

وقال جعفر الصادق لبعض إخوانه : « أقلل مِنْ معرفة الناس ، وأنكر مَنْ عرفت منهم ، وإن كان لك مئة صديق . . فأطرح منهم تسعة وتسعين ، وكن مِنَ الواحد علىٰ حذر »[2]) اهـ[3]

ولله درُّ القائل : [من البسيط]

إِيَّـاكَ أَنْ تَصْطَفِـي مِمَّـنْ تَـرَىٰ أَحَـداً ... وَلاَ تَثِـقْ بِـآمْـرِىءٍ فِـي حَـالَـةٍ أَبَـدا

ولابن الروميِّ رحمه الله تعالىٰ : [من الوافر]

عَـدُوُّكَ مِـنْ صَـدِيقِـكَ مُسْتَفَـادٌ ... فَـلاَ تَسْتَكْثِـرَنَّ مِـنَ ٱلصِّحَـابِ

فَـإِنَّ ٱلـدَّاءَ أَكْثَـرُ مَـا تَـرَاهُ ... يَكُـونُ مِـنَ ٱلطَّعَـامِ أَوِ ٱلشَّـرَابِ[4]

وقال بعضهم : [من الطويل]

وَزَهَّـدَنِي فِـي ٱلنَّـاسِ مَعْـرِفَتِـي بِهِـمْ ... وَطُولُ ٱخْتِبَارِي صَاحِباً بَعْدَ صَاحِبِ

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « الإشراف » (٢٥٢) ، و« مداراة الناس » (١٣) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/١٧٩) .

(٢) « المستطرف » (١/٢٧٢) .

(٣) « غرر الخصائص » (ص٣١٩ـ ٣٢٢) .

(٤) البيتان في « ديوان ابن الرومي » (١/٢٩٦) ، ووقع فيه (يحول) بدل : (يكون) .

فَلَـمْ تُـرِنِـي ٱلأَيَّـامُ خِـلاً تَسُـرُّنِـي مَبَـادِيـهِ إِلاَّ سَـاءَنِـي فِـي ٱلْعَـوَاقِـبِ
وَمَـا كُنْـتُ أَرْجُـوهُ لِـدَفْـعِ مُلِمَّـةٍ وَلَكِنَّـهُ قَـدْ كَـانَ إِحْـدَى ٱلنَّـوَائِـبِ[1]

وقال آخر : [من الطويل]

بِمَـنْ يَثِـقُ ٱلإِنْسَـانُ فِيمَـا يَنُـوبُـهُ وَمِـنْ أَيْـنَ لِلْحُـرِّ ٱلْكَـرِيـمِ صِحَـابُ
وَقَـدْ صَـارَ هَـٰذَا ٱلنَّـاسُ إِلاَّ أَقَلَّهُـمْ ذِئَـابـاً عَلَـىٰ أَجْسَـادِهِـنَّ ثِيَـابُ[2]

* * *

(١) الأبيات لابن الرومي في « ديوانه » (١/٤٥٧) ، ونسبت أيضاً إلى المعتصم ابن صمادح الأندلسي كما في « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » (٣/٤٠٣) ، و« وفيات الأعيان » (٥/٤٠) ، و« الوافي بالوفيات » (٥/٤٦) .

(٢) البيتان لأبي فراس الحمداني في « ديوانه » (ص٤٢) .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :

٧٣

أَنَـا مِثْـلُ ٱلْمَـاءِ سَهْـلٌ سَـائِـغٌ   وَمَتَـىٰ سُخِّـنَ آذَىٰ وَقَتَـلْ

أي : أنا مثل الماء الكثير في كوني لا أتغيَّر بقول الحاسدين والأعداء العائبين لنظمي ، كما أن الماء الطهور لا يتغيَّر بالجيف الواقعة فيه ، بل هو مستمر على الطهوريَّة كما هو منصوص في الفروع ، وفي كوني سهل الأخلاق ، سائغ المذاق ، لكن إذا آذاني شخص ، وتغيَّرتُ عليه ، وتوسَّلت إلى الله في أخذ حقي منه . . أخذه الله عاجلاً ؛ مِنْ حسن ظني في ربي سبحانه وتعالىٰ ، كما أنَّ الماء وإن كان عذياً فراتاً وشراباً سائغاً ، لكنَّه إذا سُخِّن بالنار وخرج عن الحدِّ والاعتدال . . آذىٰ وقتل في الحال ، كما هو محسوس .

وفي هـٰذا البيت إشارة إلىٰ أنَّ الناظم رحمه الله تعالىٰ كان مِنْ أولياء الله تعالى الذين يغار عليهم، كما في الحديث الصحيح : « إِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ قَالَ : مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيّاً . . فَقَدْ آذَنْتُهُ بِٱلْحَرْبِ »[1] أي : مَنْ عاداه مِنْ أجل كونه ولياً لله تعالىٰ ، وإلاَّ . . فقد جرىٰ بين الصدِّيق والفاروق، وبين العباس وعليٍّ، وكثير مِنَ الصحابة ما جرىٰ، والكلُّ أولياء الله عليهم الرضوان.

وقوله : (فقد آذنته بالحرب) بمدِّ الهمزة ؛ أي : أعلمته بأنِّي محارب له ؛ أي : أعمل به معاملة المحارب ؛ مِنَ التجلِّي عليه بمظاهر القهر والجلال والعدل والانتقام ، وإلاَّ . . فالعبد لا يتصوَّر منه محاربة لربِّه ، لأنَّه في أسر خالقه . اهـ

فإذا توجَّه الوليُّ إلىٰ ربِّه في شيء . . أجابه ونصره ، كما قال في آخر الحديث : « وَلَئِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنِ ٱسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ » .

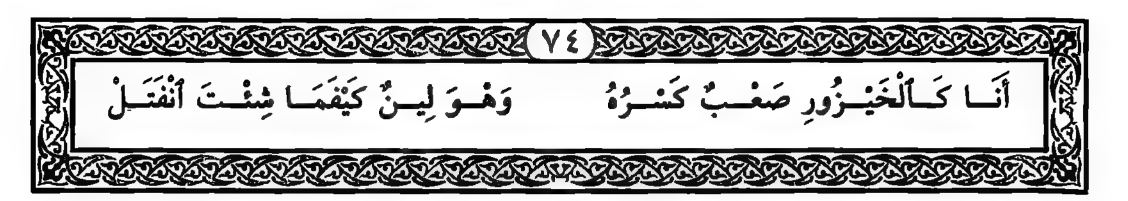
فإن قلت : إنَّ جماعة مِنَ العباد والصلحاء دعوا وبالغوا فلم يجابوا .

فالجواب : أنَّ الإجابة تتنوَّع ، فتارةً يقع المطلوب بعينه على الفور ، وتارةً يتأخَّر لحكمة فيه ، وتارةً تقع الإجابة بغير المطلوب إذا كان أصلح . اهـ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) ، وابن حبان (٣٤٧) ، والبيهقي في « السنن » (٣/٣٤٦) .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



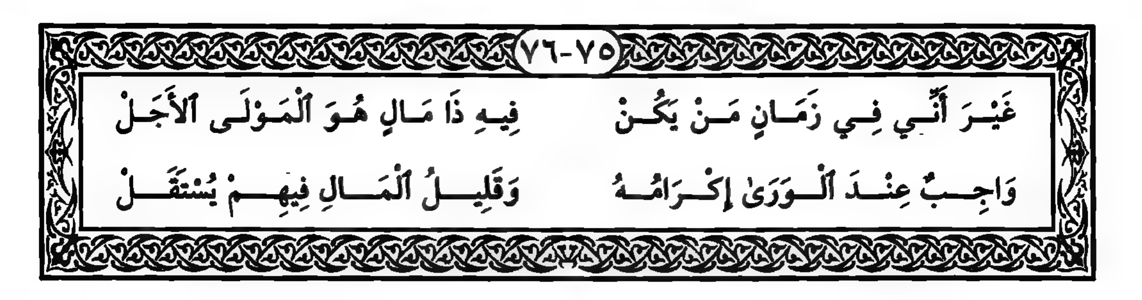
أي : أنا كخشب الخيزران في كوني ليّناً ، ومع ذلك صعب الكسر ، فلا يقدر أحدٌ علىٰ أذيّتي ؛ لتوكُّلي علىٰ ربِّي سبحانه وتعالىٰ ، وقوّتي وشدَّتي به سبحانه وتعالىٰ ، كما أنَّ الخيزران وإن كان ليناً في نفسه صعبٌ في كسره ، فلا بُدَّ مِنَ الاستعانة عليه بالقدوم ونحوه ، كما هو محسوس .

قال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ .

ولا شكَّ أنَّ الشيخ عمر بن الورديّ صاحبَ المنظومة كان مِنَ المتوكِّلين على الله تعالىٰ ، ومِنَ العلماء العاملين ، كما تقدَّم الكلام عليه في أوَّل الشرح مبسوطاً ، نفعنا الله تعالىٰ به ، وجعلنا مِنْ أتباعه ، آمين .

* * *

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



٧٥-٧٦

غَيْـرَ أَنِّـي فِـي زَمَـانٍ مَـنْ يَكُـنْ ... فِيـهِ ذَا مَـالٍ هُـوَ ٱلْمَـوْلَـى ٱلأَجَـلْ

وَاجِـبٌ عِنْـدَ ٱلْـوَرَىٰ إِكْـرَامُـهُ ... وَقَلِيـلُ ٱلْمَـالِ فِيهِـمْ يُسْتَقَـلْ

لمَّا ذكر ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : أنَّ كلامه له رائحة ذكيَّة كرائحة الورد بل أعلىٰ ؛ لِمَا ٱشتمل عليه مِنَ المواعظ الجليلة والتحقيق والتدقيق ، وأراد ـ رحمه الله تعالىٰ ـ نشره بين الخلائق ؛ لأجل أن يزداد ثوابه بكثرة أتباعه الآخذين عنه . . ٱستثنىٰ وأخبر أنَّه في زمان لم يكن قابلاً لِمَا يريده مِنْ نشر العلوم وإظهار الفضائل ، بل هو في زمان أقبل أهله على الدنيا وأعرضوا عنِ الآخرة ، وتقدَّمت فيه أصحاب الأموال ـ ولو كانوا جهلة ـ علىٰ أهل العلم والفضل ، فصاحب المال عندهم عزيز مكرَّم مقبول القول ، وأمَّا قليل المال . . فهو الحقير المستقلُّ الذليل المهان ، الذي لا تُسمع له كلمة .

ولله درُّ القائل : [من الكامل]

إِنَّ ٱلْغَنِـيَّ إِذَا تَكَلَّـمَ بِـٱلْخَطَـا ... قَـالُـوا أَصَبْـتَ وَصَـدَّقُـوا مَـا قَـالاَ

وَإِذَا ٱلْفَقِيـرُ أَصَـابَ قَـالُـوا كُلُّهُـمْ ... أَخْطَـأْتَ يَـا هَـٰذَا وَقُلْـتَ ضَـلاَلاَ

إِنَّ ٱلـدَّرَاهِـمَ فِـي ٱلأَمَـاكِـنِ كُلِّهَـا ... تَكْسُـو ٱلـرِّجَـالَ مَهَـابَـةً وَجَمَـالاَ

فَهِـيَ ٱللِّسَـانُ لِمَـنْ أَرَادَ فَصَـاحَـةً ... وَهِـيَ ٱلسِّـلاَحُ لِمَـنْ أَرَادَ قِتَـالاَ[1]

وقالوا : إذا ٱفتقر الرجل . . ٱتَّهمه مَنْ كان يأمنه ، وأساء به الظنَّ مَنْ كان يحسنه ، وإذا أذنب غيره . . ينسب إليه ، ومَنْ كان له . . صار عليه .

ولله درُّ القائل : [من الكامل]

يَغْـدُو ٱلْفَقِيـرُ وَكُـلُّ شَـيْءٍ ضِـدُّهُ ... وَٱلنَّـاسُ تُغْلِـقُ دُونَـهُ أَبْـوَابَهَـا

(١) الأبيات لأبي العيناء محمد بن القاسم الهاشمي في « ديوانه » (ص٤٠) .

وَتَـرَاهُ مَمْقُـوتـاً وَلَيْـسَ بِمُـذْنِـبٍ ... وَيَـرَى ٱلْعَـدَاوَةَ لاَ يَـرَىٰ أَسْبَـابَهَـا
حَتَّـى ٱلْكِـلاَبُ إِذَا رَأَتْ ذَا بِـزَّةٍ ... أَصْغَـتْ إِلَيْـهِ وَحَـرَّكَـتْ أَذْنَـابَهَـا
وَإِذَا رَأَتْ يَـوْمـاً فَقِيـراً عَـارِيـاً ... نَبَحَـتْ عَلَيْـهِ وَكَشَّـرَتْ أَنْيَـابَهَـا[(١)]

وقال عبد الملك بن صالح : ربَّ حسب دفنه الفقر .

ولله درُّ القائل : [من البسيط]

أَلْفَقْـرُ يُـزْرِي بِـأَقْـوَامٍ ذَوِي حَسَـبٍ ... وَقَـدْ يُسَـوِّدُ غَيْـرَ ٱلسَّيِّـدِ ٱلْمَـالُ[(٢)]

وقالوا : الفقر يخرس لسان الفطن عن حجته ، ويجعله غريباً في بلدته .

وما أحسن ما قاله بعضهم : [من الطويل]

وَلاَ رَفْـعَ لِلنَّفْـسِ ٱلـدَّنِيَّـةِ كَـٱلْغِنَـى ... وَلاَ وَضْعَ لِلنَّفْسِ ٱلشَّرِيفَةِ كَٱلْفَقْرِ[(٣)]

قاله في « غرر الخصائص » .

وكلام الناظم رحمه الله تعالىٰ بالنسبة لما كان في زمانه ، وهو في آخر القرن السابع وأوَّل الثامن ، وكان في الحقيقة زمان الخير والفضل والسيادة ، خصوصاً وكان فيه محدِّثون وفقهاء وأصوليُّون ومتكلِّمون ونحوهم مِنْ علماء الإسلام ، فما بالك بزماننا هـٰذا الذي تقدمت فيه الجهلاء على الفضلاء ، والأشرار على الأخيار ، وٱنقرضت فيه العلماء ، وٱشتبه فيه الأمر ، وصار القابض فيه علىٰ دينه كالقابض على الجمر ، وحظي فيه القواد والمتمسخرون ؟! كما قال الشاعر : [من الخفيف]

قَـدْ رُمِينَـا مِـنَ ٱلـزَّمَـانِ بِسَهْـمٍ ... قَـدَّمَ ٱلنَّـذْلَ وَٱلْكَـرِيـمُ تَـأَخَّـرْ
مَـاتَ مَـنْ عَـاشَ بِـٱلْفَضِيلَـةِ جُـوعـاً ... وَحَظِـي مَـنْ يَقُـودُ أَوْ يَتَمَسْخَـرْ

فلا حول ولا قوَّة إلا بالله العليِّ العظيم ، إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون .

---

(١) الأبيات في « المستطرف » (٢/ ٩٧) منسوبة لابن الأحنف .
(٢) البيت لمنصور بن إسماعيل الفقيه كما في « عيون الأخبار » (١/ ٢٣٩) ، و« بهجة المجالس » (١/ ٢٠٣) ، و« محاضرات الأدباء » (١/ ٥٨٦) ، و« المستطرف » (٢/ ٩٦) .
(٣) البيت من غير نسبة في « روضة العقلاء » (ص١٧٦) ، و« بهجة المجالس » (١/ ٢٠٩) ، و« المستطرف » (٢/ ٩٧) .

وفي « الجامع الصغير » : (قال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّكُمْ فِي زَمَانٍ مَنْ تَرَكَ مِنْكُمْ عُشْرَ مَا أُمِرَ بِهِ . . هَلَكَ ، ثُمَّ يَأْتِي زَمَانٌ مَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ بِعُشْرِ مَا أُمِرَ بِهِ . . نَجَا » رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله تعالىٰ عنه)[1] .

قال المناوي : (إنكم أيُّها الصحب في زمان [متصف] بالأمن وعزِّ الإسلام ، مَنْ ترك منكم فيه عشر ما أمر به مِنَ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . هلك ؛ أي : وقع في الهلاك ؛ لأنَّ الدين فيه عزيز ، وفي أنصاره كثرة ، فالترك تقصير بلا عذر ، ثمَّ يأتي زمان يضعف فيه الإسلام ، ويكثر فيه الظلم ، ويعمُّ فيه الفسق ، وتقلُّ أنصار الدين ، وحينئذٍ مَنْ عمل منهم ـ أي : من أهل ذلك الزمن ـ بعشر ما أمر به . . نجا ؛ لأنَّه المقدور ، ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾) اهـ[2]

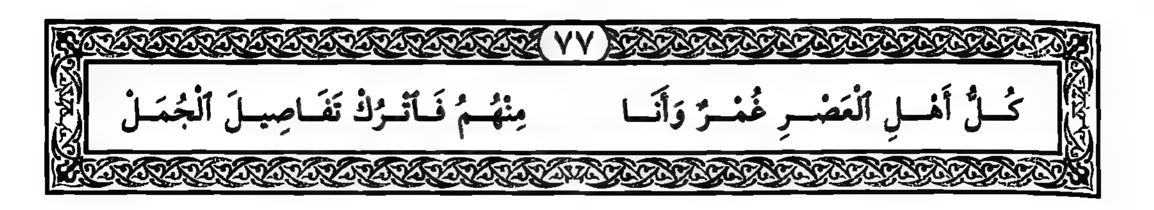
* * *

---

(1) « الجامع الصغير » (٥٢٤٢) ، والحديث أخرجه الترمذي (٢٢٦٧) ، والطبراني في « الصغير » (٢/١٣٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/٣١٦) ، وتمام في « فوائده » (٧٦) .

(2) « فيض القدير » (٢/٥٥٦) .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :



كُـلُّ أَهْـلِ ٱلْعَصْـرِ غُمْـرٌ وَأَنَـا مِنْهُـمُ فَـٱتْـرُكْ تَفَـاصِيـلَ ٱلْجُمَـلْ

أي : جميع أهل العصر ـ أي : الدهر المعهود ، وهو عصره رضي الله تعالىٰ عنه ، فما بالك بعصرنا ـ غُمر ، بضمِّ الغين المعجمة ؛ أي : لم يجرِّبِ الأمور ، وأصله الصبيُّ الذي لا عقل له ، ثمَّ أُطلق علىٰ كلِّ مَنْ لا خير فيه ولا عقل له ولا رأي ولا عمل صالح .

ثمَّ إنَّه رحمه الله تعالىٰ نصَّ علىٰ نفسه بأنَّه غمر بقوله : (**وأنا منهم**) بعد دخوله في القضية الكلية ، وهي قوله : (**كلُّ أهل العصر غمر**) تواضعاً لربِّه عزَّ وجلَّ ، ومِنَ المعلوم أنَّ مَنْ تواضع لله .. رفعه ، ثمَّ أَمَرَ بترك البحث والنظر في أحوال الخلق بقوله : (**فٱترك تفاصيل الجمل**) أي : ٱترك تفصيل الأشياء المجملة المجموعة ، وعليك بنفسك ، فٱجتهد في خلاصها بالأعمال الصالحة ، ولا تنظر إلىٰ عيوب غيرك ؛ لأنَّه تضييع للزمان فيما لا يعنيك ، ومِنْ حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه .

ولله درُّ القائل : [من الطويل]

صُنِ ٱلْعِرْضَ وَٱبْذُلْ كُلَّ مَالٍ مَلَكْتَهُ فَـإِنَّ ٱبْتِـذَالَ ٱلْمَـالِ لِلْعِـرْضِ أَصْـوَنُ
وَلاَ تُطْلِقَـنْ مِنْـكَ ٱللِّسَـانَ بِسَـوْءَةٍ فَعِنْـدَكَ عَـوْرَاتٌ وَلِلنَّـاسِ أَلْسُـنُ
وَعَيْنَـاكَ إِنْ أَبْـدَتْ إِلَيْـكَ مَعَـايِبـاً بِقَـوْمٍ فَقُـلْ يَـا عَيْـنُ لِلنَّاسِ أَعْيُـنُ
وَعَاشِرْ بِمَعْرُوفٍ وَسَامِحْ مَنِ ٱعْتَدَىٰ وَفَـارِقْ وَلَكِـنْ بِـٱلَّتِي هِـيَ أَحْسَـنُ[1]

قال بعضهم : إذا وجدتَ قساوة في قلبك ، وضعفاً في بدنك ، وحرماناً في رزقك .. فٱعلم أنك تكلَّمت بما لا يعنيك ، فكلام الشخص فيما لا يعنيه يقسِّي القلب ، ويُضْعِفُ البدن ، ويعسر أسباب الرزق .

---

(١) الأبيات من غير نسبة في « غرر الخصائص » (ص٧٠) .

وروىٰ أبو عبيدة عنِ الحسن أنَّه قال : (مِنْ علاماتِ إعراض الله عنِ العبد : أن يجعل شغله فيما لا يعنيه) .

ومرَّ حسان بن أبي سفيان بغرفة فقال : متىٰ بُنيت هـٰذه ؟ ثمَّ أقبل علىٰ نفسه وقال : تسألين عمَّا لا يعنيك ، لأعاقبنَّك بصوم سنةٍ ، فصامها .

تَتِـمَّة
في ضابط ما يعني وما لا يعني

فالذي يعني الإنسان : ما يتعلَّق بضرورة حياته في معاشه ؛ ممَّا يشبعه مِنْ جوع ، ويرويه مِنْ عطش ، ويستر عورته ، ويعفُّ فرجه ، ونحو ذلك ممَّا يدفع الضرورة ، دون ما فيه تلذُّذٌ وتنعم ، وما يتعلَّق بمعاده ممَّا فيه ثواب .

والذي لا يعني : هو ما لا تدعو الضرورة إليه ؛ مِنَ اللعب والهزل ، وكلُّ ما يُخِلُّ بالمروءة ، والتوسُّع في الدنيا ، وطلب المناصب والرياسة ، وحبِّ المحمدة ، ونحو ذلك ممَّا لا يعود عليه منه نفع أخروي ، فإنَّه ضياع للوقت النفيس الذي لا يمكن أن يعوَّض فائتُهُ .

وقال بعضهم : ما لا يعنيه : هو ما يخاف فيه فوات الأجر ، والذي يعنيه : هو ما لا يخاف فيه ذلك .

وقال بعضهم : ما يعنيه : هو ما يعود عليه منه منفعة لدينه أو دنياه الموصلة لآخرته ، وما لا يعنيه عكسه ؛ وهو : ما لا يعود عليه منه منفعة لدينه أو دنياه الموصلة لآخرته ، بخلاف دنيا تقطعه وتفسد عليه آخرته . اهـ

وهـٰذا آخر كلام الناظم رحمه الله تعالى
والحمد لله أولاً وآخراً

ولنتكلَّم علىٰ ثلاثة أبيات ليست مِنْ كلام الناظم لكنَّها مِنَ القافية والوزن ، تضمَّنتِ الصلاة والسلام علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلىٰ آله وصحبه والسادة المتقدِّمين ، فاَخترنا الكلام عليها ؛ تتميماً للفائدة ، بل هي الفائدة العظمىٰ ؛ لأنَّه صلى الله عليه وسلم باب الله الأعظم ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ الآية ، وهي هـٰذه :

* * *

[قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين] :

٧٨

وَصَــــلاَةٌ وَسَــــلاَمٌ أَبَــــداً   لِلنَّبِــيِّ ٱلْمُصْطَفَــىٰ خَيْــرِ ٱلــدُّوَلْ

أي : ودعاء بخير وأمان مِنْ جميع الآفات ، ثابت كلٌّ منهما أبداً ـ أي : دهراً طويلاً ليس بمحدود ـ للنبي ؛ أي : كائناً للنبيِّ المصطفىٰ ـ أي : المختار ـ خير ـ أي : أفضل ـ الدول : جمع دولة ؛ مِنْ لَدُنْ آدمَ إلىٰ يوم القيامة . اهـ

والصلاة في اللغة : الدعاء بخير ، وهو المراد هنا .

وفي الشرع : أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم بشرائط مخصوصة .

والصحيح : أنَّ الله تعالىٰ يزيد نبيَّه رِفعةً بصلاتنا عليه ، ويثيبنا نحن على الصلاة ، لكن لا ينبغي للمصلِّي أن يقصد نفع النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وإنَّما يقصد نفع نفسه .

والصلاة عليه صلى الله عليه وسلم مقبولة قطعاً ، ولا يدخلها رياءٌ بالنسبة للقدر الذي للمصطفىٰ صلى الله عليه وسلم ، وأمَّا القدر الذي للمصلي . . فيدخله الرياء ويؤثِّر فيه .

وبالجملة : فالمصلِّي ينتفع بها ولو كان مرائياً ؛ لأنَّ الثواب الحاصل للمصطفىٰ عليه الصلاة والسلام كاف في ذلك .

وجمع الناظم بين الصلاة والسلام ؛ خروجاً مِنْ كراهة إفراد أحدهما عنِ الآخر .

وقوله : (للنبيِّ) بتشديد الياء مأخوذٌ مِنْ نبا ينبو : إذا علا وارتفع ؛ لأنَّه مرفوع الرتبة علىٰ غيره ، أو بالهمزة مأخوذٌ مِنَ النبأ ، وهو الخبر ؛ لأنَّه مخبَرٌ ـ بفتح الباء ـ أي : أخبره جبريل عنِ الله تعالىٰ ، أو مخبِرٌ ـ بكسر الباء ـ أي : الخلق .

فإن قلت : قد ورد النهي عن المهموز ؛ وهو قوله عليه الصلاة والسلام : « لاَ تَقُولُوا : يَا نَبِيءَ ٱللهِ ، وَإِنَّمَا قُولُوا : يَا نَبِيَّ ٱللهِ »(١) أي : بالتشديد .

---

(١) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٢٣١) وتعقبه الذهبي فرده .

فجوابه : أنَّ المهموز يطلق ويراد به الطريد ، ويطلق ويراد به المخبر ، فلمَّا كان يُتوهَّم منه معنى الطريد. . نهاهم عنه أولاً ، ولكن لمَّا كثُرَ الإسلام وشاع. . صار لا يُتوهَّم هٰذا المعنىٰ .

وهو : إنسان أوحي إليه بشرعٍ وأُمر بتبليغه ، فكلُّ رسول نبيٌّ ولا عكس ، والكلام عليها شهير ، فلا نطيل بذكره .

* * *

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :

(٧٩)

وَعَلَــى ٱلآلِ ٱلْكِــرَامِ ٱلسُّعَــدَا وَعَلَـى ٱلأَصْحَـابِ وَٱلْقَـوْمِ ٱلأُوَلْ

أي : وصلاة وسلام على الآل ؛ أي : آله صلى الله عليه وسلم ، و(آل) عوضٌ عنِ الضمير .

وآله صلى الله عليه وسلم في مقام تحريم الزكاة : مؤمنو بني هاشم وبني المطلب ، وفي مقام المدح : كلُّ تقيٍّ ، وفي مقام الدعاء : كلُّ مؤمن ولو عاصياً كما هنا .

وقوله : (الكرام) نعت (الآل) أي : الأخيار ، جمع : كريم .

(السعدا) نعتٌ ثانٍ ، جمع : سعيد ؛ وهو : خلاف الشقي .

(وعلى الأصحاب) أي : وصلاة وسلام عليهم ، جمع صاحب ، ويجمع علىٰ : صحب وصحابة أيضاً ، فلـ(صاحب) ثلاثة جموع ؛ وهو : مَنِ ٱجتمع مؤمناً بنبيِّنا محمد صلى الله عليه وسلم ومات علىٰ ذلك ، والكلام عليه مشهور .

وصلاة وسلام أيضاً على القوم الأُوَل ؛ أي : الجماعة السالفين مِنَ التابعين وتابعيهم بإحسان ؛ كالأئمة الأربعة ، وتلامذتهم ، وكالشيخ الجنيد ، وأتباعه ، رحمهم الله ونفعنا بهم ، آمين .

والقوم ـ كما في « المصباح » ـ : جماعة الرجال ليس فيهم ٱمرأة ، الواحد : رجل وامرؤ مِنْ غير لفظه ، والجمع : أقوام ، سموا بذلك ؛ لقيامهم بالعظائم والمهمَّات .

قال الصغاني : وربَّما دلَّ على النساء تبعاً ؛ لأنَّ قومَ كلِّ نبيٍّ رجالٌ ونساءٌ ، ويذكر القوم ويؤنَّث ، فيقال : قام القوم ، وقامتِ القوم ، وكذلك كلُّ ٱسمِ جمع لا واحد له مِنْ لفظه ؛ نحو : رهط ، ونفر . اهـ

فعلم مِنَ النظم : أنَّ الصلاة والسلام يجوزان علىٰ غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تبعاً ، وهو كذلك ، وأمَّا ٱستقلالاً . . فلا يجوز ، فيقال : اللهمَّ ؛ صلِّ على النبيِّ وعلىٰ

سيدي عبد الرحيم القناوي فقط ، ولا يَرِدُ قولُهُ صلى الله عليه وسلم : « ٱللَّهُمَّ ؛ صَلِّ عَلَىٰ آلِ بني أَوْفَىٰ »[1] ؛ لأنَّ مَنِ ٱستحقَّ شيئاً . . له أن يخصَّ به غيره .

وٱعلم : أنَّ مقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام : الصلاة والتسليم ، ومقام الصحابة : الترضِّي ، ومقام مَنْ بعدهم : الترحُّم ، كما نصَّ عليه الأئمة المحقِّقون .

* * *

(١) أخرجه البخاري (١٤٩٧) ، ومسلم (١٠٧٨) .

قال الناظم رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين :

٨٠

مَـا نَـوَى ٱلـرَّكْـبُ بِعُشَّـاقٍ إِلَـىٰ أَيْمَـنِ ٱلْحَـيِّ وَمَـا غَنَّـىٰ رَمَـلْ

(ما) مصدرية ظرفية للصلاة والسلام علىٰ مَنْ ذُكر ، و(نوىٰ) بالواو مِنَ النيَّة ؛ وهي العزم ؛ أي : ما عزم وسار الركب ، جمع : راكب ، مثل : صحب وصاحب ، ويجمع أيضاً علىٰ : ركبان ، كما في « المصباح » .

وقوله : (بعشاق) متعلق بـ(نوىٰ) جمع : عاشق ، وهو المفرط في المحبَّة ، ويطلق على الذكر والأنثىٰ ، فيقال : رجل عاشق ، وامرأة عاشق أيضاً ، كما في « المصباح » .

وقوله : (إلىٰ أيمن الحي) متعلِّق بـ(نوىٰ) ، و(أيمن) بفتح الميم أي : جهة اليمين كما في قوله صلى الله عليه وسلم : « ٱلأَيْمَنَ فَٱلأَيْمَنَ »[1] ، وأمَّا بضمِّ الميم . . فهو اليمين[2] ، و(الحي) : هو القبيلة مِنَ العرب ، والجمع : أحياء ، وسميت القبيلة حيّاً ؛ لحياتها بالساكنين فيها .

وقوله : (وما غنَّىٰ) بتشديد النون ؛ أي : ترنَّم بالغناء ؛ أي : الصوت .

قال في « المصباح » : (والغناء ـ مثل كتاب ـ أي : الصوت ، وغنَّىٰ بالتشديد : إذا ترنَّم بالغناء) .

وقوله : (رمل) بفتح الراء المهملة وفتح الميم : هو نوع مِنْ أنواع النغم ؛ كالرهاوي ، والحسيني ، والحجازي ، والعربي ، والرصد ، والسيكاه ، وما أشبه ذلك مِنْ أنواع الأهوية .

وفي قوله : (غنَّىٰ رمل) : إشارةٌ إلىٰ بحر هـٰذه القصيدة ، فهي مِنْ بحر الرمل ، كما تقدَّم في صدر الكتاب .

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٥٢) ، ومسلم (٢٠٢٩) .

(٢) أي : جمع يمين ، وهو القَسَم .

خاتِمَة

[في فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم]

رُوىٰ أبو طلحة رضي الله تعالىٰ عنه قال : دخلت علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجهه يبرُق ، فقلت : يا رسول الله ؛ ما رأيتك كاليوم أطيب نفساً منك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وَمَا لِي لاَ تَطِيبُ نَفْسِي وَقَدْ جَاءَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ ٱلسَّاعَةَ فَقَالَ لِي : مَنْ صَلَّىٰ عَلَيْكَ مِنْ أُمَّتِكَ صَلاَةً . . كُتِبَ لَهُ بِهَا عَشْرُ حَسَنَاتٍ ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ عَشْرُ سَيِّئَاتٍ ، وَرُفِعَ لَهُ عَشْرُ دَرَجَاتٍ ؟! »[(١)] .

وروي عن عائشة رضي الله عنها قالت : كنت أخيط شيئاً في السَّحَر ، فسقطتِ الإبرة وأنطفأ المصباح ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأضاء البيت مِنْ ضياء وجهه ، فوجدت الإبرة فقلت : ما أضوأ وجهك يا رسول الله! فقال : « يَا عَائِشَةُ ؛ ٱلْوَيْلُ لِمَنْ لَمْ يَرَنِي يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ » ، قالت : فقلت : ومَنِ الذي لم يرك يوم القيامة ؟ قال : « البخيل » ، فقلت : ومَنِ البخيل يا رسول الله ؟ قال : « ٱلَّذِي إِذَا ذُكِرْتُ عِنْدَهُ . . لَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ »[(٢)] .

وعن أنس بن مالك رضي الله تعالىٰ عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ صَلَّىٰ عَلَيَّ صَلاَةً وَاحِدَةً لَيْلَةَ ٱلْجُمُعَةِ أَوْ يَوْمَ ٱلْجُمُعَةِ . . قَضَى ٱللهُ لَهُ مِئَةَ حَاجَةٍ ؛ سَبْعِينَ مِنْ حَوَائِجِ ٱلآخِرَةِ ، وَثَلاَثِينَ مِنْ حَوَائِجِ ٱلدُّنْيَا ، وَبَعَثَ إِلَيَّ مَلَكاً يَدْخُلُ عَلَىٰ قَبْرِي ، فَيُخْبِرُنِي بِٱسْمِهِ وَنَسَبِهِ ، فَأَكْتُبُهُ عِنْدِي فِي صَحِيفَةٍ بَيْضَاءَ »[(٣)] .

وروي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « ثَلاَثَةٌ تَحْتَ ظِلِّ ٱلْعَرْشِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في « المصنف » (٣١١٣) ، وأحمد (٤/ ٢٩) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (١٤٢٥) ، وبنحوه عند ابن حبان (٩١٥) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/ ٤٢٠) .

(٢) أورده بلفظه أبو سعد في « شرف المصطفىٰ » (٣١٤) ، وجاء مسنداً بنحوه عند الأصبهاني في « دلائل النبوة » (١١٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣/ ٣١٠) .

(٣) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٢٧٧٣) ، و« فضائل الأوقات » (٢٧٦) ، وابن منده في « فوائده » (٥٦) ، وابن بشكوال في « القربة » (١١٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٤/ ٣٠١) .

ظِلُّهُ » ، قيل : مَنْ هم يا رسول الله ؟ قال : « مَنْ فَرَّجَ عَنْ مَكْرُوبٍ مِنْ أُمَّتِي ، وَمَنْ أَحْيَا سُنَّتِي ، وَمَنْ أَكْثَرَ ٱلصَّلاَةَ عَلَيَّ »[1] .

وعن أبي هريرةَ رضي الله تعالىٰ عنه ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّهُ قال : « مَنْ صَلَّىٰ عَلَيَّ فِي كِتَابٍ . . لَمْ تَزَلِ ٱلْمَلاَئِكَةُ تَسْتَغْفِرُ لَهُ مَا دَامَ ٱسْمِي فِي ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابِ »[2] .

وروي : أنَّه صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ صَلَّىٰ عَلَيَّ تَعْظِيماً لِحَقِّي . . خَلَقَ ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَلَكاً مِنْ ذَٰلِكَ ٱلْقَوْلِ ، أَحَدُ جَنَاحَيْهِ بِٱلْمَشْرِقِ وَٱلآخَرُ بِٱلْمَغْرِبِ ، وَرِجْلاَهُ مَغْرُوزَتَانِ فِي ٱلأَرْضِ ٱلسَّابِعَةِ ، وَعُنُقُهُ تَحْتَ ٱلْعَرْشِ ، فَيَقُولُ ٱللهُ تَعَالَىٰ لَهُ : صَلِّ عَلَىٰ عَبْدِي كَمَا صَلَّىٰ عَلَىٰ نَبِيِّي ، فَهُوَ يُصَلِّي عَلَيْهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ »[3] .

وروي : أنَّه صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ ٱللهَ وَكَّلَ بِقَبْرِي مَلَكَيْنِ ، فَلاَ أُذْكَرُ عِنْدَ مُسْلِمٍ فَيُصَلِّي عَلَيَّ . . إِلاَّ قَالَ ٱلْمَلَكَانِ مُجِيبَيْنِ لَهُ : غَفَرَ ٱللهُ لَكَ ، وَتَقُولُ حَمَلَةُ ٱلْعَرْشِ وَسَائِرُ ٱلْمَلاَئِكَةِ جَوَاباً لِلْمَلَكَيْنِ : آمِينَ ، وَلاَ أُذْكَرُ عِنْدَ أَحَدٍ فَلاَ يُصَلِّي عَلَيَّ . . إِلاَّ قَالَ ٱلْمَلَكَانِ : لاَ غَفَرَ ٱللهُ لَكَ ، وَتَقُولُ حَمَلَةُ ٱلْعَرْشِ وَسَائِرُ ٱلْمَلاَئِكَةِ جَوَاباً لِلْمَلَكَيْنِ : آمِينَ »[4] .

وروي : أنَّهُ صلى الله عليه وسلم قال : « أَكْثَرُكُمْ عَلَيَّ صَلاَةً أَكْثَرُكُمْ فِي ٱلْجَنَّةِ أَزْوَاجاً »[5] .

وروي : أنَّهُ صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ صَلَّىٰ عَلَيَّ مِئَةَ مَرَّةٍ . . تَزَحْزَحَتِ ٱلنَّارُ عَنْهُ »[6] .

---

(١) ذكره الإمام السخاوي في « القول البديع » (ص٢٦٣) وقال : (ذكره صاحب « الدر المنظم » ، ولم أقف له علىٰ أصل معتمد ، إلا أن صاحب « الفردوس » عزاه لأنس بن مالك ، ولم يسنده ولده ، وعزاه غيره لـ« فوائد الخِلَعي » من حديث أبي هريرة ، فالله أعلم) .

(٢) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (١٨٥٦) ، والخطيب في « شرف أصحاب الحديث » (ص٣٥) و(ص١١١) ، وابن بشكوال في « القربة » (٤٢) ، والسمعاني في « أدب الإملاء والاستملاء » (ص٦٣) .

(٣) أخرجه الديلمي في « الفردوس » (١١٢٤) ، وابن بشكوال في « القربة » (١٦) ، وعزاه السخاوي في « القول البديع » (ص٢٥١) لابن شاهين في « ترغيبه » وقال : (وهو حديث منكر) .

(٤) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٨٩/٣) ، والثعلبي في « تفسيره » (٦٢/٨) ، وعزاه السخاوي في « القول البديع » (ص٢٥٢) إلىٰ « أمالي الدقيقي » و« ابن مردويه » .

(٥) قال الإمام السخاوي في « القول البديع » (ص٢٦٨) : (ذكره صاحب « الدر المنظم » لكني لم أقف عليه إلى الآن) .

(٦) أخرج بنحوه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٢٤٧/٢) ، ومن طريقه ابن الجوزي في « الموضوعات » (٢٢٣/١) .

وروي : « أَنَّهُ إِذَا كَانَ يَوْمُ ٱلْقِيَامَةِ . وُضِعَتْ حَسَنَاتُ ٱلْمُؤْمِنِ وَسَيِّئَاتُهُ ، فَتَنْزِلُ صَحَائِفُ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ بِيْضٌ عَلَىٰ حَسَنَاتِهِ ، فَتَرْجِحُ حَسَنَاتُهُ عَلَىٰ سَيِّئَاتِهِ ، فَيَقُولُ ٱللهُ تَعَالَىٰ : هَـٰذِهِ صَلاَتُكَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ، ثَقَّلْتُ بِهَا مِيزَانَكَ ، وَجَعَلْتُهَا لَكَ ذَخِيرَةً »[1]

ولله درُّ القائل : [من الطويل]

لِأَحْمَـدَ فَضْـلٌ لاَ يُعَـدُّ وَلاَ يُحْصَـىٰ ... وَلَيْسَ لَهُ فِي ٱلدَّهْرِ حَدٌّ فَيُسْتَقْصَىٰ
فَمَـنْ كَـانَ مِثْلِـي مُـذْنِبـاً وَمُقَصِّـراً ... فَجَـاهُ رَسُـولِ ٱللهِ قَـدْ جَبَـرَ ٱلنَّقْصَـا
فَيَا فَـوْزَ مَـنْ صَلَّىٰ عَلَيْـهِ مِـنَ ٱلْـوَرَىٰ ... فَـذَاكَ بِتَثْقِيـلٍ لِمِيـزَانِـهِ خُصَّـا[2]

وروىٰ جابر بن عبد الله رضي الله تعالىٰ عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَصْبَحَ وَأَمْسَىٰ وَقَالَ : ٱللَّهُمَّ يَا رَبَّ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ ؛ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ ، وَٱجْزِ مُحَمَّداً صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنَّا مَا هُوَ أَهْلُهُ . أَتْعَبَ سَبْعِينَ كَاتِباً أَلْفَ صَبَاحٍ وَلَمْ يَكُنْ لِنَبِيِّهِ حَقٌّ إِلاَّ أَدَّاهُ ، وَغُفِرَ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ ، وَيُحْشَرُ مَعَ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ »[3] .

وعن وهب بن مُنبِّه رحمه الله تعالىٰ : أنَّه قال : لمَّا خلق الله آدم عليه الصلاة والسلام ونفخ فيه روحه . . فتح عينيه ، فنظر إلىٰ باب الجنَّة ، فرأىٰ مكتوباً : لا إلـٰه إلا الله محمد رسول الله ، فقال : أي ربِّ ؛ هل تخلق خلقاً هو أعزُّ عليك منِّي ؟ فقال : نعم ؛ نبياً مِنْ ذرِّيَّتك ، فلمَّا خلق الله حوَّاء وركَّب فيه الشهوة . . قال : يا ربِّ ؛ زوِّجني بها ، فقال الله تعالىٰ : ادفع مهرها ، فقال : يا رب ؛ وما مهرها ؟ قال : أن تصلي علىٰ صاحب هـٰذا الاسم مئة مرَّة ، قال : إن فعلت تزوِّجنيها ؟ قال : نعم ، فصلَّىٰ آدم على النبيِّ صلى الله عليه وسلم مئة مرَّة ، فكان ذلك مهرها ، فزوَّجه الله تعالىٰ بها .

ولله درُّ القائل : [من الكامل]

وَأَبُـوكَ آدَمُ إِذْ رَأَىٰ حَـوَّا وَقَـدْ ... زُفَّـتْ بِـأَنْـوَاعِ ٱلْحُلِـي وَٱلْجَـوْهَـرِ

---

(1) أخرج بنحوه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » (٨٠) .
(2) الأبيات في « الروض الفائق » (ص٤٠٨) .
(3) أخرج بعضه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما الطبراني في « الكبير » (١١/ ١٦٥) ، و« الأوسط » (٢٣٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٠٦) ، وابن بشكوال في « القربة » (١٥) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٨/ ٣٣٤) .

صَلَّىٰ عَلَيْكَ فَكَانَ ذَلِكَ مَهْرُهَا ... وَٱلْحُورُ بَيْنَ مُهَلِّلٍ وَمُكَبِّرِ[1]

وروي : « أَنَّ أَصْحَابَ ٱلْحَدِيثِ يَأْتُونَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ بِمَحَابِرِهِمْ ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ لِجبرِيلَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ : ٱقْضِ حَوَائِجَهُمْ ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا يُصَلُّونَ كَثِيراً عَلَى ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ٱلدُّنْيَا ، فَخُذْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَدْخِلْهُمُ ٱلْجَنَّةَ »[2] .

وقال بعض الصوفية : كان لي جار مسرف علىٰ نفسه ، لا يعرف مِنْ سكره يومَه مِنْ أمسه ، وكنت أعظه فلا يقبل ، وآمره بالتوبة فلا يفعل ، فلمَّا مات.. رأيته في المنام وعليه مِنْ حلل الجنَّة لباس الإعزاز والإكرام ، فقلت له : بم نلت هـٰذه المنزلة وهـٰذا المقام ؟ فقال : حضرت يوماً مجلس الذكر ، فسمعت المحدِّث يقول : مَنْ صلَّىٰ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم ورفع صوته.. وجبت له الجنَّة ، ثمَّ رفع المحدِّث صوته بالصلاة على النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، ورفعتُ صوتي معه ، ورفع القوم أصواتهم ، فغفر لنا جميعاً في ذلك اليوم ، فكان نصيبي مِنْ هـٰذه الصلاة أن جاد عليَّ بهـٰذه النعمة[3] .

ولله درُّ القائل : [من الكامل]

إِنْ شِئْتَ مِنْ بَعْدِ ٱلضَّلَالَةِ تَهْتَدِي ... صَلِّ عَلَى ٱلْهَادِي ٱلْبَشِيرِ مُحَمَّدِ
يَا فَوْزَ مَنْ صَلَّىٰ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ ... يَحْوِي ٱلْأَمَانِي بِٱلنَّعِيمِ ٱلسَّرْمَدِي
يَا قَوْمَنَا صَلُّوا عَلَيْهِ فَتَظْفَرُوا ... بِٱلْبِشْرِ وَٱلْعَيْشِ ٱلْهَنِيِّ ٱلْأَرْغَدِ
صَلُّوا عَلَيْهِ وَٱرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ ... يَغْفِرْ لَكُمْ فِي يَوْمِكُمْ قَبْلَ ٱلْغَدِ
وَيَخُصَّكُمْ رَبُّ ٱلْأَنَامِ بِفَضْلِهِ ... بِأَفَاضِلِ ٱلْجَنَّاتِ يَوْمَ ٱلْمَوْعِدِ
صَلَّىٰ عَلَيْهِ ٱللهُ جَلَّ جَلَالُهُ ... مَا لَاحَ فِي ٱلْآفَاقِ نَجْمُ ٱلْفَرْقَدِ

ومِنْ فضائل الصلاة على النبيِّ صلى الله عليه وسلم : ما حكي أنَّ امرأة كان لها ولد مسرف علىٰ نفسه ، وكانت تأمره بالخير وتنهاه عنِ الفحشاء والمنكر والقضاءُ والقدر غالب عليه ، فمات وهو مصرٌّ علىٰ ما كان عليه ، فحزنتْ عليه أمُّه حزناً شديداً ، وظنَّتْ أنَّه مات

---

(١) القصة مع الأبيات في « الروض الفائق » (٤٠٨) .

(٢) عزاه الإمام السخاوي في « القول البديع » (ص٤٦١) إلى الطبراني وضعفه ، ومن طريقه أخرجه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٤/ ١٨٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٦/ ٣٣٨) .

(٣) « الروض الفائق » (ص٤٠٩) .

علىٰ غير الملَّة ، فتمنَّت أنَّها تراه في النوم ، فرأته يعذَّب ، فآزدادت عليه حزناً ، فلمَّا كان بعد مدَّة رأته وهو علىٰ هيئة حسنة وهو فرح مسرور ، فسألته عن حاله وقالت : يا ولدي ؛ إنِّي رأيتك تُعذَّب ، فبم نلت هـٰذا الخير ؟ فقال : يا أماه ؛ آجتاز رجل مسرف علىٰ نفسه بالتربة التي أنا فيها ، فنظر إلى القبور ، وتفكَّر في البعث والنشور ، وآعتبر بالموتىٰ ، فبكىٰ علىٰ زلَّته ، وندم علىٰ خطيئته ، وتاب إلى الله تعالىٰ ، وعقد التوبة معه ألاَّ يعود ، ففرحتْ لتوبته ملائكة السماء ، ثمَّ إنَّه لمَّا تاب وعلم الله صدق نيَّته.. تاب عليه ، فقرأ شيئاً مِنَ القرآن ، وصلَّىٰ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم عشر مرَّات ، وأهدىٰ ثوابها لأهل التربة التي أنا فيها ، فقُسم ثوابها علينا ، فنابني مِنْ ذلك جزء ، فغفر الله لي ، وحصل لي مِنَ الخير ما ترين ، فآعلمي يا أماه أنَّ الصلاة على النبيِّ صلى الله عليه وسلم نور في القلوب ، وتكفير للذنوب ، ورحمة للأحياء والأموات[1] .

وقد قيل في بعض الرويات : إن للمصلين علىٰ سيِّد المرسلين عشرَ كرامات :

إحداهنَّ : صلاة الملك الغفار .

الثانية : شفاعة النبيِّ المختار .

الثالثة : الاقتداء بالملائكة الأبرار .

الرابعة : مخالفة المنافقين والكفار .

الخامسة : محو الخطايا والأوزار .

السادسة : قضاء الحوائج والأوطار .

السابعة : تنوير الظواهر والأسرار .

الثامنة : النجاة مِنَ النار .

التاسعة : دخول دار القرار .

العاشرة : سلام الملك الغفار[2] .

---

(١) « الروض الفائق » (ص٤٠٨) .

(٢) « الروض الفائق » (ص٤١١) .

ورئي إنسان بعد موته وعليه حُلَّة وعلىٰ رأسه تاج مكلَّل بالجواهر ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي وأكرمني وتوَّجني وأدخلني الجنَّة ، فقيل له : بماذا ؟ فقال : بكثرة صلاتي على النبيِّ صلى الله عليه وسلم[١] .

وروي : أنَّ مسرفاً مِنْ بني إسرائيل لمَّا مات . . رمَوه ، فأوحى الله لموسىٰ علىٰ نبيِّنا وعليه أفضل الصلاة والسلام : أنْ غسِّله وكفِّنه وصلِّ عليه ، فإنِّي قد غفرت له ، قال : يا رب ؛ وبِم ذلك ؟ قال : إنَّه فتح التوارة يوماً فوجد فيها ٱسم محمَّد صلى الله عليه وسلم ، فصلَّىٰ عليه ، فغفرت له بذلك[٢] .

ورأىٰ بعض الصالحين صورة قبيحة في النوم فقال لها : مَنْ أنت ؟ قالت : أنا عملك القبيح ، قال لها : فبم النجاة منك ؟ قالت : بكثرة الصلاة على المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم[٣] .

وجعل بعض الصالحين كل ليلة علىٰ نفسه عدداً معلوماً يصليه على النبيِّ صلى الله عليه وسلم عند النوم ، فأخذته عيناه ليلة ، فرأى النبيَّ صلى الله عليه وسلم داخلاً عليه ، فٱمتلأ بيته نوراً ، فقال له : هات هـٰذا الفمَ الذي يكثر الصلاة عليَّ أقبِّله ، قال : فٱستحييت ، فأدرت له خدِّي ، فقبَّله ، فٱنتبهت ، فإذا البيت يفوح مسكاً مِنْ رائحته صلى الله عليه وسلم ، وبقيت رائحة المسك في خدي نحو ثمانية أيام[٤] .

وحكي : أنَّ شخصاً كان يكثر الصلاة على النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فسئل عن ذلك ، فذكر : أنَّه خرج ومعه أبوه ، فبينما هو نائم في بعض المنازل وإذا قائل يقول : قم فقد أمات الله أباك وسوَّد وجهه ، فٱستيقظ ، فرآه كذلك ، فداخله منه رعب شديد ، ثمَّ نام فرأىٰ أربعة سودان محدقين بأبيه ، ومعهم أعمدة من حديد ، فأقبل رجل حسن الوجه فنحَّاهم

---

(١) أخرجها ابن بشكوال في « القربة » (٥١) ، و« الصلة » (١/١٣٣) ، والمرئي عنده هو أبو العباس أحمد بن منصور الشيرازي الحافظ ، وعزاها في « القول البديع » (ص٢٥٤) إلى النميري أيضاً .

(٢) « القول البديع » (ص٢٥٥) ، و« الدر المنضود » (ص١٨٣) .

(٣) « القول البديع » (ص٢٥٥) ، و« الدر المنضود » (ص١٨٣) .

(٤) عزاه الإمام السخاوي في « القول البديع » (ص٢٨١) لابن بشكوال ، وأورده المجد الشيرازي في « الصلات والبشر » (ص١٣١) ، والرائي هو محمد بن سعيد بن مطرف .

عنه ، ورفع الثوب عن وجهه ، ومسحه بيده ، ثمَّ أتاني فقال : قم قد بيَّض الله وجه أبيك ، فقلت : مَنْ أنت بأبي أنت وأمِّي ؟ قال : محمَّد صلى الله عليه وسلم ، فكشفت الثوب عن وجه أبي ، فإذا وجهه أبيض ، فدفنته ، ثمَّ ما تركت الصلاة على النبيِّ صلى الله عليه وسلم[1] .

اللَّهُمَّ ؛ صلِّ علىٰ سيِّدنا محمَّد الذي شرَّفته علىٰ سائر الأنام ، ورفعته إلىٰ أشرف محل ومقام ، وجعلته دليلاً إلىٰ دار السلام .

اللَّهُمَّ ؛ فكما أمرتنا بالصلاة عليه . . بلِّغ اللَّهُمَّ صلاتنا منَّا إليه يا رب العالمين .

اللَّهُمَّ ؛ آحشرنا في زمرته ، وآجعلنا ممَّن فاز بمتابعته ، وأتمَّ بشريعته ، وآقتدىٰ بصحابته ، وآهتدىٰ بسنته .

اللَّهُمَّ ؛ أوردنا حوضه ، وأرنا وجهه ، ولا تحرمنا شفاعته ، وآجمع بيننا وبينه في مستقرِّ الرحمة والرضوان ، برحمتك يا ذا الجلال والإكرام ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

* * *

---

(١) أخرجه ابن بشكوال في « القربة » (٩٦) ، وانظر « الروض الفائق » (ص٤١٠) ، و« الصلات والبشر » (ص١٣٠) .

قال مؤلفه الشيخ مسعود : وكان الفراغ مِنْ كتابته يوم الجمعة المبارك ، سلخ جمادى الثانية سنة (١٢٠٥هـ) خمس ومئتين وألف مِنْ هجرة نبيٍّ خُصَّ بالفضل والشرف ، علىٰ يد كاتبه وجامعه الفقير : مسعود بن حسن بن أبي بكر بن حسن بن بساط الحسني القِناوي الشافعي ، غفر الله له ولوالديه ولمن دعا لهم وله بالمغفرة ، آمين[١] .

* * *

(١) في خاتمة (أ) : (وكان الفراغ من كتابة هـٰذه النسخة الميمونة يوم الإثنين المبارك ، لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأنور ، الذي هو من شهور سنة (١٢٧٣هـ) ثلاثة وسبعين ومئتين وألف مِن هجرة مَنْ له العزُّ والشرف ، علىٰ يد أفقر العباد وأحوجهم إليه تعالىٰ : أحمد بن يوسف تركي ، غفر الله له ولوالديه ولمن دعا لهم بالمغفرة ولكافَّة المسلمين ، آمين ، والحمد لله وحده) .

وفي خاتمة (ب) : (وكان الفراغ من كتابة هـٰذا الشرح المبارك يوم الأربعاء المبارك ، الموافق أربعة أيام خلت مِنْ شهر جمادى الأولىٰ ، الذي هو مِنْ شهور سنة (١٢٨١هـ) إحدىٰ وثمانين ومئتين وألف مِن هجرة مَنْ له العزُّ والشرف ، علىٰ يد أفقر الورىٰ وأحقر من ترىٰ ، تراب أقدام الحضرة العلية : بدوي المرزوقي ، غفر الله له ، آمين ، وصلَّى الله علىٰ سيِّدنا محمَّد وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم) .

أهم مصادر ومراجع التحقيق[1]

- الآحاد والمثاني ، للإمام الحافظ أحمد بن عمرو بن الضحاك الشيباني (ت ٢٨٧هـ) ، تحقيق الدكتور باسم الجوابرة ، ط ١ ، (١٩٩١م) ، دار الراية ، السعودية .

- الأحاديث المختارة أو المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في « صحيحيهما » ، للإمام الحافظ ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي (ت ٦٤٣هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الملك عبد الله دهيش ، ط ٤ ، (٢٠٠١هـ) ، دار خضر ، لبنان .

- الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان المسمى : « المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع من غير وجود قطع في سندها ولا ثبوت جرح في ناقليها » ، للإمام الحافظ علي بن بَلبان الفارسي المصري (ت ٧٣٩هـ) ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، ط ٣ ، (١٩٩٧م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

- إحياء علوم الدين وبذيله المغني عن حمل الأسفار في الأسفار للعراقي (ت ٨٠٦هـ) ، لحجة الإسلام محمد بن محمد بن محمد الغزالي (ت ٥٠٥هـ) ، بدون تحقيق ، ط ١ ، (١٩٨٢م)، طبعة مصورة لدى دار المعرفة ، لبنان .

- أخبار الحمقى والمغفلين ، للإمام الحافظ عبد الرحمٰن بن علي المعروف بابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) ، ط ٣ ، (١٩٧٩م) ، دار الآفاق الجديدة ، لبنان .

- أدب الإملاء والاستملاء ، للإمام الحافظ عبد الكريم بن محمد السمعاني (ت ٥٦٢هـ) ، عني به ماكس فايسنايلر ، ط ١ ، (١٩٨١م) ، لبنان .

- الأدب المفرد ، لإمام الدنيا الحافظ محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري (ت ٢٥٦هـ) ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط ٤ ، (١٩٩٧م) ، نسخة مصورة لدى دار البشائر الإسلامية عن طبعة المكتبة السلفية ، لبنان .

---

(١) اعتمدنا في فهرسة المصادر على التالي : اسم الكتاب ، اسم المؤلف وتاريخ وفاته ، اسم المحقق ، رقم الطبعة ، تاريخ طبع الكتاب ، اسم الدار الناشرة ومقرها .

ـ الازدهار في ما عقده الشعراء من الأحاديث والآثار ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمـٰن بن أبي بكر **السيوطي** (ت ٩١١هـ) ، تحقيق الدكتور علي حسين البواب ، ط ١ ، (١٩٩١ م) ، المكتب الإسلامي ، لبنان .

ـ أساس البلاغة ، **للإمام** محمود بن عمر **الزمخشري** (ت ٥٣٨هـ) ، ط ٣ ، (١٩٨٥م) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر .

ـ الاستذكار الجامع لمذهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار فيما تضمنه « الموطأ » من معاني الرأي والآثار وشرح ذلك كله بالإيجاز والاختصار ، **للإمام الحافظ** يوسف بن عبد الله النمري المعروف **بابن عبد البر** (ت ٤٦٣هـ) ، وثق أصوله الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي ، ط ١ ، (١٩٩٣م) ، دار قتيبة ودار الوعي ، سورية .

ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة ، **للعلامة** علي بن محمد الشيباني المعروف **بابن الأثير** (ت ٦٣٠هـ) ، تحقيق محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور ومحمود عبد الوهاب فايد ، ط ١ ، (١٩٧٠م) ، دار الشعب ، مصر .

ـ أسرار البلاغة ، **للإمام العلامة** عبد القاهر بن عبد الرحمـٰن بن محمد **الجرجاني النحوي** (ت ٤٧٤هـ)، تحقيق محمود محمد شاكر، ط ١ ، (١٩٩١م) ، دار المدني ، السعودية .

ـ الإصابة في تمييز الصحابة ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي **بن حجر العسقلاني** (ت ٨٥٢هـ) ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى دار الكتاب العربي ، لبنان .

ـ اعتقاد أهل السنة ، **للإمام** هبة الله بن الحسن **اللالكائي** (ت ٤١٨هـ) ، تحقيق الدكتور أحمد سعد حمدان ، (١٤٠٢هـ) ، دار طيبة ، السعودية .

ـ الأعلام وهو قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، **للأديب الكبير** خير الدين بن محمود بن محمد **الزِّرِكلي** (ت ١٣٩٦هـ) ، ، ط ١٢ ، (١٩٩٧م) ، دار العلم للملايين ، لبنان .

ـ أعيان العصر وأعوان النصر ، **للعلامة المؤرخ الأديب** صلاح الدين خليل بن أيبك **الصفدي** (ت ٧٦٤هـ) ، تحقيق الدكاترة علي أبو زيد ونبيل أبو عمشة ومحمد موعد ومحمود سالم محمد ، ط ١ ، (١٩٩٨م) ، دار الفكر ، سورية .

- الأغاني ، **للعلامة الأديب أبي الفرج الأصفهاني** ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، (١٩٦٩م) ، دار الشعب ، مصر .

- الأقاويل المفصلة لبيان حديث الابتداء بالبسملة ، **للإمام محمد بن جعفر الشريف الكتاني الإدريسي الحسني** (ت ١٣٤٥هـ) ، تحقيق محمد الفاتح الشريف الكتاني الحسني ومحمد عصام الشريف عرار الحسني ، ط ١ ، بدون تاريخ .

- اقتضاء العلم العمل ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي المعروف **بالخطيب البغدادي** (ت ٤٦٣هـ) ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ، ط ٥ ، (١٩٨٤م) ، المكتب الإسلامي ، لبنان .

- إكمال المعلم بفوائد مسلم ، **للإمام القاضي عياض** بن موسى **اليحصبي** (ت ٥٤٤هـ) ، تحقيق الدكتور يحيى إسماعيل ، ط ٢ ، (٢٠٠٤م) ، دار الوفاء ، مصر .

- الأم ، **لإمام الدنيا** محمد بن إدريس **الشافعي** (ت ٢٠٤هـ) ، تحقيق الدكتور رفعت فوزي عبد المطلب ، ط ١ ، (٢٠٠١م) ، دار الوفاء ، مصر .

- الأمثال ، **للإمام** أبي عبيد **القاسم بن سلام** (ت ٢٢٤هـ) ، تحقيق الدكتور عبد المجيد قطامش ، ط ١ ، (١٩٨٠م) ، دار المأمون للتراث ، سورية .

- الإيضاح في علوم البلاغة ، **للعلامة** محمد بن عبد الرحمٰن **الخطيب القزويني** (ت ٧٣٩هـ) ، تحقيق الدكتور عبد القادر حسين ، ط ١ ، (١٩٩٦م) ، مكتبة الآداب ، مصر .

- البحر الزخار المعروف بمسند البزار ، **للإمام الحافظ** أحمد بن عمرو البزار (ت ٢٩٢هـ) ، تحقيق الدكتور محفوظ الرحمٰن زين الله ، ط ١ ، (١٩٨٨م) ، مكتبة العلوم والحكم ، السعودية .

- البداية والنهاية ، **للإمام الحافظ** إسماعيل بن عمر الدمشقي المعروف **بابن كثير** (ت ٧٧٤هـ) .

- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، **للإمام العلامة محمد بن علي بن محمد الشوكاني** (ت ١٢٥٠هـ) ، تحقيق الدكتور حسين بن عبد الله العمري ، ط ١ ، (١٩٩٨م) ، دار الفكر ، سورية .

- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، **للإمام الحافظ عبد الرحمـٰن بن أبي بكر السيوطي** (ت ٩١١هـ) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط ١ ، (١٩٦٤ م) ، طبعة مصورة لدى المكتبة العصرية ، لبنان .

- بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس ، **للإمام الحافظ يوسف بن عبد الله النمري المعروف بابن عبد البر** (ت ٤٦٣هـ) ، تحقيق محمد مرسي الخولي ، ط ٢ ، (١٩٨١م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- البيان والتبيين ، **لكبير أئمة الأدب عمرو بن بحر الجاحظ** (ت ٢٥٥هـ) ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ، ط ٧ ، (١٩٩٨م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

- تاريخ أصبهان المعروف بذكر أخبار أصبهان ، **للإمام الحافظ أحمد بن عبد الله المعروف بأبي نُعيم الأصبهاني** (ت ٤٣٠هـ) ، تحقيق سيد كسروي حسن ، ط ١ ، (١٩٩٠) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، **للإمام الحافظ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي** (ت ٧٤٨هـ) ، تحقيق الدكتور عمر بن عبد السلام تدمري ، ط ١ ، (١٩٨٧م) ، دار الكتاب العربي ، لبنان .

- تاريخ الخلفاء ، **للإمام الحافظ عبد الرحمـٰن بن أبي بكر السيوطي** (ت ٩١١هـ) ، تحقيق إبراهيم صالح ، ط ٢ ، (٢٠٠٣م) ، دار صادر ، لبنان .

- تاريخ الطبري المسمى : « تاريخ الأمم والملوك » ، **للإمام العلامة محمد بن جرير الطبري** (ت ٣١٠هـ) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة بدون ناشر ، لبنان .

- التاريخ الكبير ، **لإمام الدنيا الحافظ محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري** (ت ٢٥٦هـ) ، عني به السيد هاشم الندوي ، بدون تاريخ ، دار الفكر ، لبنان .

- تاريخ بغداد ، للإمام الحافظ أحمد بن علي المعروف بالخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، ط ١ ، (١٩٩٧م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها ، للإمام الحافظ علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١هـ) ، تحقيق محب الدين عمر بن غرامة العَمْروي ، ط ١ ، (١٩٩٥م) ، دار الفكر ، لبنان .

- تحفة المحتاج بشرح المنهاج ومعها حواشي الشرواني وابن قاسم العبادي ، للإمام العلامة أحمد بن محمد ابن حجر الهيتمي (ت ٩٧٤هـ) والشيخ عبد الحميد الشرواني (ت ١٣٠١هـ) والشيخ أحمد بن قاسم العبادي (ت ٩٩٢هـ) ، ط ١ ، (١٣١٥هـ) ، طبعة مصورة لدى دار صادر ، لبنان .

- التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة ، للإمام الحافظ محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١هـ) ، تحقيق الدكتور الصادق محمد إبراهيم ، ط ١ ، (١٤٢٥هـ) ، مكتبة دار المنهاج ، السعودية .

- تفسير ابن أبي حاتم ، للإمام الحافظ عبد الرحمٰن بن محمد الرازي المعروف بابن أبي حاتم (ت ٣٢٧هـ) ، تحقيق أسعد محمد الطيب ، بدون تاريخ ، المكتبة العصرية ، لبنان .

- تفسير البغوي المسمى : « معالم التنزيل » ، للإمام الحافظ الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦هـ) ، تحقيق خالد عبد الرحمٰن العك ومروان سوار ، ط ١ ، (١٩٨٦م) ، دار المعرفة ، لبنان .

- تفسير الخازن المسمى : « لباب التأويل في معاني التنزيل » ، للإمام علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي المعروف بالخازن ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى دار المعرفة ، لبنان .

- تفسير الطبري المسمى : « جامع البيان عن تأويل آي القرآن » ، للإمام العلامة محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) ، عني به مكتب التحقيق والإعداد العلمي في دار الأعلام ، ط ١ ، (٢٠٠٢م) ، دار ابن حزم ودار الأعلام ، لبنان والأردن .

- تفسير الفاتحة الكبير المسمى : « البحر المديد » ، **للإمام أحمد بن عجيبة الحسني التطواني** (ت ١٢٢٤هـ) ، تحقيق بسام محمد بارود ، ط ١ ، (١٩٩٩م) ، دار طوق النجاة ، لبنان .

- تفسير القرآن العظيم ، **للإمام الحافظ** إسماعيل بن عمر الدمشقي المعروف بابن كثير (ت ٧٧٤هـ) ، تصحيح مجموعة من العلماء ، (١٩٦٩م) ، طبعة مصورة لدى دار المعرفة ، لبنان .

- تفسير القرطبي المسمى : « الجامع لأحكام القرآن » ، **للإمام المفسر محمد بن أحمد القرطبي** (ت ٦٧١هـ) ، طبعة مصورة لدى دار إحياء التراث العربي ، (١٩٨٥م) ، لبنان .

- التفسير الكبير المسمى : « مفاتح الغيب » ، **للإمام المفسر فخر الدين محمد بن عمر الرازي** (ت ٦٠٦هـ) ، تصحيح مجموعة من العلماء ، ط ٣ ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

- تفسير النسائي ، **للإمام الحافظ** أحمد بن شعيب **النسائي** (ت ٣٠٣هـ) ، تحقيق صبري بن عبد الخالق الشافعي وسيد بن عباس الحليمي ، ط ١ ، (١٩٩٠م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .

- تفسير مقاتل بن سليمان ، **للإمام المفسر مقاتل بن سليمان** (ت ١٥٠هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الله محمود شحاته ، ط ١ ، (٢٠٠٢م) ، دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

- تلخيص الحبير المسمى : « التمييز في تلخيص تخريج أحاديث شرح الوجيز » ، **للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني** (ت ٨٥٢هـ) ، عني به الدكتور محمد الثاني موسى ، ط ١ ، (٢٠٠٧م) ، دار أضواء السلف ، السعودية .

- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ، **للإمام الحافظ** يوسف بن عبد الله النمري المعروف بابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ) ، تحقيق مجموعة من المحققين ، ط ١ ، (١٩٦٧م) ، وزارة الأوقاف ، المغرب .

- تنبيه الغافلين ، **للعلامة الإمام** نصر بن محمد السمرقندي (ت ٣٧٣هـ) ، تحقيق يوسف علي بديوي ، ط ٣ ، (٢٠٠٠م) ، دار ابن كثير ، سورية .

تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة ، للعلامة الفقيه علي بن محمد ابن عراق الكناني (ت ٩٦٣هـ) ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف وعبد الله محمد الصديق الغُماري ، ط ٢ ، (١٩٨١م) ، طبعة مصورة لدى دار الكتب العلمية ، لبنان .

تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الأخبار ، للإمام العلامة محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) ، تحقيق محمود محمد شاكر ، ط ١ ، (١٩٨٣) ، مطبعة المدني ، مصر .

التواضع والخمول ، للإمام الحافظ عبد الله بن محمد القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (ت ٢٨١هـ) ، عني به محمد عبد القادر عطا ، ط ١ ، (١٩٨٩م) ، لبنان .

ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ويليه التذييل المرغوب من ثمار القلوب ، للعلامة اللغوي عبد الملك بن محمد المعروف بأبي منصور الثعالبي (ت ٤٢٩هـ) ، تحقيق إبراهيم صالح ، ط ١ ، (١٩٩٤م) ، دار البشائر ، سورية .

جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم ، للإمام الحافظ عبد الرحمـٰن بن أحمد المعروف بابن رجب الحنبلي (ت ٧٥٩هـ) ، تحقيق شعيب الأرنؤوط وإبراهيم باجس ، ط ١٠ ، (٢٠٠٤م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

جامع بيان العلم وفضله ، للإمام الحافظ يوسف بن عبد الله النمري المعروف بابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ) ، تحقيق أبو الأشبال الزهيري ، ط ١ ، (١٩٩٤م) ، دار ابن الجوزي ، السعودية .

الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ، للإمام الحافظ أحمد بن علي المعروف بالخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) ، تحقيق الدكتور محمد عجاج الخطيب ، ط ١ ، (١٩٩١م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

الجامع لشعب الإيمان ، للإمام الحافظ أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ) ، تحقيق الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد ، ط ٢ ، (٢٠٠٤ م) ، مكتبة الرشد ، السعودية .

- الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي ، **للأديب الفقيه المعافى بن زكريا الجريري** (ت ٣٩٠هـ) ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، ط ١ ، (١٩٩٣م) ، عالم الكتب ، لبنان.

- جمهرة أشعار العرب ، **للشاعر محمد بن أبي الخطاب المعروف بأبي زيد القرشي** (ت نحو ١٧٠هـ) ، عني به لجنة الدار ، بدون تاريخ ، دار صادر ، لبنان .

- حاشية ابن عابدين المسماة : « رد المحتار على الدر المختار » ، **للإمام الفقيه محمد أمين بن عمر الشهير بابن عابدين** (ت ١٢٥٢هـ) ، تحقيق الدكتور حسام الدين فرفور ، ط ١ ، (٢٠٠٠م) ، دار الثقافة والتراث ، سورية .

- حاشية الدسوقي على شرح أم البراهين للسنوسي وبهامشها شرح السنوسي على أم البراهين ، **للعلامة محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي** (ت ١٢٣٠هـ) ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى دار الفكر ، لبنان .

- حاشية الصبان على شرح الأشموني (ت نحو ٩٠٠هـ)على ألفية ابن مالك ومعه شرح الشواهد للعيني(ت ٨٥٥هـ) ، **للعلامة الأديب اللغوي محمد بن علي الصبان** (ت ١٢٠٦هـ) ، ط ٣ ، (١٤١٩هـ) ، طبعة مصورة لدى انتشارات زاهدي ، إيران .

- الحلم ويليه كتاب التوكل على الله ، **للإمام الحافظ عبد الله بن محمد القرشي المعروف بابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١هـ) ، تحقيق مجدي السيد إبراهيم ، بدون تاريخ ، مكتبة القرآن ، مصر .

- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، **للإمام الحافظ أحمد بن عبد الله المعروف بأبي نُعيم الأصبهاني** (ت ٤٣٠هـ) ، ط ٥ ، (١٩٨٧م) ، طبعة مصورة عن نشرة مطبعة السعادة والخانجي سنة (١٣٥٧هـ) لدى دار الريان للتراث ودار الكتاب العربي ، مصر ولبنان .

- حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ، **للعلامة الشيخ عبد الرزاق بن حسن البيطار** (ت ١٣٣٥هـ) ، تحقيق محمد بهجة البيطار ، ط ٢ ، (١٩٩٣م) ، طبعة مصورة عن نشرة مجمع اللغة العربية بدمشق لدى دار صادر ، لبنان .

- الحماسة البصرية ، **للعلامة صدر الدين علي بن أبي الفرج بن الحسن البصري** (ت ٦٥٦هـ) ، تحقيق الدكتور عادل سليمان جمال ، ط ١ ، (١٩٩٩م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

- حياة الحيوان الكبرى ، للإمام الفقيه محمد بن موسى الدميري (ت ٨٠٨هـ) ، تحقيق إبراهيم صالح ، ط ١ ، (٢٠٠٥م) ، دار البشائر ، سورية .

- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، للعلامة عبد القادر بن عمر البغدادي (ت ١٠٩٣هـ) ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط ٢ ، بدون تاريخ ، مكتبة الخانجي ، مصر .

- الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، للإمام الحافظ عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ) ، ط (٢٠٠٢م) ، دار الفكر ، لبنان .

- الدر المنضود في الصلاة والسلام على صاحب المقام المحمود ، للإمام العلامة أحمد بن محمد ابن حجر الهيتمي (ت ٩٧٤هـ) ، عني به بوجمعة مكري ومحمد شادي عربش ، ط ١ ، (٢٠٠٥م) ، دار المنهاج ، السعودية .

- الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) ، عني به هاشم وأحمد الله ومحمد طه الندوي ، ط ١ ، (١٣٤٩هـ) ، طبعة مصورة عن نشرة دائرة المعارف بحيدر آباد الدَّكَّن ، لبنان .

- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ، للإمام الحافظ أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ) ، تحقيق الدكتور عبد المعطي قلعجي ، ط ١ ، (١٩٨٨م) ، دار الريان ، مصر .

- الدليل الشافي على المنهل الصافي ، للعلامة المؤرخ البحَّاثة يوسف بن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ) ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، ط ٢ ، (١٩٩٨م) ، مطبعة دار الكتب المصرية ، مصر .

- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، للعالم البحَّاثة إبراهيم بن علي بن محمد المعروف بابن فرحون (ت ٧٩٩هـ) ، تحقيق الدكتور علي عمر ، ط ١ ، (٢٠٣م) ، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر .

- ديوان ابن الرومي ، للشاعر الكبير علي بن العباس بن جريج المعروف بابن الرومي (ت ٢٨٣هـ) ، تحقيق الدكتور حسين نصار ، ط ٣ ، (٢٠٠٣م) ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، مصر .

- ديوان ابن الفارض ، لسلطان العاشقين عمر بن علي الحَمَوي المعروف بابن الفارض (ت ٦٣٢هـ) ، ط ١ ، (١٩٩٨م) ، دار صادر ، لبنان .

- ديوان ابن الوردي ، للإمام الأديب عمر بن مظفر الحلبي المعروف بابن الوردي (ت ٧٤٩هـ) ، تحقيق الدكتور أحمد فوزي الهيب ، ط ١ ، (١٩٨٦م) ، دار القلم ، الكويت .

- ديوان أبي العتاهية ، للشاعر المكثر إسماعيل بن القاسم بن سُوَيد المعروف بأبي العتاهية (ت ٢١١هـ) ، ط ١ ، (١٩٩٨م) ، دار صادر ، لبنان .

- ديوان أبي العيناء ونوادره ، للشاعر محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر بن سليمان المعروف بأبي العيناء (ت ٢٨٣هـ) ، تحقيق إنطوان القوال ، ط ١ ، (١٩٩٤م) ، دار صادر ، لبنان .

- ديوان أبي تمام ، لأمير البيان الشاعر حبيب بن أوس الطائي المعروف بأبي تمام (ت ٢٣١هـ) ، عني به الدكتور محيي الدين صبحي ، ط ١ ، (١٩٩٧م) ، دار صادر ، لبنان .

- ديوان أبي فراس الحمداني ، للأمير الشاعر الفارس الحارث بن سعيد بن حمدان المعروف بأبي فراس الحمداني (ت ٣٥٧هـ) ، عني به عبد القادر محمد مايو ، ط ١ ، (٢٠٠٠م) ، دار القلم العربي ، سورية .

- ديوان البوصيري ، للعلامة الشاعر المحب محمد بن سعيد البوصيري ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، ط ٢ ، (١٩٧٣م) ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر .

- ديوان السري الرفاء ، للشاعر الكبير السري بن أحمد الكندي ، عني به كرم البستاني ، ط ١ ، (١٩٩٦م) ، دار صادر ، لبنان .

- ديوان الشافعي وحكمه وكلماته السائرة ، لإمام الدنيا محمد بن إدريس الشافعي (ت ٢٠٤هـ) ، جمع وضبط يوسف علي بديوي ، ط ١ ، (٢٠٠٠م) ، مكتبة دار الفجر ، سورية .

ـ ديوان الطغرائي ، للشاعر الوزير الأستاذ الحسين بن علي بن محمد الطغرائي (ت ٥١٥هـ) ، تحقيق الدكتور علي جواد الطاهر والدكتور يحيى الجبوري ، ط ١ ، (١٩٧٦م) ، وزارة الإعلام ، العراق .

ـ ديوان جرير ، لشاعر عصره جرير بن عطية الخَطَفي (ت ١١٠هـ) ، ط ١ ، (١٩٩١م) ، دار صادر ، لبنان .

ـ ديوان ذي الرمة ، للشاعر الفحل غيلان بن عقبة بن مسعود المعروف بذي الرُّمَّة (ت ١١٧هـ) ، عني به أحمد حسن بسج ، ط ١ ، (١٩٩٥م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

ـ ديوان مجنون ليلى ، لشاعر الغزل المتيّم قيس بن الملوَّح المعروف بمجنون ليلى (ت ٦٨هـ) ، عني به عدنان زكي درويش ، ط ١ ، (١٩٩٤م) ، دار صادر ، لبنان .

ـ الروض الفائق في المواعظ والرقائق ، للإمام الصوفي شعيب بن عبد الله المعروف بالحريفيش (ت ٨١٠هـ) ، ط ١ ، (٢٠٠٤م) ، دار المعرفة ، لبنان .

ـ روضة الطالبين وعمدة المفتين ، للإمام الحافظ يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ) ، إشراف زهير الشاويش ، ط ٣ ، (١٩٩١م) ، المكتب الإسلامي ، لبنان .

ـ روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ، للإمام الحافظ محمد بن حِبَّان البُسْتي (ت ٣٥٤هـ) ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ومحمد عبد الرزاق حمزة ومحمد حامد الفقي ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى دار الكتب العلمية ، لبنان .

ـ الزهد الكبير ، للإمام الحافظ أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ) ، تحقيق الشيخ عامر أحمد حيدر ، ط ٣ ، (١٩٩٦م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .

ـ الزهد والرقائق برواية المروزي ويليه زيادات رواية نُعيم بن حمّاد عليه ، للإمام الحافظ عبد الله بن المبارك بن واضح المروزي (ت ١٨١هـ) ، تحقيق حبيب الرحمٰن الأعظمي ، ط ١ ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى دار الكتب العلمية ، لبنان .

ـ الزهد ، للإمام الحافظ أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١هـ) ، عني به محمد عبد السلام شاهين ، ط ١ ، (١٩٩٩م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- الزهد ، للإمام الحافظ هناد بن السري الكوفي (ت ٢٤٣هـ) ، عني به عبد الرحمٰن الغريوائي ، ط ١ ، (١٤٠٦هـ) ، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي ، الكويت .
- الزواجر عن اقتراف الكبائر ، للإمام العلامة أحمد بن محمد ابن حجر الهيتمي (ت ٩٧٤هـ) ، عني به محمد خير طعمة حلبي وخليل مأمون شيحا ، ط ١ ، (١٩٩٨م) ، دار المعرفة ، لبنان .
- سبل السلام شرح بلوغ المرام ، للعلامة محمد بن إسماعيل الصنعاني ، عني به محمد عبد العزيز الخولي ، ط ٤ ، (١٩٦٠م) ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر .
- سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر المسمى : « تاريخ المرادي » ، لمفتي الشام ونقيب أشرافها المؤرخ محمد خليل بن علي بن محمد الحسيني المرادي (ت ١٢٠٦هـ) ، ط ١ ، (١٣٠١هـ)، طبعة مصورة عن نشرة بولاق لدى دار البشائر الإسلامية، دار ابن حزم، لبنان.
- السنة ، للإمام الحافظ أحمد بن عمرو المعروف بابن أبي عاصم (ت ٢٨٧هـ) ، بدون تحقيق ، ط ١ ، (٢٠٠٤م) ، دار ابن حزم ، لبنان .
- سنن ابن ماجه ، للإمام الحافظ محمد بن يزيد القزويني المعروف بابن ماجه (ت ٢٧٥هـ) ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط ١ ، (١٩٥٤م) ، دار إحياء الكتب العربية لصاحبها عيسى البابي الحلبي ، مصر .
- سنن أبي داوود وبهامشه معالم السنن للخطابي ، للإمام الحافظ أبي داوود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥هـ) ، تحقيق عزت عبيد الدعاس وعادل السيد ، ط ١ ، (١٩٩٧م) ، دار ابن حزم ، لبنان .
- سنن الترمذي المسمى : « الجامع الصحيح » ، للإمام الحافظ محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت ٢٧٩هـ) ، تحقيق أحمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة ، ط ١ ، (١٩٣٨م) ، طبعة مصورة لدى دار إحياء التراث العربي ، لبنان .
- السنن الكبرى وبذيله الجوهر النقي لابن التركماني ، للإمام الحافظ أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ) ، بعناية السيد هاشم الندوي ، ط ١ ، (١٣٥٦هـ) ، طبعة مصورة عن دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدّكّن لدى دار المعرفة ، لبنان .

- السنن الكبرى ، **للإمام الحافظ** أحمد بن شعيب **النسائي** (ت ٣٠٣هـ) ، تحقيق حسن عبد المنعم شلبي ، ط ١ ، (٢٠٠١هـ) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

- سنن النسائي (المجتبى) ومعه زهر الربى على المجتبى للسيوطي ، وبذيله حاشية الإمام السندي ، **للإمام الحافظ** أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣هـ) ، ط ١ ، (١٣١٢هـ) ، نسخة مصورة لدى دار الكتاب العربي عن طبعة المطبعة الميمنية ، لبنان .

- سنن سعيد بن منصور ، **للإمام الحافظ سعيد بن منصور** (ت ٢٢٧هـ) ، تحقيق الدكتور سعد بن عبد الله آل حميد ، ط ٢ ، (٢٠٠٠م) ، دار الصميعي ، السعودية .

- سير أعلام النبلاء (مع السيرة النبوية وسير الخلفاء الراشدون) ، **للإمام الحافظ** محمد بن أحمد بن عثمان **الذهبي** (ت ٧٤٨هـ) ، إشراف شعيب الأرنؤوط ، ط ١١ ، (١٩٩٦م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

- السيرة النبوية ، **للإمام** عبد الملك بن هشام **الحميري** (ت ٢١٨هـ) ، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى دار ابن كثير ، سورية .

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، **للإمام الفقيه** عبد الحي بن أحمد المعروف **بابن العماد** (ت ١٠٨٩م) ، تحقيق محمود الأرنؤوط ، ط ١ ، (١٩٨٦م) ، دار ابن كثير ، سورية .

- شرح السنة ، **للإمام الحافظ** الحسين بن مسعود **البغوي** (ت ٥١٦هـ) ، تحقيق سعيد اللحام ، ط ١ ، (١٩٩٤م) ، دار الفكر ، لبنان .

- شرح الصاوي على جوهرة التوحيد ، **للعلامة** أحمد بن محمد المالكي **الصاوي** ، بدون تاريخ ، دار الإخاء ، سورية .

- شرح ديوان الحماسة ، **للإمام العلامة** يحيى بن علي الشيباني المعروف **بابن الخطيب التبريزي** (ت ٥٠٢هـ) ، بدون تحقيق ، ط ١ ، (١٢٩٦م) ، طبعة مصورة عن نشرة بولاق لدى عالم الكتب ، لبنان .

- شرح ديوان المتنبي المسمى : « التبيان في شرح الديوان » ، للإمام الأديب عبد الله بن الحسين المعروف بأبي البقاء العُكْبَري (ت ٦١٦هـ) ، عني به مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي ، ط الأخيرة ، (١٩٧١م) ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر .

- شرح فتح القدير للعاجز الفقير ، للإمام الفقيه محمد بن عبد الواحد السيواسي المعروف بالكمال ابن الهمام (ت ٦٨١هـ) ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

- شرح مشكل الآثار ، للإمام الحافظ أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي (ت ٣٢١هـ) ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، ط ١ ، (١٩٩٤م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

- شرح مقامات الحريري ويليه رسالة مشتملة على انتقاد ابن الخشاب ، للأديب الكبير القاسم بن علي بن محمد الحريري (ت ٥١٦هـ) ، ط ١ ، (١٣٣٦هـ) ، طبعة مصورة لدى دار الفكر ، لبنان .

- شرف المصطفى صلى الله عليه وسلم برواية الإمام القدوة عبد الكريم بن هوازن القشيري ، للإمام الحافظ عبد الملك بن محمد الخركوشي (ت ٤٠٦هـ) ، تحقيق الشريف نبيل هاشم الغمري ، ط ١ ، (٢٠٠٣م) ، دار البشائر الإسلامية ، لبنان .

- الشمائل المحمدية ومعه المواهب اللدنية على الشمائل المحمدية للإمام الفقيه إبراهيم الباجوري (ت ١٢٧٧هـ) ، للإمام الحافظ محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت ٢٧٩هـ) ، عني به الشيخ محمد عوَّامه ، ط ١ ، (٢٠٠١م) ، نشره محققه ، لبنان .

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، للأديب المؤرخ البحَّاثة أحمد بن علي بن أحمد القَلْقَشَندي (ت ٨٢١هـ) ، ط ١ ، (١٩٦٣م) ، طبعة مصورة لدى المؤسسة المصرية العامة ، مصر .

- الصحاح المسمى : « تاج اللغة وصحاح العربية » ، للعلامة اللغوي الإمام إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت ٣٩٨هـ) ، ط ١ ، (١٩٩٩م) ، دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

- صحيح ابن خزيمة المسمى : « مختصر المختصر من المسند الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم » ، للإمام الحافظ محمد بن إسحاق بن خزيمة (ت ٣١١هـ) ، تحقيق الدكتور محمد مصطفى الأعظمي ، ط ٣ ، (٢٠٠٣م) ، المكتب الإسلامي ، لبنان .

- صحيح البخاري المسمى : « الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسننه وأيامه » (الطبعة السلطانية العثمانية) ، **لإمام الدنيا الحافظ** محمد بن إسماعيل بن إبراهيم **البخاري** (ت ٢٥٦هـ) ، عني به الدكتور محمد زهير بن ناصر الناصر ، ط ١ ، (١٤٢٢هـ) ، دار طوق النجاة ، لبنان .

- صحيح مسلم المسمى : « الجامع الصحيح » ، **للإمام الحافظ** مسلم بن الحجاج **القشيري النيسابوري** (ت ٢٦١هـ) ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط ١ ، (١٩٥٤م) ، دار إحياء الكتب العربية لصاحبها عيسى البابي الحلبي ، مصر .

- صفة الصفوة ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمن بن علي المعروف **بابن الجوزي** (ت ٥٩٧هـ) ، صنع فهرسه عبد السلام هارون ، ط ٢ ، (١٩٩٢م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .

- الصِّلات والبُشر في الصلاة على خير البَشر صلى الله عليه وسلم ، **للإمام اللغوي** محمد بن يعقوب **الفِيروزاباذي**(ت ٨١٧هـ) ، محمد نور الدين الجزائري وآخرون ، ط ١ ، بدون تاريخ ، دار القرآن ، سورية .

- الصلة وهو ذيل على « تاريخ علماء الأندلس » لابن الفرضي ، **للمؤرخ البحّاثة** خلف بن عبد الملك المعروف **بابن بَشْكُوَال** (ت ٥٧٨هـ) ، عني به إدارة إحياء التراث ، ط ١ ، (١٩٦٦م) ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، مصر .

- الصمت وآداب اللسان ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف **بابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١هـ) ، تحقيق أبو إسحاق الحويني ، ط ١ ، (١٤١٠هـ) ، دار الكتاب العربي ، لبنان .

- الضعفاء ومن نسب إلى الكذب ووضع الحديث ومن غلب على حديثه الوهم ومن يتهم في بعض حديثه ومجهول روى ما لا يتابع عليه وصاحب بدعة يغلو فيها ويدعو إليها وإن كانت حاله في الحديث مستقيمة ، **للإمام الحافظ** محمد بن عمرو بن موسى بن حماد **العُقَيلي** (ت ٣٢٢هـ) ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط ١ ، (٢٠٠٠م) ، دار الصميعي ، السعودية .

- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، للإمام الحافظ محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ) ، عني به محمد جمال القاسمي ، ط ١ ، (١٩٩٢م) ، طبعة مصورة عن نشرة القاسمي سنة (١٣١٣هـ) لدى دار الجيل ، لبنان .

- طبقات الشافعية الكبرى ، للإمام القاضي عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي المعروف بتاج الدين السبكي (ت ٧٧١هـ) ، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح الحلو ، ط ١ ، (١٣٩٦هـ) ، طبعة مصورة لدى دار إحياء الكتب العربية ، مصر .

- طبقات الصوفية المسمى : « الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية » والمعروف بالطبقات الكبرى ، ويليه « إرغام أولياء الشيطان بذكر مناقب أولياء الرحمن » المعروف بالطبقات الصغرى ، للإمام العلامة محمد عبد الرؤوف بن علي المناوي (ت ١٠٣١هـ) ، تحقيق محمد أديب الجادر ، ط ١ ، (١٩٩٩م) ، دار صادر ، لبنان .

- الطبقات الكبرى المسماة : « لواقح الأنوار في طبقات الأخيار » ، للإمام المجدد عبد الوهاب بن أحمد بن علي الشعراني (ت ٩٧٣هـ) ، بعناية الشيخ أحمد سعد علي ، ط ١ ، (١٩٥٤م) ، طبعة مصورة عن نشرة مصطفى البابي الحلبي سنة (١٩٥٤ م) لدى دار الفكر ، لبنان .

- الطبقات الكبير ، للإمام الحافظ المؤرخ محمد بن سعد بن منيع البصري (ت ٢٣٠هـ) ، تحقيق الدكتور علي محمد عمر ، ط ١ ، (٢٠٠١م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

- طبقات المحدثين بأصبهان والواردين عليها ، للإمام الحافظ عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني المعروف بأبي الشيخ (ت ٣٦٩هـ) ، تحقيق عبد الغفور عبد الحق حسين البَلوشي ، ط ٢ ، (١٩٩٢م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

- طهارة القلوب والخضوع لعلام الغيوب ، للإمام العارف بالله عبد العزيز الديريني (ت ٦٩٤هـ) ، حققه الدكتور محمد حسني مصطفى ، ط ١ ، (٢٠٠٣م) ، دار القلم العربي ، سورية .

- عارضة الأحوذي لشرح صحيح الترمذي ، للإمام القاضي محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي المالكي (ت ٥٤٣هـ) ، ط ٢ ، (١٣٥٤هـ) ، طبعة مصورة لدى دار الكتاب العربي ، لبنان .

- العزيز شرح الوجيز ، للإمام الفقيه عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الرافعي (ت ٦٢٣هـ) ، تحقيق الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، ط ١ ، (١٩٩٧م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- العظمة ، للإمام العلامة عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني المعروف بأبي الشيخ (ت ٣٦٩هـ) ، تحقيق رضاء الله بن محمد المباركفوري ، ط ٢ ، (١٩٩٨م) ، دار العاصمة ، السعودية .

- العلل المتناهية في الأحاديث الواهية ، للإمام الحافظ عبد الرحمن بن علي المعروف بابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) ، تحقيق خليل الميس ، ط ١ ، (١٤٠٣هـ) ، لبنان .

- العين ، للإمام اللغوي الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ) ، تحقيق الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي ، ط ٢ ، (١٤٠٩هـ) ، مؤسسة دار الهجرة ، إيران .

- عيون الأخبار ، للإمام القاضي عبد الله بن مسلم المعروف بابن قتيبة الدِّينَوَري (ت ٢٧٦هـ) ، تحقيق ثلة من أهل العلم ، ط ١ ، (١٩٣٠م) ، دار الكتب المصرية ، مصر .

- غرر الخصائص ، للأديب المشهور جمال الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى الكتبي المشهور بالوطواط (ت ٧١٨هـ) ، بدون تحقيق ، بدون تاريخ .

- الغريبين في القرآن والحديث ، للإمام اللغوي أبو عبيد أحمد بن محمد الهروي (ت ٤٠١هـ) ، تحقيق ودراسة أحمد فريد المزيدي ، ط ١ ، (١٩٩٩ م) ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، السعودية .

- غيث الأدب الذي انسجم في شرح لامية العجم ، للعلامة المؤرخ الأديب صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ) ، ط ٢ ، (١٩٩٠م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- الفتاوى الحديثية ، **للإمام العلامة أحمد بن محمد ابن حجر الهَيتمي** (ت ٩٧٤هـ) ، بدون تحقيق ، ط ٣ ، (١٩٨٩م) ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر .

- الفتاوى الفقهية الكبرى وبهامشها فتاوى محمد بن أحمد الرملي ، **للإمام العلامة أحمد بن محمد ابن حجر الهيتمي** (ت ٩٧٤هـ) ، (١٩٨٣م) ، دار الفكر ، سورية .

- فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، **للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني** (ت ٨٥٢هـ) ، بترقيم محمد فؤاد عبد الباقي ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى مكتبة الغزالي ، سورية .

- الفرج بعد الشدة ، **للإمام القاضي المحسّن بن علي التنوخي** (ت ٣٨٤هـ) ، تحقيق عبود الشالجي ، بدون تاريخ ، دار صادر ، لبنان .

- الفروق المسمى : « أنوار البروق في أنواء الفروق » ، **للإمام أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن الصنهاجي المشهور بالقرافي** (ت ٦٨٤هـ) ، تحقيق الدكتور محمد أحمد سراج والدكتور علي جمعة محمد ، ط ١ ، (٢٠٠١م) ، دار السلام ، مصر .

- فضائل الأوقات ، **للإمام الحافظ أحمد بن الحسين البيهقي** (ت ٤٥٨هـ) ، تحقيق عدنان عبد الرحمن القيسي ، ط ١ ، (١٩٩٠م) ، مكتبة المنارة ، السعودية .

- الفقيه والمتفقه ، **للإمام الحافظ أحمد بن علي المعروف بالخطيب البغدادي** (ت ٤٦٢هـ) ، تحقيق عادل يوسف العزازي ، ط ٢ ، (١٤٢١هـ) ، دار ابن الجوزي ، السعودية .

- الفوائد ، **للإمام الحافظ تمام بن محمد الرازي** (ت ٤١٤هـ) ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط ١ ، (١٤١٢هـ) ، مكتبة الرشد ، السعودية .

- فوات الوفيات والذيل عليها ، **للعلامة المؤرخ الأديب محمد بن شاكر الكتبي** (ت ٧٦٤هـ) ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، ط ١ ، (١٩٧٣ م) ، دار صادر ، لبنان .

- الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني ، **للعلامة أحمد بن غنيم النفراوي المالكي** (ت ١١٢٥هـ) ، تصحيح لجنة من رجال العلم ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى دار الفكر ، لبنان .

- فيض القدير شرح الجامع الصغير ، للإمام العلامة محمد عبد الرؤوف بن علي المناوي (ت ١٠٣١هـ) ، بدون تحقيق ، ط ١ ، (١٣٥٧هـ) ، طبعة مصورة لدى دار المعرفة ، لبنان .

- القربة إلى رب العالمين بالصلاة على محمد سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم ، للمؤرخ البحّاثة خلف بن عبد الملك المعروف بابن بَشْكُوَال (ت ٥٧٨هـ) ، تحقيق سيد محمد سيد وخلاف عبد السميع ، ط ١ ، (١٩٩٩م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع صلى الله عليه وسلم ، للإمام الحافظ محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ) ، تحقيق محمد عوامة ، ط ١ ، (٢٠٠٢م) ، مؤسسة الريان ، السعودية .

- الكامل في التاريخ ، للإمام المؤرخ علي بن محمد بن محمد المعروف بابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) ، حققه الدكتور عمر عبد السلام تدمري ، ط ٢ ، (١٩٩٩م) ، دار الكتاب العربي ، لبنان .

- الكامل في ضعفاء الرجال ، للإمام الحافظ عبد الله بن عدي الجرجاني (ت ٣٦٥هـ) ، تحقيق يحيى مختار غزاوي ، ط ٣ ، (١٩٨٨م) ، دار الفكر ، لبنان .

- الكامل ، لإمام العربية محمد بن يزيد بن عبد الأكبر المُبَرِّد (ت ٢٨٥هـ) ، تحقيق الدكتور محمد أحمد الدالي ، ط ١ ، (١٩٩٧م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

- الكبائر ، للإمام الحافظ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ) ، ، بدون تاريخ ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ، للعلامة المحدث إسماعيل بن محمد العجلوني (ت ١١٦٢هـ) ، بدون تحقيق ، ط ٣ ، (١٣٥١هـ) ، طبعة مصورة لدى دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

- الكشف والبيان المسمى : « تفسير الثعلبي » ، للإمام المفسر أحمد بن محمد الثعلبي (ت ٤٢٧هـ) ، تحقيق الشيخ أبو محمد بن عاشور ، ط ١ ، (٢٠٠٢م) ، دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

- اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ، **للإمام الحافظ عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي** (ت ٩١١هـ) ، بدون تحقيق ، (١٩٨٣م) ، طبعة مصورة لدى دار المعرفة ، لبنان .

- لامية ابن الوردي مع تخميسها لابن الملاح ، **للعلامة الأديب ابن الملاح** ، بدون تحقيق ، (١٩٦٨م) ، مكتبة الحضارة ، سورية .

- لسان العرب ، **للإمام اللغوي محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي** (ت ٧١١هـ) ، ط ١ ، (١٩٩٢م) ، دار صادر ، لبنان .

- لسان الميزان ، **للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني** (ت ٨٥٢هـ) ، عني به الشيخ عبد الفتاح أبو غدة (ت ١٤١٧هـ) ، ط ١ ، (٢٠٠٢م) ، دار البشائر الإسلامية ، لبنان .

- لطائف اللطف ، **للعلامة اللغوي عبد الملك بن محمد المعروف بأبي منصور الثعالبي** (ت ٤٢٩هـ) ، تحقيق الدكتور عمر الأسعد ، ط ٢ ، (١٩٨٧م) ، دار المسيرة ، لبنان .

- لطائف المنن والأخلاق و بهامشه كتاب لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية ، **للإمام المجدد عبد الوهاب بن أحمد بن علي الشعراني** (ت ٩٧٣هـ) ، بدون تحقيق ، بدون تاريخ ، دار الحكمة .

- المتمنين ، **للإمام الحافظ عبد الله بن محمد القرشي المعروف بابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١هـ) ، تحقيق محمد خير رمضان يوسف ، ط ١ ، (١٩٩٧م) ، دار ابن حزم ، لبنان .

- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، **للإمام الأديب نصر الله بن محمد المعروف بابن الأثير** (ت ٦٣٧هـ) ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، (١٩٩٩ م) ، المكتبة العصرية ، لبنان .

- المجروحين من المحدثين ، **للإمام الحافظ محمد بن حِبَّان البُسْتي** (ت ٣٥٤هـ) ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط ١ ، (٢٠٠٠م) ، دار الصميعي ، السعودية .

- مجمع الأمثال ، **للعلامة الأديب البحَّاثة أحمد بن محمد بن أحمد الميداني** (ت ٥١٨هـ) ، تحقيق الدكتور جان عبد الله توما ، ط ١ ، (٢٠٠٢م) ، دار صادر ، لبنان .

- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، **للإمام الحافظ** نور الدين علي بن أبي بكر **الهيثمي** (ت ٨٠٧هـ) ، بدون تحقيق ، (١٩٨٦م) ، طبعة مصورة لدى مكتبة المعارف ، لبنان .

- المجموع شرح المهذب ، **للإمام الحافظ يحيى بن شرف النووي** (ت ٦٧٦هـ) ، تحقيق الدكتور محمود مطرجي ، ط ١ ، (١٩٩٦م) ، دار الفكر ، لبنان .

- المحاسن والمساوىء ، **للإمام الأديب إبراهيم بن محمد البيهقي** ، (١٩٨٤م) ، دار بيروت ، لبنان .

- مداراة الناس ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف **بابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١م) ، تحقيق محمد خير رمضان يوسف ، ط ١ ، (١٩٩٨م) ، دار ابن حزم ، لبنان .

- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ، **للإمام العلامة المحدث** عبد الله بن أسعد بن **علي اليافعي** (ت ٧٦٨هـ) ، ط ١ ، (١٣٣٧هـ) ، طبعة مصورة عن نشرة دائرة المعارف بحيدر آباد الدَّكَّن لدى دار الكتاب الإسلامي ، مصر .

- المراسيل ، **للإمام الحافظ أبي داوود** سليمان بن الأشعث **السجستاني** (ت ٢٧٥هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الله مساعد الزهراني ، ط ١ ، (٢٠٠١م) ، دار الصميعي ، السعودية .

- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، **للمؤرخ البحّاثة** علي بن الحسين بن علي **المسعودي** (ت ٣٤٦هـ) ، تصحيح شارك بلا ، ط ١ ، (١٤٢٢هـ) ، انتشارات الشريف الرضي ، إيران .

- المستدرك على الصحيحين وبذيله تلخيص المستدرك للحافظ الذهبي ، **للإمام الحافظ** محمد بن عبد الله بن حمدويه النيسابوري المعروف **بالحاكم** (ت ٤٠٥هـ) ، بدون تحقيق ، ط ١ ، (١٣٣٥هـ) ، نسخة مصورة لدى دار المعرفة عن طبعة دائرة المعارف النظامية في الهند بحيدر آباد الدّكّن ، لبنان .

- المستطرف من كل فن مستظرف ، **للأديب الخطيب** محمد بن أحمد **الأبشيهي** (ت ٨٥٠هـ) ، عني به الدكتور مفيد قميحة ، ط ١ ، (١٩٨٣م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- مسند أبي داوود الطيالسي ، للإمام الحافظ سليمان بن داوود بن الجارود المعروف بأبي داوود الطيالسي (ت ٢٠٤هـ) ، ط ١ ، (١٣٢١هـ) ، ظبعة مصورة لدى دار المعرفة ، لبنان .

- مسند أبي يعلى الموصلي ، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن المثنى المعروف بأبي يعلى الموصلي (ت ٣٠٧هـ) ، تحقيق حسين سليم أسد الداراني ، ط ٢ ، (١٩٨٩م) ، دار المأمون للتراث ودار الثقافة العربية ، سورية .

- مسند إسحاق بن راهويه ، للإمام الحافظ إسحاق بن إبراهيم المروزي (ت ٢٣٨هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الغفور البلوشي ، ط ١ ، (١٩٩٠م) ، مكتبة الإيمان ، السعودية .

- مسند الإمام أحمد ابن حنبل ، للإمام الحافظ أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١هـ) ، تحقيق مجموعة من العلماء بإشراف شعيب الأرنؤوط ، ط ١ ، (١٩٩٥هـ) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

- مسند الدارمي المعروف بسنن الدارمي ، للإمام الحافظ عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي (ت ٢٥٥هـ) ، تحقيق حسين سليم أسد الداراني ، ط ١ ، (٢٠٠٠م) ، دار المغني ، السعودية .

- مسند الروياني ، للإمام الحافظ محمد بن هارون الروياني (ت ٣٠٧هـ) ، عني به أيمن علي أبو يماني ، ط ١ ، (١٤١٦هـ) ، مؤسسة قرطبة ، مصر .

- مسند الشاميين ، للإمام الحافظ سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠هـ) ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط ١ ، (١٩٨٩م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

- مسند الشهاب المسمى : « شهاب الأخبار في الحكم والأمثال والآداب » ، للإمام القاضي محمد بن سلامة القُضاعي (ت ٤٥٤هـ) ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط ١ ، (١٩٨٥ م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

- مسند عبد بن حميد ، للإمام الحافظ عبد بن حميد بن نصر الكَشي (ت ٢٤٩هـ) ، عني به صبحي البدري السامرائي ومحمود خليل الصعيدي ، ط ١ ، (١٩٨٨م) ، مكتبة السنة ، مصر .

- المسند ، للإمام الحافظ الهيثم بن كليب الشاشي (ت ٣٣٥هـ) ، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله ، ط ١ ، (١٤١٠هـ) ، مكتبة العلوم والحكم ، السعودية .

- مصارع العشاق ، للحافظ الأديب جعفر بن أحمد المعروف بالسَّرَّاج القاري (ت ٥٠٠هـ) ، بدون تاريخ ، دار صادر ، لبنان .

- المصنف ومعه الجامع للإمام معمر الأزدي ، للإمام الحافظ عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت ٢١١هـ) ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ، ط ٢ ، (١٩٨٣م) ، المجلس العلمي بالتعاون مع المكتب الإسلامي ، لبنان .

- المصنف ، للإمام الحافظ عبد الله بن محمد بن أبي شيبة (ت ٢٣٥هـ) ، تحقيق محمد عوَّامة ، ط ١ ، (٢٠٠٦م) ، دار القبلة ، السعودية .

- المصنوع في معرفة الحديث الموضوع (الموضوعات الصغرى) ، للإمام العلامة علي بن محمد الهروي المعروف بملا علي القاري (ت ١٠١٤هـ) ، تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة (ت ١٤١٧هـ) ، ط ٥ ، (١٩٩٤م) ، مكتب المطبوعات الإسلامية ، سورية .

- معجم الأدباء المسمى : « إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب » ، للإمام الأديب ياقوت بن عبد الله الحَمَوي (ت ٦٢٦هـ) ، قدم له الدكتور عمر فاروق الطباع ، ط ١ ، (١٩٩٩م) ، مؤسسة المعارف ، لبنان .

- المعجم الأوسط ، للإمام الحافظ سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠هـ) ، تحقيق الدكتور محمود الطحان ، ط ١ ، (١٩٨٥م) ، مكتبة المعارف ، السعودية .

- معجم البلدان ، للإمام الأديب ياقوت بن عبد الله الحَمَوي (ت ٦٢٦هـ) ، عني به المستشرق وستنفيلد ، ط ٢ ، (١٩٩٥م) ، دار صادر ، لبنان .

- معجم السَّفر ، للإمام الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد السِّلَفي (ت ٥٧٦هـ) ، تحقيق عبد الله عمر البارودي ، ط ١ ، (١٩٩٣م) ، دار الفكر ، لبنان .

- معجم الشيوخ (المعجم الكبير) ، للإمام الحافظ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ) ، تحقيق الدكتور محمد الحبيب الهيلة ، ط ١ ، (١٩٨٨م) ، مكتبة الصديق ، السعودية .

- المعجم الصغير ومعه غنية الألمعي للعظيم آبادي ، للإمام الحافظ سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠هـ) ، ط ١ ، (١٩٨٣م) ، طبعة مصورة لدى دار الكتب العلمية ، لبنان .

- المعجم الكبير ومعه الأحاديث الطوال ، للإمام الحافظ سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠هـ) ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط ٢ ، بدون تاريخ ، دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

- معجم المؤلفين ، للأستاذ المؤرخ عمر رضا كحالة (ت ١٤٠٨هـ) ، عني به مكتب تحقيق الدار ، ط ١ ، (١٩٩٣م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

- المغازي ، للقاضي المؤرخ محمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧هـ) ، تحقيق الدكتور مارسدن جونس ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى مؤسسة الأعظمي للمطبوعات ، لبنان .

- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، للإمام عبد الله بن يوسف الأنصاري المعروف بابن هشام (ت ٧٦١هـ) ، تحقيق الدكتور مازن المبارك ومحمد علي حمد الله ، ط ١ ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى مؤسسة الصادق ، إيران .

- مغني المحتاج إلى معرفة معاني المنهاج ، للعلامة الفقيه الشيخ محمد بن محمد الخطيب الشربيني (ت ٩٧٧هـ) ، اعتنى به محمد خليل عيتاني ، ط ١ ، (١٩٩٧م) ، دار المعرفة ، لبنان .

- المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة ، للإمام الحافظ محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ) ، عني به عبد الله محمد الصديق الغُماري وعبد الوهاب عبد اللطيف ، ط ٢ ، (١٩٩١ م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

- مكارم الأخلاق ويليه أخلاق العلماء للحافظ الآجري ، للإمام الحافظ عبد الله بن محمد القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (ت ٢٨١هـ) ، تحقيق بشير محمد عيون ، ط ١ ، (٢٠٠٢) ، مكتبة دار البيان ، سورية .

- مناقب الشافعي ، للإمام الحافظ أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ) ، تحقيق أحمد صقر ، ط ١ ، (١٩٧١م) ، دار التراث ، مصر .

- المنتظم في تواريخ الملوك والأمم ، **للإمام الحافظ عبد الرحمن بن علي المعروف بابن الجوزي** (ت ٥٩٧هـ) ، تحقيق الدكتور سهيل زكار ، ط ١ ، (١٩٩٥م) ، دار الفكر ، لبنان .

- منهاج الطالبين وعمدة المفتين ، **للإمام الحافظ** يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ) ، عني به محمد محمد طاهر شعبان ، ط ١ ، (٢٠٠٥م) ، دار المنهاج ، السعودية .

- منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين ، **لحجة الإسلام** محمد بن محمد بن محمد الغزالي (ت ٥٠٥هـ) ، عني به بوجمعة عبد القادر مكري ، ط ١ ، (٢٠٠٦م) ، دار المنهاج ، السعودية .

- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، **للعلامة المؤرخ البحَّاثة** يوسف بن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ) ، تحقيق الدكتور محمد محمد أمين ورفاقه ، ط ١ ، (١٩٨٤م) ، الهيئة العامة للكتاب ، مصر .

- الموضوعات ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمن بن علي المعروف **بابن الجوزي** (ت ٥٩٧هـ) ، عني به توفيق حمدان ، ط ١ ، (١٩٩٥م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- الموطأ ، **لإمام المدينة مالك** بن أنس بن مالك بن نافع **الأصبحي** (ت ١٧٩هـ) ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط ١ ، بدون تاريخ ، دار إحياء الكتب العربية لصاحبها عيسى البابي الحلبي ، مصر .

- ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، **للإمام الحافظ** محمد بن أحمد بن عثمان **الذهبي** (ت ٧٤٨هـ) ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ط ١ ، (١٩٦٣م) ، طبعة مصورة لدى دار المعرفة ، لبنان .

- النجم الوهاج في شرح المنهاج ، **للعلامة الفقيه** محمد بن موسى بن عيسى **الدميري** (ت ٨٠٨هـ)، عني به اللجنة العلمية للدار، ط ١، (٢٠٠٤م) ، دار المنهاج ، السعودية.

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، **للعلامة المؤرخ البحَّاثة** يوسف بن تَغْري بَرْدي (ت ٨٧٤هـ) ، تحقيق مجموعة من الباحثين ، ط ١ ، (١٩٦٣م) ، دار الكتب المصرية ، مصر .

ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، **للحافظ المؤرخ الأديب** أحمد بن محمد بن يحيى المعروف **بالمَقَّري** (ت ١٠٤١هـ) ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، ط ١ ، (١٩٨٨م) ، دار صادر ، لبنان .

ـ نهاية الأرب في فنون الأدب ، **للعلامة الأديب** شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ) **النويري** ، بدون تحقيق ، (١٩٢٣م) ، مطبعة دار الكتب المصرية .

ـ نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج ومعه حاشية العلامة علي الشبراملسي (ت ١٠٨٧هـ) وحاشية العلامة أحمد الرشيدي (ت ١٠٩٦هـ) ، **للإمام العلامة** محمد بن أحمد **الرملي** (ت ١٠٠٤هـ) ، ط ١ ، (١٩٩٣م) ، طبعة مصورة لدى دار الكتب العلمية ، لبنان .

ـ النهاية في غريب الحديث والأثر ، **للإمام الحافظ اللغوي** المبارك بن محمد المعروف **بابن الأثير** (ت ٦٠٦هـ) ، تحقيق محمود الطناحي وطاهر الزاوي ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

ـ النور السافر عن أخبار القرن العاشر ، **للعلامة السيد** عبد القادر بن شيخ **العيدروس** (ت ١٠٣٨هـ) ، تحقيق الدكتور أحمد حالو ومحمود الأرنؤوط وأكرم البوشي ، ط ١ ، (٢٠٠١م) ، دار صادر ، لبنان .

ـ هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون ، **لعالِم الكتب البحاثة** إسماعيل باشا بن محمد أمين بن مير سليم **البغدادي** (ت ١٣٣٩هـ) ، ط ١ ، (١٣٦٤هـ) ، طبعة مصورة لدى دار الكتب العلمية ، لبنان .

ـ همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمن بن أبي بكر **السيوطي** (ت ٩١١هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الحميد الهنداوي ، ط ١ ، بدون تاريخ ، المكتبة التوفيقية ، مصر .

ـ الوافي بالوفيات ، **للعلامة المؤرخ** الأديب صلاح الدين خليل بن أيبك **الصفدي** (ت ٧٦٤هـ) ، تحقيق مجموعة من المحققين ، ط ٢ ، (١٩٩١م) ، دار فرانز شتاينر ، ألمانيا .

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، للإمام المؤرخ أحمد بن محمد ابن خلكان (ت ٦٨١هـ) ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، ط ١ ، (١٩٦٨م) ، دار صادر ، لبنان .
- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، للعلامة اللغوي عبد الملك بن محمد المعروف بأبي منصور الثعالبي (ت ٤٢٩هـ) ، تحقيق الدكتور مفيد محمد قميحة ، ط ١ ، (١٩٨٣م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

* * *

مُحتوى الكتاب

١٣- حَـارَتِ ٱلْأَفْكَـارُ فِـي قُـدْرَةِ مَـنْ   قَـدْ هَـدَانَـا سُبْلَنَـا عَـزَّ وَجَـلْ

١٤- كَتَـبَ ٱلْمَـوْتَ عَلَـى ٱلْخَلْـقِ فَكَـمْ   فَـلَّ مِـنْ جَمْـعٍ وَأَفْنَـىٰ مِـنْ دِوَلْ

١٥- أَيْـنَ نُمْـرُودُ وَكَنْعَـانُ وَمَـنْ   مَلَـكَ ٱلْأَرْضَ وَوَلَّـىٰ وَعَـزَلْ

٤٠ـ فَاتْرُكِ الْحِيلَةَ فِيهَا وَاتَّئِدْ إِنَّمَا الْحِيلَةُ فِي تَرْكِ الْحِيَلْ

٤١ـ أَيُّ كَفٍّ لَمْ تُفِدْ مِمَّا تُفِدْ فَرَمَاهُ اللهُ مِنْهُ بِالشَّلَلْ

٤٢ـ لاَ تَقُلْ أَصْلِي وَفَصْلِي أَبَداً إِنَّمَا أَصْلُ الْفَتَىٰ مَا قَدْ حَصَلْ

٤٣ـ قَدْ يَسُودُ الْمَرْءُ مِنْ غَيْرِ أَبٍ وَبِحُسْنِ السَّبْكِ قَدْ يُنْفَى الزَّغَلْ

٥١ـ وَتَغَافَلْ عَنْ أُمُورٍ إِنَّهُ لَمْ يَفُزْ بِالْحَمْدِ إِلَّا مَنْ غَفَلْ

٥٢ـ لَيْسَ يَخْلُو الْمَرْءُ مِنْ ضِدٍّ وَإِنْ حَاوَلَ الْعُزْلَةَ فِي رَأْسِ جَبَلْ

٥٣ـ مِلْ عَنِ النَّمَّامِ وَاهْجُرْهُ فَمَا بَلَّغَ الْمَكْرُوهَ إِلَّا مَنْ نَقَلْ

٥٨ـ فَهْوَ كَالْمَحْبُوسِ عَنْ لَذَّاتِهِ وَكِلاَ كَفَّيْهِ فِي الْحَشْرِ تُغَلْ

٥٩ـ إنَّ لِلنَّقْصِ وَالاسْتِثْقَالِ فِي لَفْظَةِ (الْقَاضِي) لَوَعْظاً وَمَثَلْ

٦٠ـ لاَ تُسَاوِي لَذَّةُ الْحُكْمِ بِمَا ذَاقَهُ الشَّخْصُ إِذَا الشَّخْصُ انْعَزَلْ